

المعهد الخافى للأبحاث والمعارف
بميت الغرب

ازكيا الناض في اجناب عريك

تأليف

شهاب الدين احمد بن محمد المقرئ الساماني

ضبطه وحقنه وعلق عليه

عبد الحفيظ شيباني

المدرس بالمدراس الأميرية

ابراهيم الأيوبي

المدرس بالمدراس الأميرية

مصطفى النيقا

المدرس بجامعة فؤاد الأول

الطبعة

طبعة في دار الخافى في القاهرة

المعهد الخليفى للأبحاث والمغربية
بيت المغرب

انها الناض في اجبا عك

١٨٤
٢٧٧
تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ السليمانى

ضبطه وحققه وعلق عليه

عبد الحفيظ شلبي

المدرس بالمدارس الأميرية

أبراهيم الأبيارى

المدرس بالمدارس الأميرية

مصطفى السقا

المدرس بجامعة فؤاد الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م



صورة صاحب السمو الخليفة المعظم مولاي الحسن بن المهدي العلوي خليفة جلالة ملك
المغرب الأقصى ، وباعت النهضة العالمية ، ومؤسس المعهد الخليلي بتطوان
وبيت المغرب بمصر ، ومن آثار سموه نشر هذا الكتاب

مقدمة الناشرين

كتاب «أزهار الرياض في أخبار عياض» ، من خير ما أُلّف في أدب المغاربة ، نرجو أن ننشر بنشره آية فَخَّار من مجد علماء الإسلام ، وأن نضيف إلى الأدب العربي الخالد ، صفحة مُشرِّقة من الأدب المغربي الزاهي الألوان ، وأن نضع بين يدي العلماء والنقاد خير الوثائق وأنفس المصادر التي يُعتمد عليها في تاريخ الآداب .

أما مؤلفه فهو حافظ عصره في علوم الدين ، وحُجة زمانه في علوم الدنيا ، وخاتمة أدياء المغرب ، الذي جمع الشعر والكتابة والخطابة ، والمحاضرة والمسامرة ، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، صاحب «نفع الطيب» وغيره من الكتب الممتعة . تُوِّفى سنة إحدى وأربعين وألف للهجرة بالقاهرة .
وأما المؤلف في ترجمته وسيرته فهو قاضي المغرب الأجل ، وحافظه الأكبر ، الإمام الطائر الصيت ، عياض بن موسى اليحصبي السبتي صاحب الشفاء ومشارك الأنوار وكثير من المصنفات الجليلة في الدين وعلوم اللغة والنحو والأنساب . تُوِّفى سنة ٥٤٤ هـ بمراكش .

وكتاب أزهار الرياض في أخبار عياض ، هو كصنوه نفع الطيب ، في أخبار لسان الدين بن الخطيب ، كلاهما قد تضمن ترجمة واسعة خِصبة النواحي ، لعلم مفرد من أفذاذ الرجال في المغرب والأندلس ، وقد استطاع مؤلفهما أبو العباس المقرئ أن يجعل كلا من صاحبي الترجمة مركزاً لدائرة معارف تاريخية وأدبية ، تحوى أخبار عصره ومصره ، لا ، بل تستوعب كثيراً من أخبار الأجيال التي تعاقبت في الأندلس والمغرب إلى زمان وجوده ، وهما لذلك جديران أن يُعدّا من أعظم الأركان التي يقوم عليها تاريخ تلك البلاد .

وبين الكتابين وجوه من الشبه ، وتشابه في المزاج ، لا نريد إحصاءها في هذه المقدمة الموجزة ، وبحسبنا أن نذكر هنا المنهج الذي اتفردا به دون أكثر كتب التراجم العربية القديمة ، فإن مؤلفنا الشيخ المقرئ يرسم للترجمة خطة واضحة ، ويرتب عناصرها ترتيباً حسناً ، ويتغلغل في التفاصيل ويتعمق ، ويتتبع أخبار المترجم حتى قبل ولادته ، ويتجسس عن أوليته وأسرته ، ويبحث عن نشأته في صباه وشبابه وكهولته ، ثم يذكر شيوخه الذين أخذ العلم عنهم ، في كثير من التفصيل والعناية بذكر مؤلفاتهم ، ويخص بالعناية النتاج الأدبي للمترجم ، ويذكر تأليفه ، وتصرفه في الحياة ، وعمله في خدمة السلطان ، ووفاته ، وآراء الناس فيه .

منهج المؤلف في أزهار الرياض ونفح الطيب متأثر تأثراً ما بمنهج لسان الدين ابن الخطيب في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، فإن هذه الكتب تشابه في العناصر التي تتألف منها الترجمة ، وفي أسلوب الإنشاء ، إلا أن لسان الدين كان أميل إلى مجانبة الاستطراد الذي فشا في تواليف المقرئ ، وطبعاً بهذا الطابع الخاص .

ألف المقرئ كتاب أزهار الرياض في مدينة فاس ، في المدة التي بين سنتي ١٠١٣ و ١٠٢٧ للهجرة ، إذ كان قد نزع عن وطنه لأسباب سياسية ، واتخذ فاس مقراً له ، وكان الباعث له على تأليفه رغبة أهالي بلده تلمس أن في التعريف بالقاضي عياض ، عالم المغرب الأوسط وقاضيه الأشهر ، وقد أُلِّم في هذه الترجمة بكثير من شئون بلاد الأندلس ، وذكر طائفة من أخبار لسان الدين بن الخطيب وأحوال المسلمين في عصر الجلاء عن الأندلس ، على سبيل الاستطراد ، ثم ألف كتاب نفح الطيب بعد سنة ١٠٢٨ في القاهرة ، استجابة لرغبة بعض أعيان دمشق وعلمائها في التعريف بلسان الدين بن الخطيب ، فذكر كثيراً من شئون

الأندلس في تفصيل وترتيب عجيبين . ومن أجل هذا يظهر للمتأمل أن المؤلف كان مضطراً أن يكرر في نفح الطيب طائفة من الأخبار التي ذكرها من قبل في أزهار الرياض ، لبعد ما بين الأفقين اللذين ظهر فيهما الكتابان .

وقد يمتاز أزهار الرياض ، فوق لشماله على ترجمة القاضي عياض ، بطائفة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربية والأندلسية ، التي لم ترد في نفح الطيب ولا في غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن ، وإنما بادت أصولها ، أو هي لا تزال سرا مطويا في خزائن الكتب لم تنشره المطابع بعد . ولذلك يُعد نشر هذا الأثر الجليل اليوم ثروة جديدة تضاف إلى ما سبق نشره من آثار المغرب والأندلس في عالم الدراسات العربية .

وكان الفضل في إخراج هذا الكتاب الجليل ، على هذا الوضع الأنيق ، « لمكتب التبادل الثقافي » التابع للمعهد الخليفي بتطوان ، الذي أسسه سمو الخليفة المعظم مولاي الحسن بن المهري ، فقد اختط خطة موفقة في نشر الكتب النفيسة ، التي تحيي آثار السلف ، وكان هذا الكتاب با كورة أعماله ، وأول نمازه . ولما عهد إلينا في تحقيق هذا الكتاب ، بالأسلوب العلمي الذي يجري عليه علماء المشرقيات ، فتشنا عما يوجد من أصوله المخطوطة والمطبوعة في دار الكتب المصرية ، فعثرنا منه على النسخ الآتية :

الأولى : النسخة المخطوطة المرموز لها في حواشي هذه الطبعة بالحرف (ط) ، ورقمها في دار الكتب المصرية (٢٠١٣ تاريخ) وهي في ألف ومئة وسبعين صفحة ، من القطع المتوسط ، طول الجزء المكتوب في كل منها عشرون سنتيمتراً وعرضه عشرة . وهي مخطوطة بخطوط مختلفة ، فالست والأربعون صفحة الأولى بخط مغربي جميل ، وما بعدها إلى صفحة ١٠٥٨ بخط نسخي معتاد ، ويتلو ذلك

الثالثة : النسخة المحفوظة بالخزانة التيمورية في دار الكتب المصرية ، ورقها (٧٩٤ تاريخ) ، وهي في أربعة أجزاء :

الجزء الأول منها هو المطبوع بتونس المقدم ذكره ، المرموز إليه في حواشي طبعتنا بالحرف (ت) .

والجزء الثاني مخطوط يحتوى على بقية الروضة الأولى ، وتبقى منها بقية تأتى في الجزء الثالث .

والجزء الثالث يتضمن بقية الروضة الأولى كلها وتنتهى في الصفحة ٤٣ ، والروضة الثانية كلها إلى الصفحة ١٠٥ ، ثم الروضة الرابعة جميعها إلى نهاية هذا الجزء في صفحة ٤٤٢ .

والجزء الرابع يحوى الروضة الرابعة من أوله إلى الصفحة ٣٠٥ ثم الخامسة إلى الصفحة ٤٥٠ .

وهذا الجزء ينتهى بآخر رحلة أبى عبد الله المقرئ . وفي نهايته بخط المرحوم أحمد تيمور باشا ما نصه :

« والروضة السادسة والسابعة والثامنة تأتى في جزء خامس » . وليس لهذه النسخة جزء خامس في الحقيقة ، وهي أجود خطأً من النسخة (ط) .

وجاء في آخرها أيضاً أنها نقلت من نسخة قديمة في مكتبة الملك الظاهر بدمشق ، وأن كاتبها هو محمد صادق فهمى المالح سنة ١٣٤٥ هـ .

والنسخ الثلاث من هذه الأصول متشابهة في كثرة ما بها من الخطأ والتحريف والكلمات الغامضة ، التى تصعب قراءتها أو تحارفى فهمها العقول .

وقد جعلنا النسخة (ط) أساساً للطبع ، وعارضنا بها الجزء الأول المطبوع بتونس ، وأثبتنا ما وجدناه من خلاف بينهما بالزيادة والنقص ، وصححنا الأخطاء

اللغوية والنحوية والهجائية الكثيرة ، ولم نكتف بهذا ، بل كنّا نفتش عن كل خبر في مظانّه من الكتب المطبوعة ، مثل نفح الطيب للمؤلف ، والإحاطة لابن الخطيب ، وتاريخ ابن خلدون ، والاستقصا للسلاوى ، كما كنّا نلجّ في شرح الكلمات الأندلسية والمغربية التي لم ترد في المعجمات العربية ، إلى تكملة المعجمات العربية للعلامة دُوزى ، وجعلنا كل ملاحظاتنا حواشى في أسفل صفحات الكتاب إشاراً لتعجيل الفائدة للقارى . ولم نشرح من مفردات الألفاظ إلا ماظننا أنه يغمض على القارى المتوسط ، وما اعتقدنا أن معجته ليست في أيدي جميع الناس ، وتركنا بعد ذلك الفرصة لذهن القارى ، لينشط إلى البحث عما يروم البحث عنه من معانى الأشعار ، ولم نشرح شيئاً من ذلك إلا ما كان ضروريا لا بد منه .

وقد وضعنا في الهوامش الجانبية الخارجية عناوين للمعاني الجزئية ، لتجزئة الموضوع الواحد المطول ، إلى عناصره التي يتألف منها ، وفي ذلك إراحة للذهن ، وتفصيل لمجمل الموضوع ، وتنبية على مواضع الانتقال : ووضعنا في الهوامش التي في الجهة الداخلية أرقام صفحات النسخة المخطوطة المرموز إليها بالحرف (ط) أمام السطر الذي تبدأ عنده الصفحة الجديدة من الأصل المخطوط ، لنسهل المضاهاة على من أراد أن يتتبع ذلك الأصل ، ويعارض به طبعته هذه . وقد عملنا لهذا الجزء فهرس مُنَوَّعة ، تيسيراً للبحث والمراجعة .

والله نسال أن يوفق المعهد الخليفي ويوفقنا إلى إخراج البقية من أجزاء هذا السفر الجليل ، إنه أكرم مسئول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ما

مصطفى السقا ابراهيم الوبيارى عبد الحفيظ شلبى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

[مقدمة المؤلف]

[٢] الحمد لله الذى أَعْلَىٰ مراتبَ العلماء الأعلام ، وزَكَّىٰ منهم العقولَ الراجحة والأحلام ، وَمَنَحَهُمْ مَا تَرْتَقِصُ عَنْ جَمْعِهَا ^(١) المحابرُ والأقلام ؛ وَمَفَاخِرَ طَارَت كلُّ مَطَارٍ . وجعل مَعَالِيَهُمْ زَاهِرَةً زَاهِيَةً ، وَأَضْوَاءَ فَهُومِهِمْ نَامِيَةً سَامِيَةً ، وَأَنْوَاءَ ^(٢) عُلُومِهِمْ هَامِيَةً هَامِيَةً ^(٣) ؛ بِوَآكِفِ الْأَمْطَارِ ^(٤) ، وَأَطْلَعَهُمْ عَلَى دَفَائِقِ الْأَسْرَارِ . وَهَدَاهُمْ وَهَدَىٰ بِهِمْ إِلَىٰ تَرْتِيبِ الْمَدَارِكِ ، وَتَقْرِيبِ الْمَسَالِكِ ؛ وَجَلَّىٰ بِمَشَارِقِ الْأَنْوَارِ مِنْ مَعَارِفِهِمْ وَأَدَابِهِمْ ، عَمَّنْ تَمَسَّكَ بِأَذْيَالِهِمْ وَأَهْدَاهُمْ ، غِيَاظَ الْجَهْلِ الْحَوَالِكِ ^(٥) ؛ فَأَضَاءَتْ الْأَفْطَارُ . وَعَرَّفَهُمُ الْمَقَاصِدَ الْحَسَنَ ، وَالْوَسَائِلَ الْمُعْتَبَرَةَ وَالْإِلْمَاعَ ^(٦) ، بِأَصُولِ الرِّوَايَةِ وَالسَّمَاعِ ؛ وَالْإِعْلَامَ ، بِمُحْدُودِ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ؛ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى التَّنْبِيهِاتِ الْمُسْتَنْبَطَةِ السَّامِيَةِ الْأَخْطَارِ ؛ حَتَّى رَفَلُوا مِنْ حُلُلِ التَّحْقِيقِ السَّابِغَةِ ، فِي مَطَارِفِ ^(٧) وَبُرُودِ ؛ وَوَرَدُوا مِنْ مَنَاهِلِ التَّوْفِيقِ السَّائِغَةِ ، كُلَّ عَذْبٍ

(١) فى ت : « عن فهمها » .

(٢) الأنواء : النجوم ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى

ظهورها ، فيقولون مثلاً : مطرنا بنوء الثريا .

(٣) هامة هامية : أى تسيل فى غزارة وانصباب .

(٤) واكف الأمطار : هاطلها .

(٥) غياض الجهل : ظلماته . والحوالك : الشديدة السواد .

(٦) الإلماع : التنويه والإشارة .

(٧) المطارف : أردية من خز مربع ذى أعلام ؛ الواحد : مطرف كمنبر ومقعد .

برُود^(١) ؛ وتَسَمَّوا من حُجَجِ الحقِّ البالغه ، الروضِ المعطار ؛ واجْتَنَوْا
 أَزَاهِر^(٢) ، أُنْصَحَتْ مُنِيَّةُ الطَّالِبِ ، وَبُغِيَّةُ الرَّائِدِ^(٣) ؛ وَاجْتَلَوْا^(٤) جَوَاهِر^(٥) ، نُظِمَتْ
 مِنْهَا الدُّرَرُ وَالْفَرَائِدُ ؛ فِي أَجْيَادِ^(٦) الْأَسْطَارِ . فَإِنَّ أَمَّهُمْ نَاقِصٌ عَدِيمٌ ، أَلْفَى لَدَيْهِمْ
 الْغُنْيَةَ وَالْإِكْمَالَ ؛ أَوْ قَصَدَهُمْ عَلِيلٌ سَقِيمٌ ، وَجَدَ فِي يَدَيْهِمْ الشِّفَاءَ ، فَنَالَ غَايَةَ
 الْأَمَالِ ، وَظَفَرَ بِمُنْتَهَى الْأَوْطَارِ^(٧) . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ
 أَفْضَلِ الْعَالَمِينَ بِإِطْلَاقٍ ، سِرَاجِ الْمُرِيدِينَ ، وَكَنْزِ الْعَارِفِينَ ، الَّذِي لَا يُخْشَى
 مَعَهُ إِفْلَاقٌ ، مُحَمَّدَتُنَا الْعُظْمَى ، وَوَسِيلَتُنَا الْكُبْرَى عِنْدَ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ ؛ صَاحِبِ
 الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، الَّتِي اهْتَدَى بِهَا ذَوُو الْأَفْكَارِ ، وَالْآيَاتِ الظَّاهِرَةِ ، الَّتِي
 حَصَلَ بِهَا التَّمْيِيزُ^(٨) لِمَنْ لَهُ أَسْتَدْكَارٌ ؛ الْمُوَطَّأُ الْأَكْنَافُ^(٩) وَالْأَخْلَاقُ ، الْمُنتَقَى
 مِنْ أَعْظَمِ الذِّخَائِرِ ، وَأَنْفَسِ الْأَعْلَاقِ^(١٠) ، الْمُخْتَارُ مِنْ قَبْلِ نَشْأَةِ آدَمَ وَالْكَوْنِ

(١) البرود : البارد .

(٢) في ط : « أَزْهَارًا » .

(٣) الرائد : الذي يتقدم القوم يبصر لهم السكالك ومساقط الغيث .

(٤) اجتلى : نظر .

(٥) في ت : « بَوَاهِر » .

(٦) في ت : « بِأَجْيَاد » .

(٧) الأوطار : جمع وطر « بالتحريك » ، وهو الحاجة .

(٨) في ت : « التمهيد » .

(٩) الموطاء الأكناف : الكريم الدمث الأخلاق .

(١٠) الأعلاق : جمع علق ، وهو النفيس من كل شيء .

وقد ذكر المؤلف هنا — على سبيل التورية — أسماء طائفة من الكتب ، للقاضي
 عياض وغيره ، وهي : « الروض المعطار » ، في أخبار الأقطار « لأبي عبد الله الحميري ؛
 و « منية الطالب » ، لأعز المطالب « لم يعلم مؤلفه ؛ و « بغية الرائد » ، لما تضمنه حديث
 أم زرع من الفوائد « ؛ و « الغنية » و « الإكمال » لكتاب المعلم ، في شرح صحيح
 مسلم « ، وهذه الثلاثة للقاضي عياض ؛ و « سراج المريدين » لأبي بكر بن العربي .
 و « كنز العارفين » لم يعلم مؤلفه ؛ و « الذخائر والأعلاق » ، في آداب النفوس
 ومكارم الأخلاق « لأبي عبد الله الباهلي الإشبيلي ؛ و « الموطاء » للإمام مالك .
 و « المنتقى » اسم لعدة كتب .

لم تفتح له أغلاق ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عليه وعلى آله وأصحابه ، الذين لنجومهم في
سماء الحق أنتلاق ؛ صلاةً وتسليماً دائمين ، ما أنشأت في ثنائه الأحمدى ،
وأُنشدت بفنائه الحمدي ، القصائد والأبيات والأشطار . وبعد ^(١) :

فيقول أحمد ذو القُصو رِ المقرئ إذا انتسب ^(٢)
جَبَرَ المَهمِنُ صدَّعَهُ ووقاهُ سَيِّئٌ ما اكتسب
وَحَبَاهُ مِنَّةَ مُؤْمِنٍ مُحَضَّ العِبادَةِ واحتسب ^(٣)

وأسدى إليه من المواهب أسناها ، ومن العواقب حُسناها :

إنه لما سبق القضاء وجرت الأقدار ، بارتحالي عن الوطن المحبوب
والقرار ، بعد أن شمت عراره ^(٤) النجدي ولا أشجان ولا أكدار ^(٥) ، في عشيّة
لم يكن بعدها من عرار ؛ ونزحت عن بلد ، به الوالد وما ولد ؛ محلّ قطع
التأمم ^(٦) ، وفتح الكأثم ^(٧) ، سقى الله عهاده ^(٨) صوب الغائم :
بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره ^(٩)

(١) في ت : « أما بعد » .

(٢) القصور : العجز .

(٣) محض العبادَة : أخْلِصَهَا . واحتسب : نوى بعمله وجه الله .

(٤) العرار : بهار البر ، وهو نبت طيب الريح ؛ يشير إلى قول الصمة الفشيري :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

(٥) في ط : « بعد أن شمت عرارة النجد من الأشجان والأكدار » ؛ ولا يستقيم
بها الكلام .

(٦) التأمم : خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم .
يريد بقطع التأمم : وقت أن شب وترعرع .

(٧) الكأثم : أغظية الزهر . يريد وقت تفتح زهرة صباه .

(٨) يريد « بالعهاد » : جمع عهد ، وهو الزمان . وفي كتب اللغة أن العهاد جمع العهد ،
وهو المطر بعد المطر . أما العهد للزمان فجمعه عهود .

(٩) العذار : جانب اللحية . وهذا البيت والذي بعده لسان الدين بن الخطيب .

وَكَاثِمًا وَاِدِيَهُ مِعْصَمٌ غَادِيَةٌ وَمِنْ الْجُسُورِ الْحَكَمَاتِ سِوَارُهُ
وَكَانَ ذَلِكَ وَغَضْنَ النَّشَاطُ يَانِعٌ^(١) ، وَبُرُودُ الشَّبَابِ قَشِيبٌ ؛ وَتَمَثَّلَ النَّفْسُ
بِجَمْعٍ دُونَ مَانِعٍ ، وَكَأَسُ^(٢) الْأَنْسُ مُزْجَ بِتَسْنِيمِ الْقُرْبِ وَشَيْبِ^(٣) ؛ وَفَوَدُ^(٤)
الرَّأْسِ غَيْرُ خَاضِعٍ وَلَا خَانِعٍ ، إِذْ^(٥) لَمْ تَطْرُقْ سَاحَتَهُ وَلَمْ تَجْسُ خِلَالَهُ جِيُوشُ
الْمَشِيبِ ؛ حَلَّتْ الْحَضْرَةُ الْفَاسِيَّةُ — حَاطَهَا اللَّهُ — حَيْثُ الْمَجَالِسُ غَاضَهُ ، بِالْعَامَةِ
وَالْخَاصَةِ ؛ وَالْمَسَاجِدُ أَهْلَةٌ مَعْمُورَةٌ ، وَالْمَشَاهِدُ بِالزُّوَارِ مَعْمُورَةٌ ؛ وَحَالَ الْمَعَارِفُ
فَضْفَاضَهُ ، وَالْعَوَارِفُ^(٦) الْجَلِيلَةُ مُفَاضَهُ ؛ حَضْرَةُ دِيْبَاجُهَا رَبِيعِيٌّ ، وَامْتِزَاجُهَا
بِالنَّفُوسِ طَبِيعِيٌّ ، وَلَمْ لَا ، وَقَدْ نَظَمْتَ الْمَفَاخِرَ وَنَسَقْتَهَا ، وَجَمَعْتَ الْمَآثِرَ وَوَسَقْتَهَا ،
جَادَتْهَا غُرُّ السَّحُبِ^(٧) وَسَقَتْهَا :

بِلَادُهَا الْحَضْبَاءُ دُرٌّ وَتُرْبُهَا عَبِيرٌ وَأَنْفَاسُ الرِّيَّاحِ شُمُولٌ^(٨)
تَسْلُسِلُ مِنْهَا مَآوُهَا وَهُوَ مُطْلَقٌ وَصَحَّ نَسِيمُ الرِّوْضِ وَهُوَ عَلِيلٌ
فَأَلْقَيْتُ بِهَا عَصَا التَّسْيِيرِ ، وَقَاها اللَّهُ مِنَ الْآفَاتِ وَالْأَغْيَارِ ، وَأَقْتَنَيْتُ فِي
ذَلِكَ سَنَنَ بَعْضِ سَلَفِي الْأَخْيَارِ ؛ إِذْ كَانَ أَشْهَرَ أَسْلَافِنَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ — صَاحِبُ
التَّصَانِيفِ الشَّهِيرَةِ ، الَّتِي اقْتَادَتِ الْمَحَاسِنُ بِزِمَامِ ؛ الْقَاضِي الْأَشْهَرِ ، الْعَلَامَةِ

(١) الْأَصْلُ فِي الْبَيْعِ : نَضِيجُ الثَّمَارِ .

(٢) فِي ط : « وَكَأَسَ » .

(٣) تَسْنِيمٌ : مَاءٌ فِي الْجَنَّةِ . وَشَيْبٌ : خَلْطٌ (بِالْبَنَاءِ لِلْمَجْهُولِ فِيهِمَا) . وَلَعَلَّهُ رَاحِي
الْمُضَافُ إِلَيْهِ فَذَكَرَ الْفَعْلَيْنِ .

(٤) الْفَوْدُ : مَعْظَمُ شَعْرِ الرَّأْسِ مِمَّا يَلِي الْأُذُنَ . وَيُرِيدُ بِنَحْوِ عَوْنِهِ وَخُضُوعِهِ : إِمَالَتِهِ
مِنْ كِبَرٍ وَضَعْفٍ .

(٥) فِي ط : « إِذَا » وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٦) الْعَوَارِفُ : جَمْعُ عَارِفَةٍ ، وَهِيَ الْمَعْرُوفُ .

(٧) فِي ت : « السَّحَابُ » .

(٨) الْعَبِيرُ : الزَّعْفَرَانُ ، أَوْ هُوَ أَخْلَاطُ الطَّيِّبِ . وَالنَّشَمُولُ : الْحَجَرُ ، أَوْ مَا يَبْرُدُ مِنْهَا .

الأظهر ، سيدي أبو عبد الله محمد [بن محمد^(١)] بن أحمد المقرئ القرشي ،
التلّساني النشأة والقبر ، أفاض الله سبحانه^(٢) الرحمة على مشوي ذلك الحبر —
انتقل إليها أيام السلطان المرحوم أبي عنان فارس ، فولاه قضاء جماعتها ، وبني
له^(٣) المتوكلية أعظم المدارس ، حسبا ذكّره غير واحد من أهل الفهارس ،
وأشار إليه الوزير ابن الخطيب في كتاب « الإحاطة » التي أحييت من التاريخ
الرسم المدارس .

ولم تزل كتب الأقارب والإخوان ترد عليّ ، وتثني عنان أعتنائها إلى ؛
وتكرّر وتعدّد ، وتنقلب وتتردّد ، وتنوّع وتعجّد ؛ فأرتاح إليها ارتياح
الغصن عند هزّته ، وأحنّ إليها حنين كثير إلى معاهد عزّته :

[٤] يا مَنْ يُذَكِّرُنِي حَدِيثَ أَحَبَّتِي طابَ الحديثُ بِذِكْرِهِمْ وَيَطِيبُ
أَعِدِ الحديثَ عَلَيَّ مِنْ جَنَابَتِهِ إِنَّ الحديثَ عن الحَبِيبِ حَبِيبٌ^(٤)
وكثيراً ما يحرّك ذلك مِنِّي كامنَ شوق ، شبَّ عمرُهُ عن الطوق^(٥) ؛ وأجد
من لواعج الأوار^(٦) ، ما وجده الفرزدق عند^(٧) مُبَايَنَةِ النّوَار^(٨) :

(١) زيادة عن الإحاطة ونفع الطيب .

(٢) جمع سجل ، وهي الدلو الضخمة المملوءة بالماء .

(٣) في ت : « وبذله » وهو تحريف .

(٤) جنابته : نواحيه .

(٥) أي جاوز حد الاحتمال ؛ مأخوذ من المثل : « كبر عمرو عن الطوق » . قاله

جذيمة لعمر بن عدى ، ابن أخته رقاش ، حين رأى عليه طوقاً من ذهب كان له
في صغره ، وقد طوقته به أمه بعد غيبة غابها عنها ، في حديث طويل ، ذكره
الميداني في أمثاله وصاحب القاموس في مادة « طوق » .

(٦) لواعج الأوار ، أي حرق نار الشوق .

(٧) في ت : « من » .

(٨) يشير إلى ندم الفرزدق لما طلق امرأته النوار في قوله :

ندمت ندامة الكسبي لما غدت مني مطلقه نوار

بَلَدُ الْجَزَائِرِ مَا أَمَرَ نَوَاهَا كَلِفَ الْفَوَادِ بِحُبِّهَا وَهَوَاهَا
يَا عَاذِلِي فِي حُبِّهَا كُنْ عَاذِرِي يَكْفِيكَ مِنْهَا مَاوُهَا وَهَوَاهَا

والحنين إلى الوطن مجال لكل حُرٍّ ومِضْمَارٍ !

إِيَّاهُ أَحَادِيثَ نَعْمَانٍ وَسَاكِنِهِ إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْأَحْبَابِ أَسْمَارُ
وَلَيْسَ بُمُسْتَنْكَرٍ حَنِينُ النَّابِ ^(١) إِلَى عَطْنِهِ ^(٢) ، وَالْمَرْءُ إِلَى مَحَلِّ نَشَأَتِهِ وَوُطْنِهِ .
وَقَدْ رَوَيْنَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَنِينِ سَيِّدِ الْوُجُودِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ
إِلَى مَكَّةَ ، مَا لَا يَجْهَلُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ عَنِ الْعُلُومِ بِمَعْزِلٍ . وَمِنَ الْأَبْيَاتِ السَّائِرَةِ :
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُقُهُ الْفَتَى ^(٣) وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ
وَرَبِّ ذِكْرِي أَثَارَتِ الْأَشْوَاقَ وَحَرَّ كَتَبَهَا ، وَأَنْشَبَتِ النُّفُوسَ فِي حَبَائِلِ
الْبُيُوسِ وَتَرَكْتُهَا ؛ وَكَمْ مِنْ مَاجِدٍ بَكَى لَفَقْدِ الْمَشَاهِدِ ، وَأَهْتَمَّ لُبْعَدِ الْمَعَالِمِ
وَالْمَعَاهِدِ :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا مَرَاتِعُ أَلْفِي وَعَهْدُ صِحَابِي
وَيَا سَرَّحَةَ الْحَيِّ أَنْعَمِي فَاطْمَلَا سَكَبْتُ عَلَى مَثْوَاكِ مَاءَ شَبَابِي
فَلِلَّهِ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ ، مَا أَهْبَجَ مُحْيَاها ! وَحَاطَ ^(٤) بَعَيْنَ كَلَالَتِهِ تِلْكَ الْمَشَاهِدَ ،
مَا أَطْيَبَ ^(٥) رَيَاها ، حِينَ بَاكَرَهَا الْوَسْمَى ^(٦) وَحَيَاها :

(١) النَّابُ : النَّاقَةُ الْمَسْنُونَةُ ؛ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ . وَقَدْ أَعَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهَا مَذْكَرًا ، كَأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى الْأَصْلِ ، وَهُوَ النَّابُ مِنَ الْعَظْمِ ، فَهُوَ مَذْكَرٌ فِي الْأَشْهُرِ .

(٢) الْعَطْنُ : وَطَنُ الْإِبِلِ وَمَبْرَكُهَا حَوْلَ الْمَاءِ .

(٣) كَذَا فِي طَوْدِيَوَانَ أَبِي تَمَامٍ . وَفِي تِ : « كَمْ مِنْ مَنَازِلٍ كَانَ يَأْلُقُهَا الْفَتَى » .

(٤) فِي تِ : « وَبَعَيْنَ كَلَالَتِهِ » .

(٥) فِي تِ : « فَمَا أَطْيَبَ » .

(٦) الْوَسْمَى : مَطَرُ الرَّبِيعِ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهُ يُسَمَّى الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ . وَيَلْبِسُ « الْوَلِيَّ » وَهُوَ الْمَطَرُ الثَّانِي .

حَيًّا تَلِيسَانِ الْحَيَا فَرُبُّوعَهَا صَدَفٌ يَجُودُ بِدُرِّهِ الْمَكْنُونِ^(١)

مَا شِئْتَ مِنْ فَضْلِ عَمِيمٍ إِنْ سَقَى أَرْوَى وَمَنْ لَيْسَ بِالْمَعْنُونِ

أَوْ شِئْتَ مِنْ دِينٍ إِذَا قَدَحُ الْهُدَى أَوْزَى وَدُنْيَا لَمْ تَكُنْ بِالْذُّونِ^(٢)

وَرَدَ النَّسِيمُ لَهَا بِنَشْرِ حَدِيقَةٍ قَدْ أَزْهَرَتْ أَفْنَانُهَا بِفُنُونِ^(٣)

وَإِذَا حَبِيبُهُ أُمَّ يَحْيَى أَنْجَبَتْ فَلَهَا الشُّفُوفُ عَلَى عُيُونِ الْعُونِ^(٤)

طالما ذكَّرتِ الأَبْلَةَ وَشِعْبَ بَوَّانِ^(٥) ، وَأَنْتِ صُرُوفَ الزَّمانِ الْخَوَّانِ ،

وَأَنْبَتِ أَزْهَارَ أَنْسِ ذَاتِ أَلْوَانِ ، وَثِمَارَ نَخْلٍ مِنَ الْقُرْبِ^(٦) ، صِنَوَانٍ وَغَيْرِ

صِنَوَانِ^(٧) ، وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ بِالْجِيرَانِ^(٨) وَالْإِخْوَانِ ؛ وَالرَّوْضُ مَطْلُولُ

النَّبَاتِ^(٩) ، مُخَضَّرُ الْعَذَبَاتِ^(١٠) ، مُخَضَّلُ الْجَنَبَاتِ^(١١) ، مُفَوِّفُ الْحَمَائِلِ^(١٢) ،

(١) الحيا : المطر . وهذه الأبيات للسان الدين بن الخطيب .

(٢) أوري : أنار وأضاء .

(٣) نشر الحديقة : ما ينتشر عنها من رائحة طيبة .

(٤) حبيبة أم يحيى : عين ماء بتلسان ماؤها عذب . (عن هامش الأصل المخطوط) .

والشفوف : الرقة . والعون : البقر الوحشي . أي أن ماءها أصفى وأرق من

عيون العون .

(٥) الأبله : بلدة على شاطئ دجلة البصرة . وشعب بوان : بفارس ، وهو والأبله

من متزهات الدنيا ، التي سار ذكرها .

(٦) في ت : « من العزب » .

(٧) الصنوان : المجتمعة ، أو التي أصلها واحد .

(٨) في ت : « بالأقارب » .

(٩) مطلول النبات : مندى بماء الطل .

(١٠) العذبات ، أي أطراف الأغصان .

(١١) مخضل : مبتل . والجنبات : التواحي ؛ أي إنه غير جاف ولا متصوح .

(١٢) مفوف : فيه بياض . والحمائيل : جمع خيلة ، وهي الأرض ذات النبات ؛ يصف

نبات هذه الحمائيل وقد ظهر عليه النور الأبيض .

مُتَضَوِّعُ السَّامِلِ^(١) ؛ مُنْسَابُ الْمَاءِ ، مُنْجَابُ السَّمَاءِ^(٢) ؛ وَالْغُصُونُ مُتَأَوِّدَةٌ
الْأَعْطَافُ^(٣) ، دَانِيَةُ الْجَنَى وَالْقَطَافِ ، وَالنَّسِيمُ يَعْْبَقُ نَشْرًا ، وَالْجَوُّ يَتَأَلَّقُ رَوْنَقًا
وَبَشْرًا ؛ فَتَنْقُصُرُ عَنْهُ أَوْصَافُ ذَوِي^(٤) الْإِنْصَافِ :

وَالزَّهْرُ حَيَّانًا يَتَغَرُّ بِاسْمٍ وَالنَّهْرُ قَابِلَنَا بِقَلْبٍ صَافٍ
وَلَا لِي الْأَنْدَاءُ^(٥) فِي الْغَدِيرِ غَرْفِي ، وَدُمُوعُ النَّهْرِ لَا تَرْهَقَا^(٦) ؛ وَالزَّهْرُ
يَسْقُطُ ، وَأَكْفُ الرِّيحِ تَكْتَبُ ، وَالْغَمَامُ يُنْقَطُ :

كَأَنَّ أَكْفَ الرِّيحِ تَكْتَبُ أُسْطَرًا عَلَى النَّهْرِ إِلَّا أَنَّ أَحْرَفَهَا زُرْقُ
فَتَحْنِي عَلَيْهِنَ الْغُصُونُ قُدُودَهَا لَتَقْرَأَهَا جَهْرًا مِنَ الْوَرَقِ الْوُرُقِ^(٧)
وَالْوَرَقَاءُ تَهْتَفُ لِفَقْدِ إلفٍ نَازِحٍ ، فَتَهَيِّجُ شَجْوَ الْجَادِ وَالْمَازِحِ :

[٥]

رُبَّ وَرَقَاءٍ هَتُوفٍ بِالضُّحَى ذَاتِ شَجْوٍ صَدَحَتْ فِي فَنَنِ
ذَكَرَتْ إلفًا وَدَهْرًا صَالِحًا فَبَكَتْ شَجْوًا فَهَاجَتْ حَزَنِي
فُبَكَائِي رَبِّمَا أَرْقَهَا وَبُكَاهَا رَبِّمَا أَرْقَنِي
فَإِذَا تَبَدَّوْنِي أَسْعِدْهَا وَإِذَا أَبْدَوْهَا تُسْعِدْنِي^(٨)
وَلَقَدْ تَبَكَّيْ فَمَا أَفْهَمُهَا وَلَقَدْ أَبْكَيْ فَمَا تَفْهَمُنِي
غَيْرَ أَنِّي بِالشَّجَا أَعْرِفُهَا وَهِيَ أَيْضًا بِالشَّجَا تَعْرِفُنِي

(١) التَضَوِّعُ : انْتِشَارُ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ . وَالْمَازِلُ : جَمْعُ شِمَالٍ وَهِيَ الرِّيحُ . أَيْ أَنَّ الرِّيحَ

تَذِيْعَتْ مَعْطَرَةً بِأَرْبَعِ هَذَا الرُّوضِ .

(٢) كَذَا فِي ط . وَمِنْجَابُ السَّمَاءِ ، أَيْ سَمَاوُهَا صَافِيَةٌ . وَفِي ت : « مِنْجَافٌ » .

(٣) مُتَأَوِّدَةٌ : تَهْتَزُّ وَتَعْمَلُ . وَالْأَعْطَافُ : جَمْعُ عَطْفٍ ، وَهُوَ الْجَانِبُ .

(٤) فِي ت « ذِي » .

(٥) كَذَا فِي ت . وَفِي ط : « الْأَنْوَاءُ » . وَهِيَ النُّجُومُ ، وَقَدْ يَرَادُ بِهَا الْمَطَرُ .

(٦) لَا تَرْهَقَا : بِالْهَمْزِ وَسَهْلٍ : لَا تَسْكُنْ .

(٧) الْوَرَقُ : الْحَمَامُ ؛ الْوَاحِدَةُ : وَرَقَاءُ .

(٨) أَسْعِدْهَا : أَعْيِنْهَا عَلَى الْبُكَاءِ .

فَأَكْرِمُ بِهَا مِنْ ذَاتِ طَوْقٍ ، عَبَّرَتْ عَمَّا فِي ضَمِيرِهَا مِنْ جَوَى وَشَوْقٍ ،
فَسَاقَتْ لَوَاعِجَ الْأَفْكَارِ أَى سَوْقٍ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الصَّبِّ فَرَقٌ ، عِنْدَ ذَوَى الذَّوْقِ :

وَتَرَنَّمَتْ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسُحْرَةٍ بِالْوَادِيَيْنِ فَهَيَّجَتْ أَشْوَاقِي
وَرَفَا تَعَلَّمَتْ الْبُكَاءَ وَالْبَثَّ مِنْ يَعْقُوبَ وَالْأَلْحَانَ مِنْ إِسْحَاقِ^(١)
أُنَى تَضَاهِيَنِ هَوَى وَصَبَابَةٍ وَأَسَى وَفَرَطَ جَوَى وَفَيْضَ مَا قَى^(٢)
وَأَنَا الَّذِي أُمْلِي الْهَوَى مِنْ خَاطِرِي وَهِيَ الَّتِي تُنْمِلِي مِنَ الْأَوْرَاقِ

فَمَا كَانَ بِأَسْرَعٍ مِنْ تَمْزِيقِ ذَلِكَ الْإِهَابِ ، وَحُصُولِ شَمْلِهِ فِي يَدِ الْإِتِهَابِ ،
وإِنشَادِ لِسَانِ حَالِهِ عِنْدَ الذَّهَابِ :

أَلَا إِنَّ هَذَا الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ^(٣) يَكْرُرَانِ مِنْ سَبَبَتْ عَلَيْكَ إِلَى سَبَبَتْ
فَقُلْ لَجْدِيدِ الْعَيْشِ لَا بُدَّ مِنْ بِلَى وَقُلْ لِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ لَا بُدَّ مِنْ شَتٍّ^(٤)

وَهَكَذَا الدُّنْيَا إِخْلَاءٌ وَإِمْرَارٌ ، وَإِقْرَارٌ وَإِنْكَارٌ^(٥) ، وَإِعْلَانٌ وَإِسْرَارٌ ؛
تَعْنَى كُلِّ رَبْعٍ عَامِرٍ^(٦) ، وَتَبَدُّدِ شَمْلِ كُلِّ مَأْمُورٍ وَآمِرٍ :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجَّوْنَ إِلَى الصِّفَا أَنْيْسُ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ^(٧)
بَعْدَمَا نَعَمْنَا بِرُحْمَةٍ مِنَ [الزَّمانِ ، فِي ظِلَالِ^(٨)] الْأَمَانِ ؛ وَقَطَعْنَا نُبْدَةً مِنْ

(١) يعقوب : هو يعقوب النبي والد سيدنا يوسف عليهما السلام . وإسحاق : هو

ابن إبراهيم الموصلي ؛ من شيوخ المغنين في الدولة العباسية .

(٢) تضاهيني : تشاكيني . والمآقى : مجارى الدموع من العيون .

(٣) في ت : « أَلَمْ تَرَأِ الدَّهْرَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ » .

(٤) شت : تفرق .

(٥) في ط : « وَإِنْكَارٌ وَإِقْرَارٌ » .

(٦) تعنى : تطمس وتغير ، والرَّبع : المنزل والدار .

(٧) الحجون والصفا : جبلان بمكة . وهذا البيت لعمر بن الحارث بن مضاء .

(٨) زيادة عن ت .

الشباب ، في مواطن الأحباب ؛ ما بين دراسة ودراية ورواية ، وممارسة أمور
تُبعد عن طرق الغواية ؛ وتحبير طُروس ، وملازمة دروس ، ومثول بين يدي
أشياخ مجالستهم نامية الغُروس ؛ وخصوصاً شيخهم الذي [فضله^(١)] لا يفتقر إلى
دلالة ، عَمَّا مُفَتِّهَها سيدى سعيد بن أحمد المقرئ ، شَكَرَ الله خِلَالَهُ ، فهو شيخ
أولئك^(٢) الأعلام الذين وَرِثُوا العلم عن غيرِ كَلَالَةٍ^(٣) ، وعَمَرُوا ربوع الجَد ،
وتَفَيَّهُوا ظِلَالَهُ ، وأرشدوا إلى سُبُل الهدى ، وأزاحوا عن الضلالة ، وعَمَرَت
أَرْضُهُمْ بكل مجد وجلالة ، وإن نَبَتَ^(٤) بى لا عن جَفْوَةٍ ومَلَالَةٍ ؛ فَأَهَا عَلَى
ذلك العَصْر ما أبْهَاه وأَجْهَلَه ! وَأَتَمَّهُ وأَكَمَلَه ؛ عَصْرِيكَاد يُكَلِّمُنَا فِيهِ الْجَادُ ،
وَتَرَوْنَا الثَّمَادَ^(٥) ؛ وَتُحَيِّينَا العَشِيَّاتِ والبُكَرَ ، وَلَا تَنْتَابِنَا التَّعَلَّاتِ وَلَا الْفِكْرَ ؛
فَإِنْ سَأَلْنَا فَعَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَإِنْ صَرَّحْنَا أَوْ كَنَيْنَا ، فَنَعْنِي حِمَاهُ وَعَقِيقَهُ :

نُسْأَلُ عَنْ ثُمَامَاتٍ بِحُزْوَى وَبِأَنَّ الرَّمْلَ يَعْلَمُ مَا عَيْنُنَا^(٦)
وَقَدْ كُشِفَ الْغِطَاءُ فَمَا نُبَالَى أَصَرَّحْنَا بِذِكْرِي أَمْ كَنَيْنَا
وَلَوْ أَنِّي أَنَادَيْتُ يَا سُلَيْمَى لَقَالُوا مَا أَرَدْتَ سِوَى لُبِّي
أَلَا لِلَّهِ طَيْفٌ كَانَ يَسْقَى بِكَاسَاتِ الْكَرَى زُورًا وَمِينَا
فَأَمْسِينَا كَأَنَّا مَا افْتَرَقْنَا وَأَصْبَحْنَا كَأَنَّا مَا التَّقَيْنَا

[٦]

وَكُنَّا نَحْسِبُ أَنَّ الدَّهْرَ لَا يَدُورُ ، وَأَنَّ الْأَعْجَازَ صُدُورُ ، وَالْأَهْلَةَ بُدُورُ ؛

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ط : « هؤلاء » .

(٣) عن غير كلاله : أى باستحقاق . وفي ت : « لا عن كلاله » .

(٤) في ت : « نبت » .

(٥) الثماد (ككتاب) : جمع ثمد ، وهو الماء القليل .

(٦) الثمام : نبت قصير ضعيف لا يطول . وحزوى (بالضم) : جبل من جبال الدهناء .

والبيان : الكتيب من الرمل .

حتى ضرب الدهرُ ضَرْبَانَهُ^(١) ، وبَدَّدَ الرَّفِيقُ من ذلك الفريق وأَبَانَهُ ؛ فلم تتأوَّدْ
قُدُودُ الأعْصَانِ ، ولم تَتَرَنَّحْ أعْطَافُ البَنَانِ ؛ وانقطعت الأسبابُ ، عن مواصلة
الجيران والأحباب ؛ الذين :

جَرَى^(٢) بعضهم ذاتَ اليمينِ وبعضُهم شِمَالاً وقلبي بينهم مُتَوَزَّعٌ
فوالله ما أدري بليلى وقد مَضَتْ حُمُولُهُمُ أَيَّ الفريقين أَتْبَعَ ؟
وهنا الآن أحاول إطفاءَ لهيبِ بالضلوعِ وَقَدْ^(٣) ، وأعالج أدواءَ سُتْمٍ جَلٍّ
وكيف لا وَقَدْ :

رُوِّعْتُ بالبَيْنِ حتى ما أُرَاعُ بِهِ وبالمصائبِ في أهلى وجيرانى
لم يتركِ الدهرُ لى عِلْقاً أَضْنُ بِهِ^(٤) إِلَّا رَمَاهُ بِفَقْدٍ أَوْ بِهِجْرَانِ
وفي هذا التاريخ الغريب ، وردتْ كُتُبٌ من تلك الناحية حركتْ شَجْوُ
الغريب ؛ والشوقُ إلى لقائهم ، والتَّوَقُّعُ إلى ما يَرِدُ من تِلْقَائِهِمْ ، يقتادان
القلبَ بِزِمَامٍ فَيَنْقَادُ ، وَيُوقِدَانِ نارَ الْوَجْدِ بين الضلوعِ أى إيقاد :

هى الدارُ لا أَصْحُو بها عن عَلاَقَةٍ [لأمرِ لنا بين الجِوَانِحِ مُضْمَرٍ
فجَادَ عَلَى أَرْجَائِهَا الْغَيْثُ إِنَّهَا منازلُ جيرانِ كرامٍ وَمَعْشَرٍ^(٥)
وكان من جُمْلَةِ فُصُولِهَا ، وفُرُوعِ أَصُولِهَا ؛ طابُ التَّعْرِيفِ والإِلمَامِ ، ببعض
أحوالِ الشَّيْخِ الإمامِ ، قاضى الأئمةِ وعَلِمَ الأعلامِ ، عُمْدَةُ أَرْبابِ الحَاوِزِ والأَقْلَامِ ،
وَمُفَخَّرُ عُلَمَاءِ الإِسْلَامِ ، ذى الفَضَائِلِ التى اسْتَقَلَّتْ رِسْمُهَا^(٦) ، فلم تحتجِ إلى إعمالِ

(١) ضرب الدهر ضربانه : أحدث حوادثه .

(٢) فى ت : « حدا » .

(٣) وقد : اتقد واشتعل .

(٤) فى ت : « أظن » ، وهو تحريف .

(٥) ما بين القوسين ساقط فى ت .

(٦) استقلت : علت فبانت وظهرت . والرسوم : جمع رسم ، وهى الآثار التى لاظلل لها .

الأعلام^(١) ؛ والمحاسن التي بهرت أقدارًا وشُموسًا ، سيّدى أبي الفضل عياض
ابن موسى ؛ الشهير الصّيت في كل قطر ، صبّ الله على مثواه من الرّحمات
شايب القطر :

فهو الإمام الذي سارت مآثره في الشّرق والغرب سير الشّمس والقمر
وكم له من تآليف قد اشتهرت بكل قطر فسلّ تنبيك عن خبر

فقلت : مالى بهذا الأمر يدان ، ولو أيدنى كل قاص ودان ؛ وماذا عسى
أن أصف من جلالته يتهلّل بشرها ، وجزالة يتضوّع نشرها ؛ وبلاغة تبدّ بلاغة
سحبان ، وبراعة تقاعس عن رتبتهما^(٢) الشّيب والشبان ، وعلم أظهر غوامض
الحقائق وأبان ، وحلم أرسخ من رضى وأبان^(٣) ؛ ومحاسن ، ماؤها غير آسن ،
وحلى ، حازت مراتب العلى ، ومصنّفات ، مقرّطات مُشَنَّفَات^(٤) ، أعلاق
لا تعدّها الأثمان ، ولا تُشدّ على مثلها الأيمان^(٥) .

على أنى لست من رجال هذا المجال ، ولا من فُرسان مَيّدان الإحسان ؛
إذ الباع قصير ، والعقل بقواعد العلم^(٦) غير بصير ؛ والقلب حليف أشجان
وأوصاب ، والفكر أليف غصص تجرّع منها جنى حنظل أو صاب^(٧) ؛

(١) الأعلام : العلامات يهتدى بها في الطريق ؛ الواحد : علم .

(٢) في ت : « وثبتها » .

(٣) رضى : جبل بالمدينة . وأبان : جبلان ، الأبيض والأسود ، بينهما نحو فرسخ ،
الأبيض لبني جريد من فزارة ، والأسود لبني والبة من بني الحارث بن ثعلبة . (انظر
معجم ما استعجم للبكري) .

(٤) مقرّطات : ذات أقراط . ومشنّفات ذات شنوف ، وهى الأقراط توضع في
أعلى الأذان .

(٥) الأيمان : جمع يمين ، وهى اليد اليمنى .

(٦) في ت : « العلوم » .

(٧) الصاب : شجر مر .

[٧] لا أستطيع إنشاء قول ، ولا أفكر^(١) إلا في همٍّ أو هول ؛ إلى ما دهم من الفتن ،
التي تحت مبالدهر^(٢) من ازديان ؛ وطرق من الحن ، التي يُغنى عن خبرها العيان ؛
فتنوّعت منها الأعداد ، إلى أفراد وأزواج ؛ وكثر الترداد ، من الخطوب ذات
الجوع والأفواج ؛ وتفاقم وازداد ، هول بحورها المتلاطمة الأمواج :

حملنا من الأيام ما لا نطيقه كما حمل العظم الكسير العصابيا^(٣)
وعصر رجونا منه إبداء منحة فأبدي ولكن منحة ومصائبيا^(٤)
وما حال من قرّت^(٥) المصائب عيونه دُموعا وجوانحه جوى ، وزمته
النوائب^(٦) عن قسيّ النوى ؛ نخلع على الكواكب كراه ، وبرّح به الشوق
وبرّاه . وقطع ودج^(٧) صبره وفراه^(٨) ، واعتراه من دهره ما اعتراه ، وضاعف
ما به كذب حاسد^(٩) افتراه ؛ يأكل المحاسن ، ويجهل بمساويه أن يحاسن ؛
ويُعِيد الحق باطلا ، والخالى عاطلا ؛ ويقلب المنحة منحنه ، ويرى المصافاة
إحنه ؛ يخاتل مخاتلة الذيب ، ويكدر مناهل الخلوص والتهذيب ، ويقابل الحق

(١) في ت : « ولا أفكر » .

(٢) في ت : « إلى فادح من الفتن التي تحت هابا الدهر » . وهو تحريف .

(٣) الكسير : المكسور . والعصاب : جمع عصابة ، وهي ما يلف حول الجبيرة ونحوها .

(٤) رواية هذا البيت في ت :

وعصر رجونا أن يوجد بمنحة وإدراك آمال فأسدى المصائب

(٥) كذا في ط . وقرت : زودت ، من القرى ، وهو الطعام يقدم للضيف . وفي ت :

« وقرت » . ووقرت ، أي حملت (بالتضعيف) . والمعروف في هذا المعنى : أوقر .

(٦) في ط : « وزمته سهام النوائب » .

(٧) كذا في ط . والودج (محرّكة) : عرق في العنق . وفي ت : « وجد » .

(٨) فراه : قطعه .

(٩) في ت : « خاسر » .

الواضح بالتكذيب ؛ ويشغل بما لا يعنيه ، ويُعرض عما يقربه إلى ربه
ويُزلفه ويُدنيه^(١) :

لى حيلة فيمن ينم وليس للكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو لُ خيلتى فيه قليله
إلى الله المشتكى من هذا وأضرابه ، ممن لم تصف موارد شرابه :
مضت أعمارنا ومضت سنونا ولم تظفر بذى ثنته يدان
وجربنا الزمان فلم يُفدنا سوى التَّخْويف من أهل الزمان
ولا غرو أن كان لأهل الزمان به اشتباه ، والله قولُ بعض أهل الذكاء
والتيقظ والانتباه :

والناس مثلُ زمانهم قدَّوا^(٢) الخداء على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك فى تقلُّبه وحاله
ولذا إذا فسَد الزمان جرى الفسادُ على رجاله
أستغفر الله ، هذه نفثة مَصْدُور ذى ألم ، أو هَفْوَة مَغْمُور ساعدها طُغْيَان القَلَم :
نَدُمُ زمانًا ما له من جناية ونشكوه لو تُغْنِي عن المرء شكواه
ولا ذنب فينا للزمان وإنما جَنِينا فُعُوقِنَا بما قد جَنِينَاهُ
هو القَدَرُ الجارى على الكره والرضا فصَبْرًا وتَسْلِيمًا لما قَدَّرَ الله
ونفوسنا أولى باللوم ، لو سلكنا سبيل خيار القوم ؛ واقتَفَيْنَا سَنَنَ التقوى ،
وتمسكنا بحبل التوفيق الأقوى :

(١) فى ت : « يقربه لربه زلفى ويدنيه » .

(٢) كذا ط ولعلها محرفة عن : « حذو » أو « قد » وكلاهما مصدر بمعنى قطع
الشيء على مثال شيء آخر .

وما دارنا إلا مَوَاتٌ لَوْ أَنَّا نَفَكَّرَ وَالْأُخْرَى هِيَ الْحَيَوَانُ
 شَرِينَا^(١) بِهَا عَزَّابُهُونَ جَهَالَةً وَشَتَّانَ عِزٌّ لِلْفَقَى وَهَوَانُ
 وَحَقٌّ لِمَنْ عِلْمٌ تَقَلُّبَاتِ الدَّهْرِ بِأَهْلِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ ، أَنْ يَسْتَعْمَلَ مَا بَقِيَ مِنْ عُمرِهِ
 فِيمَا يُوصِلُهُ إِلَى مَنَازِلِ النِّعَمِ الْمُقِيمِ وَغُرُفَاتِهِ :
 لِلدَّهْرِ قَوْسٌ لَا تَزَالُ سِهَامُهَا تُضْمِي الْأَنَامَ أَصَاغِرًا وَأَكَابِرًا
 طُوبَى لِمَنْ هَجَرَ الْقَبِيحَ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ مَثَابِرًا
 جَعَلَنَا اللَّهُ تَمَنُّ ثَابِرًا عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ ، وَبَلَغَ مِنْ خَيْرِ الدَّارَيْنِ غَايَةَ التَّامِيلِ .

[٨] وَحِينَ وَرَدَ عَلَيَّ هَذَا الْخِطَابُ الَّذِي تَقَدَّمَ ، وَأَلْفَى رُكْنَ الْإِصْطِبَارِ كَادَ يَتَهَدَّمُ
 أَوْ تَهَدَّمُ ؛ أَضْرَبْتُ عَنْ جَوَابِهِ حِينَئِذٍ مِنَ الدَّهْرِ ، وَمَاطَلْتُ مُقْتَضَى دَيْنِهِ مِنْ
 يَوْمٍ إِلَى يَوْمٍ ، وَمِنْ شَهْرٍ إِلَى شَهْرٍ ؛ وَالْأَرْضُ تَمِيدُ اضْطِرَابًا وَاخْتِلَالًا ، وَالْأَحْوَالُ
 تَزِيدُ دَنَفًا وَاعْتِلَالًا ؛ وَأَنَا أَحُومُ عَلَى مَنَاهِلِ الْجَوَابِ حَوْمًا ، وَأُرُومُ الْوُرُودِ فِي
 مَشَارِبِهَا الْعَذْبَةِ يَوْمًا فَيَوْمًا ؛ وَالْأَيَّامُ لَا تَسْمَحُ بِنَهْلِهِ ، وَلَا تَفْسَحُ^(٢) إِلَيْهَا فُسْحَةً ،
 وَلَا تَوْسِعُهَا مُنْهَلَهُ ؛ ثُمَّ وَقَعَ الْعَزْمُ وَالتَّصْمِيمُ عَلَى جَوَابِ هَذَا السَّائِلِ ، رَاجِيًا مِنْ
 اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرْبِ وَأَعْظَمِ الْوَسَائِلِ ؛ وَدَخَلْتُ مِنْ هَذَا
 الْبَابِ بَعْدَ أَنْ قَرَعْتُ ، وَأَخَذْتُ فِي هَذَا الْغَرَضِ وَشَرَعْتُ ، وَشَرِبْتُ مِنْ مَاءِ
 التَّصْنِيفِ وَكَرَعْتُ ، وَبَذَرْتُ فِي أَرْضِ التَّأْلِيفِ وَزَرَعْتُ ، هَذَا^(٣) مَعَ أَنِّي
 مَا مَهَرْتُ وَلَا بَرَعْتُ ؛ وَلَا أَتَقَنْتُ لِصِنَاعَةِ التَّأْلِيفِ عَمَلًا :

لَكِنْ قُدْرَةٌ مِثْلِي غَيْرُ خَافِيَةٍ وَالنَّمْلُ يُعْذَرُ فِي الْقَدْرِ الَّذِي حَمَلَا
 وَكَثِيرًا مَا خَرَجْتُ مِنَ الشَّيْءِ إِلَى مَا يَنَاسِبُهُ وَيَدَانِيهِ ؛ وَرَبَّمَا أَبْعَدْتُ

(١) شَرِينَا (هنا) : بَعْنَا .

(٢) فِي ت : « تَفْتَح » .

(٣) هَذِهِ الْكَلِمَةُ « هَذَا » : سَاقِطَةٌ فِي ت .

النَّجْعَةُ^(١)، ثم وقعت الأوبة والرَّجْعَةُ ؛ على رَغَمِ أَنْفِ قَالِي ذَلِكَ وشانيه ،
 وقرَّبَتْ بذلك كلَّه شاسعاً ، كي تسهل مئُونته على مُعَانِيه ، وهصَّرت أفنان
 ألقاظه ومعانيه ؛ لِيَقْرُبَ اقْتِطَافُهُ لجانِيه ؛ وسميته^(٢) « بأزهار الرياض ، في أخبار
 عياض ، وما يُناسِبها مما يحصل به ارتياح وارتياض » ؛ تسمية وافقت إن شاء الله
 مَعْنَاه ، وناسبت منزله ومَعْنَاه ؛ لأنه جمع أزهار ذات ألوان ، من وَرْدٍ وأُخْوَانٍ ؛
 وبَهَارٍ^(٣) ، عَرَفُهُ ذو انتشار^(٤) ؛ وَمَنْشُورٍ ، روضه مَرِيحٍ^(٥) مَمْطُورٍ ، ونِسْرِينَ^(٦) ،
 يَفُوقُ أَرْجِه مِسْكٍ دارين^(٧) ؛ وآسٍ^(٨) ، عاطر الأنفاس ؛ وشَقِيقٍ^(٩) ، خَلِيقٍ
 بِالْمَدْحِ حَقِيقٍ ؛ وَنِيلُوفَرٍ^(١٠) ، حازَ من المحاسن النصيب الأوفر ؛ وأَجْرِيَتْ
 جداول أنهار ، من الحكايات لَسَقَى هذه الأزهار ؛ فأينع النوار ، وتألقت الأنوار ،
 وتفتن الناظر بين أنجاد وأغوار ، ولم يَذَرِ وقد انتقل من أطوار إلى أطوار ،
 وتأمل صَرَحاً^(١١) بُنى على غير [شفا^(١٢)] جُرْفٍ هَارٍ :

أَضِيَاءُ هَدَى أُمَ ضِيَاءِ نَهَارٍ وَشَذَا الْمَحَامِدِ أُمَ شَذَا الْأَزْهَارِ

- (١) النجعة (بضم النون) : الارتياح والطلب .
- (٢) كذا في ت وهو موافق للمصدر الذي بعده . وفي ط : « ووسمته » .
- (٣) الأقحوان : نبت طيب الريح ، له نور أبيض كأنه ثغر جارية حديثة السن ، وهو البابونج بالفارسية . والبهار : نبت جمع له فقاحة صفراء ، طيب الرائحة .
- (٤) في ت : « ذو اشتهار » .
- (٥) مريع : خصب .
- (٦) النسرين (بكسر النون) : ورد أبيض عطري الرائحة .
- (٧) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند . (عن معجم البلدان) .
- (٨) الآس : الريحان .
- (٩) الشقيق : نبات أحمر الزهر يقع بنقط سود . وفي ط : « والشقيق » .
- (١٠) النيلوفر (بفتح النون المشددة وكسرها) : نبات مائي ، له ساق أملس ، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر زهراً أبيض ، وسطه زعفراني اللون .
- (١١) في ت : « سرحا » بالسين .
- (١٢) زيادة عن ت .

وقد أفصح تَرْجُمان التراجم عن عدّها^(١) وسَرِّدها ، ولوَح لُكُنته الاختتام بنيلوفرها والافتتاح بوَرِّدها .

وهي هذه الترجمة :

الأولى : روضة الورد ، في أولية هذا العالم الفرد .

الثانية : روضة الأخوان ؛ في ذكر حاله في المنشأ والعنفوان .

الثالثة : روضة البهار ، في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أظهر من شمس النهار .

الرابعة : روضة المنشور ، في بعض ماله من منظوم ومنثور .

الخامسة : روضة النسرين ، في تصانيفه العديدة النظير والقَيرين .

السادسة : روضة الآس ، في وفاته وما قابله به الدهر الذي ليس لجُرحه من آس . [٩]

السابعة : روضة الشَّقيق ، في جَمَل من [فوائده ، ولمَع من^(٢)] فرائده ، المنظومة نظم الدرِّ والعقيق .

الثامنة : روضة النيلوفر ، في ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التي هي أعطر من المسك الأذفر .

فدونك أيها الناظر^(٣) روضاتِ أزهار ، وجناتِ تجرى من تحتها الأنهار ؛ أبوابها ثمانية ، وقطوفها دانيه ؛ تعطر منها نسيم الصَّبَا بزهر الآداب ، وسما إلى

(١) في ط : « عددها » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) في ت : « أيها الأخ الناظر » .

مَحَاسِنُهَا مِنْ تَعَلَّقَ مِنَ التَّارِيخِ بِأَهْدَابٍ^(١) ؛ لَمْ أُسَبِّقْ إِلَى مِثْلِهَا فِيمَا رَأَيْتُ ، وَإِنْ
بَعُدَتْ فِيهَا عَنِ الْمُهْمَعِ الْمَطْرُوقِ وَنَأَيْتُ ؛ وَالْإِنْسَانُ مُغْرَمٌ^(٢) بِبُنْيَانِ أَفْكَارِهِ ،
وَإِنْ قُوبِلَ مَا صَدَرَ مِنْهُ بِإِنْكَارِهِ ؛ وَقَدْ أُنْشِدْتُ بِلِسَانِ حَالِهَا ، مَخَاطَبَةً مِنْ رِضَى
بِاتِّسَابِهَا وَاتِّحَالِهَا :

سَرَّحْ جُنُونَكَ فِي الْحَدَا ثِقْ وَأَجْنِ أَزْهَارَ الرِّيَاضِ
مِنْ وَرْدٍ أَحْمَرَ أَوْ شَقَا ثِقْ أَوْ بِهِارٍ ذِي بَيَاضِ
وَأَشْرِبْ بِكَاسَاتِ الرَّقَا ثِقْ مِنْ عُيُونٍ أَوْ حِيَاضِ
وَانظُرْ مَنَاقِبَ ذِي الْحَقَا ثِقْ عَالِمِ الدُّنْيَا عِيَاضِ

وَإِكْرَعْ بِمَاءِ التَّعْرِيفِ زُلَالَا ، وَأَدِرْ كَأْسَ التَّشْرِيفِ حَلَالَا ؛ وَأُرَوْ مِنْ هَذَا
النَّهْرِ ، وَاقْطِفْ مَا شَتَّتْ مِنْ أَصْنَافِ الزَّهْرِ ؛ وَأَخْطِرْ هَذِهِ الرُّوضَةَ بِبَالِكَ ، وَأَدِرْ
إِلَيْهَا وَجَهَ قَبُولِكَ وَإِقْبَالَكَ ؛ فَمَوْلَفُهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِمُصِيبٍ ، وَلَا مِمَّنْ لَهُ فِي
الْإِجَادَةِ حِظٌّ وَافِرٌ وَلَا نَصِيبٌ^(٣) ، فَمَنْ أَلْفَتْ فِيهِ تَحَسُّنٌ بِإِحْسَانِهِ وَتَنَالُ^(٤)
الْمَرْعَى الْخَصِيبُ :

سَلَامٌ مِثْلُ عَرَفِ الْمِسْكِ طَيِّبًا وَحُسْنًا مِثْلُ أَزْهَارِ الرِّيَاضِ
عَلَى لَفْظِ الْجَلَالَةِ وَالْمَعَالَى إِمَامِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عِيَاضِ^(٥)
إِذَا مَا قَيْسٍ بِالْعُلَمَاءِ طُرًّا غَدَا بَحْرًا وَأَصْحَوَا كَالْحِيَاضِ

(١) في ت : « قطفا إلى محاسنها من تعلق من التاريخ الأهْدَابِ » . وهي
ظاهرة التحريف .

(٢) في ت : « يقرع » وهو تحريف .

(٣) في ط : « وافر ونصيب » .

(٤) أشير في هامش ط فوق هذه الكلمة إلى رواية نسخة أخرى ، وهي : « وترعى » .

(٥) رواية الشطر الثاني من هذا البيت في ت : « ومعنى المجد والعليا عِيَاضِ » .

وكنت حين شرعت في هذا المجموع السامى ، وأطلعت على بعضه صاحبنا
الفقيه العلامة الأصيل الحاجّ الرّحال ، أبا الحسن سيّدى علىّ بن أحمد الخزرجيّ
الشامى ، حفظ الله كماله ، وبلغه آماله ، خاطبني بقصيدة من نظمته ، أسماه الله ،
ألم فيها بذكر هذا الموضوع بما يقتضيه شرف خِلاله ، وكرم جلاله ؛ وأشار فيها
إلى نقض عزم الرّحلة التي نويت إذ ذاك ^(١) للمكان الشريف ، لا حرّمتنا ^(٢) الله
من ^(٣) مشاهدته عن قُرب ، في حفظ وعافية ، بمَنّه ويُمِنّه . وهى هذه ، وأنشدنيها
من لفظه ، وكتبها بخطه ، وأرسلها إلى ، شكر الله صنيعة :

أُمُفَّتِي الغرب أَبَدَعْتُمْ طَرَاظًا نَثَرْتُمْ فِيهِ أَزْهَارَ الرِّيَاضِ ^(٤)
وَنَظَّمْتُمْ عُقُودًا مِنْ لَالٍ لَجِيدِ حُلَى الْمَآثِرِ مِنْ عِيَاضِ
وَأَوْرَقْتُمْ غُصُونًا عُلَاهُ لَمَّا سَقَاها فِكْرُكُمْ سَقَى الْحِيَاضِ ^(٥)
وَنَمَّ قُمْ مَطَارِفَ مَا رَأَيْنَا كَطَرُهَا سَوَادًا فِي بَيَاضِ ^(٦)
وَنَادَيْتُمْ عَقَائِلَهُ فَذَلَّتْ شَوَامِسُهَا إِلَيْكُمْ بَارْتِيَاضِ ^(٧)
وَأَسَسْتُمْ مِنَ الْآثَارِ طُرًّا قَوَاعِدَ لَا تُسَاوِمُ ^(٨) بَانْتِقَاضِ
لَكَ التَّبَرُّيزُ فِي الْعُلَيَاءِ فَاقْضِ عَلَى عُلَمَائِهَا مَا أَنْتَ قَاضِ

[١٠]

(١) فى ت : « ذاك » .

(٢) فى ت : « لا أحرمتنا » .

(٣) السمع أن الفعلين (حرم ، وأحرم) يتعديان بنفسهما إلى مفعولين .

(٤) الطراز : علم الثوب ، أى ما فيه من نقش .

(٥) جاء بالفعل « أورك » هنا متعديا ، وهو لازم .

(٦) الطرة : نقش فى الثوب يخالف لونه ، يمتد على الجانبين .

(٧) العقائل : جمع عقيلة ، وهى النجيبه الكريمة ، والشوامس : جمع شامسة ، وهى الممتعة .

(٨) كذا فى ط . ولا تساوم بانتقاض ، أى لا يطمع فى نقضها ، من المساومة ، وهى
المجادبة بين البائع والمشتري . وفى ت : « لا تسام » ، إلا أن الوزن لا يستقيم بها .

تَبَدَّيْتُمْ بِهَا بَدْرًا وَخُزْتُمْ خِصَالِ سَبَاقِكُمْ^(١) دُونَ اعْتِرَاضِ
 نُعَيْتُمْ بِالْكَمَالِ بَغَيْرِ عَطْفٍ وَكُلُّهُمْ بِذَلِكَ التَّمَتَّ رَاضِي
 وَمَا وَفَّوْا بِحَقِّكُمْ وَلَكِنْ يُؤَدِّي الْبَعْضُ مِنْ بَعْضِ افْتِرَاضِ
 بِعِلْمِكُمْ شَفَيْتُمْ أَرْضَ غَرْبٍ وَكَانَتْ ذَاتَ أَحْشَاءٍ مَرِاضِ
 وَلَمَّا أَنْ بَدَأَ مِنْكُمْ فِرَاقٌ تَوَقَّعْتَ أَنْ يَتَوَلَّى إِلَى انْقِرَاضِ
 وَأَنَّ نُجُومَهَا بِالْبُعْدِ يُخْشَى عَلَيْهَا مِنْ سُقُوطٍ وَأَنْقِرَاضِ
 فَأَرْسَلَ شَافِعًا خِلًّا حَشَاهُ بِهَذَا الْبُعْدِ أَمْسَتْ فِي انْقِرَاضِ
 يُذَكِّرُكُمْ لِيَالِي نَيَّارٍ بِأَنْسَكُمْ تُنِيرُ دُجَى الْمُضَاضِ^(٢)
 يَوَدُّ الطَّرْفُ يَجْعَلُهَا اكْتِحَالًا مَكَانَ سَوَادِهِ دُونَ اغْتِيَاضِ
 بِحَقِّ اللَّهِ لَا تُبْدِي دُجَاهَا بِغَيْبَةِ بَدْرِكُمْ بَعْدَ ائْتِمَاضِ^(٣)
 وَلَا تَهْمِلْ شَفَاعَةَ مُسْتَهَامٍ صَدُوقِ الْوُدِّ فِي آتٍ وَمَاضِي
 وَدُمْ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا إِمَامًا وَبَحَرَ هُدًى عُلُومِكُ فِي افْتِيَاضِ
 يَعْمُ الْأَرْضَ مَا لَاحَتْ^(٤) بُدُورُ وَمَا فَاحَتْ أَزَاهِرُ فِي رِيَاضِ
 يَكْرَعُ مِنْهُ الْمَمْلُوكُ عَلًّا وَنَهْلًا ، وَيَضْرَعُ فِي الْجَوَابِ فِعْلًا لَا قَوْلًا ؛ وَيُعِيدُ
 السَّلَامَ التَّامَّ ، الزَّكِيَّ الْعَامَّ ، عَلَى الْجُلُوسِ الْعَلَمِيِّ ، وَرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتِهِ .
 انْتَهَى مَا كَتَبَ بِهِ صَانَهُ اللَّهُ ، وَأَضْفَى عَلَيْهِ حُلُلَ الْجَدِّ .

(١) في ط : « سباقهم » .

(٢) المضاض (بالضم) : وجع يصيب العين (كما في شرح القاموس) ؛ ويريد بدعي المضاض : ما يجده المريض بعينه من سواد حاله .

(٣) ائتماض : بريق ولمعان ؛ وهو افتعال من ومض . وفي ط « ائتماض » ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) في ب : « ما دامت » .

وقد ذُكرتُ في هذا الكتابِ حكاياتٍ مختلفة ، وفنوناً مفيدة^(١) ، يَرْدَادُ
الناظر بها معرفة [حَسْباً]^(٢) جَرَّتْ بِذَلِكَ عادة كثير من الأئمة في مُصَنَّفَاتِهِمْ ،
ومجالس دَرَسِهِمْ . وقد قال الماوردي ، أَمَضَى القُضَاة في كتاب آداب الدين
والدنيا^(٣) : القلوب تَرْتَاح إلى الفنون المختلفة ؛ وَذَكَرَ أَنَّ المأمون كان ينتقل
في قَصْرِهِ من موضع إلى موضع ، وَيُنْشِد قول أبي العتاهية :

[١١] لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدْبِرَةً إِلَّا التَّنْقِلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ^(٤)

وقال أبو حنيفة : الحكايات عن العلماء أحبَّ إلى من كثير من الفقه ، لأنها
آداب القوم . وقال الشيخ سيِّدنا أبو القاسم الجُنَيْد ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَنَفَعْنَا
بِرِكَاتِهِ : الحكايات جُنْدٌ من جنود الله ، يُقَوِّى اللهُ بِهَا أَبْدَانَ المُرِيدِينَ .
وقال الإمام المَوَاقِ^(٥) في كتابه المسمَّى «سند المهتدين»^(٦) عن شيخه المَمْتُورِي ،
بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ الْعَرِيف ، قَالَ : كُنْتُ فِي مَجْلِسِ أَسْتَاذِي أَبِي عَلِي
الصَّدَقِ^(٧) أَقْرَأَ عَلَيْهِ الْحَدِيثَ ، فَقَرَأَ يَوْمًا الْحَدِيثَ ثُمَّ أَغْلَقَ الْكِتَابَ وَجَعَلَ

(١) في ت : « حكايات عظيمة ، وفنون بديعة » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) هو كتاب « أدب الدنيا والدين » كما في كتب الفهارس .

(٤) النفس المدبرة : المشغولة بالتفكير في الأمور .

(٥) كذا في ط . والمواق ، هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم خطيب

غرناطة . وفي ت : « المواق » وهو تحريف .

(٦) كذا في ط . وهو « سند المهتدين في مقامات الدين » . والكتاب محفوظ

بدار الكتب المصرية برقم ٨٣٥ تصوف . وفي ت : « سنن المهتدي »

وهو تحريف .

(٧) هو القاضي أبو علي حسين بن محمد بن حيون بن فيرة الصديقي السرقسطي ، يعرف

بأبن سكرة وبأبن الدراج . لم يكن بشرق الأندلس في وقته مثله في تقييد الحديث

وضبطه ، والعلو في روايته . توفي سنة ٥١٤ هـ . (راجع بغية الملتبس للضبي ،

ونفع الطيب للمؤلف ، والصلة لابن بشكوال) .

يُحْكِي حِكَايَاتٍ^(١) الصَّالِحِينَ ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي : كَيْفَ يُجَيِّزُ الشَّيْخُ أَنْ يَتَقَطَّعَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيُحْكِي الْحِكَايَاتِ ؟ قَالَ : فَمَا تَمَّ لِي الْخَاطَرُ حَتَّى نَظُرَ إِلَى^(٢) الشَّيْخِ شَرْرًا ، وَقَالَ : يَا أَحْمَدُ ، الْحِكَايَاتُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ يَثْبُتُ اللَّهُ بِهَا قُلُوبَ الْعَارِفِينَ مِنْ عِبَادِهِ . قَالَ : فَمَا بَقِيَ فِي جَسَدِي شَعْرَةٌ إِلَّا قَطَرَ مِنْهَا الْعَرَقُ . فَلَمَّا رَأَيْتِي دَهَشْتُ ، قَالَ لِي : يَا أَحْمَدُ ، أَيْنَ مُصْداقُ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ؟ قُلْتُ : الشَّيْخُ أَعْلَمُ ؛ قَالَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ » الْآيَةُ . انْتَهَى .

وَهَذَا آوَانُ الشَّرُّوعِ ، وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) كَذَا فِي تَوْسِنْدِ الْمُهْتَدِينَ . وَفِي ط : « حِكَايَةٌ » .

(٢) كَذَا فِي سِنْدِ الْمُهْتَدِينَ ، وَفِي الْأَصْلِينَ : « نَظَرَنِي » .

روضة الورد في أولية هذا الإمام الفرد^(١)

أقول ، وعلى الله أعتمد ، ومن بحر كرمه أَسْتَمِدَّ :

هذه ترجمة نذكر فيها أصله ومَحْتَدَه ، وأَوَّلِيَّتَه ومولده .

قال الشيخ الإمام الرَّحَّال أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى^(٢) ، الملقَّب عند الوادى آشى بِشَمْسِ الدين ، رحمه الله وَرَضِي عنه :

هو عِيَاض بن موسى بن عِيَاض بن عَمْرُون بن موسى بن عِيَاض بن محمد ابن عبد الله بن موسى بن عِيَاض اليَحْصِيَّي السِّبْتِي . هكذا ذكر نسبَه الشيخُ أبو القاسم الملاحى . وعَمْرُون ، ثبت عنده بنون بعد الواو .

ووقع في مُعْجَم أصحاب الصَّدَقِ ، للإمام الشهير القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله القُضَاعِي ، المعروف بابن الأَبَّار : « عمرو » ، دون نون .

قلت : ونحوه لابن خاتمة^(٣) في الكتاب المسمَّى بـ « مَزِيَّة المَرِيَّة » ، على غيرها من البلاد الأندلسية .

وقال الشيخ أبو القاسم بن المَلْجُوم :

إجتاز علينا القاضى عِيَاض عند انصرافه من سُبَّة قاصدا إلى الحَضْرَةِ ، زائراً لأبى بداره^(٤) عشية يوم الاثنين الثامن لرجب ، سنة ثلاث وأربعين وخمس

(١) فيما سبق عند الكلام على تقسيم الروضات (ص ١٧ من هذا الجزء) : « العالم الفرد » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن على الموارى ، من أهل المرية ، كان كفيف البصر ، وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب ، وصاحب البديعية المعروفة ببديعية العميان . وقد رحل إلى المشرق في طلب الحديث . والوادى آشى : نسبة إلى وادى آش (ويقال فيه : وادى الأشات) . وهى مدينة جليلة من أعمال غرناطة . (عن نفح الطيب) .

(٣) ابن خاتمة : هو أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى ، من أهل المرية ، يكنى أبا جعفر . (راجع الإحاطة ونفح الطيب) .

(٤) فى ت : « فى داره » .

مئة ، وفي هذه العشية استجزته^(١) ، وسألته عن نسبه ؛ فقال لي : إنما أحفظ :
« عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض . وأحفظ أيضا
بعد ذلك : محمد^(٢) بن عبد الله^(٣) بن موسى بن عياض . ولا أعرف أن محمدا هذا
هو أبو عياض أو بينهما أحد » . انتهى كلام ابن الملجوم .

وقوله « اجتاز علينا » يعني بمدينة فاس ، وقوله « قاصدا إلى الحضرة » [١٢]
يعني مرّا كش .

وأفادني الشيخ العارف المتبتل ، الرباني البركة ، سيدي حسين الزرويلي
نزوله بدار ابن الغرديس
أبقى الله بركاته ، وأدام وجوده والنفع به :

أن القاضي عياضاً ، رضى الله عنه ، لما دخل الحضرة الفاسية ، حاطها الله ،
نزل بدار ابن الغرديس التعلبي^(٤) بزينة حجامه ، حسبا أشار إليه ابن الأحمر ،
ولم تزل هذه الدار إلى الآن بيد أولاد ابن الغرديس .

وقال نجل عياض الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عياض ، قاضي
دانية^(٥) ، على ما قال ابن خلكان ؛ وقاضي غرناطة ، على ما قال^(٦) ابن قنفذ
وغيره . ولعله تولى القضاء فيهما معا رحمه الله ، المتوفى سنة خمس وسبعين
وخمس مئة :

-
- (١) استجزته : طلبت منه أن يجيزني ، أي يأذن لي بقراءة مؤلفاته ومروياته .
(٢) كذا في ت ومعجم أحباب الصدي لابن الأبار ، وفيا سياى في الأصلين . وفي ط
هنا : « أحمد » وهو تحريف .
(٣) لم يذكر ابن الأبار « عبد الله » في أجداد القاضي عياض .
(٤) هو محمد بن الغرديس قاضي فاس إذ ذاك . (انظر كتاب البستان لابن مريم
طبع الجزائر صفحة ٥٤) .
(٥) دانية : مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية ، على ضفة البحر شرقا . (عن معجم البلدان) .
(٦) في ط : « ما قاله » .

« كان أبي يقول : لا أدري : هل محمد والد عياض ، أو بينهما رجل ؟ فهو جدّه » . انتهى .

وهو مثل ما حكى ابن الملجوم عن عياض ، كما سبق قريبا .
ورأيت في تاريخ الشمس ابن خلكان ، المسمى بـ « وفيات الأعيان » ،
في تعداد آباء القاضي عياض ، خلاف ما سبق ؛ ولا أدري : هل ذلك تحريف
من الناسخ أو وهم من المؤلف ؟ ونصه : « عياض بن موسى بن عياض بن
موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي » . انتهى .
فأنت تراه قد أسقط « عمرو^(١) » فيما بين عياض وموسى ، وأسقط أيضا
« عبد الله » فيما بين « محمد » و « موسى » .

وقد وافقه على إسقاط « عبد الله » الشيخ العلامة ابن خاتمة في « مزية
المريّة » ، فإنه قال في باب العين ما نصه : « ومن الغرباء : عياض بن موسى
ابن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض
اليحصبي^(٢) » . انتهى .

على أن ابن خلكان وغيره من المشارقة ربما يقع لهم الغلط في تاريخ أهل
المغرب ، لبعد الديار ، ولغير ذلك ، مما لا يخفى على من مارس علم التاريخ ؛ كما
أن كثيرا من المغاربة لا يحررون تاريخ المشارقة ، لما ذكرناه ؛ ولذا قال شيخ
الإسلام ابن حجر^(٣) في تأليفه المسمى بـ « إنباء العُمر ، بأنباء العُمر » حين عرّف

(١) الذي في وفيات الأعيان لابن خلكان المطبوع يخالف ما ذكره المؤلف ، إذ فيه :

« عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن

عياض اليحصبي السبق » بذكر « عمر » في مكان « عمرو » .

(٢) ووافقهما أيضا ابن الأبار في معجمه على إسقاط اسم « عبد الله » من نسب عياض .

(٣) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي ، الشهير بابن حجر العسقلاني ،

المولود سنة ٧٧٣ هـ ، والمتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

شيء عن ابن
خلكان وابن
خلدون

بشيخه وليّ الدين بن خلدون الحَضْرَمِيّ المَغْرِبِيّ قاضي القضاة المالكية ،
بالديار المصرية ، وهو صاحب التاريخ الكبير المشهور ، الموسوم بـ « ديوان العبر » ،
وكتاب المبتدأ والخبر ، في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من
ذوى السلطان الأكبر^(١) » ما نصه :

« وصنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ضخمة ، ظهرت فيه فضائله ،
وأبان فيه عن براعته ، ولم يكن مطالعا على الأخبار على جليّتها ، ولا سيّما
أخبار^(٢) المشرق ، وهذا^(٣) بين لمن نظر في كلامه » . انتهى .

وإن هذا الكلام وقول^(٤) الشيخ^(٥) شمس الدين البغدادى في الشيخ
وليّ الدين عبد الرحمن بن خلدون المذكور ، رحم الله الجميع :

قاضي القضاة ابنُ خلدونٍ أتى عَجَبًا تاريخُهُ مُخْبِرٌ عن سائر الدُّولِ
قالوا وَلَيْتَ قُتِلْنَا مِنْ كَرَامَتِهِ وَكَشَفِهِ جَاءَ يُنَبِّئُنَا عَنْ الْأَوَّلِ^(٦) [١٣]
وليس يَدْعَا وَلَا فِي اللَّهِ مُمْتَنِعًا أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ الْكُلِّيَّ فِي رَجُلٍ^(٧)
وبالجملة فما ذكرنا أولاً في تعداد آباء القاضي عياض ، رحمه الله ، هو الذي

(١) اسم الكتاب على النسخة المطبوعة ، وفي كشف الظنون ، وفي نفع الطيب :

« كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ... الخ .

(٢) كذا في ط وإنباء الغمر . وفي ت : « أخبار أهل المشرق » .

(٣) كذا في ط وإنباء الغمر المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٧٦ تاريخ .

وفي ت : « وهو » .

(٤) في ت : « من قول » .

(٥) هذه السكامة : « الشيخ » ساقطة في ت .

(٦) يشير بقوله : « ولي » إلى لقب ابن خلدون وهو : « ولي الدين » .

(٧) ينظر في هذا البيت إلى قول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

عليه المعول ، وعليه أعتمد ولده ، وابن الملبجوم ، وابن بشكوال^(١) ، وابن جابر ، وابن الخطيب في « الإحاطة » ، وغير واحد ؛ وكفى بهؤلاء حجة . وناهيك بولده وابن الملبجوم ، الذي أخذ ذلك من لفظه ، حسبما سبق آنفا ؛ وهو الصواب الذي لا يُعدل عنه ، والله تعالى أعلم .

الكلام في ضبط
« اليحصبي »

والْيَحْصِيّ ، بضم الصاد وكسر ها ، وزاد بعضهم فتحة^(٢) ، ونحوه لابن خلكان ؛ واقتصر بعضهم على الكسر قائلا : وهو الصواب ، بناء على أنها ، أعنى القَبِيلَة ، يَحْصِب ، بكسر الصاد ، كتغاب . ولا أشك أن النسب إليه إن كان بكسر الصاد : يَحْصِيّ ، بالكسر كتغابي^(٣) ؛ وأما ضم الصاد في النسب ، فهو مبنى على أن « يَحْصِب » بضم الصاد^(٤) في الحى . قال ابن سيده في مُحْكَمِه : وَيَحْصِب : قبيلة ، وإنما هي يَحْصِب ، يعنى بضم الصاد ، نُقِلَتْ من قولك : حَصَبَه بالخصى يَحْصِبُه ؛ قال ابن جابر : وليس بالقوى^(٥) .

ويَحْصِب : من حمير ، وهو يَحْصِب بن مُدْرِك ، حسبما هو مذکور في كتب الأنساب .

قال القاضي أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي الفضل عياض :

- (١) لم يذكر ابن بشكوال في الصلة غير : « عياض بن موسى بن عياض اليحصبي » .
(٢) زيد في هامش ط عند هذه الكلمة : « فيكون مثلثا ، ونقل الثلاث الجعبري في شرح الشاطبية ، وابن مالك في مثلثاته ، وغيرها » .
(٣) يجوز في النسب إلى تغلب ونحوه كسر الثالث وفتحه . وزيد في هامش ط عند هذه الكلمة : « فيه نظر يعلم من شرح الشفاء للشهاب . وفي كتب الصرف في التسهيل : الفتح ، وهو الجاري على قواعد النسب وإن كان بالكسر ، كأنه كنمر ونحوه » .

(٤) في ط : « يعنى بضم الصاد » .

(٥) أى أن جعل الفعل من باب نصر ليس بالقوى ، وإنما القوى فيه أنه من باب ضرب .

محمد بن عياض
يخبر عن موطن
أجداده

« استقر أجدادنا في القديم بجهة بَسْطَة ^(١) ، من بلاد الأندلس ، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس ، وكان لهم استقرار بالقيروان ، فلا أدرى أكان قبل استقرارهم بالأندلس أم بعده ؟ ولذلك يقول عبد الله بن حَكِيم :

وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان
قال :

وكان « عمرو » والد جد أبي ، رحمة الله على جميعهم ، رجلاً خيراً صالحاً ، من أهل القرآن ، حجَّ إحدى عشرة حِجَّةً ، وغزا مع ابن أبي عامر ^(٢) غزوات كثيرة ، وانتقل من مدينة فاس إلى مدينة سَبْتَة ، بعد دخول بني عُبيد ^(٣) المغرب ، وكان سبب ذلك أنه كان له ولأبيه نباهة بمدينة فاس ، فأخذ ابن أبي عامر رهنًا من أعيان مدينة فاس ، فأخذ فيهم أخوى « عمرو » : عيسى والقاسم ، فخرج عمرو إلى مدينة سَبْتَة ، ليقرب من أخبارها بمدينة قرطبة ، فاستحسن سُكنى مدينة سَبْتَة ، وكان مُوسراً ، فاشترى [بها ^(٤)] أرضاً ، وهي المعروفة بالمنارة ، فبنى في بعضها مسجداً ، وفي بعضها داراً ، حبسها على المسجد ، وهو حتى الآن منسوب إليه ، وحبس باقي الأرض للدفن ، ولم يزل منقطعاً في ذلك المسجد إلى أن مات ، رحمه الله ، سنة سبع وتسعين وثلاث مئة . ووُلِدَ له [١٤] قبل وفاته بيسير ابنه عياض ، ثم وُلِدَ لعياض ابنه موسى ، ثم ولد لموسى ابنه

(١) بسطة : من أعمال جيان . (عن تقويم البلدان) .

(٢) هو المنصور محمد بن أبي عامر الماعزى الوزير الحاجب في دولة المؤيد هشام بن الحكم المستنصر الأموى . كان من أهل الفقه والحنكة والدهاء ، وأبلى في محاربة الإسبان أعظم البلاء .

(٣) يريد الفاطميين أولاد عبيد الله المهدي .

(٤) زيادة عن ت .

عياض ، أبى ، رحمهم الله أجمعين ؛ وذلك ، فيما رأيته بخطه ، فى النصف من شعبان عام ستة وسبعين وأربع مئة بسبته . انتهى .

والسببى : نسبة إلى سبته ، مدينة بساحل بحر الزقاق ، مشهورة ، واختلِف فى سبب تسميتها بذلك ، فقليل لانقطاعها فى البحر ، من قولك : سبت النعل : إذا قطعته^(١) ، وقيل لأن محتطها هو سبت بن سام بن نوح ، وإلى هذا الأخير ينظر قول لسان الدين الوزير الشهير ، العلامة أبو عبد الله بن الخطيب السلماني الغرناطى ، رحمه الله ، من قصيدة :

حُميتَ يا مُحتَطَّ سبتِ بن نوح بكل مُزن يفتدى أو يروح
مغنى أبى الفضل عياض الذى أضحت برياه رياض^(٢) تقوح
وفيهما يقول الأديب أبو الحكم مالك بن المرحّل ، من قصيدة طويلة بديعة^(٣) جدًا ، مطلعها :

سلام على سبته المغرب أخية مكة أو يثرب
وفى مدحها يقول أيضاً رحمه الله :

أخطر على سبته وانظر إلى جمالها تصبو إلى حسنه
كانها عود غناء وقد ألقى فى البحر على بطنه

وقال الجبارى فى المسهب :

« أول من سكن برّ العُدوة وبرّ الأندلس من ولد نوح بعد الطوفان ، سبت وأندلس ابنا^(٤) يافث بن نوح ، فنزل سبت فى آخر المعمور من برّ العُدوة ،

(١) فى ط : « قطعه » . والمعروف أن النعل مؤنثة .

(٢) فى ت ونجح الطيب : « رياضاً » .

(٣) هذه الكلمة « بديعة » ساقطة فى ت .

(٤) فى ط : « ابن » وهو تحريف .

وبنى له منزلاً في موضع سَبْتَة ، فدُعيت ^(١) باسمه ، وتناسلت منه قبائل البربر ، واتسعت في برّ العُدوة إلى أن بلغت إلى فِلَسْطِين ، وكان مَلِكُهم يسمّى جالوت ، وكان مَجُوسِيّاً ، وهزَمَه طالوت ، وقتله داودُ ، فانضَمَّت البربر عن فِلَسْطِين ، وعن الديار المصرية ، واقتصرَت من بَرَقَة إلى آخر المعمور ؛ وسكن أخوه أُنْدَلُس [مقابلاً له في ^(٢)] انتهاء المعمور ، فعرفت باسمه . انتهى .

وأكثر بلاد العُدوة في الإقليم الثالث ^(٣) ، وفيه حَضَرَتها مَرَاكُش ، وما قارب منها الأندلس كسَبْتَة ^(٤) وما قرب منها في الإقليم الرابع .

قال ابن سعيد :

« ولا يُطالب في هذا البر بما صنعناه في الأندلس ^(٥) ، فأهل الأندلس إما عرب أو متعربون ^(٦) ، قد توارثوا قوام اللسان ^(٧) وحافظوا عليه ، وأهل برّ العُدوة إما برّبر أو مُتَبَرِّرون » . اهـ .

وفي وصفها يقول لسانُ الدين بن الخطيب في مَقامة وصف البلدان :

« قلت : فمدينة سَبْتَة ؟ قال : تلك عروس المَجْلَى ^(٨) ، وثَنِيَّة الصَّبَاح الأَجَلَى ؛

وصف ابن
الخطيب لسبته

(١) في ت : « فعرفت » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) هذا حسب التقسيم الجغرافي القديم . (انظر تقويم البلدان لأبي الفداء ، ومسالك الأبصار للعمرى ، ونزهة المشتاق للإدريسي) .

(٤) كذا في ط . وفي ت : « وما قاربها منها الأندلس كسبته في الإقليم الرابع » .

(٥) في ت : « في هذا الفن عما صنعنا بالأندلس » .

(٦) كذا في نفح الطيب (ج ١ ص ٦٣ طبع مصر) . وفي الأصلين : « فكان أهل الأندلس إما عرب أو متعربون » .

(٧) كذا في نفح الطيب وفي ط : « أقوام الأندلس » . وفي ت : « قدام الأندلس » ولا يستقيم بهما الكلام .

(٨) في ط : « مجلى » .

تَبَرَّجَتْ تَبَرَّجَ الْعَقِيلِ ، ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصَّقِيلِ ، واختصَّ ميزانُ حسناتها بالأعمال الثَّقِيلَةِ ؛ وإذا قامت بيضُ أسوارها ^(١) ، وكان جبل بليونش ^(٢) شَمَامَةً أزهارها ^(٣) ، والمنارةُ منارةً أنوارها ؛ فكيف ^(٤) لا ترغب النفوس في جوارها ، وتهم الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؛ إلى الميناء الفلكية ، والمراق الملكية ^(٥) . والرَّكِيَّةُ ^(٦) الزَّكِيَّةُ ، غير المَنزُورَةِ ^(٧) ولا البَكِيَّةُ ^(٨) . ذات ^(٩) الوقود الجَزَلُ ، المعدُّ للأَزَلِ ^(١٠) ، والقُصور المقصورة على الجدِّ والهزل ؛ والوجوه الزُّهر السَّحَن ، المضمَّنون بها عن المَحَن ؛ دار الناشبه ^(١١) ، والحامية المضُرمة للحرب المُناشِبه ^(١٢) ؛ والأسطول المَرهوب ، المحذور الألهوب ^(١٣) ، والسَّلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ؛ كرسى الأمراء والأشراف ، والوسيطه ، لخامس أقاليم البسيطه ، فلا حظَّ لها في الانحراف ؛

[١٥]

- (١) في ت : « أسوارها » وهو تحريف .
- (٢) كذا في تقويم البلدان لأبي الفداء إسماعيل ، والمغرب ، في بلاد إفريقية والمغرب ، للبكري ، وفي نفح الطيب للمؤلف في بعض مواضع ، وفي الاستبصار ، في عجائب الأمصار ، عند الكلام على سبتة ، وفي الأصلين هنا وفي سياًنى : « بليونش » .
- (٣) الشامة : ما يتشم من الأرواح الطيبة . يريد أن جبل بليونش أعطر رياضها .
- (٤) في الأصلين ونفح الطيب : « كيف » .
- (٥) في ت : « الفلكية » .
- (٦) الركبة : البثر . ورواية هذه الكلمة في الأصلين « الذكية » وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه . ويعين عليه قرينتا « المتزورة والبكية » بعده .
- (٧) المنزورة : القليلة الماء .
- (٨) البكية : القليلة الماء . ورواية هذه الكلمة في الأصلين : « المبكية » وظاهر أنها محرفة عما أثبتناه .
- (٩) يريد سبتة .
- (١٠) الأزل : الضيق والشدة .
- (١١) كذا في ت . والناشبة : القوم الذين يرمون بالنشاب ، أى النبل .
- (١٢) يقال : ناشبه الحرب ، أى نابذه .
- (١٣) الألهوب (هنا) : السطو والبطش ، مأخوذ من ألهوب الفرس ، وهو اضطرامه في عدوه .

بَصْرَةَ علوم اللسان ، وصَنَعَاءَ الحُللِ الحسان ، وثمرة امتثال قوله : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » ، الأمانة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشَرُ أنواع الحيتان ، ومحطَّ قوافل العَصِيرِ والحرير والسكتان ، وكفاها السكنى ببلْيُونش في فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبية بأرخص الأثمان ؛ والمدفن المرحوم غير المرحوم ، وخزانة كتب العلوم ^(١) ، والآثار المُنْبِئَةُ عن أصالة الحُلوم ؛ إلا أنها فاغرة الأفواه للجَنُوب ^(٢) ، للغيث المصبوب ، عُرْضَةُ للرياح ذات الهبوب ، عَدِيمَةُ الحَرِّ فقيرة من الحُبوب ، ثغر تَنبُوفِيهِ المضاجع بالجَنُوب ، وناهيك بِحَسَنَةِ تُعَدُّ مِنَ الذنوب ؛ فأحوال أهلها رقيقه ، وتكَلَّفُهُم ظاهرهما ظهرت وَلِيمة أو عَقِيْقُهُ ^(٣) ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقه ، وأنساب نَفَقَاتِهِمْ في تقدير الأرزاق عريقه ؛ فهِم يَمَصُّونَ البُلالة مصَّ الحَاجِم ^(٤) ، ويجعلون الخبز في الولائم بَعْدَ الحَاجِم ، وفتنتهم ببلدِهم فتنة الواجِم ، بالبشير المهاجِم ^(٥) ، وراعى الجَدِيدِ بالمطر الساجِم ^(٦) ؛ فلا يفضّلون على مدينتهم مدينه ، الشك عندى في مكة والمدينه . انتهى .

قلت : واعله عرّض بقوله : « الشك عندى في مكة والمدينة » ، بقول مالك بن المُرَحَّل : « أُخَيَّةُ مَكَّةُ أَوْ يَثْرِبُ » . والله أعلم .

وكان لسان الدين بن الخطيب كثيراً ما ينزل في وجهاته المعربية ، عند الشريف الشهير ، سيدى أبى العباس أحمد بن سيدى محمد ، ابن سيدى أحمد ،

الشريف أبو
العباس وحفاوته
بأبن الخطيب

(١) هذه العبارة : « وخزانة كتب العلوم » . ساقطه في ت .

(٢) في ت ونفح الطيب : « أفواه الجنوب » .

(٣) العقيقة : الطعام يدعى إليه الناس عند خلق شعر المولود .

(٤) الحَاجِم : جمع محجم ، أو محجمة ، وهى شبه الكأس يحس به الدم من الجسم .

(٥) في ت : « الهاجم » .

(٦) المطر الساجم : القليل .

ابن سيدى طاهر^(١) ، ابن سيدى رفيع ، ابن سيدى على المدعو بالمكين ، ابن سيدى أحمد ، ابن سيدى على ، ابن سيدى أبى الطاهر ، ابن سيدى الحسين ، ابن [سيدى]^(٢) مَوْهوب ، ابن سيدى أحمد ، ابن سيدى محمد ، ابن سيدى طاهر ، ابن سيدى الحسين ، ابن مولانا على ، المدعو بالهادى ، ابن مولانا محمد ، المدعو بالجواد ، ابن مولانا على الرضا ، ابن مولانا موسى ، المدعو بالكاظم ، ابن مولانا جعفر الصادق ، ابن مولانا محمد الباقر بن زين العابدين ، ابن مولانا على ، ابن مولانا الحسين الشهيد^(٣) ، ابن مولانا أمير المؤمنين ، مولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ونفعنا ببركة هؤلاء السادات ، الذين سرَدْنَا أَسْمَاءَهُمْ تَبَرَّكَ كَابِهَا . قال صاحب كتاب « الكواكب الوقادة » ، فى ذكر من دُفِنَ فى سَبْتَةِ^(٤) من العلماء والصلحاء القادة :

« كان هذا السيد الشريف يُوسَع ابن الخطيب إكراما ، وكان من عادة الشريف المذكور أن يخرج إلى بساتينه فى المصيف بقرية بَلْيُونَش ، كمنية العبا ، وجَنَّة الحافة ، ويجلس فى القبة السامية المَطَّلَّة على البحر بجنة الحافة ، ويجعل الطريقَ تحته ، فإذا رأى جماعةً سائرين من أى صِنْف كانوا ، من التجار أو الغرباء أو البلديين ، يوجِّه رجاله إليهم ، ويقدم لهم الطعام ، ويرتاح إلى ذلك ، ويُسرِّبه ، ويؤنِسُ كُلَّأَ بما يُناسبه ، من ذِكْرِ عيون أخبار بلده^(٥) ، وخاصية قطره ، وما يَجْرُ إلى ذلك ويرجع إليه ، من بديع الحكايات ، ولطيف

(١) فى ت : « الطاهر » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) فى ط : « المصير » .

(٤) فى ت : « بسبته » . واسم هذا الكتاب فى البستان لابن مريم (ص ٣١٤) :

« الكواكب الوقادة ، فيمن كان بسبته من العلماء والصلحاء القادة » .

(٥) فى ت : « بلاده » .

النوادر ؛ ثم يأمر بإذارته على تلك البساتين ، ورؤية ما بها من المصانع ^(١) ، ثم يبعث وراء آخرين ، ويُنزل كل واحد منزلته ؛ ويغيب ^(٢) عن يُنَجِّله حضوره ؛ ويُغضّي عن مُداعبة إن وقعت ، ويتجاهل الهفوة إن بدرت . وكان يُخرج الوزير ابن الخطيب — عند نزوله عنده — إلى هذه القرية البليونشية .

ومن بديع نظم ابن الخطيب فيها :

شجر لابن الخطيب
في بليونش

بليونشُ أَسْنَى الأَمَا كُن رَفْعَةً وَأَجَلَّ أَرْضِ اللَّهِ طُرًّا شَانَا

هِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا الَّتِي مَن حَلَّهَا ^(٣) نَالَ الرِّضَا وَالرَّوْحَ وَالرَّيْحَانَا

قَالُوا الْقُرُودُ بِهَا فَقَلَّتْ فَضِيلَةُ حَيَوَانُهَا قَدْ قَارَبَ الْإِنْسَانَا ^(٤)

وفيها يقول القاضي عياض ^(٥) :

شعر لعياض
فيها أيضا

بَلْيُونُشُ جَنَّةٌ وَلَكِنْ طَرِيقُهَا يَقْطَعُ النَّيَاطَا

كَجَنَّةِ الْخُلْدِ لَا يَرَاهَا إِلَّا الَّذِي ^(٦) جَاوَزَ الصَّرَاطَا

ونقلتُ من خط ابن حيان ^(٧) — بعد كلام في سبئته — ما نصّه :

وصف ابن
حيان لها

« ومتنزهاتها أعظمها بليونش ، تحتوى على مياه عيون ، وأودية ، ومتنزهات ،

وأبنية عظيمة ؛ وفيها من جميع الأشجار والثمار » .

(١) المصانع : جمع مصنع ، أو مصنعة (بفتح النون وضمها) ، وهي شبه الحوض يجمع فيها ماء المطر ؛ والمصانع (أيضا) : المباني من القصور ونحوها .

(٢) في ت : « وينيب » .

(٣) في ت : « من شأنها » . ولا يستقيم بها الكلام .

(٤) قال في الاستبصار : « وعلى قرية بليونش المذكورة جبل عظيم فيه القردة » .

وسيعرض المؤلف لهذا بعد قليل .

(٥) نسب هذان البيتان في تقويم البلدان لابن عياض .

(٦) كذا في تقويم البلدان . وفي الأصلين : « إذا » ، وما أثبتناه أظهر .

(٧) في الأصلين : « أبي حيان » وهو تحريف .

شعر للمنصفي
فيها أيضا

وفيها يقول أبو الحجاج المنصفي^(١) :

بليونش شكّلها بديع أفرغ في قالب الجمال^(٢)
فيها الذي ما رأته عيني يوما ولم يختطر ببالي^(٣)
طريقها كالصدود لكن تعقبه لذّة الوصال^(٤)

قال ابن رشيد :

وأشدني القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الرحمن الكميلي^(٥) قاضي
أزمور^(٦) فيها :

بليونش كلّها عذاب^(٧) فالمشي في سبيلها عقاب^(٨)
يكنّفها شامخ منيف كأنه فوقها عقاب

وهذا الشامخ يعرف بجبل موسى . [وإليه أشار المنصفي في مخمسة :

وطود موسى^(٩)] لها تاج على الراس

وبهذا الجبل متعبد مبارك ، وبساحله مغطس المرحبان ، ومن عجائب هذا
المتعبد أن من دخله من ليس له أهلا فإنه يجد في عنقه^(١٠) صفعا إلى أسفل الجبل ؛
وهو مسيرة ثلاثة أميال ، وهو من سبته على تسعة أميال ، وبهذا الجبل منشأ

(١) نسبة إلى « منصف » بفتح الميم والصاد ، من قرى بلنسية .

(٢) في ط : « في قالب كال » .

(٣) لم ترد صيغة « اختطر » في القاموس وشرحه ولا في اللسان ولا في الأساس .

(٤) في ط : « من الصدود لكن » وهو تحريف .

(٥) في ت : « الأيلي » .

(٦) أزمور (بفتح الهمزة والزاي المعجمة وتشديد الميم ثم واو وراء مهملة) : من مدن

بر العدوّة على ميلين من البحر . (عن تقويم البلدان) .

(٧) في ط : « عقاب » .

(٨) في ط : « عذاب » .

(٩) زيادة عن ت .

(١٠) في ط : « في شقه » .

القرود ، وهو مستشرف على بعض الأندلس . وبسبته مدرسة بناها أبو الحسن الشاربي^(١) ، ووقف بها كتباً عظيمة .

وبموضع يقال له التوتة يوجد كثير من الياقوت الأحمر^(٢) دقيق^(٣) . ومن عجائبها أن البَلَّارِج^(٤) لا تعشش فيها^(٥) ، ولما تخطر عليها . ويقال إنها^(٦) بناها سبت بن سام بن نوح ، وإنه دعا لها باليمن والبركة ، ورووا في ذلك حديثاً عن مالك عن نافع عن ابن عمر . قال عياض : وأبرأ أنا من عهدته ، وقد خرجه في الغنية ، ولذلك قال بعض الشعراء :

فكل جبار إذا ما طغى وكان في طغيانه يُسرفُ
أرسله الله إلى سبته فكل جبار بها يُقصفُ
أنشدهما أبو عبد الله محمد بن حمادة [البرنسي^(٧)] ، خال أبي لأمه^(٨) ، في كتابه المسمى بـ « المقتبس » ، في أخبار المغرب والأندلس .

شعر المنصفي فيها

ومن نظم المنصفي في بليونش من قصيدة :
انظر إلى نضرة زهر الربا كأنه وثنى على كاعب
ومتّع الطرف بـ بليونش ومائها المنبعث الساكب
تشاركتُ والحسن في وصفها تشارك العين مع الحاجب

- (١) في ت : « الشاوي » .
- (٢) في ت : « كسر من الياقوت السم » .
- (٣) كذا في ت : وقد وردت هذه الكلمة مطموسة في ط .
- (٤) البَلَّارِج : اللقاني . (عن تكملة المعجمات العربية لدوزي) .
- (٥) في ت : « بها » .
- (٦) في ت : « لانه » .
- (٧) زيادة عن ت . والبرنسي : نسبة إلى برنس (بوزن قنفذ) : قبيلة من البربر ، سميت بهم مساكنهم .
- (٨) في ت : « قال أبي لأمه » . وهو تحريف .

وقد أَرْتَنَا^(١) اليومَ من حُسْنِهَا ما لم يكن في زَمَنِ الحَاجِبِ
— والحَاجِبِ : أحد^(٢) ملوك سبْتَةَ ؛ [وله عمل ابن مَرَّانَةَ^(٣) قصيدة في
الكوائن والحوادث^(٤)] —

فَعَالَةً بِالطَّبْعِ فِي أَهْلِهَا ما تَفْعَلُ الْقَهْوَةُ بِالشَّارِبِ
تُذَكِّرُ الشَّيْخَ زَمَانَ الصَّبَا وتُفْسِدُ^(٥) التَّوْبَةَ لِلتَّائِبِ
وله :

انظر إلى بَهْجَةِ بَلْيُونَشٍ وَحُسْنِ ذَاكَ الْمَنْظَرِ اللَّامِعِ
تَحْكِي الثَّرِيًّا عِنْدَمَا أُسْرِجَتْ بَلِيلَةُ الْخَتْمَةِ فِي الْجَامِعِ^(٦)

ولما قَعَلَ السُّلْطَانُ الْأَشْهُرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ الْأَحْمَرِ مِنَ الْمَغْرِبِ ،
حِينَ رَجُوعِهِ إِلَى بَلَدِهِ^(٧) مَعَ قَاضِي حَضْرَتِهِ غَرْنَاطَةَ ، أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ ،
الْمَعْرُوفِ بِالنَّبَاهِيِّ شَيْخِنَا ، وَوَزِيرِهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ ، صَنَعَ لَهُ ضِيَاةً
مُلُوكِيَةً^(٨) بِالْمُنْمِيَةِ ، مِنْ قَرْيَةِ بَلْيُونَشِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا ، حَيْثُ الْقَصْرُ هُنَاكَ ، وَعُنْصُرُ

(١) في ت : « رَأْتَا » .

(٢) في ت : « آخِر » .

(٣) كَذَا فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ طَبْعَةُ أَوْرِبَةِ عِنْدَ السَّكَّامِ عَلَى سَبْتَةَ . وَفِي ت : « مَرَّانَةَ »
بِالْتَّاءِ الْمُنْثَاءِ الْفَوْقِيَّةِ .

(٤) زِيَادَةُ عَنْ ت .

(٥) فِي ط : « وَتَكْسِرُ » .

(٦) فِي ت : « بِالْجَامِعِ » . وَلَعَلَّهُ يُرِيدُ بَلِيلَةَ الْخَتْمَةِ مَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْمَغْرِبِ مِنَ الْإِحْتِفَاءِ
بِحَقِّمْ حِفْظِ الْقُرْآنِ أَوْ تَفْسِيرِهِ أَوْ خَتْمِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي حِفْلِ عَامِ بِالْمَسَاجِدِ تَضَاءً لَهُ
الْأَنْوَارُ ، وَيُحْضِرُهُ النَّاسُ خَاصَّتَهُمْ وَعَامَّتَهُمْ . وَقَدْ أَقَاضَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ابْنُ أَبِي دِينَارٍ
فِي كِتَابِهِ « الْمَوَاسِ ، فِي أَخْبَارِ إِفْرِيْقِيَّةِ وَتُونِسَ » .

(٧) فِي ت : « مَلِكُهُ » .

(٨) كَذَا هُنَا وَفِيَا سِيَاقِي . وَالنِّسْبَةُ إِلَى الْمُلُوكِ : « مَلِكِي » ، وَشَاعَ عَلَى أَقْلَامِ بَعْضِ
الْكَتَّابِ كَالْجَاهِظِ : « مُلُوكِي » .

الماء المختص بها . ومن هناك ركب البحر ليلا ، وذلك في جُمادى الآخرى ^(١) من عام ثلاثة وستين وسبع مئة . وفي الحادى والعشرين من الشهر المذكور دخل دار ملكه حمراء غرناطة ، وأكل من فضل هذه الضيافة مُعظمُ من كان بالقريّة ، من قوى وضعيف ، ورفيع ووضيع .

وكان شيخنا القاضى أبو الحسن المذكور يُثْنِي عليه ، ويُعَظِّمُه تعظيما يليق بمثله ، ويقول فى أثناء حديثه : فعل أبو العباس الشريف صاحب سبّته كذا ، وصنع كذا . ولم تزل حالته هذه ، رحمة الله عليه ، إلى أن أَسَنَّ وأُقْعِدَ ، فلزم منزله ثلاث سنين ، من غير أن يَنْقُصَ ذلك من مَنْصِبِه شيئا ، ولا من انتفاع الناس به ؛ وكان أبيض اللون ، حسن الهيئة والملبس ، يَخْضِبُ بِالْحِنَاءِ ؛ وَتُوُفِّيَ فى زَمَانَتِه وقد نَيْفَ على ^(٢) الثمانين ، عامَ ستة وسبعين وسَبْعِ مِئَةٍ ، وله الآن قَرَابَة بمدينة فاس بَقِيد الحياة .

ثناء أبي الحسن
النباهى على
الشريف وشيء
عنه

[١٧]

انتهى كلام صاحب الكواكب الوقادة باختصار ، وبعضه بالمعنى .
ومن نظم هذا الشريف ، مما أمر به أن يُنْقَشَ بالقبة المذكورة آنفاً فى معنى الاستعاذة :

شعر للشريف

وَتَيْتُ بِاللّهِ رَبِّي	وَحَسْبِيَ اللّهُ حَسْبِي
واللّهُ كَافٍ ووَاقٍ	وَدَافِعٌ كُلَّ خَطْبٍ
ولست أخشى إذا ما	وَتَيْتُ بِاللّهِ رَبِّي
بَلَغْتُ فِيهَا مُرَادِي	مُهَنَّاً مع صَحْبِي
وَالْخَمْسُ تَفَقَّأَ عَيْنًا	لكلِّ حاسِدٍ نَدْبٍ ^(٣)

(١) فى ط : « الآخر » .

(٢) فى ط : « عن » وهو تحريف .

(٣) الندب : الخفيف فى الحاجة الظريف .

حفاوة أبي عنان
بالشريف أبي
العباس ومنزلته
في سبته

وكان السلطان المرحوم أبو عنان فارس ، ابن السلطان أبي الحسن المريني
يُجِلُّ هذا الشريف ، ويعترف له بالفضل ، ويعطيه العطاء الجزل ، وكان يستدعيه
كل سنة إلى حضرته فاس ، لحضور المولد السعيد ، الذي سنّه ببلاد المغرب
الشيخ أبو العباس العزفي ، وتلك السنة باقية إلى الآن بحسن نيّته ، واعتنائه
بالجناب العلي^(١) ، نفعه الله بذلك ، ويخلع عليه الخلع الملوكة ، ويُعَدُّ له ديناراً
مَسْكُوكاً يُصْنَعُ بمدينة مراكش ، زِنْتُهُ مِئَةُ دينار ذهباً ، يدفع له ذلك مع جائزته ،
إلى غير ذلك مما كان يُتَحَفُّ به ، رحمه الله ، ويصحبه في وجهته تلك من الضعفاء
والتجار ما لا يُحصى كثرة ، ويتولّى هو الإنفاق على الجميع من ماله ، ويرفع^(٢)
عنهم اللوازم المخزنية ، فكان التجار لأجل ذلك يَرْصُدُونَ وقت سفره وقفوله .
وقدّمه السلطان أبو عنان المذكور ناظراً على بلده سبته ، وأمر صاحب قصبتهما
ألا يقطع أمراً إلا بمشورته ، فكان العمال يخافونه ويشاورونه ، فإذا رأى من
أحدهم خُرُوجاً عن العادة ، أو خيفاً على الرعية ، كتب إلى السلطان في شأنه ،
فيعزله من فورهِ ، ويُعوّضه بغيره . وكان يقول للسلطان : املك تحسبني خديماً^(٣) ،
لست كذلك ، وإنما نحن معشر أهل البيت شُفَعَاءُ في الدنيا ، وشفعاء في الآخرة .
فكان أهل سبته في أيامه في عيش هنيء ، ونعمة شاملة ، بقي على هذه الحالة
المرضية مدة عشرين سنة . وله بسبته آثار تحكي الآثار العزفية^(٤) ، كالرياض^(٥)

[١٨]

(١) في ت : « العلي » .

(٢) في ت : « يدفع » .

(٣) يريد : « خادماً » . ولم تنقل المعاجم : « الخديم » بمعنى الخادم ، لكن شارح
القاموس ذكر هذه العبارة : « والخدمان (بالضم) : جمع خادم ، هكذا تقول
العامة ، وكأنهم تصوروا فيه جمع خديم » .

(٤) في ت : « العربية » .

(٥) كذا في الأصلين هنا وفيما سياتي ، يريد به القصر وما يحيط به من بساتين ، وقد
يجرى في لسان المغاربة حتى اليوم استعمال لفظ الرياض مفرداً مذكراً بهذا المعنى .

الأعظم ، الذى أمام باب الميناء الأسفل الذى تأتق فى بُنيانه وأبدع صُنْعته ، وجلب إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة ؛ وكالرياض الذى بالصَّفارين ، حيث كان قعوده مع خواص الناس وعامتهم .

قال صاحب الكواكب الوقادة :

« سمعت أحد كتّابه الخاصَّ به ، الملازمَ له ليلاً ونهاراً ، مع مرور الأيام والسنين ، يقول : ما أمرنى قطَّ سيدي ومولاي الشريف بكتّاب شيء مخالف للشرع ، بل فى رفع المظالم ، وإنهاء الشفاعات ، وتوجيه الأمانات ، وما فى معنى ذلك ، مما نَدَبَ إليه الشرعُ ، وحضَّ عليه ، ووعد بالثواب على فعله . وطالما سمعت الكاتب المذكور يُقسم على ذلك ، نفعه الله [به] » ^(١) . انتهى .

وصف أحد
كتّاب
الشريف له

قلت : تذكرت بهذا الفعل الجميل ما كتب [به] ^(١) على دواة أمير المؤمنين أبى عَنان ، رحمه الله ، وهو :

دواة أبى عنان
وشعر مكتوب
عليها

أنا دواة فارس أبى عِنانَ المعتمد
خَلَفْتُ مَنْ يَكْتُبُ بى بالواحد الفرد الصّمد
أَنْ لا يَمُدَّ مَدَّةً فى قَطْعِ رِزْقٍ لأحد

وقد رأيت فى هذه الأيام دواةً فى غاية ما يكون من الإتيان والصنعة والتذهيب ، وفيها مكتوب البيتان الأخيران ، وهى عند بعض أصحابنا الكتّاب بالحضرة الفاسية — حاطها الله — وأظنها هى الدواة التى كانت لأبى عنان ، والله أعلم .

رجع إلى ذكر الشريف

وكان الشريف المذكور يصنع أنواع المطاعم الرفيعة ، ويتبسط في ألوانها ،
ويطعمها الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، ممن يحضر مجلسه أو يأتي إليه ، وبالجملة
فهو قُطْبُ الجود الذي عليه المدار ، وإمام الأدب الذي لا يجاريه الرضى ولا مِثْيَارُ ؛
ومن نظمه ، وقد سائر قاضى الجماعة بحضرة غرناطة ، أبا البركات البَلْفَيقِي^(١) الشهير
بابن الحاج الشَّامِي ، من ولد العباس بن مرْدَاس رضى الله عنه ، زمن الشببة
في بعض أسفاره ببرّ الأندلس ، فلما انتهيا إلى قرية بَرْلِيَانَة^(٢) وأدركهما النصب ،
واشتد عليهما حرّ الهجير ، نزلا وأكلا من باكر التين الذى هنالك ، وشربا من
ذلك الماء العذب ، واستلقى أبو البركات على ظهره تحت شجرة مستظلا بظلها ،
ثم التفت إلى الشريف وقال :

ماذا تقول ، فدَتَكَ النفس في حالى يفنى زمانى في حَلٍّ وترحالٍ^(٣)
وأرتج عليه ؛ فقال لأبى العباس : أجز ؛ فقال بديها :

كذا^(٤) النفوس اللواتى العزّيصَحَبها لا ترتضى بمقام دون آمال

[١٩]

(١) البلفيقي : نسبة إلى بلفيق (بالفتح ، ويروى بتشديد اللام المكسورة مع كسر
الموحدة) : حصن بالمرية . (عن تاج العروس) .

(٢) كذا في معجم البلدان . وبزليانة (بكسرتين وسكون اللام) : بلدة قريبة من مالقة
بالأندلس . وفي ط ونفع الطيب (ج ٤ ص ٢٤٩ طبعة مصر) : « ترليانة » . وفي
ت : « قرليانة » .

(٣) في ت : « في حل وترحال » .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « إن » .

أشرف سبته

دَعَهَا تَجُوبُ الْفَيَافِي وَالْقِفَارَ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ السُّوْلَ أَوْ تَقْنَى بِتَجْوَالِ^(١)
وكان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال ، ثلاثين ديناراً من
الذهب العين^(٢) في رأس كل شهر ، وهو خاتمة الشرفاء العظام بمدينة سبته .
ولهؤلاء الشرفاء بمدينة سبته نحو الثلاثين قبراً ، في روضتهم المنسوبة إليهم ، بالجانب
الشرقي من رابطة الفصال . وهؤلاء الشرفاء من ذرية أبي الطاهر الذي خرج
من جزيرة صقلية ، وكانت لهم بسبته وجاهة^(٣) وسياده ، وجلالة ومجاده ؛ لمكان
بيتهم الشريف ، ونسبهم العالي المنيف ؛ ما منهم واحد إلا غَدَاهُ الْعِلْمُ بِلَبَانِهِ ،
وَالْأَدَبُ بِلَبَانِهِ . وولّى منهم قضاء بلدهم سبته رجلان ، لم يُطْلِعْ مِثْلُهُمَا الْمَوَانُ ؛
تَقَى وَعِلْمًا ، وَأَنَاةً وَحِلْمًا ؛ أولهما القاضي أبو الشرف^(٤) رفيع ، والثاني ابنه القاضي
أبو الحسن علي . وكَمِ نَشَأَ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ الطَّاهِرِ مِنْ جِهْبَذِ نَحْرِيرٍ ، وَعَالَمٍ مَاهِرٍ ؛
وَسَخِيٍّ جَوَادٍ ، لَهُ إِلَى الْإِعْطَاءِ^(٥) ارْتِيَا ح وَإِلَى الْكِرْمِ اسْتِنَادُ^(٦) ؛ وَنَاهِيكَ
بِخَاتَمَتِهِمْ أَبِي الْعَبَّاسِ الْمَذْكُورِ .

وكان فائد مَضْرِبِ^(٧) الميناء لهذا الشريف أبي العباس الحسيني ، دون
أَنْ يَشْرَكَهُ غَيْرُهُ ؛ وَكَانَ لَهُ بِمَضْرِبِ أَوِيَاتٍ يَوْمَ يَضْرِبُ فِيهِ ، وَيَوْمَانِ لِبَيْتِ الْمَالِ ،

دخل الشريف
من مضرب الميناء
وما كان ينقعه فيه

(١) رواية هذا البيت في نفح الطيب :

دعها تسر في الفيافي والقفار إلى
أن تبلغ السؤل أو موتا بتجوال
وزاد بعده :

الموت أهون من عيش لدى زمن
يعلى المائم ويدنى الأشرف العالي

(٢) في ت : « ذهب » .

(٣) في ط : « وجهة » .

(٤) في ط : « الشريف » .

(٥) في ت : « العطا » .

(٦) في ط : « استنح » وهو تحريف .

(٧) المضرب (كما هو ظاهر من السياق هنا) : سوق يتخذها حاكم الميناء لبيع مايستخرج
من السمك ونحوه .

وكانت عادة عامل المضارب ، الناظر في فوائدها وما تحتاج إليه من نفقة وآلة ، أن يأمر رجاله وأعوانه ، حين يُقعد النَّوَائِيَّةُ السَّكِينُ ، بالوقوف إليه ، والدفاع عنه ، بعد أن يُحضر الشهود ، خَفَرًا وضبطًا لما يحصلُ من فائد^(١) المضرب المالى فى يوميه^(٢) ؛ فإذا كان يوم [السَّيِّد^(٣)] الشريف يأمر رجاله وخدامه وأعلاجه^(٤) الإسلاميين ، بإباحة المضرب المساكين ، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه ، ممن يحضر متنزها ، إما لحفظ سرورة ، وإما لغير ذلك . ولا يزال الناظر من قِبَلِه ، وهو القائد فارح أحد أعلاجه ، واقفاً على حصانه ، وقد أحاطت به رجاله ، إلى أن يرضى كل من يحضر ، وما فضل عن ذلك فهو له . وأما السيد الشريف فلا يحضر ، إذ حمته أرفع من ذلك ، وقدره أعظم ، ومكانته بسببته مكانته ، بحيث يأتي إليه فى الموضع الذى أعده لجلوسه برياضه الذى بالصفارين صبيحة كل يوم صاحب القصة ، كائنا من كان ، مسلماً^(٥) عليه ، ثم ينصرف ، ثم يأتي الوالى على قبض الجباية مسلماً ، ثم ينصرف بعد تقبيل قدمه ، ثم يأتي صاحب الشرطة ، وكذا جميع أمراء سببته ، إلا القاضى ، لمكان خُطَّته ، فيعامل كلاً بما يستحق من إكرام وإهانة ، وإغلاظ ومجاملة ، فلا يتخلف أحد عن غرضه ، ولا يصدر إلا عن رأيه ونظره . وهذا كله مع النصيحة للمسلمين ، وجلب المنفعة لهم بالقول والفعل ، وإطعام الطعام الذى لا يقدر عليه الأمير فمن دونه ، ورفع المظالم ، ومنح الجاه ، إلى غير ذلك ، نفعه الله . فكان من حكمة الله عز وجل وبركة أهل البيت ،

(١) فى ط : « فوائد » .

(٢) فى ت : « فى يومه » .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) أعلاجه : مواليه من غير العرب ؛ مفردة : عالج (بوزن ملح) .

(٥) العبارة من « عليه » إلى « مسلماً » : ساقطة فى ت .

وفضل الجود والكرم ومكارم الأخلاق ، وإيصال المنفعة للعباد ، أن يخرج في اليوم الذي له بالمضرب من الحوت ، أى نوع كان من الجارى ، أضعاف ما يخرج في اليومين ، ويحصل له من الفائدة أكثر مما يحصل لمتولى النظر فيهما ، فيتصل^(١) بيده من فائد يومه خمس مئة دينار^(٢) وسبع المئة ، وربما يزيد وينقص ؛ وقد انتهى في بعض الأحيان إلى ألفي دينار في اليوم ، حسبما يُستثنى^(٣) الله عز وجل ؛ هذا بعد العادة التي عودَها نفسه النفيسة ، من الإيثار والبذل ، للسرى والنذل . ولم تكن له همة ، رحمه الله ، في احتكار المال وجمعه ، بل يصرف ذلك كله في إطعام الطعام ، الخاص والعام ، وفي تشييد البُنْيَان ، والإنفاق على الفعلة والصَّنَاع والخدم ، وآثاره ومصانعه بداخل سبته وخارجها شاهدة بذلك مدى الأيام ؛ وكفى في أثناء هذا التصرف من مؤاساة فقير ، وإعانة ضعيف ، وإغاثة ملهوف ، برفع^(٤) لازم أو وظيف^(٥) ، حسبما هو معلوم معروف منقول .

وكان ملوك بني مرين يعتمنون به أتم اعتناء ، ويبادرون إلى موافقة أغراضه ، وقبول شفاعته ، وما كان يتلقاه حين وروده على حَضْرَتهم فاس إلا الملك بنفسه ، إلى غير ذلك من مناقبه رضى الله عنه ، ونفعنا به ، وبسلفه الطاهر .

حفاوة ملوك
بني مرين به

قلت : وإنما ذكرت التعريف بهذا الشريف الفَيَّاض ، تفاؤلاً بالابتداء [٢١] به بعد عياض ، لأنى اشترطت أنى أخرج من الشيء إلى ما يناسبه ، فبدأت

سبب تعريف
المؤلف بهذا
الشريف

(١) في ت : « ويحصل » .

(٢) في الأصلين : « الخمسمائة دينار ، والسبعمائة » .

(٣) يستثنى الله : يسهله ويسره .

(٤) برفع : بحمل .

(٥) يريد : « الوظيفة » وهى الراتب الجارى من الأرزاق ونحوها .

في ذلك بهذا السيد الشريف ، الذي عظمت مجادته^(١) ، وكرمت مناصبه ، وزكت مآثره ، وعلت مناصبه^(٢) ؛ والأعمال بالنيات ، والله يُبلغنا في الدارين غاية الأمنيات .

وبعد أن بلغت سبته ما ذكرناه من أحوالها ، وبقيت مدة آمنة من شرور الدنيا وأهوالها ؛ وأطلعت في سماءها نجومها ، كانت علومها^(٣) للمردة رجوما^(٤) ؛ كعياض المؤلف فيه هذا الكتاب ، وهؤلاء الشرفاء الذين لا يُمتري في فضلهم ولا يرتاب ؛ وبنى العزف المشاهير ، الذين برزوا في ميدان السبق على الخاصة^(٥) والجمهير ؛ وحازوا رئاسة الدين والدنيا ، وفازوا بالمكانة السامية والمرتبة العليا ؛ وغيرهم ممن لا يحصى كثرة ، ممن كان لهم تقديم وأثره ؛ عدا عليها الدهر بُعدوانه ، وسقط شرفها من إيوانه ؛ واستولى عليها العدو الكافر ، في قضية يطول شرحها ، وعظم على أهل الإيمان قرحها ، وأعضل أطباء الملوك إلى الآن جرحها ، ولم يزل بنفوس المؤمنين شجوها وبرحها .

أخبرني الفقيه الطيب العدل القرضي ، سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني رحمه الله : أنه لما دخل سبته ، حين وجهه أمير المؤمنين ، مولانا المنصور ، رحمه الله ، إليها ، في شأن فداء الكفار المأخوذين بالغزوة الشهيرة ، ذهب إلى المدرسة التي كان بناها أحد ملوك بني مرين رحمهم الله ، وأظنه أبا عنان^(٦) ،

(١) في ط : « مآثره » .

(٢) في ت : « وهدهام ومناصبه » .

(٣) في ت : « علومهم » .

(٤) في ت : « نجومها » .

(٥) في ت : « الخواص » .

(٦) هذه العبارة : « وأظنه أبا عنان » ساقطة في ت .

وهي من أجل المدارس وأعظمها ، فرأى في محرابها ناقوساً وصليياً ، قال : فسألتني ذلك ، فرفعت بصري فإذا كتابة بخطٍ رائع ، في تلك النقوش فوق ذلك الناقوس ، فيها قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » . وكان ذلك الكتب قديماً فيها من جملة ما كتب المسامون بها حين بنائها ، على ما جرت به عادة الملوك من كتب الآيات القرآنية في النقوش بالزليج^(١) والمرمر . قال لي رحمه الله : فتعجبت^(٢) من ذلك الاتفاق ، وسألني ذلك بعض التسلي ، وإلى الله تُرجع الأمور .

وكان أخذ سبته ، أعادها الله ، سنة تسع عشرة وثمان مئة ، بعد ما استولى العدو الكافر على معظم بلاد الأندلس ، مثل قرطبة ، ومُرْسِيَة ، وطلَيْطَلَة ، وبلَنْسِيَة ، وغيرها ، مما يطول تعداداه .

وقد قال بعض الشعراء حين أخذت طَلَيْطَلَة ، وكانت من أول ما أخذ من رثاء طليطلة القواعد العظام ، يخاطب أهل الأندلس :

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسِ شُدُّوا رِحَالَكُمْ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
السِّلْكُ يُنْثَرُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى سِلْكَ الْجَزِيرَةِ مَنُثُورًا مِنَ الْوَسْطِ
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لَا يَأْمَنُ بَوَائِقَهُ كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَاتِ فِي سَفَاطِ

[٢٢]

(١) الزليج : نوع من الخزف الفاخر الأملس ، تباط به الأرض أو يلصق على الجدران للزينة ، وهو ما يسمى في لسان العامة « الفاشاني » . (عن مجلة الجمع المسكي للغة العربية) . وقد وردت هذه الكلمة في نفح الطيب (ج ١ ص ٩٤) ، كما وردت في صبح الأعشى (ج ٥ ص ١٥٦) مشروحة بما لا يخرج عن هذا المعنى .
(٢) في ت : « فعجبت » .

قصيدة الرندي
في رثاء الأندلس

ولله درّ الإمام العالم^(١) العلامة خاتمة أدباء الأندلس ، أبي الطيّب^(٢) صالح
ابن شريف الرندي [رحمه الله]^(٣) إذ قال يندُب بلاد الأندلس ، ويبعث العزائم
ويحرّكها من أهل الإسلام لنصرة الدين ، وإنقاذ البلاد من يد الكافرين ،
ولسان الحال ينشده « لقد أسمعت لو ناديت حيا » :

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ	فَلَا يُغَرَّرُ بِطَيْبِ الْعِيشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دُولُ	مَنْ سَرَّهَ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقَى عَلَى أَحَدٍ	وَلَا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا ^(٤) شَانُ
يُعَزِّقُ الدَّهْرُ حَتَّى كُلَّ سَابِغَةٍ	إِذَا نَبَتَ مَشْرِفِيَّاتٍ وَخِرْصَانُ ^(٥)
وَيَنْتَضِي كُلَّ سَيْفٍ لِلْفَنَاءِ وَلَوْ	كَانَ ابْنُ ذِي يَزَنٍ وَالْغَمْدُ عُثْمَانُ ^(٦)
أَيُّ الْمُلُوكِ ذُووِ التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنٍ	وَأَيُّ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتَيْجَانُ
وَأَيُّ مَا شَادَهُ شَدَادٌ فِي إِرْمٍ	وَأَيُّ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ
وَأَيُّ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبٍ	وَأَيُّ عَادٌ وَشَدَادٌ وَقَحْطَانُ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرُهُ لَا مَرَدٍّ لَهُ	حَتَّى قَضَوْا فَكَّانَ الْقَوْمِ مَا كَانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ	كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانُ
دَارَ الزَّمَانِ عَلَى دَارَا وَقَاتَلَهُ	وَأَمَّ كِسْرَى فَمَا آوَاهُ إِيوَانُ ^(٧)

(١) في ت : « الأديب » .

(٢) في نفح الطيب : « أبي البقاء » .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « قوم بها » .

(٥) السابغة : الدرع الكاملة . والمشرفيات : السيوف المنسوبة إلى المشارف ، وهي
قرى من أرض العرب تدنو من الريف . والخرصان (بكسر الخاء) : الرماح ،
الواحد : خرص .

(٦) سيف بن ذي يزن : من ملوك اليمن . وعثمان : قصره .

(٧) دارا : أحد ملوك الفرس .

كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهَلْ لَهُ سَبَبُ يَوْمًا وَلَا مَلَكَ الدُّنْيَا سُلَيْمَانُ
 فَجَاءَتْ الدَّهْرُ أَنْوَاعٌ مَنُوعَةٌ وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ
 وَلِلْحَوَادِثِ ^(١) سُلُوفَانٌ يُهَوِّنُهَا وَمَا لَمَّا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ سُلُوفَانُ
 دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أَحَدٌ وَانْهَدَّ نَهْلَانُ ^(٢)
 أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الْإِسْلَامِ فَارْتُرَتْ ^(٣) حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وَبُلْدَانُ
 فَاسْأَلْ بَلَنْسِيَّةً مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةٍ وَأَيْنَ شَاطِئَةُ أَمِ أَيْنَ جَيَّانُ
 وَأَيْنَ قُرْطُبَةُ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ مِنْ عَالَمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ
 وَأَيْنَ خَمَصُ ^(٤) وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَى وَنَهْرَهَا الْعَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلَانُ
 قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانُ الْبِلَادِ فَمَا عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقُ أَرْكَانُ
 تَبْكِي الْخَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسْفٍ كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيَّانُ
 عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةٍ قَدْ أَسْلَمْتُ ^(٥) وَلَهَا ^(٦) بِالْكَفْرِ عِمْرَانُ
 حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كِفَافًا فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسُ وَصُلْبَانُ
 حَتَّى الْحَارِيبُ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ حَتَّى ^(٧) الْمَنَابِرُ تَرْتِنُ وَهِيَ عَيْدَانُ
 يَا غَافِلًا وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةِ فَالدَّهْرِ يَنْقُظَانُ
 وَمَا شَيْئًا مَرَّحًا يُبْلِغِيهِ مَوْطِنُهُ أَبْعَدَ خَمَصَ تَغْرُ الْمَرْءُ أَوْطَانُ

[٢٣]

(١) في ت : « وللمصائب » .

(٢) أحد ونهلان : جبلان في بلاد العرب .

(٣) كذا في ت : ونفح الطيب . وفي ط : « فامتحننت » .

(٤) يريد بحمص : « إشبيلية » لأن الذين سكنوها عند الفتح كانوا من أهل حمص بالشام .

(٥) في نفح الطيب : « أفقرت » .

(٦) في ط : « فلها » .

(٧) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « حيث » .

تلك المصيبة أنست ما تقدّمها وما لها مع طول الدهر نسيان
يا أيها الملك البيضاء رايتُ به أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا^(١)
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
وراعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عزّ وساطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم رُكبان
كم يستغيث بنو المستضعفين^(٢) وهم أسرى وقتلى فما يهتزّ إنسان
ما ذا التقاطع^(٣) في الإسلام بينكم وأتمّ يا عبّاد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها هم أما على الخير أنصار وأعوان
يا من^(٤) لذلة قوم بعد عزّهم أحال حالهم كفر^(٥) وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبّدان
فلو^(٦) تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب النذل ألوان
ولورأيت بُكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا ربّ أمّ وطفلٍ حيل بينهما كما تفرّق أرواح وأبدان

(١) هذا البيت ساقط من نفع الطيب .

(٢) في ت : « بنا المستضعفون » .

(٣) في ط : « التنافر » .

(٤) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « من ذا » .

(٥) في ت : « قهر » .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « ولو » .

وطفلة ما رأتها الشمس إذ^(١) برزت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العليج المكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان
اتتهى^(٢) .

[٢٤] وكان الشيخ [الإمام]^(٣) العلامة الفقيه الوزير الكاتب أبو يحيى بن عاصم
صاحب الشرح على تحفة أبيه ، رحم الله الجميع ، عند ما رأى اختلال أمر الجزيرة
— أعادها الله — وأخذ النصارى — دمرهم الله — لمعظمها ، ولم يبق إذ ذاك بيد
المسلمين إلا غرناطة ، وما يقرب منها ، مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ ،
ثم أفضى الملك إلى بعضهم ، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها ، ألف كتابا سماه :
« جنة الرضى ، في التسليم لما قدر الله وقضى » ، وهو كتاب عجيب جدا غريب ،
رأيت بعضه بـتلمسان ، ونقلت منه ما نصه :

« من استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن
النصارى — دمرهم الله — لم يدركوا في المسلمين ثارا ، ولم يرخصوا^(٤) عن^(٥)
أنفسهم عارا ، ولم يخرجوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بالادا
جامعة وأمصارا ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع
الافتراق ، بين المسلمين والاختلاف ؛ وتضريرهم^(٦) بالمكر والخديعة بين ملوك

(١) في ت : « قد » . ورواية هذا الشطر في نفع الطيب :

« وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت »

(٢) أشار المؤلف في نفع الطيب بعد ذكر هذه القصيدة إلى أنها قد زيد عليها أبيات
آخر ليست منها ، وأنه نقلها على هذه الصورة عن يوتق به وليس فيها تلك الزيادة .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) كذا في نفع الطيب ، ورحض : غسل . وفي الأصلين : « لم يدحضوا » .

(٥) في ت : « على » .

(٦) كذا في ت : ونفع الطيب . وفي ط : « وتصريفهم » .

ابن عاصم وبعض
ما جاء في كتابه
عن انحلال أمر
الأندلس

الجزيره ؛ وتحريشهم بالكيد والخلافة بين مُحامتها في الفتن المبيره ؛ ومهما كانت الكلمة مؤتلفه ، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفه ، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفه ؛ فالحرب إذ ذاك سِجال ، والله في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، والممانعة^(١) في غرض المدافعة^(٢) ميدان رحب ومجال ، وروية^(٣) وارتجال .

ثم قال : وتطاولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة ، ومضاربة ومقارعة ، ومُنازلة ومنازعه ، وموافقة وممانعه ، ومحاربة وموادعه ؛ ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للوحدين ، واستبطان الخديعة للمجاهدين ؛ وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى ؛ وأنه مُهْتَمٌّ بمُراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم ومُجْهَرهم ؛ وهو يُسِرُّ حَسْوَا في أرتغائه^(٤) ، ويُعْمِلُ الحيلة في التماس هُناك الوطن وأبتغائه . فتبًّا لعقول تقبل مثل^(٥) هذا المِحَال ، وتُصَدِّقُ هذا الكذب بوجهه أو بحال^(٥) ؛ وليت المغرور الذي يقبل هذا لوفكر في نفسه ، وعرض هذا المسموع على مُدركات حسّه ، وراجع^(٦) أوليات عقله وتجربيات^(٧) حدسه ، وقاس عدوه الذي لا تُرجى مودته على أبناء جنسه ؛ فأنا أنأشده^(٨) الله ، هل بات قطُّ بمصالح النصارى وسلطانهم مُهْتَمًّا ، وأصبح من خَطْب طَرَقهم مُعْتَمًّا ؛ ونظر لهم نظرَ المفكر في العاقبة الحسنه ، أو قصد لهم قصد

[٢٥]

(١) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « والمبالغة » .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الموافقة » . وهو تحريف .

(٣) الحسو : شرب السائل شيئاً بعد شيء . والارتغاء : احتساء الرغبة . وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره ، أو لمن يظهر طلب القليل وهو يسر أخذ الكثير .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « تقبل هذا المحال » .

(٥) في ط : « حال » .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « ورجع » .

(٧) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « تجربات » .

(٨) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « أنشده » .

المُدَبَّرُ فِي الْمَعِيشَةِ^(١) الْمُسْتَحْسَنُ ؛ أَوْ خَطَرَ عَلَى قَلْبِهِ أَنْ يَحْفَظَ فِي سَبِيلِ الْقُرْبَةِ^(٢) أَرْبَابَهُمْ وَصُلْبَانَهُمْ ، أَوْ عَمَرَ ضَمِيرَهُ مِنْ تَمَكُّنٍ عَزَمَ بِمَا تَرْضَاهُ أَحْبَابُهُمْ وَرُهْبَانُهُمْ ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ يَدِينِ بَدِينِهِمْ الْخَبِيثِ ، وَلَمْ يُشْرَبْ قَلْبُهُ حُبَّ التَّثْلِيثِ ؛ وَيَكُونَ صَادِقَ الْهَجَةِ ، مُنْصِيفًا عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ ؛ فَسَيَعْتَرِفُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَخْطُرْ لَهُ قَطُّ عَلَى خَاطِرٍ وَلَا مَرَّةً لَهُ بِيَالٍ ، وَأَنَّ عَكْسَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي كَانَ بِهِ ذَا أُغْتِبَاطٍ وَبِفَعْلِهِ ذَا أُهْتِبَالٍ^(٣) ، وَإِنْ نُسِبَ لَذَلِكَ الْمَعْنَى^(٤) ، فَهُوَ عَلَيْهِ أَثْقَلُ مِنَ الْجِبَالِ ، وَأَشَدُّ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ وَقْعِ النَّبَالِ ؛ هَذَا وَعَقْدُهُ^(٥) التَّوْحِيدِ ، وَصَلَاتِهِ التَّحْمِيدِ ؛ وَمِلَّتُهُ الْغَرَاءُ ، وَشَرِيعَتُهُ الْبَيْضَاءُ ؛ وَدِينُهُ الْحَنِيفُ الْقَوِيمُ ، وَنَبِيُّهُ الرِّءُوفُ الرَّحِيمُ ، وَكِتَابُهُ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ^(٦) ، وَمَطْلُوبُهُ بِالْهَدَايَةِ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ؛ فَكَيْفَ نَعْتَقِدُ هَذِهِ الْمِزْيَةَ الْكُبْرَى ، وَالْمَنْقِبَةَ الشُّمْرَى ؛ لِمَنْ عَقْدُهُ التَّثْلِيثُ ، وَدِينُهُ التَّمْلِيثُ^(٧) ؛ وَمَعْبُودُهُ الصَّلِيبُ ، وَتَسْمِيَّتُهُ التَّصْلِيبُ ؛ وَمِلَّتُهُ الْمَنْسُوخَةُ ، وَقَضِيَّتُهُ الْمَنْسُوخَةُ ؛ وَخِتَانُهُ التَّغْطِيسُ ، وَغَافِرُ ذَنْبِهِ الْقِسْيَسُ ؛ وَرَبُّهُ عَيْسَى الْمَسِيحُ ، وَنَظَرُهُ لَيْسَ الْبَيِّنُ^(٨) وَلَا الصَّحِيحُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ الرَّبَّ قَدْ ضُرِّجَ بِالْدِّمَاءِ ، وَسُقِيَ الْخَلْ عِوَضَ الْمَاءِ ؛ وَأَنَّ الْيَهُودَ قَدْ^(٩) قَتَلْتَهُ مَصْلُوبًا ، وَأَدْرَكَتَهُ مَطْلُوبًا^(١٠) ، وَقَهَرْتَهُ^(١١)

(١) كَذَا فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ . وَفِي ط : « الْعِيشَةُ » .

(٢) كَذَا فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ . وَالْقُرْبَةُ : التَّقَرُّبُ . وَفِي ط « الْغَرَبَةُ » .

(٣) الْإِهْتِبَالُ : تَحْنِيقُ الشَّيْءِ . وَاجْتِنَامُهُ .

(٤) كَذَا فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ ، وَفِي ط : « وَإِنْ نُسِبَ ذَلِكَ لِمَعْنَى » . وَفِي ت : « وَإِنْ نُسِبَ ذَلِكَ الْمَعْنَى » . وَمَا أُثْبِتْنَاهُ أَوَّلَى بِالسِّيَاقِ .

(٥) كَذَا فِي ط وَتَوْفِيقِ الطَّيِّبِ . وَفِي ت : « وَعَظُهُ » .

(٦) كَذَا فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ . وَفِي ط : « الْعَظِيمُ » .

(٧) تَمْلِيثٌ : مَخْتَلَطٌ أَمْرُهُ . يُقَالُ : رَأْسٌ مَلِيثٌ إِذَا اخْتَلَطَ شَعْرُهُ الْأَبْيَضُ بِالْأَسْوَدِ .

(٨) كَذَا فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ . وَفِي ط : « لَا أَتَيْنَ » .

(٩) هَذِهِ السَّكَلَةُ : « قَدْ » سَاقِطَةٌ فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ .

(١٠) هَذِهِ الْعِبَارَةُ « وَأَدْرَكَتَهُ مَطْلُوبًا » سَاقِطَةٌ فِي ت .

(١١) كَذَا فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ . وَفِي ط : « وَقَتْلَتَهُ » .

مغلوبا ؛ وأنه جَزِعَ من الموت وخاف ، إلى سَوَى^(١) ذلك مما يُناسب هذه
الأقاويل السَّخَّاف ؛ فكيف يُرَجَى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال^(٢) الذرَّة ،
أو يُطَمَع^(٣) منهم في جَلْبِ المنفعة أو دفع المضرة ؛ اللهم احفظ علينا العقل
والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين » . انتهى .

ومنه أيضاً ما نصه :

« كانت خزانة هذه الدار النصيرية^(٤) ، مشتملة على كل نفيسة من الياقوت ،
وبقيمة من الجوهر ، وفريدة من الزمرد ، وثمانية من الفيروزج ، وعلى كل
واقٍ من الثروع ، وحامٍ من العدة ، وماضٍ من الأسلحة ، وفاخر من الآلة ،
ونادر من الأمتعة ، فمن عقود فذة^(٥) ، وسلوك جمّة ، وأقراط تفضل على قرطى
مارية^(٦) ، نفاسة فائقة ، وحُسناً رائقاً ، ومن سيوفٍ شواذٍ في الإبداع ، غرائب
في الإعجاب ، منسوبات^(٧) الصفايح في الطبع ، خالصة^(٨) الحلى من التبر ؛ ومن
دروع مُقدّرة^(٩) السررد ، متلاحمة النسيج ، واقية للبأس^(١٠) في يوم الحرب ،
مشهورة النسبة إلى داود نبي الله ؛ ومن جواشن^(١١) سابعة اللبسة ، ذهبية الحلية ،

[٢٦]

(١) في ت : « غير » .

(٢) في نفح الطيب : « مقدار » .

(٣) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « يطلب » . وهو تحريف .

(٤) النصيرية : نسبة إلى بني نصر ، وهم بنو الأحمر أصحاب غرناطة .

(٥) في هامش نفح الطيب : « عدة » .

(٦) هي مارية بنت ظالم بن وهب الكندية ، زوجة الحارث الأكبر الغساني ؛ وكان
في قرطها لؤلؤتان عجبتان ضربت العرب بنفاستهما المثل .

(٧) معروفة بصانعيها .

(٨) في ت ونفح الطيب : « خالصات » .

(٩) في ط : « المقدودة » ، وهو تحريف .

(١٠) في ط ونفح الطيب : « للناس » .

(١١) الجواشن : الدروع .

هندية الضرب ، ديباجية الثوب ؛ ومن بيضات عسجدية الطوق ^(١) ، جوهرية التنضيد ^(٢) ، زبرجدية ^(٣) التقسيم ، ياقوتية المركز ؛ ومن مناطق لجنيية الصوغ ، عريضة ^(٤) الشكل ، مزججة ^(٥) الصفح ؛ ومن درق لمطية ^(٦) ، مضممة المسام ، ليئة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ؛ ومن قسي ناصعة الصبغة ، هلالية الخلقة ، منعطفة الجوانب ، زارية بالحواجب ، إلى آلات فاخرة ، من أتوار ^(٧) نحاسيه ، ومناور ^(٨) بلوريه ، وطيافير ^(٩) دمشقيه ، وسبحات ^(١٠) زجاجيه ، وسحاف صيدنيه ، وأكواب عراقيه ، وأقداح طباشيريه ^(١١) ، وسوى

- (١) في نفح الطيب طبع مصر : « الطرق » .
 (٢) في ط : « التنضيض » وهو تحريف .
 (٣) كذا في ت : ونفح الطيب . وفي ط « مجردية » وهو تحريف .
 (٤) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « عرضة » . وهو تحريف .
 (٥) كذا في نفح الطيب . وفي ت : « فرجية » وفي ط « برعمة » .
 (٦) نسبة إلى لمطة مدينة من المغرب الأقصى ينسب إليها الدرق ، لأنهم ينقعون الجلود في الحليب سنة ، فيعملونها ، فينبو عنها السيف القاطع .
 (٧) كذا في ت . والأتوار : آنية يشرب فيها ، وأحدها تور . وفي نفح الطيب : « أوتار » . وفي ط : « أتواق » ولا معنى لهذه الأخيرة .
 (٨) المناور : جمع منارة ، وتجمع على منائر ومنارات . وهي مايوضع عليه السراج . وقد ذكرها دوزي نقلا عن ابن إسحاق الشيرازي في عبارة نصها : « في آنية مختلفة الأعلى والأوسط والأسفل كالآباريق والأسطان الضيقة الرؤوس والمنارات (المنائر) » .
 (٩) الطيافير : كلمة مولدة لم ترد في معاجم اللغة . وذكرها دوزي في كتابه تكملة المعاجم العربية : « وهي أطباق مستديرة عميقة ، قاعها مستو ، وحافاتها مرتفعة نحو ثلاث بوصات أو أربع ؛ الواحد : طيفور ، ويقال فيه « تيفور » وتجمع أيضا على طيافر وطوافير » . وقد وردت أيضا ضمن عبارة في صبح الأعشى (ج ٥ ص ٢٠٥) هذا نصها : « فيمد لهم السباط ثرائد في جفان حولها طوافير ، وهي الخافي ، فيها أطعمة ملونة متنوعة » . وظاهر من عبارة صبح الأعشى أنها آنية ذوات أعطية .
 (١٠) كذا في الأصلين ونفح الطيب . والسبحات : جمع سبحة ، وهي خرزات تنظم في خيط للتسبيح ، وهي مولدة . وذكرها هنا بين أسماء آنية الطعام ووصفها بالزجاجية ، يشعر بأنها محرفة عن لفظ آخر .
 (١١) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين ورواية أخرى في نفح الطيب : « طباشيرية » ، ولعل المراد بالطباشير هنا : مادة خزفية أو نحوها .

ذلك مما لا يحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العد ؛ وكل ذلك ألهمه ^(١) شواط ^(٢) الفطنة ، والتقمة تيار الخلاف والفرقة ؛ فرزنت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله ، وتقتصر ديار الملوك المؤتلة النعمة عن بعضه فضلا عن كله . انتهى .
وسنذكر من كلامه رحمه الله بعد هذا ، زيادة على ما جلبناه الآن ، والله المستعان .

وكانت غرناطة منتهى الآمال ، ووُسْطَى قِلادة الأمصار ، ولم تزل محاسنها
مَجْلُوة على منصة الدهور والأعصار . وقد استولى ^(٣) وصفها لسان الدين الوزير
أبو عبد الله بن الخطيب في كتاب الإحاطة ، ويرحم الله القائل :

غَرْنَاطَةٌ مَا لَهَا نَظِيرٌ مَا مِصْرُ مَا الشَّامُ مَا الْعِرَاقُ ؟
مَا هِيَ إِلَّا الْعُرُوسُ تُجَلَّى وَالْأَرْضُ مِنْ جُمْلَةِ الصَّدَاقِ ^(٤)

قال الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن [أحمد بن] ^(٥) الحدّاد الشهير
بالوادي آشى ، نزيل تلمسان :

كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، الفائقة السّجال ، من الإحاطة ، في
تاريخ غرناطة ، المحبسة على المدرسة اليوسُفِيّة ، من الحضرة العليّة ^(٦) ، بخط
قاضى الجماعة ، ومنفّذ الأحكام الشرعيّة المطاعه ، صدرّ البلغاء ، وعلم العلماء ،
ووحيد الكبراء ، وأصيل الحُسباء ، الوزير الرئيس المعظم أبى يحيى بن عاصم ،
رحمة الله عليه ، ما نصّه :

[٢٧]

(١) كذا فى إحدى روايتى نفع الطيب . وفى الأصلين ورواية أخرى بنفع الطيب

« التّهمه » . ولم يرد هذا الفعل متعديا فى كتب اللغة . ولعله محرف عن « التّهمه » .

(٢) الشواط : لهب النار .

(٣) يريد : « تولى » . ولم يرد فى المعاجم « استولى » متعديا إلا بالحرف .

(٤) رواية الشطر الثانى من البيت فى نفع الطيب : « وتلك من جملة الصّدّاق » .

(٥) زيادة عن الإحاطة .

(٦) فى ط : « العالیه » .

« الحمد لله ، الاستدلال بالاثَر على المؤثَر مما سَلَّمه الأعلام ، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام ؛ وهو الحُجَّة المُعْتَمَدَة حين تتفاضل الأبواب ، وتتناقصر الأفهام ، وبه الاستمساك إن طَرَقَت الشكوك ، أو عرضت الأوهام . وحسبُك بما يُسَلَّم في هذا المقام المتعالى من الأدله ، وما يُعْتَمَد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستَقْلَة ؛ لتحقيق أن يُتَلَقَّى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفنّ المشار إليه بالقبول ، ويُستَقْبَل المُهْتَدَى لا ستنباطه لما فيه من التّبَادُر إلى الأفهام والتسابق للعقول ؛ وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة سالك على سواء سبيل ، ومنتمٍ من صحة النظر إلى أكرم قبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين ^(١) أبى عبد الله بن الخطيب رحمه الله ، من أثر هذه الدولة النّضرية — أدامها الله — بكل اعتبار ، ومآثرها التي هي عبرة لأولى الأبواب ، وذكرى لأولى الأبصار .

أما الأول فلأن الأنبياء التي أظهرت صحتها ^(٢) ، وأوضحت حجتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصعدّها ، إنما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، وأخبار ^(٣) من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حَمَلَة السيوف والأقلام ؛ وأفذاذ حفظة الدين والدنيا ، والشرف والعلميا ، والمُلك والإسلام ؛ أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة المُلك ، ويُنظَم ^(٤) نظم الجُمان ^(٥) في ذلك السّلك ، من حَصَانَة قَلْعَتِهَا ، وأصالة ^(٦) منْعَتِهَا ؛

(١) في ط : « ذي الوزارة » . وهو تحريف .

(٢) في ت : « ظهرت بهجتها » .

(٣) في ت : « أو أخبار » .

(٤) في ت : « ينظم » .

(٥) في ت : « الجمال »

(٦) في ط : « وأصانة » . وهو تحريف .

وقدِيم اختطاطها ، وكريم جهادها ورباطها ؛ وحُسْن ترتيبها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل رُبْعها ؛ وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فن قَبِيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ، ممن انتابها ^(١) من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل .

وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة ^(٢) ، ومُبدع محاسنها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوة ، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمة ، ونشأة ^(٣) من نشآت جودها الشامل النعمة ، الهامل الديمة ؛ فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف ، على الإنصاف ، فأخلاف ^(٤) هذه المسكارم النَّصْرِيَّة أَرْضَعته ، وعنايتها الجميلة أَسَمته ، فوق الكواكب ورفعته ؛ وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشریفها اكتسب ، من الفضل الظاهر ما اكتسب . والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره ، بل أفضقه ^(٥) الذي أشرق فيه بدره ؛ والتشريفات السلطانية هي التي فَتَقَتِ اللَّهْمَى بِاللَّهْمَى ^(٦) ، وأحلت من مراقى العزِّ فوق الشَّهْأ ^(٧) ؛ وأمكنت الأيدي ^(٨) من الذَّخَائِرِ والأَعْلَاقِ ، وطوقت المِنَنِ كَالْقَلَانِدِ في الأعناق ؛ وقلدت الرئاسة والأقلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ؛ فبهرت أنواع المحاسن ، وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الآسن ؛ وبرَعَتِ التتواليف ، في الفنون المتعددة ، واشتهرت التصانيف ، ومنها هذا التصنيف المشار إليه ، لما له

[٢٨]

(١) كذا في ط . وانتابها : قصدها . وفي ت : « انتهى بها » .

(٢) في ط : « المتأصرة » . وهو تحريف .

(٣) النشأة : السجاية الناشئة .

(٤) الأخلاف : جمع خلف ، وهو من ذوات الخف بمنزلة الثدي للإنسان .

(٥) في ط : « بالفقه » وهو تحريف .

(٦) اللهى (بالفتح) : جمع لهة ، وهي اللحمة المشرفة على الحلق ، واللهى (بالضم) :

جمع لية ، وهي العطية .

(٧) السها : كوكب خفي من نبات نعش ، ويضرب به المثل في العلو والارتفاع .

(٨) في ط : « الأيادي » .

من الأذمة المتأكده . وإذا ^(١) ظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتبه
الإجمال ، فلنفسح ^(٢) الآن بما قصد ، ولنحقق من أنجُم السعادة ما رصد ، وذلك
أن لمولاي ^(٣) أمير المؤمنين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله ، المؤيد
بنصره أبي عبد الله ، محمد بن الخلفاء النصريين — أيده الله ونصره ، وسنّى له الفتح
المبين ويسره — ما تر لم يسبق إليها ، ومكارم لم يجز أحد من وُسَم الكرم عليها ،
لجلالة قدرها ، وضخامة أمرها ؛ من ذلك هذا القصد الذي آثر لها كالكتاب
المذكور وسواه ، مما هو واحد وقد ^(٤) في معناه ؛ عَقْد في جميعها التحميس على
أهل العلم والطلبة بحضرته العلية ^(٥) هنالك ، ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ؛
والله ينفع بهذا القصد الكريم ، ويتولّى المثوبة على هذا العقد الجسم .

وهذه النسخة في اثني عشر سِفرًا ، متفقة الخط والعمل ، اكْتُتِب هذا
على ظهر الأول منها بتاريخ ^(٦) رجب الفرد ، عام تسعة وعشرين وثمان مئة ،
عرف الله بركته بمنّه ، آمين ^(٧) . انتهى .

وقال الوزير أبو يحيى بن عاصم المذكور ، قدّس الله روحه الطيبة ، وسقى ^(٨)
مشواه غيث رحمته الصّيبه ، في كتابه المسمى بـ « الروض الأريض » ^(٩) ، في ترجمة
شموس العصر ، من ملوك بني نصر ، في اسم الغني بالله محمد بن يوسف بن إسماعيل
ابن فرج بن نصر الخزرجي ، بعد كلام ما نصه :

نبذة من كتاب
الروض لابن عاصم
عن ابن يوسف

(١) في ط : « إذا » بدون واو .

(٢) في ت : « فالنفسح » .

(٣) في ت : « لمولانا » .

(٤) في ت : « ... واحد في فنه وفي معناه » .

(٥) في ط : « العليا » .

(٦) في ط : « وبتاريخ » .

(٧) هذه الكلمة « آمين » ساقطة في ت .

(٨) في ط : « وسقاه غيث » .

(٩) بقية الاسم في نفح الطيب : « في تراجم ذوى السيوف والأقلام والفريض » .

« كان قد جرى عليه التمهيص الذي أزعجه عن وطنه ، إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بنى مرين ، فأفادته الحُنْكَةُ والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخنا على حقيقتها ، وانهجوا واضح طريقتها ، وبلغتنا منقولة بالسنة صدقهم ، [٢٩] معبراً عنها في عرف التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيس ، والرئيس الجيهذيجريان من الاستقامة على قانون ، ولا يطرّدان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت^(١) من العوائد ؛ وكان ذوو الثبيل من هذه الطبقة ، وأولو الحذق من أرباب هذه المهن السياسية ، يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تمييزه لما قعد ، ويرون التفسدة بالخروج^(٢) عنها ضربة لا زب^(٣) ، وأن الاستمرار على مراسمها آكد^(٤) واجب ؛ فيمتحرونها بالالتزام كما تتحرّى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كما تتوخى^(٥) الفرائض ، وسواء تبادر لهم معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وجهه رسمها فجهلوه . »

مثل من حرص
ابن الخطيب على
العوائد

حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسنى :
أن الرئيس أبا عبد الله بن زمرّك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل ، مما يتوقف^(٦) عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله . قال الشريف : فأماهاكلها له^(٧) ، ما عدا واحدة منها تضمّنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ذو الوزارتين

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « أثبت » .

(٢) في ط : « في الخروج » .

(٣) في ط : « لازم » .

(٤) في ط : « واكد » .

(٥) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين « تقام » .

(٦) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « توقف » ،

(٧) هذه الكلمة : « له » ساقطة في ت .

[ابن الخطيب] ^(١) : لا والله يا رئيس أبا عبد الله ، لا آذن لك في هذا ، لأننا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

[ثم] ^(٢) قال صاحب الروض :

فلما تأذن الله [تعالى] ^(٣) للدولة بالاضطراب ، واستحكم الوهن بتمكن الأسباب ؛ عدل عن هذه القواعد ^(٤) الراسخة ، واستخف بتلك القوانين ^(٥) الثابتة ؛ فنشأ من المفساد ما أعوز رفعه ، وتعذر وتره وشفعه ، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه ، وتعذر فيه الدواء الذي يُرجى نفعه ؛ وكان قد صحبه من الجد ما سنى آماله ، وأنجح — بإذن الله — أقواله وأعماله ؛ فكان يُجرى الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ؛ ثم يحفه ^(٦) من الجد سياج لا يفارقه ، إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله .

انتهى كلام ابن عاصم ، وإنما أتيت به لغرابته .

وقال أبو عبيد البكري رحمه الله :

[٣٠] « الأندلس شامية في طيها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين » ^(٧) .

اضطراب
أمر الأندلس
بالخروج على
القواعد

وصف البكري
للأندلس

(١) زيادة عن نفع الطيب .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) زيادة عن نفع الطيب .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : تلك « العوائد » .

(٥) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « القواعد » .

(٦) كذا في ت . وفي ط : « يحبه » .

(٧) لكلام أبي عبيد البكري بقية ذكرها المؤلف في نفع الطيب (ج ١ ص ٦٤ طبعة المطبعة الأزهرية) .

وقال ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب :

خص الله بلاد الأندلس من الربيع ، وغدق السقياء ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة
الحيوان ، ودُرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبَحَّر العمران ، وجودة اللباس ،
وشرف الآنية وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابتياض ألوان الإنسان ^(١) ،
ونبل الأذهان ، وقبول الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، وإحكام
التمدن والاعتماد ، بما حرمة ^(٢) الكثير من الأقطار ، مما سواها .

ثم قال : وحديث الفتح ، وما فتح الله على الإسلام من المنح ، وأخبار
ما آفاه الله من خير ، على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ،
تملؤل قصاص وأوراق ، وحديث أُفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ؛ وعظم ^(٣)
امتشاش ^(٤) ، وآلة مُعلّقة في دُكان قشاش ^(٥) . انتهى .

ولا خفاء بما كان ملوك المسلمين بالأندلس والمُعدوة على النصارى — دمرهم
الله — من الاستطالة والغلبة ، حتى وقع التخاذل والتدابر ، فانعكس الأمر . وقد
حكى غير واحد أن دُن جانجه ^(٦) بن دُن الفُش ، استنصر على أبيه بالسلطان
المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، ولأذبه ، ورهن عنده
تاجه ^(٧) ذخيرة النَّصارى ، ولقيه بصخرة عباد ، من أخواز زُنده ، فسلم عليه ،

(١) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الأسنان » .

(٢) في ت : « أحرمة » .

(٣) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « وأعظام » .

(٤) امتشاش العظم : مصه ممضوغا لاستخراج ما فيه . يريد أن الحديث في هذا
مفروغ منه كالعظم الذي امتش ، فلم يبق فيه شيء .

(٥) القشاش : الذي يبيع القديم البالي من سقط المتاع . (عن دوزي)

(٦) كذا في ط . وفي الاستقصا للسلوى (ج ٢ ص ٢٧ طبع مصر) : « شانجه »
وفي ت : « تجانجه » . ثم إن السلوى ذكر أن المستنصر هو هراذه أبو شانجه .
على العكس مما ساق المؤلف هنا .

(٧) في ط : « تاج » .

ويقال إن أمير المسلمين^(١) لما فرغ من ذلك ، طلب بلسان زَنَاتَةَ^(٢) الماء ، ليغسل يده به من قُبْلَةِ الْفُنْشِ ، أو مصاخته^(٣) .

ابن الخطيب :

تعقيب لابن
الخطيب على
قصة أبي يوسف

« والشئ يذكرك بالشئ » ، فَأُثْبِتُ حِكَايَةَ اتَّفَقْتُ لِي بِسَبَبِ ذَلِكَ ، أَسْتَدْعِي بِهَا الدِّعَاءَ مِمَّنْ يَحْسُنُ عِنْدَهُ مَوْقِعُهَا ، وَهِيَ أَنَّ الْيَهُودِيَّ الْحَكِيمَ ابْنَ زَرْزَارَ ، عَلَى عَهْدِ مَلِكِ النَّصَارَى ، حَفِيدِ هَذَا الْفُنْشِ الْمَذْكُورِ ، وَصَلَ إِلَيْنَا بِغَرْنَاطَةَ فِي بَعْضِ حَوَائِجِهِ ، وَدَخَلَ إِلَى بَدَارِ سَكْنَايَ ، مجاوراً لقصر السلطان بحمراء غرناطة ، وعندى القاضى اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة ، وببيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي^(٤) عبد الرحمن بن السلطان الكبير المولى أبى الحسن ، وكان محمد هذا قد فرَّ إلى صاحب قَشْتَالَةَ ، واستدعى مِنْ قَبْلِهِ إِلَى الْمُلْكِ ، فَسَهَّلَ لَهُ ذَلِكَ ، وشرط عليه ما شاء ؛ وربما وصله خطابه بما لم يُقِنِّعْهُ فِي إِطْرَائِهِ ، فقال [لى^(٥)] : مولاي السلطان دُنْ بطره يُسَلِّمُ عَلَيْكَ ، ويقول لك : أَنْظِرْ مَخَاطَبَةَ هَذَا الشَّخْصِ ، وَكَانَ بِالْأَمْسِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ بَابِهِ ، حَتَّى تَرَى خَسَارَةَ الْكِرَامَةِ فِيهِ . فَأَخَذْتَ الْكِتَابَ مِنْ يَدِهِ ، وَقَرَأْتَهُ وَقُلْتَ لَهُ : أَبَاغَهُ عَنِي أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مَا جَرَّكَ إِلَيْهِ إِلَّا خُلُوءُ بَابِكَ مِنَ الشِّمُوحِ ، الَّذِينَ يُعَرِّفُونَكَ بِالْكِلَابِ وَبِالْأَسْوَدِ ، وَبِمَنْ تُغَسِّلُ الْأَيْدَى مِنْهُمْ إِذَا قَبَّلُوهَا ، فَتَعْلَمُ مِنَ الْكَلْبِ الَّذِي تُغَسِّلُ الْيَدَ مِنْهُ ، وَمَنْ لَا ، وَأَنَّ جَدَّ هَذَا الْوَلَدِ الَّذِي قَبَّلَ جَدُّكَ يَدَهُ ،

(١) فى ط : « المؤمنين » .

(٢) فى ط : « الزنانية » .

(٣) فى ت : « ومصاخته » .

(٤) كذا فى ت والاستقصا . وفى ط : « محمد بن عبد الرحمن » وهو تحريف .

(٥) زيادة عن ت .

واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضّر النصارى والمسلمين ؛ ونسبة الجدّ إلى الجدّ كنسبة الحفيد إلى الحفيد ؛ وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه ، وأنت مُعرّض إلى اللّجأ إليه ، فيكافئك بأضعاف ما عملته^(١) به . فقام ابن الحسن المستقصى يبكي ، ويُقبّل يدي ، ويصفّني بولّى الله ، وكذلك مَنْ حضرني . وتوجّه إلى المغرب رسولاً ، فقصّ على بنى مرّين خبر ما شاهدته منى وسمعه ؛ وبالحضرة اليوم من تلقى منه ذلك كثير ، جعل الله ذلك خالصاً لوجهه » . انتهى .

ولما تقلّص ظلّ^(٢) الإسلام بالجزيرة ، أعادها الله للإسلام ، واسترد الكفار ، دمرهم الله ، أكثر أمصارها وقراها ، على وجه العنوة والصلح والاستسلام ، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حمّيات^(٣) ذوى البصائر والأبصار ، ويستنهضون عزّماتهم من كل الأمصار .

فمن ذلك ما كتب به الكاتب الرئيس أبو عبد الله بن زمرّك رحمه الله لابن زمرّك لما نزل المسلمون بآخر مرّج غرناطة ، متوجهين لفتح خير :

« اعلّموا أنا ندّ كرّكم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم ؛ إن هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده إليها ، وحضّهم عليها ؛ فالآيات في المصاحف مسطوره ، والأحاديث مشهوره ؛ لبيع النفوس فيها من الرّحمن ، وبذل المهج رغبة في حصول ثواب الملك الدّيان ، ينزل الله فيها الملائكة المسوّمين . وتفرّج الحُور العين ، وتَسِح الرحمة من رب العالمين ، ويباهى الله ملائكته^(٤) بالجهادين ؛ وقد

(١) في ط : « ما عملته » .

(٢) في ط : « ذيل » .

(٣) في ط : « حماة » .

(٤) في ت : « الملائكة » .

بعض ما كتب
في استنهض
الهمم ضد
النصارى

تضافرت على ذلك النصوص ، وكفى شرفاً للفوز بمحبة الله في قوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانُ مِنْهُمْ مُبْنِيَانُ مَرَّضُونَ) ؛ فينبغي فيه الاستغفار من سالف الذنوب ، وتطهير السرائر والقلوب ، واجتماع الأيدي [٣٢] والكلمة في مَرْضَات عَلَام الغيوب .

لابن الخطيب

وأبلغ منه ما كتب به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب في الحث على الجهاد ، والترغيب فيه ، وهو :

«أيها الناس ، رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون قد دَهَمَ العدو — قَصَمَهُ الله — ساحتهم ، ورام الكفر — قَبَحَهُ الله — استباحتهم ؛ وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ^(١) ، ومد الصليب ذراعيه إليهم ؛ وأيديكم بعزة الله أقْوَى ، وأتم المؤمنون أهل البر والتقوى ؛ وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرُّشْد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تَعَيَّنَ : الجارَ الجارَ ، فقد قرر الشرع حقه وَبَيَّنَ ؛ الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه السلام ؛ الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله [الله في ^(٢)] وطن الجهاد في سبيل الله ؛ قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهدُ الله وحاشاكم أن تَنْكُثُوهُ ؛ أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير ، يَصِلِ اللهُ لَكُمْ ^(٣) جميل العوائد ؛ صَلُّوا رَحِمَ الكلمة ، وآسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المُسْلِمَةِ ؛ كتابُ الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تنادىكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله يقول فيه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ) . ومما صح عنه قوله : « من اغْتَبَرَتْ قدماء في سبيل

(١) في ط : « إليهم » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) في ط : « إليكم » .

الله حَرَمَهُما اللهُ على النار . « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودُخان جهنم » (١) .
« ومن جَهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزى » . أَدْرِكُوا رَمَقَ الدين قبل أن يفوت ،
بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ؛ احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم
عن عبادته ، جاهدوا في الله بالألسُن والأموال حق جهاده :

ما ذا يكون جوابكم لنبيكم وطريقُ هذا المُذْرِ غيرُ مُمَهَّدٍ
إن قالَ لِمَ فَرَطْتُمْ في أُمَّتِي وتركتموهم للعدوِّ المُعْتَدِي
تالله لو أنَّ العقوبةَ لم تُخَفْ لكفى الحَيَا (٢) من وجه ذاك السَّيِّدِ

[٣٣] اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بُثِّ لنا الحَمِيَّةَ في البلاد ، اللهم دافع
عن الحريم الضعيف والأولاد ؛ اللهم انصرنا على أعدائك بأحبابك وأوليائك
يا خير الناصرين ، اللَّهُمَّ أَفْرِغْ علينا صَبْرًا وثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا على القوم
الكافرين . وصَلَّى اللهُ على سيدنا [ومولانا] (٣) محمد ، وعلى آله وصحبه وسَلَّمَ
تسليماً . انتهى .

واستمر الأمر بالجزيرة على هذه الحالة مدة ، والمسلمون لا يزدادون إلا ضعفا
والعدوُّ تَكَالَبًا وشِدَّةً ؛ حتى استولى على الجزيرة بأسرها ، وشرَّح ذلك يطول .
وكان استيلائه على حمراء غرناطة ، ودخول جيشه [لها] (٤) [ثاني ربيع النبوي ،
من عام سبعة وتسعين وثمان مئة . هكذا رأيته في تأليف لبعض المتأخرين ، ضمَّنه
القضية ، وألقه بسببها ؛ على أني رأيت بخط الفقيه أبي عبد الله الوادي أشي
ما يخالف ذلك ، وهو (٤) أنه أورد رسالة لابن الخطيب يخاطب بها السلطان أباسالم

(١) تنمة الحديث كما في سنن النسائي : « في منخرى مسلم أبدا » .

(٢) الحيا : مقصور من الحياء .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) في ت : « وذلك » .

المريني ، نصّ محل^(١) الحاجة منها :

« ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت غروة تأميلكم ، أو أعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه » . انتهى .

فكتب بطرّته أبو عبد الله الوادي آشي المذكور^(٢) ما نصه :

« كذلك وقع آخر الأمر . وكان الاستيلاء على غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام ، في محرّم [عام]^(٣) سبعة وتسعين وثمان مئة ، فرحم الله ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ، وغفر له برحمته » . انتهى كلام الوادي آشي .

على أنه قد يظهر من كلام بعضهم أن الصلح كان في محرّم ، ودخول الجيش القصبة الحمراء كان في ربيع ، فلا منافاة ، والله أعلم .

ورأيت بخط الإمام الوانشريشي^(٤) سيدي عبد الواحد رحمه الله ما نصه :

« استولى العدو على جبل الفتح سنة ست وستين وثمان مئة ، وعلى الحمة^(٥) »

تاسع المحرم يوم الخميس عام سبعة وثمانين وثمان مئة ؛ وفي عام خمسة وتسعين وثمان مئة استولى العدو على جميع [بلاد]^(٦) الأندلس ماعدا غرناطة وبشرتها^(٦) ،

وكان قبله في عام اثنين وتسعين استولى على مالقة في رمضان منه ، وفي عام سبعة وتسعين استولى على غرناطة » . انتهى .

(١) هذه الكلمة « محل » ساقطة في ت :

(٢) هذه الكلمة : « المذكور » ساقطة في ت .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) كذا في نفح الطيب طبعة أوربة . والوانشريشي : نسبة إلى وانشريش (بالنون وشينين معجمتين وراء ثم ياء) : جبل بين مليانة وتلمسان من نواحي المغرب .

وفي الأصلين وهامش نفح الطيب : « الوانشريسى » .

(٥) الحمة : من أعمال مرسية . (عن تكملة كتاب الصلة) .

(٦) كذا في نفح الطيب وفيما سيأتى في الأصلين . وظاهر من سياق نفح الطيب أنها ضواح لغرناطة أو مواضع بها . وفي الأصلين هنا : « وبشارتها » .

خروج أمير
الحمراء ابن
أبي الحسن
إلى فاس

[٣٤] ولما دخل النصارى إلى الحمراء خرج أميرها أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن على النّصرى ، واشترط المسلمون على العدو الكافر شروطاً أظهر قبولها ، وبسط لهم جناح العدل ، حتى بلغت بزعمهم نفوسهم مأمولها ؛ وكان من جملة ما أن من شاء البقاء عنده أقام في ظل الأمان^(١) مُسَكِّراً ، ومن أراد الخروج إلى برّ العدو أنزل بأى بلاد شاء منها ، من غير أن يُعْطَى كِراء ولا مَغْرماً ؛ وأظهر للمسلمين العناية والاحترام ، حتى كان النصارى يَحْسُدُونهم في ذلك ، ويقولون لهم : أتم عند ملكنا أعز وأكرم منا ؛ ووضع عنهم المغارم ، حيلة منه وكيداً ، ليغزوهم بذلك ، ويُثَبِّطهم عن الجواز . فوقع الطمع لكثير من الناس ، وظنوا أن ذلك البرق ليس بخُلْب ، فاشترى كثير من المقيمين الرباع العظيمة ، ممن أراد الذهاب للعدوة ، بأرخص الأثمان ، وأمر — لعنه الله — بانتقال سلطان غرناطة أبي عبد الله إلى قرية أندَرش^(٢) ، من قرى البشارة ، فارتحل أبو عبد الله بعياله وحشمه ، وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ثم ظهر للطاغية أن يُجيزه إلى العدوة ، فأمره بالجواز ، وأعد له المراكب العظيمة ، وركب معه كثير من المسلمين ، ممن أراد الجواز ، حتى نزلوا بمليلة^(٣) من ريف المغرب ، ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس — حرسها الله — وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤال ، بعد الملوك الطويل العريض ، فسبحان العزّ المذلّ ، المانح المانع ، لا إله إلا هو .

(١) هذه العبارة : « في ظل الأمان » ساقطة في ت .

(٢) كذا في ط ونسخ الطيب وتقوم البلدان . وفي ت : « أندرس » بالسین المهملة ، وهو تصحيف .

(٣) مليلة (بوزن سفينة) : مدينة قديمة مسورة على بحر الزقاق (انظر المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) .

وفاته وشيء عنه
وعن عقبه

وكان خلع أبيه أبي الحسن يوم الأحد ثالث جمادى الأخرى من عام تسعين
وثمان مئة ، خلعه أخوه^(١) ، ودخل أبو عبد الله المذكور ، ابن أبي الحسن^(٢) ، رِبَصَ
البَيْتَازِينَ سَادِسَ عَشَرَ شَوَّالَ عام واحد وتسعين ، وافتك ملك أبيه من يد عمه ،
وتوفي رحمه الله بفاس عام أربعة وعشرين وتسع مئة ، ودفن بإزاء المصلى ،
خارج باب الشريعة ، وخلف ولدين ، اسم أحدهما يوسف ، والآخر محمد^(٣) ،
وعقبه الآن بها كما ذكرناه ، والله وارث الأرض ومن عليها ، والله خير الوارثين .

حال المسلمين
بعده بالأندلس

وكان من قدر الله تعالى أنهم لما وصلوا مدينة فاس أصاب الناس بها شدة
عظيمة ، من الجوع والغلاء والطاعون ، حتى فرّ كثير منها بسبب ذلك ، ورجع
بعض أهل الأندلس إلى بلادهم ، فأخبروا بتلك الشدة ، فتقاعس من أراد الجواز ،
وعزّموا على الإقامة والدّجن^(٤) ، ولم يُجِزْ النَّصَارَى أحدا بعد ذلك إلا بالكراء
والمعمر وعُشْرَ المال ، فلما رأى الطاغية أن الناس قد تركوا الجواز وعزّموا على
الاستيطان والمُقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط التي اشترط عليه المسلمون أول
مرة ، ولم يزل ينقضها فصلا فصلا ، إلى أن نقض جميعها ، وزالت حرمة المسلمين ،
وأدركهم الهوان والدّلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم المغارم الثقيلة ،
وقطّعت عنهم الأذان في الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الأرباض
والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصّر ، وأكرههم
عليه ، وذلك سنة أربع وتسع مئة ، فدخلوا فيه كرها ، وصارت الأندلس كلها

[٣٥]

(١) في ط : « وكان أبوه أبو الحسن خلع سنة تسعين وثمان مئة ، خلعه أخوه يوم

الأحد ثالث جمادى الأخرى من العام » .

(٢) هذه العبارة : « ابن أبي الحسن » : ساقطة في ت .

(٣) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « أحمد » .

(٤) الدجن : الإقامة .

دار كُفر ، ولم يبق من يَجْهر بكلمة التوحيد والأذان ، وجُعِلت في المساجد والمآذن النواقيسُ والصُّلبان ، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لا رادَّ لما قضاه الله الملك الديَّان .

وقد رأيت لبعضهم رسالة ببعض شرح ذلك ، ونصها :

« وتعرَّفنا من غير ما طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قُطِر الأندلس — نظر اللهُ إليه ، وعاد بنوره عليه — طَرَقَ أهله خُطْبٌ لم يَجْر في سالف الدهر ، وذلك أنهم أُكْرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطقُ بما يقتضى في الظاهر الكفر ، ولم يُقبَل منهم الأشر ؛ وكان الابتداء في ذلك من أهل غرناطة — جدَّد الله رُسْمها ، وأعاد إلى بلاد المسلمين ^(١) اسمها — وخصوصا أهل واسطتها ، لقلة الناس ، وكونهم من الرعيَّة الدَّهَاء ، مع عدم العصبيَّة ، بسبب اختلاف الأجناس ؛ وعلم النصارى — دمَّرهم الله — بأن من بقى بها ^(٢) من المسلمين إنما هم أسارى في أيديهم ، وعيال عليهم ؛ وبعد أن انتزعوا منهم ^(٣) الأسلحة والمعازل ، وعَتَوْا فيهم بالخروج والجلَاء ، فلم يبق من المسلمين طائِل ؛ ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بُنوده ؛ من غير مَعذرة لَفَقَّها ، ولا كَذْبة في مَعْرِض العذر نَمَّقها ، إلا أعجازا من الكفر ، وصدورا من الغيظ والمكر ، وخالص الغدر ، جَمَعها وفرَّقها ؛ وكان الطاغية إذ ذاك بِاشْبِيلِيَّة — جبرها الله ، وجعل بها قبره ، ووقى المسلمين والإسلام شَرَّه — وبعد أن كان [قبل ^(٤)] قد انسل إلى غرناطة انسلال

(١) في ت : « الإسلام » .

(٢) في ت « منها » .

(٣) في الأصلين : « لهم » .

(٤) زيادة عن ت .

رسالة في ذكر
ما جرى للمسلمين
في الأندلس

القطا إلى الماء ، وطلع إليها طلوع الرقيب على خلوات الأحباء ؛ وأمر بإخلاء
الأرباض ، وأذن في السفر في البحر للأبماض ، ولم يُحضر من الأجفان ^(١) إلا القليل ،
وما كان قصده إلا التفريق والتهويل ؛ على ما عهد من غدر النصارى وطفيتهم ،
[٣٦] وفعلهم الذم مع المسلمين وثورأنهم ؛ والإعلان بمحنتهم ؛ والحرص على ارتدادهم
وفتنهم ؛ وأقام بعد انصرافه عنها ، وخروجه منها ، بإشبيلية مُدَيِّدة ، وعقاربه
لأشباعه من النصارى بفرناطة تدب وتسرى ، ونفسه الخبيثة بالعاب ^(٢) تفرى ؛
ثم انتقل عن الوسطة للبيازين ، حيث الحمية ، والنصرة الإيمانية ^(٣) ، مع
السراجة والنحية ^(٤) ، والعقل الرصين ، والدين المتين ؛ فجعل صغها ذلولا ،
وأعاد للكفر كرها من كان بحضرتها ، وتمتع أحزاب الشيطان — قصمهم الله —
بنصرتها ، نسأل الله تعالى أن يجعل تمتعهم قليلا .

وزيادة ^(٥) الخبر :

تنكيل طاغية
قشتالة وأرغون
بالمسلمين

« أن طاغية قشتالة وأرغون — قصمهم الله — صدم غرناطة صدمه ،
وأكره على الكفر من بقي بها من الأمة ؛ بعد أن هيض جناحهم ^(٦) ، وركدت
رياحهم ؛ وجعل بعد جند الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية
يزدهى في الكفر ويختال ؛ ودين الإسلام تُنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس
معالمه ورُسومه ؛ فلورأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان

(١) الأجفان : كلمة أندلسية ، بمعنى السفن . ذكرها دوزي في معجمه .

(٢) كذا في ط . وفي ت : « بالعار » .

(٣) في ط : « الأمانية » .

(٤) كذا في ط . وفي ت : « مع السداجة والفحمة » ولا معنى للروايتين .

(٥) في ت : « وزيدة » .

(٦) في ت : « جناهم » .

كل مسلم يندبُه ويبيكيه ؛ فقد عَبَثَ البلاء برُسومه ، وَعَقَى على أقداره ونجومه ؛ ولو حضرتم من جُبرٍ بالقتل على الإسلام ، وتَوَعَّدَ بالنَّكال والمهلك العظام ؛ ومن ^(١) كان يُعَذَّبُ في الله بأنواع العذاب ، ويُدْخَلُ به من الشدة في باب ويُخْرَجُ من باب ؛ لأنَّسَاكم مَصْرَعُهُ ، وساءكم مَقْطَعُهُ ؛ وسيوف النصارى إذ ذاك على رموس الشرِّ ذمة القليلة من المسلمين مَسْئولُهُ ، وأفواه الزاهلين محلوله ؛ وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر أنْ يُمَطَّلَ ، ولا يلبثُ حيناً ولا يُمَهَّلَ ؛ وهم يكابدون تلك الأحوال ^(٢) ، ويطلبون لطف الله في كل حال . انتهى .

وكان جماعة من علماء الأندلس خرجوا إلى تِلِمَسَانَ ، منهم القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرَق ، صاحب الشرح العجيب على مختصر خليل ، وكتاب السياسة للملخص من مقدمة تاريخ ابن خلدون ، وفيه زيادات بديعات ^(٣) ، وكتاب روضة الإعلام ، بمنزلة العربية من علوم الإسلام ، وغير ذلك ، وارتحل من تِلِمَسَانَ إلى المشرق ، وسُئِلَ بذكره . ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي ، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة ^(٤) ؛ ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها ، وأنه أخذها لا محالة ، قَوَّضُوا رِحَالَهُمْ عنها ، فنزلوا بتِلِمَسَانَ المحروسة ، وأُخِذَت الحاضرة الغرناطية ^(٥) بعد ارتحالهم بقریب ، رحمهم الله . ومنهم الفقيه الأديب ، حائز قَصَبِ السَّبْقِ في كثرة النسخ والكتابة ، أبو عبد الله محمد بن الحدَّاد الشهير بالوادي آشي ، وسنذكره إن شاء الله ، رحم

[٣٧]

(١) في الأصلين : « ولن » .

(٢) في ط : « الأحوال » .

(٣) في ت : « زيادة بديعة » .

(٤) في ت : « أخذها » .

(٥) في ت : « وأخذت غرناطة » .

الله الجميع^(١) . ومن خرج بفاس من العلماء ، الفقيه أبو العباس البقّاني^(٢) ، ثم رجع إلى غرناطة ، وقضيته معروفة .

كتاب ابن الأحمر
لصاحب فاس

ولا بأس أن نورد كتاب السلطان أبي^(٣) عبد الله بن الأحمر المخلوع المذكور ، الذي بعث به لصاحب فاس^(٤) في ذلك العهد ، تمهيداً لمؤذره ، وتوطئة لمقصده ؛ وتطارحاً على تلك الأبواب وتماقياً ، وتمشكاً بذلك الجناب وتعلّقاً ؛ وهو في الغاية^(٥) من الفصاحة والبلاغة ، من إنشاء الفقيه الأديب ، الشاعر الناظم ، النثر الكاتب ، المُجيد البارِع البليغ ، أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربيّ العقيليّ رحمه الله ، وسماه بالروض العاطر^(٦) الأنفاس ، في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس ؛ ونصّه بعد الافتتاح^(٧) :

« مَوْلَى الْمُلُوكِ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ رَعِيًّا لِمَا^(٨) مِنْهُ يُرْعَى مِنَ الذَّمِّ
بِكَ اسْتَجَرْنَا وَنِعْمَ الْجَارُ أَنْتَ لِمَنْ جَارِ الزَّمَانِ عَلَيْهِ جَوْرٌ مُنْتَقِمٍ
حَتَّى غَدَا مُلْكُهُ بِالرَّغْمِ مُسْتَلَبًا وَأَفْطَعُ الْخَطْبِ مَا يَأْتِي عَلَى الرَّغْمِ
حُكْمٌ مِنْ اللَّهِ حَتْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ وَهَلْ مَرَدُّ لِحُكْمٍ مِنْهُ مُنْحَتِمٍ^(٩) »

(١) في ت : « جميعهم » .

(٢) في ط : « الفقاني » .

(٣) في ط : « أبا » وهو تحريف .

(٤) هو الشيخ الوطاسي سلطان فاس .

(٥) في ت : « وفي الغاية » .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب ، وفي ط : « العطير » .

(٧) كذا في ت ونفع الطيب ، وفي ط : « افتتاح » .

(٨) في نفع الطيب : « لمن » .

(٩) كذا في الأصلين وإحدى روايتي نفع الطيب ، ولم ترد صيغة « انتم » في المعاجم

التي بين أيدينا . وفي رواية أخرى لنفع الطيب : « منحسم » .

وَهِيَ اللَّيَالَى وَقَالَ اللَّهُ صَوَّلَتْهَا تَصُولُ حَتَّى عَلَى الْآسَادِ فِي الْأَجَمِ
كُنَّا مُلُوكًا لَنَا فِي أَرْضِنَا دُولٌ نَمْنَا^(١) بِهَا تَحْتَ أَفْنَانٍ مِنَ النَّعَمِ
فَأَيَقُظُنَا سِهَامٌ لِلرَّدَى صُيْبٌ يُرْمَى بِأَفْجَعِ حَتْفٍ مِنْ بَهَنٍ رُمَى
فَلَا تَتَمُّ تَحْتَ ظِلِّ الْمَلِكِ نَوْمَتَنَا وَأَيُّ مَلِكٍ بَظِلِّ الْمَلِكِ لَمْ يَنَمْ
يَبْكِي عَلَيْهِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَعْرِفُهُ بِأُدْمَعٍ مُزِجَتْ أُمُوهَا بِدَمِ
كَذَلِكَ الدَّهْرُ لَمْ يَبْرَحْ كَمَا زَعَمُوا يُشِيمُ^(٢) بَوَّ الصَّغَارِ^(٣) الْأَنْفَ ذَا الشَّعْمِ^(٤)
وَصِلْ أَوْاصِرٌ قَدْ كَانَتْ لَنَا اشْتَبَكْتُ فَالْمَلِكُ بَيْنَ مَلُوكِ الْأَرْضِ كَالرَّحِمِ
وَابْسُطْ لَنَا الْخُلُقَ الرَّجْوُ بَاسِطُهُ وَاعْطِفْ وَلَا تَنْحَرِفْ وَاعْذِرْ وَلَا تَلَمْ
لَا تَأْخُذْنَا^(٥) بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ نُذَنْبُ وَلَوْ كَثُرَتْ أَقْوَالُ ذِي الْوَحْمِ
فَمَا أَطَقْنَا دِفَاعًا لِلْقَضَاءِ وَمَا^(٦) أَرَادَتْ أَنْفُسُنَا مَا حَلَّ مِنْ نِقَمِ
وَلَا رُكُوبًا بِإِزْعَاجِ لِسَابِحَةِ فِي زَاخِرٍ بِأَكْفِ الْمَوْجِ مُلْتَطِمِ
وَالْمَرءُ مَا لَمْ يُعْنِهِ اللَّهُ أَضْيَعُ مِنْ طِفْلِ تَشَكَّى بِفَقْدِ الْأُمِّ فِي الْيَتَمِ
وَكُلٌّ مَا^(٧) كَانَ غَيْرُ اللَّهِ يَحْرُسُهُ^(٨) فَإِنَّ مُحْرَسَهُ لَحَمٌّ عَلَى وَضَمِّ^(٩)

[٣٨]

(١) في ت « نَمَا » ، وهو تحريف .

(٢) البو : جلد الحوار يحشى تبنا ونحوه لتعطف عليه أمه فتدبر . والصغار : الذل .

(٣) في ط « ذو الشعمة » .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب طبعة أوربة . وفي ت ونفع الطيب طبعة المطبعة الأزهرية :

« لَا تَأْخُذُونَا » .

(٥) في ت : « وَلَا » .

(٦) كذا في ط : ونفع الطيب . وفي ت : « مِنْ » .

(٧) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « مَا كَانَ غَيْرَ اللَّهِ يَحْرُسُهُ فَإِنْ مُحْرَسُهُ » .

وهو تحريف .

(٨) الوضم : خوان القصاب ، وهو ما يقطع عليه اللحم ويهيئه .

- كُنْ كالسموئل إذ سار الهمام له في جَحْفَلٍ كسواد اللَّيْلِ مُرْتِكِمٍ^(١)
 فلم يُبَيِّحْ أَذْرُعَ الْكِندِيِّ وَهُوَ يَرَى أن ابنه البرَّ قد أَشْفَى عَلَى الرَّجَمِ^(٢)
 أَوْ كَالْمَعْلَى^(٣) مع الضِّلِيلِ الْارْوَعِ إذ أجاره من أَعَارِبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
 وصار يشكره شكرًا يَكْفِي ما أَسَدَى إِلَيْهِ مِنَ الْآلَاءِ وَالنَّعَمِ
 ولا تعاتبْ على أَشْيَاءٍ قد قُدِّرَتْ وَخُطَّ مَسْطُورُهَا فِي اللُّوحِ بِالْقَلَمِ
 وَعَدَّ عَمَّا مَضَى إذ لا ارتجاع له وَعُدَّ أَحْرَارَنَا فِي جُمْلَةِ الْخَدَمِ
 إِيَّاهِ حَنَانِيكَ يَا بَنَ الْأَكْرَمِينَ عَلَى ضَيْفٍ أَلَمِ بِفَاسٍ غَيْرِ مُحْتَشِمٍ^(٤)
 فَأَنْتَ أَنْتَ وَلَوْلَا أَنْتَ مَا نَهَضَتْ بِنَا^(٥) إِلَيْهَا خُطَا الْوَحَادَةِ الرَّسْمِ^(٦)
 رُحْمَاكَ يَا رَا حَا يُنَمِّي إِلَى رُحْمَا فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ وَالْأَتْبَاعِ وَالْحَشَمِ
 فكم مَوَاقِفٍ صِدْقٍ فِي الْجِهَادِ لَنَا وَالْخَيْلُ عَالِكَةُ الْأَشْدَاقِ لِلْجُمِ
 وَالسِّيفُ يَخْضِبُ بِالْحَمَرِ مِنْ عَلَقٍ مَا أَيْضَ مِنْ سَبَلٍ وَأَسْوَدَ مِنْ لَمِ^(٧)
 وَلَا تَرَى صَدْرَ عَضْبٍ غَيْرِ مُنْقَصِفٍ وَلَا تَرَى مَتْنٍ^(٨) لَدُنْ غَيْرِ مُنْخَطِمٍ^(٩)

(١) الجحفل : الجيش الجرار . ومرتكم : متراكم .

(٢) في ط : « فلا » .

(٣) الرجم : جمع رجمة ، وهي الحجارة توضع على القبر ، ويريد القبر نفسه .

(٤) المعلى : هو أحد بني تيم ، وكان قد أجار امرأ القيس من المنذر بن ماء السماء .

(٥) إياه : أى حسبك .

(٦) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « منا » .

(٧) الوحادة : السريعة السير . والرسم : جمع رسوم ، وهي الناقاة التي تؤثر في الأرض من شدة الوطاء .

(٨) يريد بالسبل : شعر اللحية . واللمم : جمع لمة ، وهي شعر الرأس الذي يلم بالمتكبين .

(٩) في ت « مثل » .

حتى دُهينا بدهيا لا اقتدار بها^(١) سوى على الصَّون للأطفال والحرَم
فقال من لم يشاهدْها فرُبَّتْما يُخال جاحِها يُقتاد بالخطْم
هياتَ لو زَبَنَتْه الحرب كان بها أعيا يدا من يد جالت على زَم^(٢)
تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا ولا طَوَتْ صِحَّةً منها على سَقَم
لكن طلبنا من الأمر الذي طلبت ولأَتْنَا^(٣) قبلنا في الأعصر الدُّهْم
فخافنا عنده الجَدُّ الخثون ومن تَعُدُّ به نكباتُ الدهر لم يَقُمْ
فاسودَّ ما خضر من عيش دَهْنَه عدا بالأسمر اللذن أو بالأبيض الخَذِم^(٤)
وشَتَّ البينُ شَمَلا كان منتظما والبين أقطع الموصول من جَلَم^(٥)
فرُبَّ مَبْنَى شديد قد أناخ به رَكَب البَلا فَقَرَّتْه أدمع الدَّيَم^(٦)
قمنا لديه أَصْـيْلَانَا نَسائِلَه أعيا جوابا وما بالربع من أَرَم^(٧)
وما ظننا بأن نبقي إلى زمن نرى به غُررُ الأحباب كالْحَمَم^(٨)
لكن رَضًا بالقضا الجارى وإن طُوِيَتْ منا الضلوعُ على بَرَحٍ من الألم

[٣٩]

(١) في ت . « بدهي لا اقتدار بنا » .

(٢) كذا في ت . والزم (بفتحين ، أو بضم ففتح) : سهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية . وفي ط ونفع الطيب طبعة المطبعة الأزهرية : « رحم » . وفي نفع الطيب طبعة أوربة « رحم » . وما أثبتناه أوضح ، فهو يريد أن يد هذا اللام أضعف من يد تحيل قدام اليسر .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ت : « ولاته » . وفي ط : « ولاية » .

(٤) الأسمر اللذن : الريح . والأبيض الخذم : السيف القاطع .

(٥) الجلم : المقرض .

(٦) الديم : جمع ديمة ، وهي السحابة يدوم مطرها أياما .

(٧) أصيلانا : قرب الأصيل . وما بالربع من لرم : أى من أحد .

(٨) الفرر : جمع غرة ، وهي بياض الجبين . والحلم الفحم الأسود ، الواحدة حمة (بالضم) .

لَبَّيْكَ يَا مَنْ دَعَانَا نَحْوَ حَضْرَتِهِ دَعَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْحُجَّاجِ لِلْحَرَمِ
وَأَعْطِ الْأَمْنَ الَّذِي رُصِّتْ قَوَاعِدُهُ ^(١) عَلَى أَسَاسٍ وَفَاءٍ غَيْرِ مَنْهَدِمٍ
خَلِيفَةَ اللَّهِ وَافَاكَ الْعَبِيدُ فَكُنْ فِي كُلِّ فَضْلٍ وَطَوَّلٍ عِنْدَ ظَنِّهِمْ
وَبَيْنَ أَسْلَافِنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ بِهِ مِنْ اعْتِقَادٍ بِحُكْمِ الْإِرْثِ مُقْتَسَمٍ
وَأَنْتَ مِنْهُمْ كَأَصْلِ مُطْلِعِ غُصْنًا أَوْ كَالشَّرَاكِ الَّذِي قَدْ قُدَّ مِنْ أَدَمِ
وَقَدْ خَطَوْتَ خُطَاهُمْ فِي مَا تَرَاهُمْ فَلَمْ يُذَمُّوا إِذَنْ فِيهَا وَلَمْ تُذَمَّ ^(٢)
وَصِيتَ مُوَلَّى الْوَرَى الشَّيْخَ الْإِمَامَ غَدَا فِي النَّاسِ أَشْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ
سُلَالَةِ الْأَمْرَاءِ، الْجِلَّةِ الْكِبَرَا ءِ، الْعَلِيَّةِ الظُّهْرَاءِ، الْقَادَةِ الْبِهْمِ ^(٣)
بَنُو مَرَيْنَ لِيُوثُ فِي عَرِينِ أَبَوَا رُؤْيَا قَرِينٍ لَهُمْ فِي الْبَأْسِ وَالْكَرَمِ
النَّازِلِينَ مِنَ الْبَيْضَاءِ ^(٤) وَسُطْحِي حَمَى أَحْمَى مِنَ الْأَبْلَقِ السَّاحَى وَمِنْ إِرَامِ
وَالْجَائِسِينَ بَدُّهُمْ الْخَيْلُ كُلَّ ذَرَى وَالْدَّاعِسِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ كُلِّ كَمَى ^(٥)
يَرِيكَ فَارِسُهُمْ إِنْ هَزَّ عَامِلَهُ ^(٦) فِي مَازِقٍ ^(٧) بِلَظَى الْهِجَاءِ مُضْطَرِمِ

(١) فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ : « وَاعْطِ الْأَمَانَ » .

(٢) فِي ت : « رَسَتْ » .

(٣) لَمْ تَدَمْ : لَمْ تَعْب . يُقَالُ : ذَامَهُ يَذِيعُهُ : إِذَا عَابَهُ .

(٤) الظُّهْرَاءُ : جَمْعُ ظَهِيرٍ ، وَهُوَ النَّصِيرُ . وَالْبِهْمُ : جَمْعُ بَهْمَةٍ (بَالِضَمِّ) وَهُوَ الْبَطْلُ الشَّجَاعُ .

(٥) الْبَيْضَاءُ : فَاسُ الْجَدِيدَةِ .

(٦) الْجَائِسِينَ : الَّذِينَ يَتَرَدَّدُونَ خِلَالَ الدُّوَرِ وَالْبُيُوتِ فِي الْغَارَةِ . وَكُلُّ ذَرَى : كُلُّ نَاحِيَةٍ .

وَالدَّاعِسِينَ : الطَّاعِنِينَ . وَسُمْرُ الْخَطِّ : الرِّمَاحُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الْخَطِّ ، وَهُوَ مِرْفَأُ الْبَحْرَيْنِ .

وَالْكَمَى : الْبَطْلُ الْمَتَسَتِّرُ فِي سِلَاحِهِ .

(٧) عَامِلُ الرَّمَجِ : صَدْرُهُ .

(٨) فِي الْأَصْلَيْنِ وَنَفْعِ الطَّيِّبِ : « مَارِقٌ » وَلَعَلَّهَا مَحْرُفَةٌ عَمَّا أَتْبَعَتْهَا .

- (١) لَيْثًا عَلَى أَجْدَلٍ عَارٍ مِنْ أَجْنَحَةٍ يَسْطُو بِأَرْقَمٍ لَدَاغٍ بَغِيرٍ فَمِ
 فِي اللَّامِ يُدْغِمُ مِنْ عَسَالِهِ أَلْفًا وَلَمْ نَجِدْ أَلْفًا أَصْلًا بِمَدَّغَمِ (٢)
 أَهْلُ الْحَفِيظَةِ يَوْمَ الرَّوْعِ يُحْفَظُهُمْ مِنْ عَصْمَةِ اللَّهِ مَا يُرْبِي عَلَى الْعَصَمِ (٣)
 بَأْسٌ (٤) تَطِيرُ شَرَارٌ مِنْهُ مَحْرَقَةٌ لِكُلِّ مَدَرَّعٍ بِالْحَزْمِ مُحْتَزِمِ
 هُمُ (٥) بَطَائِفَةُ التَّمْلِيثِ قَدْ فَتَكُوا كَمَثَلِ مَا يَفْتِكُ السَّرْحَانُ بِالْغَمِ (٦)
 وَإِنْ يُلْتَمِهُمْ يَوْمَ الْوَعَى رَهْجٌ أَنْسَوُكَ مَا ذَكَرُوهُ عَنْ ذَوَى اللَّثَمِ (٧)
 تَضَى آرَاؤُهُمْ فِي كُلِّ مُعْضَلَةٍ إِضَاءَةُ السَّرْجِ فِي دَاغٍ مِنَ الظُّلَمِ
 هَذَا وَلَوْ مِنْ حَيَاءٍ ذَابَ مُحْتَشِمٌ لَذَابَ مِنْهُمْ حَيَاءٌ كُلُّ مُحْتَشِمِ
 طَابَتْ مَدَائِحُهُمْ إِذْ طَابَتْ أَنْفُسُهُمْ فَاشْتَقَّتْ النَّسَمَاتُ اسْمًا مِنَ النَّسَمِ
 لِلَّهِ دَرُّهُمْ وَالسُّحْبُ بَاخِلَةٌ بِدَرِّهِمْ عَلَى الْأَنْعَامِ وَالنَّعَمِ
 بِحَيْثِ الْأَفْقُ يَرَى مِنْ نَوْنٍ حُمْرَتِهِ كَأَشْيَبِ يُخَضَّبُ بِالْحِنَاءِ وَالسَّكَمِ (٨)

(١) الأجدل : الصقر ، شبه به الحصان في سرعة انقضاضه . والأرقم : الثعبان ، شبه به الرمح .

(٢) اللام : مسهلة عن اللآثم ، جمع لأمة ، وهي الدرع . والعسال : الرمح اللدن ، وقد شبهه في استقامته بالألف . وفي البيت توريه .

(٣) العصم : ما يعتصم به الناس في الحرب من معاول وشبهها . يريد أنهم محوطون من عناية الله وحياطته بما لا تنق بئله المعاول والحصون .

(٤) في ت ونفج الطيب : « يامن » .

(٥) كذا في ت ونفج الطيب . وفي ت : « وهم » .

(٦) السرحان : الذئب .

(٧) كذا في ت ونفج الطيب . والرهج : الغبار تثيره الحرب . وفي ط : « وهيج » . وذوو اللثم : يريد المثلثين ، قبائل من البربر عرفوا بالشجاعة .

(٨) السكَم (كسب) : نبت يستعمل في خضاب الشعر . يصفهم في هذا البيت والذي قبله بالجود في أزمان القحط والشدة .

- هناك تَهَلُّ أَيْدِيهِمْ بِصَوْبِ حَيًّا (١) يُحْيِي بِالْأَجْدَاثِ مَا فِيهَا مِنَ الرِّمِّ (١) [٤٠]
- وإنَّ بَيْتِي زِيَادٍ طَلَمَا ذُكِرَا إِذَا أَلَمْتُ أَحَادِيثَ بَذِكْرِهِمْ (٢)
- « أَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَادُ مُطَهَّرَةٌ مِنْ الْمَقَقَةِ وَالْآفَاتِ وَالْإِثْمِ » (٣)
- يَرَوْنَ حَقًّا عَلَيْهِمْ حِفْظَ جَارِهِمْ فَلَمْ يُضَرَّ نَازِلٌ فِيهِمْ وَلَمْ يُضْمَرْ (٤)
- فَرُوعُهُ (٤) بِالْدَوَاهِي لَا يُرَاعَ وَلَا يُنْعَمُ مِنْهَا بِمَا يَعْرِو مِنَ النِّعَمِ (٥)
- هَمُّ الْبَحَارِ سَمَاحًا غَيْرَ أَنَّ بَهَا مَا قَدْ أَنَا فِي الْأَطْوَادِ (٦) مِنْ هِمِّ
- وَلَيْسَ يَسْلَمُ مِنْ حَتْفِ مَحَارِبُهُمْ حَتَّى يَكُونَ إِلَيْهِمْ مُلْقَى السَّلَامِ
- كَمْ فِيهِمْ مِنْ أَمِيرٍ أَوْحَدٍ نَدَسٍ يُقَرِّطُ الْغَرَضَ الْمَقْصُودَ بِالْفَهْمِ (٧)
- وَلَا كَسِبَتْ أَبِي حَسُونٌ مِنْ حَسَنَتٍ أَمْدَاحَهُ حُسْنٌ مَا فِيهِ مِنَ الشِّيمِ (٨)
- هَذَا كُمْ ابْنُ أَبِي زَكَرِيَّاءُ الْهَمَامُ قُفْلٌ (٩) فِي أَصْلِهِ الْمُنْتَقَى مِنْ مَجْدِهِ الْعَمِّ (١٠)

(١) تنهل : تفيض . وصوب الحيا : ماء المطر . والأجداث : القبور .

(٢) زياد : هو النابتة الذيباني .

(٣) العقدة : العقوق . والإثم : جمع إثم ، وهي الإثم . وهذا البيت من مقطوعة للنابتة أبياتها أربعة في مدح الفاسانة ، وقبله :

مُ الْمُلُوكِ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ لَهُمْ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ فِي اللَّأْوَاءِ وَالنِّعَمِ وَلَعَلَّ النَّازِلَ يَعْنِي هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ .

(٤) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب : « فروعه » .

(٥) الروع : موضع الفزع من القلب .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « الأطراء » .

(٧) الدنس (كعصف وكثف وسهم) : الفطن الفهم . ويقرطس الغرض : يصيبه .

(٨) أبو حسون : هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى بن زياد الوطاسي ، يعرف بأبي حسون الباذسي ، بويج بفاس أول مرة سنة اثنتين وثلاثين وتسع مئة . (انظر بقية أخباره في الاستقصا للسلوى) .

(٩) زكري : يريد زكرياء وفيه لغات ، منها زكري (كعربي) بتشديد الياء وتخفيفها ، وبهذه الرواية الأخيرة جاء هنا مع إسكان الكاف ، ليستقيم الوزن .

(١٠) العمم : التام .

خليفة الله حقا في خلقته كنائب ناب في حكم عن الحكم
 مهما تنز قسما^(١) منه نيرة تنل بنان له ما جل من نعم^(٢)
 فوجهه بدجى وكفه بجدا أبهى من الزهر أو أندى من الديم^(٣)
 وفضله وله الفضل المبين جرى كبرى الأمثال في الأقطار والأم
 وجوده المتوالى للبرية ما وجوده بينها طرا بمنهم
 إذا ابتغت نعمة منه العفا له لم يسمعا كلمة منه سوى نعم
 وإن يعبس زمان في وجوههم لم يبصروا غير وجه منه مبسم
 وجه تبين سمات المكرومات به كما تبين سمات الصديق في الكلام
 وراحة لم تزل في كل آونة في^(٤) نيلها راحة الشاكي من العدم
 لله ما التزمته من نوافله أيام لا فرض مفروض بملتزم
 أنسى الخلائف في حلم وفي شرف وفي سخاء وفي علم وفي فهم
 فجاز معتمدا منهم ومعتزدا وامتناز عن قائم منهم ومعتصم
 وناصر الدين في الإقبال فاق وفي محبة العلم أزرى بابنه الحكم
 أفعال أعدائه معتلة أبدا متى^(٥) يرُم جزمها بالحذف تنجزم

(١) رواية هذا البيت في ط .

مهما نسم نسمات منه نيرة تنل بنان له ما جل من نعم

(٢) قسما الوجه : ما أقبل منه ، أو محاسنه .

(٣) الجدا : العطاء . والديم : جمع ديمة ، وهي مطر يدوم أياما .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « من » .

(٥) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « حتى » .

- فويل أهل الفلأمن حية ذكري^(١) [للمتلب^(٢)] اللهم المجرم المتقم^(٣) [٤١]
- راموا عداوة من إن شاء غادرهم مثل الأحاديث عن عادٍ وعن إرم
- فسوف يأكلهم من جيشه لجنب بكل قرم إلى لجمانيهم قرم^(٤)
- وإن الأعراب إذ ساروا لغابته لسائرون إلى لقم على لقم^(٥)
- وهم كما قاله ماض : أرى قدمي بسعيه نحو حثني قد أراق دمي^(٦)
- فقل إذن للمناوي النأوي الآن الأذى ياغر^(٧) غرك ما أبصرت في الحما
- له صوارم لو ناجتلك ألسنها لبشرك بعمر منك منصرم
- وإن روكك عن قرب سيقبضه قبض المسلم ما قد حاز من ساء^(٨)
- فهو الذي ما له ند يشابهه من كل متصف بالدهي^(٩) متسم
- يدبر الأمر تدبيراً يخلصه مما عسى أن يرى فيه من الوهم
- ويبصر الغيب لحظ ذهن منه إذا تعمى عن أدراكه ألاحظ كل عم

(١) حية ذكر : شهم .

(٢) كذا في نفح الطيب ، ويريد بالمتلب : الجيش المتمد . وفي ت : « لمتلب ، وهو تحريف . وسقطت هذه الكلمة من ط .

(٣) اللهم والمجر : ها بمعنى الجيش العظيم .

(٤) اللجب الجيش الكثير ، والقرم : السيد . واللعان . جمع لحم . وقرم (ككتف) : شديد الشهوة لأكل اللحم .

(٥) كذا في ت ونفح الطيب . واللقم : الأكل ، ويريد به الافتراس ، واللقم (بالتحريك) وسط الطريق . وفي ط : « ... نعم على لقم » .

(٦) يشير إلى قول أبي الفتح البستي :

إلى حثني سمى قدمي أرى قدمي أراق دمي

(٧) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « يغر » .

(٨) المسلم : السلف ، الذي يعطى ذهباً أو فضة على ساعة معلومة إلى أجل معلوم . والسلم : البيع المبيع المؤجل قبضه .

(٩) الدهي والدهاء : الفكر وجودة الرأي .

- وَيُنْعِمُ^(١) النظرَ الْمُفْضِي بِنَظَرِهِ لَصُوبٍ وَجِهٍ صَوَابٍ وَاضِحٍ اللَّقْمِ^(٢)
 ذُو مَنْطِقٍ لَمْ تَزَلْ تَجْلُو نَتَائِجَهُ عَنْ مُبْطِلٍ بِخَصَامِ الْمُبْطِلِ الْخَصِمِ^(٣)
 وَمِسْمَعٍ لَيْسَ يُصْنَعِي لِلْوُشَاةِ فَلَمْ يَنْفُقْ لَدَيْهِ الَّذِي عَنْهُمْ إِلَيْهِ نَعْمَى^(٤)
 فَعَقَلَهُ لَا تَوَازِيهِ الْعُقُولُ وَهَلْ يَوَازِنُ الطُّودَ مَا قَدْ طَالَ مِنْ أَكَمِ
 إِلَيْهِ جَمِيعَ الْوَرَى مِنْ بَدْوٍ أَوْ حَضَرٍ نِدَاءٍ مُرْتَبِطٍ بِالنُّصْحِ مُرْتَسِمِ
 شَدُّوا وَجِدُّوا وَلَا تَعْنُوا وَلَا تَهِنُوا قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِالسَّوَاقَةِ الْحُطَمِ^(٥)
 هَذَا الْأَمِيرُ^(٦) الْمَرْبِيُّ السَّعِيدُ لَهُ سَعْدٌ يُؤَيِّدُهُ فِي كُلِّ مُصْطَلَمٍ
 قَدْ أَقْسَمْتُ أَنَّهُ الْمَنْصُورُ السَّنَةُ مِنْ نُخْبَةِ الْأَوْلِيَا مَبْرُورَةُ الْقَسَمِ
 فَشَيْعُوهُ وَوَالُوهُ تَرَوَا عَجَبًا وَتَنْظَفَرُوا مَعَهُ بِالْأَجْرِ وَالْغَنَمِ^(٧)
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَبْقَى خِلَافَتَهُ كَهْفًا لَنَا مَنْ يُخَيِّمُ فِيهِ لَمْ يُرَمِ^(٨)
 حِرْزُ حَرِيرٍ وَعِزٌّ قَائِمٌ وَنَدَى غَمْرٌ دِرَاكٌ بَلَا مَنْ وَلَا سَأَمٌ^(٩)

(١) كذا في نفح الطيب . وإنعام النظر : تدقيقه . وفي الأصلين : يمعن . وهو يتعدى بحرف الجر . يقال : أمعن في الأمر ، أى أبعد فيه .

(٢) اللقم (كسب) : وسط الطريق .

(٣) الخصم (ككتف) : الجدل الشديد الخصومة . يريد أنه يبطل حجج خصمه بقوة بيانه .

(٤) ينفق : يروج . ونعى إليه : وصل إليه .

(٥) لا تعنوا : لا تخضعوا وتذلوا . ولا تهنوا : لا تضعفوا . ولفها : جمعها ، والضمير

في الأصل للإبل ، والسواقة : السواق ، والتاء للبالغة . والحطم : الشديد

السوق ؛ وهذا مثل . يريد أن متولى أمرهم ، وهو الممدوح ، رجل قوى شديد .

(٦) في نفح الطيب : « الإمام » .

(٧) شيعوه : ناصروه . والغنم (بالتحريك) : المغنم ، كالغنم (بالضم) .

(٨) لم يرم : أى يعز على من يطلبه .

(٩) غمر : كثير . ودراك : متتابع متلاحق .

- دامت ودام لها سَعْدُ يساعدها في كل مُبتدأ منه ^(١) وَخَتَمَ
 فالله — عز اسمه — قد زانها بحلّى من غُرٍّ أمداحه كالذرّ في النظم ^(٢)
 الواهب الألف بعد الألف من ذهب كالجَمَر يلع في مُستوقد الضّرَم ^(٣) [٤٢]
 والفاعلُ الفعل لم يَهْمُ به أحد والقائل القول فيه حكمة الحكم
 ذاك هو الشيخ فاعجب إنه هَرَم ^(٤) جودا وحاشاه أن يُغزى إلى هَرَم ^(٥)
 وحسبنا أن أيدينا به اعتصمت من حبله بوثق غير مُنقضم
 فما مُحالفه يوما بمضطهد ولا مؤالفه يوما بمهتضم
 ولا موافيه في جهد بمطرح ولا مُصافيه في ودّ بمُتهم
 ولا مُحيا مُحيا به بمنكسف ولا رجاء مُرجّيه بمنخرم ^(٦)
 وما ^(٧) تَكَرّمه سِرّاً ^(٨) بمنكسف ولا تنكره جهراً بمُكتم
 وليس لامح مرآه بمكتتب وليس راضع جدواه بمنفطم
 ولا مُقبل يُمناه الكريمة في محلّ مُمتن بل دَسْتِ مُحترَم ^(٩)
 وما وسيلتنا العظمى إليه سوى ما ليس يُنكر ما فيها من العظم
 وإنما هي وما أدراك ما هي من وسيلة ردّها أدهى من الرَضَم ^(١٠)

- (١) في نفح الطيب طبعة أوربة : « منها » .
 (٢) النظم : جمع نظام ، وهو الحيط ينظم فيه الخرز ونحوه .
 (٣) في ط : « الظلم » .
 (٤) يريد أن الممدوح مثل هرم بن سنان ، ممدوح زهير بن أبي سلمى ، الزنى .
 (٥) في نفح الطيب طبعة أوربة : « الهرم » .
 (٦) بمنخرم : أى بمنقطع .
 (٧) في نفح الطيب (طبعى أوربة ومصر) : « ولا » .
 (٨) في ط : « يوما » .
 (٩) يريد بالدست : المكان الكريم ، مأخوذ من دست البيت ، وهو صدره .
 (١٠) كذا في ط . والرَضَم : صخور عظام . وفي ت : « الوخم » .

نبينا المصطفى الهادي بخير هدى محمد خير خلق الله كلهم
 داعي الوري من أولى خيم وأهل قرى إلى طريق رشاد لاجب أم (١)
 عليه منا صلاة الله ما ذكرت « أمن تذكر جيران بذي سلم » (٢)
 وما تشفع فيها بالشفيع له دخیل حرمة العلماء في الحرم (٣)
 « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .
 « أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » . « ربنا عليك توكلنا
 وإليك أنبنا وإليك المصير » . « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين
 لا مولى لهم » . « نعم المولى ونعم النصير » .

أما بعد حمد الله الذي لا يحمده على الشراء والضراء سواه ؛ والصلاة والسلام
 على سيدنا ومولانا محمد ، الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح ، يدعو إلى سبيل
 كل فلاح ، أولى قلوب غافلة ، ونفوس سواه ؛ والرضا عن آله وأصحابه ، وعترته
 الأكرمين وأحزابه ، الذين تلقوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونواه ،
 وعزروه ونصروه في حالي قربه ونواه . [٤٣]

فيا مولانا ، الذي أولانا من النعم ما أولانا ؛ لاحط الله تعالى لكم من العزة
 رواقا (٤) ، ولا أذوى لدوحة (٥) دولتكم أغصانا ولا أوراقا ؛ ولا زالت مخضرة
 العود ، [مبتسمة (٦)] عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود ، ممتورة

(١) أهل خيم : أي ساكني الخيام . واللاحب : الواضح . والأهم : البين . وقد ورد
 الشطر الأول من هذا البيت في ط هكذا :

« داعي الوري من أولى من أهل خيم قرى »

(٢) هذا الشطر مطلع قصيدة البردة المشهورة للبوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) الدخیل : اللاجئ . والحرمة : الذمة .

(٤) الرواق : الحيمة . يدعو له بدوام ارتفاع المنزلة .

(٥) الدوحة : الشجرة الواسعة الظلال . وأذوى : أذبل وأضعف .

(٦) زيادة عن ت ونفع الطيب .

بسحاب البركات المتداركات دون برُوق^(١) ولا رعود :

هذا مقام العائد بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ،
وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج^(٢) اللسان عند
محاولة^(٣) مفاتحة كلامكم ؛ وماذا الذي يقول مَنْ وجهه خجل ، وفؤاده وجل ،
وقضيته المفضية عن التنصل والاعتذار تحل ؛ بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي ،
واجترأى عليه أكثر ، واجترأى^(٤) إليه أكبر : اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى
فأنتصر ، لكنني مُستقيم^(٥) مُستنيل^(٦) مستعتب^(٧) مستغفر ؛ « وَمَا أُرَى
نفسى ، إن النفس لأمارَةٌ بالشوء » . هذا على طريق التنزل والاتصاف ، بما
تقتضيه الحال من يتحيز إلى حيز الإنصاف ؛ وأما على جهة التحقيق ، فأقول ما قالته
الأم ابنة الصديق^(٨) : « والله إنى لأعلم أنى إن أقررت بما يقوله الناس ، والله يعلم
أنى منه بريئة^(٩) ، لأقولن^(١٠) ما لم يكن ، وأئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوننى ،
فأقول ما قاله أبو يوسف^(١١) : صَبْرٌ جَمِيلٌ ، والله المُستعانُ على ما تصفون » .

على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى ، فأنا

(١) فى ت ونفع الطيب : « برق » .

(٢) فى ط : « والمتلجلج » .

(٣) كذا فى ط ونفع الطيب . وفى ت : « عند مفاتحة » .

(٤) اجترأى : ذنبى .

(٥) مستقيم : طالب الإقالة من العثرة .

(٦) مستنيل : طالب النوال .

(٧) مستعتب : طالب العتي ، وهى الرضا .

(٨) يريد أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق .

(٩) كذا فى نفع الطيب وسيرة ابن هشام . وفى الأصلين : « برىء » .

(١٠) كذا فى سيرة ابن هشام . وفى نفع الطيب وط : « لأقول » . وفى ت : « لأقول » .

(١١) تريد سيدنا يعقوب عليه السلام .

جَبَلِ الذنوب ؛ إلى الله أشكو عُجْرِي وَبُجْرِي ^(١) ، وَسَقَطَانِي وَغَلَطَانِي . نَعَمْ ،
كلُّ شَيْءٍ وَلَا مَا يَقُولُهُ الْمُتَقَوِّلُ ، الْمَشْنَعُ الْمَهْوَلُ ، النَّاظِقُ بِفَمِ الشَّيْطَانِ الْمُسَوِّلِ .
وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : « سُبْنِي وَاصْدُقْ » ، وَلَا تَفْتَرِ وَلَا تَخْلُقْ ؛ فَيُثْلِي كَانَ يَفْعَلُ أَمْثَالَهَا ،
وَيَحْمِلُ ^(٢) مِنَ الْأَوْزَارِ الْمَضَاعِفَةِ أَحْمَالَهَا ، وَيُهْلِكُ نَفْسَهُ وَيُحْبِطُ أَعْمَالَهَا ؛ عِيَاذًا
بِاللهِ مِنْ خُسْرَانِ الدِّينِ ، وَإِثَارِ الْجَاهِدِينَ وَالْمُعْتَدِينَ ، قَدْ ضَلَّاتْ إِذَنْ وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ . وَأَيْمُ اللهِ لَوْ عَلِمْتُ شَعْرَةً فِي فَوْدِي ^(٣) تَمِيلُ إِلَى تِلْكَ الْجَهَةِ لَقَلَعْتُهَا ، بَلْ
لَقَطَفْتُ ^(٤) مَا تَحْتَ عِمَامَتِي مِنْ هَامَتِي وَقَطَعْتُهَا ؛ غَيْرَ أَنَّ الرَّعَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَأَوَانَ ،
لِلْمَلِكِ أَعْدَاءٌ وَعَلَيْهِ أَحْزَابٌ وَأَعْوَانٌ ، كَانَ أَحَقَّ وَأَجْهَلَ مِنْ ابْنِ ثُرَوَانَ ^(٥) ،
أَوْ أَعْقَلَ وَأَعْلَمَ مِنْ أَشَجِّ بْنِ مَرْوَانَ ^(٦) ؛ وَرُبَّ مُتَهَمٍ بَرِيٍّ ، وَمُسْرِبَلٍ بِسْرِبَالٍ [٤٤]
وَهُوَ مِنْهُ عَرِيٌّ ^(٧) ؛ وَفِي الْأَحَادِيثِ صَحِيحٌ وَسَقِيمٌ ، وَمِنَ التَّرَاكِيِبِ الْمُنْطَقِيَّةِ مُنْتَجَجٌ
وَعَقِيمٌ ، وَلَكِنْ نَمَّ مِيزَانُ عَقْلِ ، تُعْتَبَرُ بِهِ أَوْزَانُ النُّقْلِ ؛ وَعَلَى الرَّاجِحِ الْإِعْتَادُ ^(٨) ،
ثُمَّ إِشَاعَةُ الْإِحْمَادِ ، الْمُتَّصِلُ الْمُتَمَادُ ؛ وَلِلْمَرْجُوحِ الْإِطْرَاحُ ، ثُمَّ الذَّمُّ الصُّرَاحُ ،
بَعْدَ النِّفْضِ ^(٩) مِنَ الرَّاحِ ؛ وَأَكْثَرُ مَا تَسْمَعُهُ الْكَذِبُ ، وَطَبَعَ جُمْهُورُ الْخَلْقِ إِلَّا مِنَ

(١) العجر والبحر (هنا) : العيوب والأحزان وما يبدى المرء وما يخفى . والعجر

(في الأصل) : العروق المتعقدة الناثئة . والبحر : ما تعقد منها على البطن خاصة .

(٢) في ط ونفح الطيب : « ويحتمل » .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : من « فَوَادِي » .

(٤) كذا في ط . والنظف : القطع . وفي ت : « بل لَقَعْتُ » ، وهو تحريف .

(٥) كذا في أخبار الحقي والمغفيلين لابن الجوزي ، والمضاف والمنسوب للتعالي . وهو

هبة القيسي يزيد بن ثروان ، المعروف بذي الودعات ، وهو مثل في الحق والجهل .

وفي ط : « من أبي ثوران » . وفي ت : « من أبي ثروان » . وكلاهما تحريف .

(٦) أشج بن مروان : هو عمر بن عبد العزيز ، لأنه كانت به شجة .

(٧) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « ومسرِبَلٍ بِسْرِبَالٍ عَارٍ وَهُوَ مِنْهُ عَرِيٌّ » .

(٨) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « وعلى الراجح على الاعتقاد » .

(٩) في ت : « النفاض » .

عصمه الله^(١) إليه منجذب ؛ ولقد قُدِفْنَا من الأباطيل بأحجار ، ورُمينا بما لا يُرْمَى^(٢) به الكُفَّار ، فضلا عن الفُجَّار ؛ وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمر ، ما لكم منه حفظ الجُبَّار^(٣) ؛ وإذا عظم الإنكاء^(٤) ، فعلى تُسْكَاة التجلُّد الأتكاء ؛ أكثر المكثرون ، وجهد^(٥) في تعشيرنا المتعثِّرون ؛ ورَمَوْنَا عن قوس واحدة ، ونظمونا في سلك الملاحِده ؛ أ كُفِّرَا أيضا كُفْرَا ! غَفْرَا اللَّهُمَّ غَفْرَا ؛ أَعِذْ نظراً يا عبد قيس ، فليس الأمر على ما خِيلَ^(٦) لك ليس ؛ وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ، ممن رام تحققه وتحققنا ؟ فطاردنا في سبيله عُدَاة كانوا لنا غائظين ؛ فانفتح علينا فتق ، لم يمكننا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين .

وبعد ، فاسأل أهل الحل والعقد ، والتميز والنقد ؛ فعند جهنيتهم تلقى الخبر يقينا ، وقد رضىنا بحكمهم يؤثمننا فيؤبقنا ، أو يُبرئنا فيقيننا . إيه يا منِ اشْرَابَ إلى ملامنا ، وقَدَحَ حتى في إسلامنا ؛ رُوَيْدَا رويدا ، فقد وجدت قوة وأيدا ؛ ويحك ، إنما طال لسانك علينا ، وامتد بالسوء إلينا ؛ لأن الزمان لنا مُضْعِفٌ ، ولك مُكْبِرٌ ، والأمر عليك مُقْبِلٌ ، وعَمَّا^(٧) مُدْبِرٌ ، كما قاله كاتب الحجاج المدبِّر^(٨) .

(١) في ط : « إلا من عظم الله » .

(٢) في ت : « بما لم يرم » .

(٣) كذا في ت . ورواية هذه العبارة في ط : « وجرى ... وعمر ما يريكم منه حفظ الجار » . وفي نفع الطيب : « وجرى ... وعمر ما لديكم منه حفظ الجار » ، وظاهر أنهما محرفتان عما أثبتناه .

(٤) كذا في ت ونفع الطيب . والإنكاء : شدة النيل من العدو . وفي ط : « وإذا علم الإنكار » .

(٥) في ط : « وجهر » .

(٦) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « ما خيلت لك » .

(٧) في ت : « علينا » وهو تحريف .

(٨) كاتب الحجاج : هو يزيد بن أبي مسلم . يشير إلى رد يزيد على سليمان ابن =

وعلى الجملة ، فهبنا صِرْنَا إلى تسليم مقالك جدلاً ، وذهبنا فأقرزنا بالخطأ
في كل وِرْدٍ وصَدَر ، فله دَرُّ القائل :

إِنْ كُنْتُ أُخْطِئُ فَمَا أُخْطِئَ الْقَدَرُ^(١)

وكأنَّا^(٢) بَمُعْتَسِفٍ^(٣) إذا وصل إلى هنا ، وعدم إنصافه يعلمه الهنا^(٤) ؛
قد ازور متجانفا^(٥) ، ثم افتر متهانفا^(٦) ، وجعل يمثّل بقولهم :
« إِذَا عَيَّرُوا قَالُوا مَقَادِيرُ قَدَّرَتْ »

وبقولهم : « المرء يعجز لا محالة^(٧) » ؛ فيعارض الحق بالباطل ، والحالِ
بالعاطل ، وينزع بقول القائل : « رَبِّ^(٨) مُسْمِعٌ هَائِلٌ ، وليس تحته من
طائل^(٩) » . وقد فرغنا أوَّلَ أَمْسٍ^(١٠) من جوابه ، وتركنا الضغن يُلصق حرارة

== عبد الملك حين دخل عليه فنقصه سليمان وسب المجاج : « إنك رأيتني والأمر

عني مدبر ، ولو رأيتني والأمر على مقبل استعظمت من أمرى ما استصغرت » .

(انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ طبعة الفتوح سنة ١٣٣٢ هـ) .

(١) هذا مجز بيت لأبي العتاهية ، وصدره :

هي المقادير فلهي أو فذر

(٢) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « وكان » .

(٣) في ت : « بمتعسف » .

(٤) يريد بالهنا : جمع هنة ، وهي العيب . والذي في كتب اللغة أنها تجمع على هنات
وهنوات .

(٥) ازور متجانفا : مال متباعدا .

(٦) كذا في ط ونفح الطيب . وافتر متهانفا : أى فتح فاه ضاحكا مستهزئا . وفي ت :
« متهانفا » وهو تصحيف .

(٧) في ط : « لا المحالة » .

(٨) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين « ذى » . وهو تحريف .

(٩) كذا في ط . وفي ت : « وليس من تحته من طائل » . وفي نفح الطيب :
« وليس تحته طائل » .

(١٠) أول أَمْس : أى بكرته ومبتدأه . والمسموع من العرب عند إرادة اليوم السابق

لأَمْس « أول من أَمْس » .

الْجَوَى بِهِ ؛ وَسَلِّمْ^(١) الْآنَ بِمَا يُوسِعُهُ تَسْكِينًا ، وَيَقْطَعُهُ تَبْكِينًا . فنقول له :
 ناشدناك الله تعالى ، هل اتفق لك قَطُّ وَعَرَضٌ ، خروج أمر ما على القصد منك
 فيه والغرض ؛ مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك ، في وقوعه على وَفْق
 اقتراحك ومُرَادك ؟ أو جميع ما تزاوله بإدارتك ، لا يقع إلا مطابَقًا لإرادتك ؟ [٥ :
 أو كل ما تقصده وتنويه ، تُحَرِّزُه كما تشاء وتحويه ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يُقَرَّرَ اضطرارًا ،
 بأن مطلوبه يَشُدُّ عنه مِرارًا ؛ بل كثيرًا ما يُفْلِتُ صيدهُ من أَشْرَاكه ، ويطلبه
 فيعجز عن إدراكه ؛ فنقول : ومسألتنا من هذا القبيل : أيها النبيه النَّبِيلُ ؛ ثم
 نسرد له من الأحاديث النبوية ما شِئنا ، مما يُسِيرنا في غرضنا منه ويماشينا ،
 كقوله صلى الله عليه وسلم : « كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكيس » .
 وقوله أيضا : « لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض على أن ينفعوك بشيء ،
 لم يَقْضِ اللهُ لك ، لم يَقْدِرُوا عليه ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضِ
 اللهُ عليك ، لم يقدرُوا عليه^(٢) » ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم . فَأَخْلَقَ بِهِ أَنْ
 يَلُودَ بِأَكْنافِ الإِحْجَامِ ، وَيَرْمُ عَلَى نَفْثَةٍ فِيهِ كَأَنَّمَا أُلْجِمَ بِالْجَامِ ؛ حينئذ نقول
 له ، والحق قد أبان وجهه وَجَلَّاه ، وقهره بِحِجَّتِهِ وَعَلَّاه : ليس لك من الأمر شيء
 قل إن الأمر كله لله . وفي حَاجَةِ آدَمَ مُوسَى^(٣) ما يقطع لسان الخصم ، وَيَرْحُضُ^(٤)
 عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَنِ الوَضْمِ ؛ وكيفما كانت الحال ،
 وإن أساء الرأى والانتحال ، ووقعنا في أوجال وأوْحال ؛ فثُلَّ عَرَضُنَا ، وطويت
 فُرْشُنَا ، وَنُكِّسَ لَوَاؤُنَا ، وَمُلِّكَ مَثْوَانَا ، فنحن مِثْلُ مَنْ سِوَانَا ؛ وفي الشر خيار ،

(١) كذا في ت ونفع الطيب . وفي ط : « وسلم » ، وهو تحريف .

(٢) الذي في الأربعين النووية : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء
 لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك
 إلا بشيء قد كتبه الله عليك » .

(٣) راجع صحيح البخارى في تفسير قوله تعالى « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . ويرحض : يغسل . وفي ت : « يدحض » ، وهو تحريف .

ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار^(١) ؛ فحتى الآن لم نقف من اللطيف تعالى
لطفاً ، ولا عَدِمنا^(٢) أدوات أدعية تعطف بلا مُهْلَةٍ على مُجْلَتنا المقطوعة مُجَلِّ
النعم الموصولة عَطفاً ؛ وإلا فتلك بغداد دار السلام ، ومتبوعاً الإسلام ، المحفوف
بفرسان السيوف والأقلام ؛ مثابة الخلافة العباسية ، ومقر العلماء والفضلاء أولى
السير الأويسية^(٣) ، والعقول الإياسية^(٤) ؛ وقد نُوزِلت بالجيش ونُزِلت ،
وزُوولت بالزُحُوف^(٥) ونُزِلَت ؛ وَتَحَيَّفَ^(٦) جوانبها الحَيِّف ، ودخلها كفار التتار
[عَنوة]^(٧) بالسيف ، ولا تسل إذ ذاك عن كيف ؛ أيام تجلت عروس المنية ،
كاشفة عن ساقها مُبْدِيه ، وجرت الدماء في الشوارع والطرق [كالأنهار]^(٨)
والأودية ، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضة بالعمائم في رقابهم
والأردية ؛ وللنجيع^(٩) سيول ، تخوضها الخيول ؛ فتخضبها إلى أرساغها ، وتهمُّ
ظماؤها بوردها ، فتتسكل عن تجرُّعها ومساغها ؛ فطاح عاصمها ومستعصمها ،
وراح ولم يَغْد ظالمها ومتظلمها ؛ وخربت مساجدها وديارها ، واضطلم^(٩) بالحُسام
أشارها وخيارها ؛ فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف ، حسبا عرفت أو حسبا
تعرف ؛ فلا تكن مُتَشَكِّكاً متوقفاً ، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند

[٤٦]

(١) يريد بالأغيار : تقلبات الدهر وأحداثه .

(٢) في ت : « ولعدمنا » وهو تحريف .

(٣) الأويسية : نسبة إلى أويس بن عامر القرني ، وهو من سادات التابعين زهدا وعبادة ، وقد قتل بصفين .

(٤) الإياسية : نسبة إلى إلياس بن معاوية ، قاضي البصرة في عهد عمر بن العزيز ، وكان معروفا بشدة زكاته ، وحسن قضاائه ، وقوة جنانه ، وفصاحة لسانه .

(٥) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « بالزحاف » .

(٦) تحيفه : تنقصه .

(٧) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٨) النجيع : الدم الأحمر .

(٩) اضطلم : استوصل .

المُؤرَّخين من قَفَا^(١) ؛ فأين تلك الحجافل ، والآراء المُدارَة في المحافل ؛ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر ، لم تُجد ولا قَلامة ظُفر ؛ إذن فَمَنْ سَلِمَتْ له نفسه التي هي رأس ماله ، وعياله وأطفاله ، اللذان هما من أعظم آماله ؛ وكلُّ أو جُلُّ أو أَقَلُّ رياشه ، وأسباب معاشه ، الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ؛ ثم وَجَدَ مع ذلك سبيلا إلى الخلاص ، في حال مُياسرة ومساهلة ، دون تصعب واعتياص^(٢) ، بعد ما ظن كل الظن أن لا مُحيدَ ولا مناص ؛ فما أحقه حينئذ وأولاه ، أن يحمّد خالقه ورازقه ومولاه ؛ على ما أسداه إليه من رِفده وخيره ، ومعافاته مما ابتُلِيَ به كثير من غيره ؛ وَيَرْضَى بكل إيراد وإصدار ، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار ، فالدهر غَدَّار ، والدنيا دار مشحونة بالأكدار ؛ والقضاء لا يُرَدُّ ، ولا يُصَدَّد ؛ ولا يغالَب ، ولا يطالب ؛ والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكال للبدور ؛ والعبد مطيعٌ لا مُطاع ، وليس يُطاع إلا المُسْتَطاع ، والخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع ؛ ومالى والتكاف لما لا أحتاج إليه من هذا القول ، بين يدي ذى الجلالة والمجادة والفضل والطول ؛ فله من العقل الأرجح ، ومن الخلق الأسجح ، ما لا تَلْتَأُ^(٣) معه تهمتي بصَفَرِهِ^(٤) ، ولا تَنفُقُ عنده وشاية الواشى ، لا عُدَّ من نَفَرِهِ ، ولا فاز قِدْحُهُ بظَفَرِهِ ؛ والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب ، وتجرب براحتها إلى المتاعب ؛ وقديما للأكياس من الناس خَدَعَتْ ، وانحرفت عن وِصالهم أعقل ما كانوا وقطعت ،

(١) يشير إلى المثل المضروب : « أشهر من قفا نيك » . وهي مطولة امرئ القيس المشهورة .

(٢) اعتصم الأمر عليه : اشتد والثبات ، فلم يهتد للصواب .

(٣) تلتأت : تلتصق .

(٤) الصفر (بالتحريك) : اللب والعقل .

وفعلت بهم ما فعلت ، بيسار الكواعب التي جبت وجدعت^(١) ، ولئن
رَهَصَتْ وَهَصَرَتْ^(٢) ، فقد نبهت وبصرت ، ولئن قرّعت ومعّصت^(٣) ،
لقد أرشدت ووعظت ؛ ويا ويلنا من تنكّر لها لنا بمره ، ورميها لنا في غمرة
أى غمره ؛ أيام^(٤) قلبت لنا ظهر العجن ، وغيم أفقها المصحى وأدجن^(٥) ؛
فسرعان ما عابنا حبالها مُنبّهة ، ورأينا منها ما لم نحسب كما تقوم الساعة بغته ؛
فمن استعاذ من شيء ، فليستعذ مما صرنا^(٦) إليه ، من الحور بعد الكور^(٧) ،
والأنحطاط من النجد إلى الغور :

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقةً تنصف^(٨)
فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا ونصرّف
وأبها لقد أرهقنا إرهاقا ، وجرّعنا من صاب^(٩) الأوصاب كأسا دهاقا^(١٠) ؛
ولم نفرع إلى غير بابكم المنيع الجناب ، المنفتح حين سُدّت الأبواب ، ولم نلبس
غير لباس نهبائكم حين خلّعنا ما ألبسنا الملوك من الأثواب ؛ وإلى أمه يلجأ الطفل
لجأ اللّهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان^(١١) ، ووجه الله تعالى

(١) الجب والجدع : القطع . يشير بهذه العبارة إلى حادثة عبد يدعى يسارا راود بنت مولاه

عن نفسها ، فبنت هذا كبره (انظر كتاب المضاف والمنسوب للثعالبي) .

(٢) الرهص والمهصر : العصر والأخذ الشديد .

(٣) معصت : أغضبت .

(٤) في ط : « وإن قلبت » .

(٥) أدجن : أظلم .

(٦) في ت : « صرنا » .

(٧) الحور : النقص . والكور : الزيادة .

(٨) تنصف : نطلب النصفة ، وهي الإنصاف .

(٩) كذا في ط ونفع الطيب . والصاب : عصارة شجر مر . وفي ت : « كأس » .

(١٠) دهاقا : مملوءة .

(١١) في ط : « تمتاز السيوف في الأجوان من الأجفان » . ويريد بالأجوان : جمع جون ، وهو الظلام .

يبقى ، وكلٌّ من عليها فان ، وإلى هنا ينتهى القائل ثم يقول : حسبي هذا^(١) وكفان ؛ ولا ريب من اشتغال العلم الكريم ، على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم ؛ من الأخذ باليد عند زلّة القدم ، وقرع الأسنان وعض البنان من القدم ؛ دينا به تدبّنت حتى مع اختلاف الأديان ، وعادة أطردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان .

ولقد عرّض علينا صاحب قشّالة مواضع معتبرة ، خير فيها وأعطى من أمانه ، المؤكّد فيه خطّه بأيمانه ؛ ما يقنع النفوس ويكفيها . فلم نر ، ونحن من سلالة الأحمر ، مجاورة الصّفّر ، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهْراني الكفر ؛ ما وجدنا على ذلك مندوحة ولو شاعره ، وأمّا من المطالب المشاغِب حُمة شرٍّ لنا لاسعه ؛ وأدّكرنا أى أدّكار ، قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الإنكار : « ألم تكن أرض الله واسعة » ؛ وقول الرسول عليه الصلاة والسلام ، المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام : « أنا برىء من مؤمن مع كافر لا تقرأى نارها^(٢) » ؛ وقول الشاعر الحاث على حثّ المطيه ، المتشاقلة عن السير في طريق منجاتها البطيّة :

[٤٨]

وَمَا أَنَا وَالتَّلْدَدَ نَحْوُ نَجْدٍ وَقَدْ غُصَّتْ تِهَامَةٌ بِالرَّجَالِ^(٣)

(١) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الله » .

(٢) نص هذا الحديث في النهاية لابن الأثير ولسان العربي (مادة رأى) : « أنا برىء من كل مسلم مع مشرك ؛ قيل : لم يارسول الله ؟ قال : لا تراعى نارها » . أى لا يحلّ للمسلم أن يسكن بلاد المشركين ، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه .

(٣) التلد : التلفت . وفي الأصلين ونفع الطيب : « التلد » . وهو تصحيف .

ووصلت [أيضاً ^(١)] إلينا ، من الشرق ^(٢) كتب كريمة المقاصد لدينا ؛
تستدعى الانحياز إلى تلك الجَنَبَات ^(٣) ، وتتضمن ما لا مزيد عليه من
الرغبات ؛ فلم نَحْتَزْ إلا دارنا ، التي كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم نرتض
الانضواء إلا لمن بحبله وُصِّلَ حَبْلُنَا ، وبريش نبله ريش نبلنا ؛ إدلالا على محل
إخاء متوارث لا عن كلاله ، وامتنالا لوَصَاةِ أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالة
وجلاله ؛ إذ قد رَوَيْنَا عن سلف من أسلافنا ، في الإيضاء لمن يخلف بعدهم
من أخلافنا ؛ أَلَّا يَتَّبِعُوا إِذَا دَهَمَهُمْ دَاهِمٌ بِالْحَضْرَةِ الْمَرِينِيَّةِ بَدَلًا ، ولا يجدوا
عن طريقها في التوجُّه إلى فريقيها مَعْدِلًا . فاخترقنا إلى الرياض الأريضة
الفجاج ، وركبنا إلى البحر الفُرات ظهر البحر الأجاج ؛ فلا غرَّوْا أن نرد منه
على ما يُقَرَّرُ العين ، ويشفى النفس الشاكية من ألم البَيْنِ ؛ ومن تَوَصَّلَ هذا
التوصُّل ، وتوسل بمثل ذلك التوسُّل ؛ تطارحاً على سُدَّةِ أمير المؤمنين ، المحارب
المحاربين ، والمؤمنين المستأمنين ؛ فهو الخليق الحقيقي ، بأن يُسَوِّغَ أصفى
مشاربه ، ويُبَلِّغَ أوفى مآربه ؛ على توالى الأيام والشهور والسنين ، ويخلص
من الثُّبُورِ إلى الحُبُورِ ، ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ؛ ولعلَّ
شعاع سعادته يفيض علينا ، ونفحة قبول إقباله تسرى إلينا ؛ فتخامرنا أريجِيَّة
تحملنا على أن نبادر ، لإنشاد قول الشريف الرضى في الخليفة القادر :

عَظَمًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّا فِي دَوْحَةِ الْعِلْيَاءِ لَا نَتَفَرَّقُ
مَا بَيْنَنَا يَوْمَ الْفَخَارِ تَفَاوَتْ أَبَدًا كَلَانَا فِي الْمَعَالَى مُفَرَّقُ

(١) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٢) في ط : « الشرق » .

(٣) في ط : « الجهات » .

إلا الخلافةَ مَيَّرَتَكَ فَإِنِّي أنا عاطل منها وأنت مَطْوَقٌ
لا ، بل الأحرى بنا والأحجى ، والأنجح لسعيينا والأرجى ؛ أن نعدل [٤٩]
عن هذا المنهاج ، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف
المحتاج ، وينشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج^(١) :

الناس يَفِدُونكَ اضْطِرَّارًا منهم وأفديكَ باختيارِ
وبَعْضُهُمْ في جوارِ بعض وأنتَ حتى أَمُوتَ جَارِي
فِعْشٌ لَخُبْرِي وعش لِمَائِي وعش لداري وأهلِ دَارِي

ونستوهِب من المَنَّان الوَهَّابِ تعالى وجلت أسماؤه ، وتعاضمت نعمائه ؛ رحمة تجعل
في يد الهداية أَعْنَتَنَا ، وعِصْمَةً تكون في مواقف المخاوف جُنَّتَنَا ؛ وقبولاً يُعْطِفُ
علينا نوافر القلوب ، وصُنْعاً يُسَيِّئُ لنا كل مرغوب ومطلوب ؛ ونسأله ، وطالما
بَلَّغَ السائل سؤالا ومأمولا ، متابا صادقا على موضوع التَّدَمُّمِ محمولا ، ثم عزاء حسنا
وصبرا جميلا ، عن أرض أورثها من شاء من عباده مُعَقِّباً لهم ومُدِّيلاً ، وسادِلاً
عليهم من سُتُورِ الإِمْلاءِ^(٢) الطويلة سُدُولاً ، « سُنَّةَ اللَّهِ التي قد خَلَّتْ من قَبْلُ
ولنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » . فليطِرْ طائرُ الوَسْوَاسِ المُرْفَرِفِ مُطِيرًا ،
كان ذلك في الكتاب مسطورا ، ولم نستطع عن مورده صُدُورًا ، وكان أمرُ اللَّهِ
قَدَرًا مَقْدُورًا .

(١) ابن حجاج : هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد الكاتب الشاعر . وهذه الأبيات
من أبيات خمسة قالها في أبي الفضل الشيرازي . (انظر بتيمة الدهر للثعالبي ، ووفيات
الأعيان لابن خلسكان) .

(٢) الإِمْلاء : الإمهال .

ألا ، وإن لله سُبْحَانَهُ فِي مَقَامِكُمُ الْعَلِيِّ الَّذِي أَيْدَهُ وَأَعَانَهُ ، سِرًّا مِنْ
النَّصْرِ ، يَتَرَجَّمُ عَنْهُ لِسَانٌ مِنَ النَّصْلِ ، وَتَرَجَعَ فُرُوعُ الْبَشَائِرِ الصَّادِقَةِ ، بِالْفَتْوحَاتِ
الْمُتَلَاحِقَةِ ، مِنْ قَاعِدَتِهِ الْمُتَأَصِّلَةِ إِلَى أَصْلٍ ؛ فَبِمَثَلِهِ يَجِبُ اللَّيَازُ وَالْعِيَاذُ ؛ وَلَشَبْهُهُ يَحِقُّ
الِاتِّجَاءُ وَالْإِرْتِجَاءُ ، وَلَأَمْرٌ مَا آتَرْنَاهُ وَاخْتَرْنَاهُ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَرْشَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى
وَاسْتَخَرْنَاهُ ؛ وَمِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ نَرْغَبُ أَنْ يَخَيِّرَ لَنَا وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُوَوِّدَنَا ^(١)
مِنْ حِمَايَتِهِ وَوَقَايَتِهِ إِلَى مَقْعَلٍ مَنِيْعٍ ، وَجَنَابٍ ^(٢) [رَفِيعٍ] ^(٣) ، آمِينَ ، آمِينَ ، آمِينَ .
نَرْجُو أَنْ يَكُونَ رَبُّنَا ، الَّذِي هُوَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ حَسْبُنَا ؛ قَدْ خَارَ لَنَا حَيْثُ
أَرْشَدْنَا وَهَدَانَا ، وَسَاقَنَا تَوْفِيقَهُ وَحَدَانَا ؛ إِلَى الْإِسْتِجَارَةِ بِمَلِكٍ حَقِيٍّ ، كَرِيمٍ وَفِيٍّ ؛
أَعَزَّ جَارًا مِنْ أَبِي دُوَادٍ ^(٤) ، وَأَحْمَى أَنْفًا مِنَ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ ^(٥) ، يُشْهَدُ بِذَلِكَ
الدَّانِي وَالْقَاصِي وَالْحَاضِرُ وَالْبَادُ ؛ إِنْ أَغَاثَ مَلَهُوفا فَمَا الْأَسُودُ ابْنُ قَنَانَ ^(٦)
يَذْكُرُ ، وَإِنْ أَنْعَشَ حُشَّاشَةً هَالِكَةً فَمَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ عَلَى فِعْلِهِ وَحْدَهُ ^(٧) يُشْكِرُ ؛

[٥٠]

(١) فِي ط : « وَيُورِدُنَا » . وَفِي نَفْحِ الطَّيْبِ : « وَيُثَوِّبُنَا » .

(٢) هَذِهِ الْكَلِمَةُ « وَجَنَابٌ » : سَاقِطَةٌ فِي ت .

(٣) زِيَادَةٌ عَنْ نَفْحِ الطَّيْبِ .

(٤) أَبُو دُوَادٍ : هُوَ جَارِيَةُ بْنُ الْحِجَااجِ ، وَقِيلَ حَنْظَلَةُ بْنُ الشَّرْقِيِّ الْإِيَادِيُّ . كَانَ بَعْضُ الْمُلُوكِ
أَخَافَهُ ، فَصَارَ إِلَى بَعْضِ مُلُوكِ الْبَيْنِ فَاجَارَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَضَرَبَ الْمَثَلَ بِحَسَنِ هَذَا
الْجَوَارِ . وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ . (انظر تفصيل ذلك في الشعر والشعراء لابن قتيبة عند الكلام
على ترجمة أبي دُوَادٍ) .

(٥) يُشِيرُ إِلَى حِمْيَةَ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ الْبَكْرِيُّ فِي الْحَرْبِ بَيْنَ بَكْرِ وَتَغْلِبَ حِينَ بَلَغَهُ قَتْلُ
مِهْلَهْلِ بَحِيرَا ابْنِهِ وَقَوْلُهُ لَهُ : بُوَّ بِشَسْعٍ نَعْلُ كَلْبٍ ، فَنَادَى بِالرَّحِيلِ وَقَالَ قَصِيدَتَهُ
الْمَعْرُوفَةَ :

« قَرَبَا مَرْبُطَ النِّعَامَةِ مَنِى لَفَحَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنْ حَيَالِي »

(٦) لَمْ يُجِدْ شَيْئًا عَنِ الْأَسُودِ بْنِ قَنَانَ هَذَا فِي الْمَظَانِ الَّتِي رَجَعْنَا إِلَيْهَا .

(٧) يُشِيرُ إِلَى مَا أَثَّرَ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَامَةَ الْإِيَادِيُّ مِنْ أَنَّهُ أَثَّرَ بِنَصْبِهِ مِنَ الْمَاءِ رَفِيقَهُ
النَّمْرَى ، فَهَاتَ عَطْشًا ، وَضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ فِي الْإِثَارِ . (انظر الشعر والشعراء ص
١٢٠ طَبْعَةُ أَوْرَبَةِ ، وَالْمُضَافُ وَالْمُنْسُوبُ لِلتَّعَالِيِّ) .

جلّيسه كجليس الفقعاق بن شور^(١)، ومذاكره كذاكر سُفَيان^(٢) المنتسب من الرباب^(٣) إلى ثور؛ إلى التحلى بأَمّهات الفضائل، التي أضدادها أَمّهات الرذائل؛ وهي الثلاث: الحكمة، والعدل، والعفة، التي تشملها الثلاث: الأقوال، والأفعال، والشاغل؛ وينشأ منها ما شئت^(٤) من عزم وحزم، وعلم وحلم، وتيقظ وتحفظ، واتقاء وارتقاء، وصول وطول، وسماح ونائل؛ فبنور حلاه المشرق، يفتخر المغرب على المشرق؛ وبمحجته^(٥) السامى خطره فى الأخطار، وبيته الذى ذكره فى النباهة والنجابة قد طار، يُباهى جميع ملوك الجهات والأقطار، وكيف لا وهو الرفيع المُنتَمَى والنّجّار، الراضع من الطّاهرة صفو ألبان^(٦)، الناشئ من السّراوة وسط أحجار؛ فى ضِئضى^(٧) الجدد، ونُججوح السّكرم، وسراوة أسرة المملكة التى أكنافها حرّم، وذؤابة الشّرف التى مجاذبتها لم تُرم؛ من معشر أئ معشر، بخلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم، وجبّئوا إن لم يجمّوا سوى ذمارهم، بنو^(٨) مرّين، وما أدراك ما بنو مرّين:

(١) الفقعاق بن شور: تابعى يضرب به المثل فى حسن المجاورة؛ كان إذا جاسه واحد بالقصد إليه جعل له نصيباً من ماله، وأعاناه على عدوه، وشفع له فى حوائجه. (انظر المضاف والمنسوب، وشرح القاموس مادة قعق).

(٢) هو سفیان بن سعيد بن مسروق الثورى، تابعى من كبار رجال الحديث.

(٣) الرباب (بالراء المشددة المكسورة): الجماعات، وتطلق على قبائل عوف وثور وأشيب وضبة عمهم، سمو بذلك لفرقتهم.

(٤) كذا فى نفح الطيب والاستقصا للسلوى. وفى ط: «ناشئة».

(٥) فى نفح الطيب: «وبعده».

(٦) فى ت: «اللبان».

(٧) الضِئضى: الأصل.

(٨) فى ط: «فبنو».

سَمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزُرِ^(١)

الْفَازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزُرِ

لَهُمْ مِنَ الْقَوَاتِ انْتِفَاءً ، وَعِنْدَهُم مِنَ السَّيْرِ النَّبْوِيَّةُ اكْتِفَاءً ؛ انْتَسَبُوا إِلَى
بَرِّ بْنِ قَيْسٍ^(٢) ، نَفَخُوا فِي الْبَرِّ عَنِ الْقَيْسِ^(٣) ؛ مَا لَهُمُ الْقَدِيمُ الْمَعْرُوفُ ، قَدْ نَقَدَ
فِي سَبِيلِ الْمَعْرُوفِ ، وَحَدِيثُهُم الَّذِي ثَقَلَتْهُ رِجَالُ الرُّحُوفِ^(٤) ، مِنْ طُرُقِ الْقَنَا
وَالسِّيُوفِ ، عَلَى الْحَسَنِ مِنَ الْمَقَاصِدِ مَوْقُوفٍ^(٥) ؛ تَحَمَّدَ مِنْ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ ،
ذَابِلَهُمْ وَلَذَنَهُمْ ، فَلَهُ آبَاءُ أَنْجِبُوهُمْ ، وَأُمَمَاتٌ وَلَذَنَهُمْ :

سَمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ^(٦)

إِلَيْهِمْ فِي الشَّدَائِدِ الْإِسْتِنَادُ ، وَعَلَيْهِمْ فِي الْأَزْمَاتِ الْمَعْوَلُ ، وَلَهُمْ فِي الْوَفَاءِ
وَالصَّفَاءِ وَالْإِحْتِفَاءِ ، وَالْعِنَايَةِ^(٧) وَالْحِمَايَةِ وَالرَّعَايَةِ ، الْخَطَاوُ الْوَاسِعُ ، وَالْبَاعُ الْأَطُولُ ،
كَأَنَّمَا عَنَاهُمْ بِقَوْلِهِ جَرُولُ^(٨) :

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَى وَإِنْ عَاهَدُوا وَفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

(١) هذا عجز بيت ، وصدره : « لا يبعدن قومي الدين هم » . وهذا البيت والذي يليه من
قصيدة لخرنق بنت هفان ترى زوجها وابنها علقمة وأخويه . (راجع الأملاني ج ٢
ص ١٥٨ طبعة دار الكتب) .

(٢) هو بر بن قيس عيلان ، وإليه ينتسب البربر . (انظر شرح القاموس مادة بر) .

(٣) القيس : القياس والتقدير .

(٤) الزحوف : جمع زحف ، وهم الجماعة يزحفون إلى العدو بجمرة .

(٥) في ط : « موصوف » .

(٦) هذا عجز بيت لحسان بن ثابت من قصيدة يمدح بها الفلاسنة ، وصدره :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

(٧) هذه الكلمة : « العناية » ساقطة في ت .

(٨) جرول : اسم الخطيئة الشاعر المخضرم المعروف .

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها^(١) وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وتعذلي أبناء^(٢) سعد عليهم^(٣) وما قلت إلا بالتي علمت سعد
وبقوله الوثيق مبناه ، البليغ معناه :

قوم إذا عقدوا عقداً جارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا^(٤)
يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم ، وليس له منهم عائب ولا واصم ، فهم^(٥)
أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم^(٦) :

لا يقطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن^(٧)
حلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل ، أمير المؤمنين ، دام
نصره ، قسيمهم فيها حدو^(٨) النعل بالنعل ، ثم هو عليهم وعلى من سواهم
بالأوصاف الملوكة مستعمل ؛ أرفض مزهم منه عن غيث ملث يحجو أثار
اللزبة^(٩) ، وانشق غيلهم منه عن لث صار منقبض على برائه للوثبة^(١٠) ، فقل

(١) رواية هذا الشطر في مختارات ابن السجري : « وإن كانت النعمى عليهم جزوا بها » .

(٢) في مختارات ابن السجري : « أفناء » . والأفناء : الأخلاط .

(٣) يروى : « وقد لامني أفناء سعد عليهم » .

(٤) العناج : عروة في أسفل الغرب من باطن ، تشد بوثاق إلى أعلى الكرب ، وهو
الحبل الذي تعلق فيه الدلو من عرقوتها ، فإذا انقطع الكرب أمسك العناج الدلو
أن تقع في البئر . يريد أنهم إذا عقدوا عقداً جارهم أحكموه .

(٥) كذا في ط . وفي ت ونفع الطيب والاستقصا للسلوى : « فهو » .

(٦) بنو منقر : من تميم ، منهم قيس بن عاصم هذا .

(٧) هذا البيت من أبيات قيس مطلقها :

إني امرؤ لا يعتري حسبي دنس يفسده ولا أفن

(٨) كذا في ت ونفع الطيب : وفي ط : « حدوك » .

(٩) اللزبة : الضيق والشدة .

(١٠) يشير إلى قول النابغة :

وقلت يا قوم إن الليث منقبض على برائه للوثبة الضارى

لِسَكَّانِ الْقَلَا : لَا تَغُرَّنَّكُمْ أَعْدَادُكُمْ وَأُمْدَادُكُمْ ، فَلَا يُبَالِي السَّرَّحَانُ الْمَوَاشِي ،
سِوَاءَ مَشَى إِلَيْهَا النَّقَرَى أَوْ الْجَفَلَى ^(١) ؛ بَلْ يَصْدِمُهُمْ صَدْمَةٌ تَحْطِمُ مِنْهُمْ كُلَّ
عَرْنِينَ ، ثُمَّ يَنْتَلِعُ بَعْدَ أَشْلَاءِهِمُ الْمُعَفَّرَةُ ابْتِلَاعَ التَّنِينِ ^(٢) ؛ فَهُوَ هُوَ كَمَا عَرَفُوهُ ،
وَعَهْدُهُ وَالْفَوْهُ ؛ أَخُو ^(٣) الْمَنَايَا ، وَابْنُ جَلَا ^(٤) وَطَلَاغُ الثَّنَايَا ^(٥) ، مَجْتَمِعُ أَشْدُّهُ ،
قَدْ احْتَنَكْتَ سِنَّتَهُ ^(٦) وَبَانَ رُشْدُهُ ؛ جَادَّ مَجْدٌ ؛ مُحْتَزَمٌ بِحَزَامٍ مِنَ الْحَزَمِ ، مُشَمَّرٌ
عَنْ سَاعِدِ الْجِدِّ :

لَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا مِنْ قَلِيبِ دَمٍ وَلَا يَبِيتُ لَهُ جَارٌ عَلَى وَجَلٍ ^(٧)
[٥٢] أَسَدَى الْقَلْبَ آدَمِي الرُّوَاءَ ، لَا بَسَ جِلْدَ النَّمْرِ لَذَوَى الْعِنَادِ وَالنَّوَاءَ ^(٨) :

وَلَيْسَ بِشَاوَى عَلَيْهِ دَمَامَةٌ إِذَا مَا سَعَى يَسْعَى بِقَوْسٍ وَأَسْنَمُهُ ^(٩)
وَلَسَكْنَةُ يَسْعَى عَلَيْهِ مُفَاضَةٌ ^(١٠) دِلَاصٌ كَأَعْيَانِ الْجَرَادِ الْمُنْظَمِ ^(١١)

(١) مَشَى إِلَيْهَا النَّقَرَى أَوْ الْجَفَلَى . أَيْ دَهَمَهَا وَحَدَدَ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ .

(٢) التَّنِينُ (بِكَسْرِ أَوَّلِهِ) : الْحَيَّةُ الْعَظِيمَةُ .

(٣) فِي ط : « وَأَخُو » .

(٤) يَقَالُ : هُوَ ابْنُ جَلَا : لِلسَّيِّدِ الشَّرِيفِ الَّذِي لَا يَخْفَى مَكَانُهُ .

(٥) الثَّنَايَا : جَمْعُ ثَنِيَّةٍ ، وَهِيَ الْعُقْبَةُ ؛ وَطَلَاغُ الثَّنَايَا : مَنْ يَسْمُو لِمَعَالَى الْأُمُورِ .

(٦) احْتَنَكْتَ سِنَّتَهُ : قَوَّيْتَ تَجَارِبَهُ .

(٧) الْقَلِيبُ : الْبُئْرُ . وَهَذَا الْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ لِأَبِي سَعِيدِ الْخَزْرَمِيِّ . (انْظُرِ الْأُمَالَ ج ١)

ص ٢٥٩ طَبْعَةُ دَارِ السُّكُتِبِ الْمِصْرِيَّةِ .

(٨) النَّوَاءُ : الْمَنَاوِةُ ، وَهِيَ الْمَعَادَاةُ .

(٩) شَاوَى : صَاحِبُ شَاءٍ ، وَهِيَ الْغَنَمُ . وَرَوَايَةُ هَذَا الْبَيْتِ فِي اللِّسَانِ مَادَّةُ (شَوْه) :

وَلَسْتُ بِشَاوَى عَلَيْهِ دَمَامَةٌ إِذَا مَا غَدَا يَغْدُو بِقَوْسٍ وَأَسْنَمٍ

وَهُوَ وَالَّذِي بَعْدَهُ لِيَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَدَانِ .

(١٠) رَوَايَةُ هَذَا الشَّطْرِ فِي اللِّسَانِ مَادَّةُ (عَيْن) : « وَلَسَكْنَةُ أَغْدُو عَلَى مُفَاضَةٍ » .

(١١) الْمَفَاضَةُ : الدَّرْعُ . وَالْدِلَاصُ : اللَّيْنَةُ الْبَرَاقَةُ الْمَلْسَاءُ .

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين ، والوحاء الوحاء^(١) لاحقين به خاضعين ؛
 قبل أن تساقوا إليه مُقَرَّرِينَ في الأصْفَاد ، ويعيا الفِدَاء بنفائس النفوس والأموال
 على الفاد^(٢) ؛ حينئذ يَعُضُّ ذُو الجَهِل والْقَدَامَه^(٣) ، على يديه حَسْرَةٌ وندامه ؛ إذا
 رأى أبطال الجنود ، تحت خَوَافِق الرايات والبُنُود ، قد لَفَحَتْهُمْ نار لَيْسَتْ بذات
 مُجُود ، وأخذتهم صَاعِقَةٌ مثل صَاعِقَةِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : عَادٍ وَثُود ؛ زَعَقَات
 سَبْطَانَات^(٤) تَوْز^(٥) السَّكَنَاتِبِ أَرْزَا ، وَهَزَاً مُحَقَّقًا لِلخَيْلِ بَعْدَ الْمَدِّ الْمَشْبَعِ لِلْأَعْنَةِ
 هَمْزًا ، وَسَلًّا لِلهِنْدِيَةِ سَلًّا وَهَذَا لِلخَطِيئَةِ هَزَاً ، حَتَّى يَقُولَ النَّسْرُ لِلذَّبِّ : هَلْ
 تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا^(٦) . رِثْقُ خَلِيفَةِ اللَّهِ بِذَاكَ ، فِي كُلِّ
 مَنْ رَامَ أَذَى رَعِيَّتِكَ أَوْ أَذَاكَ^(٧) ، فَتِلْكَ عَادَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ذَوَى الشَّقَاقِ
 وَالتَّفَاقِ ، الَّذِينَ يَشْقُونَ عَصَا الْمَسَامِينِ ، وَيَقْطَعُونَ طَرِيقَ الْوَفَاقِ^(٨) ؛ وَيَنْصِبُونَ
 حَبَائِلَ الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ فِي جَمِيعِ النَّوَاحِي وَالْآفَاقِ ؛ فَلَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ
 الْأَمْنِينَ ، أَنَّى وَكَيْفَ وَقَدْ أَفْسَدُوا وَخَانُوا ؟ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ،
 وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

وها نحن قد وجهنا إلى كعبةِ مجدكم وُجُودِ صَلَوَاتِ التَّقْدِيسِ والتَّعْظِيمِ ،
 بَعْدَ مَا زَيْنَّا مَعَاطِفَهَا بِاسْتِعْطَافِكُمْ بِدُرِّ ثَنَاءِ أُمِّيٍّ مِنْ دُرِّ الْعِقْدِ النُّظْمِ ؛ مُنْتَظِمِينَ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلَيْنِ . وَالْوَحَاءُ : السَّرْعَةُ . وَفِي نَفْحِ الطَّيِّبِ : « وَالْوَجَلُ الْوَجَلُ » .

(٢) الْفَادُ : الْغَادِي ، وَهُوَ مَنْ يَفْدِيهِمْ بِالْمَالِ .

(٣) الْقَدَامَةُ : الَّتِي عَنْ الْحَبَّةِ مَعَ ثَقُلٍ وَرَخَاوَةٍ وَقَلَّةِ فَهْمٍ .

(٤) سَبْطَانَاتُ : جَمْعُ سَبْطَانَةٍ ، وَهِيَ آلَةٌ يَرْمِي بِهَا فِي الْحَرْبِ ، (مَوْلِدَةٌ) .

(٥) تَوْزَمُ : تَحْرِكُهُمْ بِشِدَّةٍ .

(٦) رَكْزًا : صَوْتًا خَفِيًّا .

(٧) كَذَا فِي تِ وَنَفْحِ الطَّيِّبِ . وَفِي طِ : « وَأَذَاكَ » .

(٨) فِي تِ وَنَفْحِ الطَّيِّبِ : « الرِّفَاقُ » .

في سلك أوليائكم ^(١) ، متشرفين بخدمة عليائكم ؛ ولا فقد عزة ولا عدها ،
 من قصد مثابنتكم العريزة وخدمها ؛ وإن المترامى على سنائكم ، لجدير بحرمتكم
 واعتنائكم ؛ وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصننا حصينا ، عاش بقية عمره محروسا
 من الضيم مصونا ؛ وقد قيل في بعض الكلام : من قعدت به نكالية الأيام ،
 أقامتة إغاثة الكرام ؛ ومولانا أيده الله تعالى ولّى ما يرفقه إلينا من مكرمة بكر ،
 ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف ^(٢) حسن الذكر ، ويروى مُنعن
 حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر ؛ وغيره
 من ينال عن ذلك فيوقف ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ ؛ وما عهد مُنذ
 وجد إلا سريعا إلى داعي الندى والتكرّم ، بريئا من الضجر بالمطالبة والتبرّم ؛
 حافظا للجار الذي أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بحفظه ، مستفرغا وسعه في
 رعيه المستمر لحظه ، آخذا من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه :

فهو من دَوْحة السَّنَا فرغ عَزَّ نيس يحتاج مُجتنيه لَهْرٌ
 كفه في الإِجْمال أغرر وبَل وذراه في الخوف أَمْنَع حِزْر ^(٣)
 حمله يُسْفِر اسمه لك عَنْهُ فتنهَمَّ يا مدعى الفهم لُغْزَى ^(٤)
 لا تسله شيئا ولا تستنله نظرة منه فيك تُغْنِي وتُجْزَى
 فنداه هو القُرأت الذي قد عام فيه الأنام عَوَم الإَوْر
 وحماءه هو المَنيع الذي تر جع عنه الخطوب مَرَجِع عَجْر

(١) في ط : « ومنظمين في سلك أولائكم » .

(٢) في ت : « الصحائف » .

(٣) ذراه : كنفه .

(٤) لعله يريد أن الحلم يلحظ في اسمه (الشيخ) ، لأن مع الشيخوخة الرزانة والهدوء .

فَدَعُوا ذَهَنَهُ يَزَاوِلَ قَوْلِي فهو أدري بما تضمن رمزي
دام يُحْيِي بكل صُنْعٍ وَمَنْ ويعافي من كل بؤس ورجز

وكأننا به قد عمل على شاكلة جلاله، من مد ظلاله، وتمهيد خلاله، وتلقى ورودنا
بحسن تهلله واستهلاله، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله، وإيرادنا على حوض
كوثره المترع بزلاله. والله [سبحانه] ^(١) يُسْعِدُ مَقَامَهُ الْعَلِيِّ، وَيُسْعِدُنَا بِهِ فِي
حَالِهِ وَارْتِحَالِهِ، وَمَالِهِ وَحَالِهِ؛ وَيُوَيِّدُ جَنْدَهُ الْمُظْفَرَّ، وَيُوَيِّدُنَا بِتَأْيِيدِهِ عَلَى نَزَالِ
عُدُوِّهِ وَاسْتِنْزَالِهِ، وَهَزَّ الذُّوَابِلَ ^(٢) لِإِطْفَاءِ ذُبَابِهِ؛ وَهُوَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُسْتَوَلُ
أَنْ يُرِيَهُ قُرَّةَ الْعَيْنِ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخُدَّامِهِ وَأَمْوَالِهِ، وَأَنْظَارَهُ ^(٣) وَأَعْمَالَهُ، وَكَافَّةَ
شَتْوُونِهِ وَأَحْوَالِهِ. وَأَحَقُّ مَا نَصَلَ بِالسَّلَامِ وَأَوْلَى، عَلَى الْمَقَامِ الْجَلِيلِ مَقَامِ الْخَلِيفَةِ
الْمَوْلَى: أَزَكَى الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى خَاتَمَةِ ^(٤) أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَأَرْسَالِهِ ^(٥)، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى جَمِيعِ أَصْحَابِهِ وَآلِهِ، صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمِينَ أَبَدًا،
مُوصُولِينَ بِدَوَامِ الْأَبَدِ وَاتِّصَالِهِ، ضَامِنِينَ لِمُجَدِّدِيهِمَا وَمُرَدِّدِيهِمَا صَلَاحَ فَاسِدِ أَعْمَالِهِ،
وَبُلُوغَ غَايَةِ آمَالِهِ، وَذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِذْنِهِ وَفَضْلِهِ وَإِفْضَالِهِ.

اتهى الكتاب؛ وأوردته بطوله لما فيه من ذكرى واعتبار، بما فعلته الدنيا
مع الملوك الأعظم الكبار، ولأن الكلام جر إليه، والله تعالى الكفيل بخلاص
من توكل عليه.

(١) زيادة عن نفع الطيب.

(٢) الذوابل: الرماح، جمع ذابل.

(٣) كذا في ط ونفع الطيب. والأنظار: جمع نظر، وهو مصدر، يراد به ما يتولى
النظر عليه من الأعمال. وفي ت: «أفطاره».

(٤) كذا في ط ونفع الطيب. وفي ت: «خاتم».

(٥) يريد رساله، والأرسال: غير مسموع في هذا المعنى.

أبو عبد الله
العربي وشي
من نظمه

وصاحب هذا الإنشاء وصفه الإمام ابن داود بقوله : « الفقيه الخطيب
الفاضل ، خاتمة الأدباء بالأندلس ^(١) ، أبو عبد الله محمد بن الفقيه الصالح أبي محمد
عبد الله العقيلي المعروف بالعربي .

ومن بديع نظمه هذه الأبيات ^(٢) :

جُرْ بالبساتين والرياض فما أبهج مرثيها ^(٣) وأجله ^(٤)
وأعجب بها للنبات ولتلك في أسفله ناظرا وأعلاه
وقدس الله عند ذلك وقل سبحانه لا إله إلا هو

ورأيت بخط ابن داود المذكور أنه وقع بينه ، أعني ابن داود ، وبين الفقيه
المدرس أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل بن إبراهيم البسطي ، نزاع في مسألة نحوية ،
قال : وطال فيها الكلام ^(٥) بما تقيّد عني في غير هذا ، فقال الفقيه الخطيب
الأديب العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي يُورَى بالقضية ، ويشير إلى
قصة نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام :

ندد البسطي في مسألة لابن داود وقد أحكمها
وقديما وقعت مُعضلة وابن داود الذي فهمها ^(٦)

[٥٥] انتهى .

ومن نظم الشيخ الفقيه ، الأستاذ المقرئ الخطيب ، الفذّ الأوحّد ، سيدي

قصيدة الدقون
في نذب الجزيرة

(١) في ت : « أدباء الأندلس » .

(٢) في ت : « ومن بديع نظمه قوله » .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « مرآها » .

(٤) في نفع الطيب : « وأحلاه » .

(٥) في ت : « القيام » .

(٦) يشير إلى قوله تعالى في قصة الغنم والحِث : « ففهمناها سليمان وكلا آتينا
حكما وعلمنا » .

أبي العباس أحمد الدقون^(١) رحمه الله ، قصيدة في نَدْب^(٢) الجزيرة ، تذكر النفوس
بشجوها ، فترسل العيون دموعها الغزيرة ، افتتحتها بنثر نصه :

الحمد لله على كل حال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله خير آل .
أما بعد فيقول خديم^(٣) أهل الله تعالى ، عُبِيد الله أحمد بن محمد الأندلسي ، الشهير
بالدقون ، لطف الله به بمنه وكرمه :

إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء ، بأخذ الحمراء ؛ قرَعْتُ باب النُدْبِه ، لما
تقدم من الصحبة ؛ فقلت أيباتا صَدَرْتُ من قلب كَثِيب ، مُبَكِّية كل^(٤) لبيب
أريب ؛ وسميتها بالموعظة الغراء ، بأخذ الحمراء ، مبيحا لمن رغب فيها ، ولم يرغب
عنها ، أو استحسن شيئا منها ، أن يحدث بها عني ؛ وذلك بعد إتيان لفظها
وحفظها ، وفهم وعظها ولحظها ؛ وإن كنت لأحسن أن أقول ، وربما أُعزَى بها
إلى الفضول ؛ لكنني لا أَعْدَم المثليل ، وفي مثل هذا قيل :

وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى المرءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

والله حسبي وعُدَّتِي ، وهو مُقِيلُ عَثْرَتِي . وهذا مطلع صباحها ، ومنيع افتتاحها :

أَمِنْتَ من عَكْسِ آمَالٍ وَأَحْوَالٍ وَعَشْتَ مَا بَيْنَ أَعْمَامٍ وَأَحْوَالٍ
وَلَا ابْتُلَيْتَ بِمَا فِي الْقَلْبِ مِنْ نَكْدٍ فَالْجَسْمُ مُشْتَغَلٌ مِنْ غَيْرِ أَشْغَالٍ
وَكَيْفَ لَا وَبِقَسَاعِ الدِّينِ خَالِيَةً مِنْ أَرْضِ أَنْدَلُسٍ مِنْ أَجْلِ أَهْوَالٍ

(١) هو أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجي المشهور بالدقون ، توفي مستهل شعبان
سنة إحدى وعشرين وتسع مئة . (انظر كتاب نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج ،
لأحمد بابا التنبكتي) .

(٢) في ت : « ندبة » .

(٣) انظر حاشية رقم ٣ صفحة ٣٩ من هذا الجزء .

(٤) في ت : « لكل » .

عَمَّتْ فَغَمَّتْ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ فِيَا لَمْسَالِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ وَأَنْكَالِ
جَاشَتْ بِهِامِنْ جِيُوشِ الْكُفْرِ مَا دَرَسَتْ بِهِمْ مَعَالِمُ أَخْيَارِ وَأَقْيَالِ^(١)
أَهْلُ الشَّجَاعَةِ أَهْلُ الْعِلْمِ أَهْلُ تَقَى أَهْلُ النَّفَاسَةِ فِي قَوْلِ وَأَفْعَالِ
عَنْهُمْ وَفِيهِمْ أَحَادِيثُ النَّبِيِّ بَدَتْ وَهُمْ مَعَاقِلُ قَوْلِ اللَّهِ لِلتَّالِي
رُهْبَانِ لَيْلٍ وَفُرْسَانِ النَّهَارِ فَعَنْ يُلْمِنُ بِسَاحَتِهِمْ يَظْفَرُ بِأَمَالِ
لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى أَنْ الْمُضَافَ لَهُمْ يَسْلُو عَنْ أَهْلِ وَأَوْطَانِ وَأُمُومَالِ
فَهَلْ تَرَى بَعْدَ هَذَا النَّفْسَ سَائِلَةً وَكَيْفَ تَسْأَلُ عَنْ وَصْفِ وَعَنْ حَالِ
تَاللَّهِ لَا زَالَ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ أَسْفٍ وَلَوْ أَكُونُ حَلِيفَ الْمَنْزِلِ الْخَالِي
أَوْ يَفْتَحَ اللَّهُ فِي نَصْرِ يَمُنْ بِهِ فَاللَّهُ بَاقٍ يَبْقَى مِنْ كُلِّ مُحْتَمَالِ
قَدْ رَامَ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مَجْتَهِدًا وَبِأَذْلَا كُلِّ مَا قَدْ حَازَ مِنْ مَالِ
سَطَا بِجَيْشِ كُوجِ الْبَحْرِ فِي عُذْدِ نَعَمْ ، وَفِي عَسَدٍ مِنْ رَهْطِ أَبْطَالِ
مُؤَيَّدًا بِاجْتِمَاعِ الْمَصْرِ يَتَّبِعُهُ شَرُّ الْخِلَائِقِ مَسْرُورًا بِإِقْبَالِ
يَسْبِي الْمَسَامِعَ بِالْأَنْفَاضِ^(٢) مُشْبِهَةً وَقَعَ الصَّوَاعِقُ فِي هَدْيٍ وَزَلَالِ
يَبْنَى لِيَهْدِمَ مَا الْإِسْلَامَ شَيَّدَهُ وَالْوَصْفَ يُعْجِزُ مَنْ يُدْعَى بِقَلْقَالِ^(٣)
فَهُوَ الْمُقَاتِلُ فِي الْأَبْرَاجِ مُنْتَقِلُ إِلْفِ النُّجُوسِ وَتَغْيِيرِ^(٤) وَتَرْحَالِ
فَاسْتَوْطِنَ الرَّمَجَ لَا يَنْوِي الرِّحِيلَ وَلَا يَخْشَى الْمَغِيثَ بِسَهْلٍ أَوْ بِأَجْبَالِ
وَالْمَسَامُونَ مِنَ الْأَضْغَانِ قَدْ مِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَأَبَوْا تَسْهِيدَ أَخْلَالِ^(٥)

[٥٦]

(١) الأقيال : جمع قبيل ، وهو الملك دون الملك الأعظم .

(٢) كذا في الأصلين : ولعلها محرفة عن الأنفاط (بالطاء) ، يريد بها الآلات التي ترمى بها الحصون والأسوار كالدافع . (انظر تكملة المعاجم العربية لدوزي) .

(٣) يريد بالقلقال (هنا) : الفصيح اللسن ، كما هو شائع على ألسنة المغاربة حتى اليوم .

(٤) في ط : « النجوس » .

(٥) الأخلال : جمع خلل ، وهي الثغرة في الصفوف ونحوها .

والحقُّ مختلفٌ والحقُّ مؤتلفٌ	والكل منصرف عن نصر أبطالٍ
وهم لديه كطير وهو ينثفه	والطير يرجو البقا مع كيد قتالٍ
إذا تجرَّد ^(١) من ريش يطير به	أضحى يدافع عن رُوح بأوصال ^(٢)
سدُّوا مسالكَ أرزاقٍ ومنفعة	كدودة القز في نسجٍ لسرِّبالٍ
ثم استغاثوا : ألا فرسانَ عاديةٍ	قال الصدى : لست ذا رمح ونبالٍ
والصيف ضيعت ما أمّلت من ابنٍ	فقارق الجبجج من تدخين نحال ^(٣)
وارحل بنحلك ^(٤) نحو الغرب في كرم	من قبل وضعك في قيدٍ وأغلالٍ
فاستمكن ^(٥) الرُعب في الأكباده وانفقت	بعد اختلاف على تأمين أرذالٍ
واحتل غرناطة الغراء قد ^(٦) عديم	حبّ الحصيد ونصر الله والآل
كأنها الشمس في أفق العلى كسفت	فهل على طللٍ ترمى بأبطال؟ ^(٧)
وهل تعود ليالٍ قد سلفن بها	ونحن لا نستكي تنكيد ضلال؟
وهل يعود لها الدين الذي أنست	به وقد أيست من فتح أبدال؟ ^(٨)
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم	كمثل عادٍ وما عادُ بأشكال
قد فرّقوا كسبا في كل منزلة	وقد سبا عدّه من أيدٍ أو عال ^(٩)

(١) كذا في ط . وفي ت : « تجدد » وهو تحريف .

(٢) الأوصال : مجتمع العظام . يريد الأطراف .

(٣) الجبجج : خلية النحل . والنحال : القائم على خلايا النحل .

(٤) في ت : « بنحلك » .

(٥) في ت : « واستمكن » .

(٦) في ط : « مذ » .

(٧) كذا في ط . وفي ت : « توى بأطلال » ولا معنى له .

(٨) يشير إلى ما هو معروف في الغرب من الاستنصار بالأولياء ، وهم الأبدال ، عند اشتداد الأزمات والخطوب .

(٩) كذا ورد هذا الشطر في الأصلين .

فلا المساجد بالتوحيد عامرة
ولا المنابر للوعاظ بارزة
ولا المكاتب بالصبيان آمنة
آه على الدين والدنيا وما نفعت
إنّا إلى الله والرّجعى له وبه [٤٧]
وكان ما كان والأطاف شاملة
فلنكرم^(٢) الآن من ينزل بمنزلنا
وإذ ولا قدرة تدنى المنى فلهم
نلقاهم ولنا بشر ومعدرة
ولا نذعن ورود الحوض وارده
إخوانكم رفعوا أيدي الضراعة مع
وقل لوال تلتطف في مغارمهم
هذا النذير جهارا جاء ينذرنا
ونحن في غفلة عما يراد بنا
يأهل فاس أما في الغير موعظة
فقل تعالوا إلى نصيح وتذكرة
كيف الحياة إذ الحيات قد نفحت
ولا سبيل إلى الترياق غير مُتقى
والأخذ بالحد في جمع القلوب على

إذ عمروها بناقوس وتمثال
الأمر والنهى أو تذكير آجال
تتلو القرآن بأسحار وأصال
آه إذا صدرت من قلب بطل^(١)
تعلق القلب في تصحيح إعلال
لاحت بثقله نساء وأطفال
فالدهر ذو دُول فاسمع لأمثال
حق الجوار ولا توصف^(٣) بإهمال
ورحمة يا حمة العم والخال
ولا ندع قول ذى نصيح وإجمال
كسر القلوب فلا يلتقوا بإهمال
يلطف بك الله إذ تدعى لأحمال
والاذن في صمم عن قيل أو قال
تمشى على مهلة من طول إهمال
إن السعيد لمعوظ بأمثال
فالأمر جد فلا تصحب لمكسال
على السواحل أو همت بإرسال
والحزم في سعة من قبل إجمال
بذل النصيحة أو إبراء أذخال

(١) في ط : « آها على الدين ... » * إلا إذا صدرت ... الخ .

(٢) في ت : « فتركهم » .

(٣) في ت : « فلا يوصف » .

والزُّهد في هذه الدنيا وزُخرفها والأمر بالعرف مع تحسينِ مقوالِ
ولا تَرُمُ في أمانِ الرومِ منزلةً خوفاً على الدين أو بعداً مِنْ أُنْذالِ
فمن يَبْتَ في أمانِ الكلبِ منتصباً لسخطِ مَوَلَى ولا عذرٌ بِأثقالِ
وارباً بنفسك عن أرضِ تهان بها فخيماً كنت لا تحشى مِنْ أَقْلالِ
فالموت عندى خير من حياة فتى قد اكتسى بعد عز ثوبِ إِذْلالِ
والهجرة الآن قد عادت كما سبقتُ فافهم تفاصيلِ أقوالِ وإجمالِ
واحْتِلْ بذهنك ولتسمع نصائحَ مَنْ قد طَبَّ مَنْ حَبَّ^(١) لم يُوصَفْ بِمُحْتالِ
في صدر سبع على التسعين زائدة شمسُ الجزيرة غابت بعد إِكمالِ
وَبُلِّغَ الكلبُ ما قد شاء من أَرْبٍ إذ لم يجد ذائداً عن ديننا العالِ
ليَقْضَى الله أمراً كان قَدَّرَه والأمرُ لله في قولِ وأفعالِ
وقد وعظتُ ولو أسمعْتُ لانتشرتُ سحائبُ الدمع لم تقلع عن انزالِ
فليشتغل كل مسكين بمهجته والله يحفظنا من كل مهوالِ
ثم الصلاة على المختار سيدنا محمد والرضا عن آلِ أو تآلى [٥٨]

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان
أبي يزيد^(٢) خان العُماني ، رحمه الله ، ما نصه بعد سطر الافتتاح :

مما كتبه بعض
أهل الجزيرة
إلى بايزيد

الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها : ومهد أقطارها ، وأعز
أنصارها ، وأذل عُداتها ، حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ودينانا ، السلطان الملك
الناصر ؛ ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله

(١) من أمثال العرب في التنويع في الحاجة وتحسينها : اصنعه صنعة من طب لمن
حب . . . أى صنعة حاذق لمن يحبه .

(٢) في ط : « بايزيد » .

الكافرين ؛ كهف الإسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ؛ محيي العدل ، ومنصف المظلوم من ظلم^(١) ، ملك العرب والعجم ، والترك والدَّيْلَم ؛ ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ؛ ملك البرّين ، وسُلطان البحرين ؛ حامى الدّمار ، وقامع الكفّار ؛ مولانا ومُحمدتنا ، وكهفنا وغياثنا^(٢) ، مولانا أبو يزيد ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مُخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالي والفخار ؛ مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل ، في الدار الآخرة والثناء الجليل ، والنصر في هذه الدار . ولا برّحت عزّماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، مُجرّدة على أعداء الدين من بأسها ، ما يُروى صدور السُّمر والصفاح^(٣) ، وألْسنة السّلاح ، باذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخير مفارقة الأرواح للأجساد^(٤) ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد :

سلام كريم دائم متجدّد	أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذى المجد والعلا	ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسّع الله ملكه	وأيدّه بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه	قُسْطَينِة أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه	بجند وأتراك من أهل الرّعاية
سلامٌ عليكم شَرّف الله قدركم	وزادكم ملكاً على كل ملة ^(٥)

(١) في ط : « من الظالم » .

(٢) في ط : « غوثنا » .

(٣) الصفاح : جوانب السيوف ، الواحد : صفح .

(٤) هذه العبارة ، من قوله : « باذلة نفائس » إلى قوله : « للأجساد » : ساقطة في ت .

(٥) رواية هذا الشطر في ط : « وزادكم ملكاً في كل ملة » وهو محرف .

سلام على القاضى وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُ
سلام على أهل الديانة والتقى
سلام عليكم من عبيد تخلفوا
أحاط بهم بحر من الرُّوم زاحرٌ
سلام عليكم من عَمِيد أصابهم
سلام عليكم من شُيوخ تمرقت
سلام عليكم من وجوه تكشفت
سلام عليكم من بذات عواتقٍ
سلام عليكم من عجائز أُكْرِهَتْ
نقبل نحن الكلُّ أرض يساطكم
أدام الإله (٣) ملككم وحياتكم
وَأَيْدَكُمْ بالنصر والظفر بالعدا
شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا
غَدِرْنَا ونُصِّرْنَا وبُدِّل ديننا
وكنا على دين النبي محمدٍ
ونلقى أموراً في الجهاد عظيمةً
فجاءت علينا الروم من كلِّ جانب
مِنَ العلماء الأَكْرَبِينَ الأَجَلَّةِ
ومن كان ذارأى مِن أهل المشورة
بأندلس بالغرب (١) في أرض غُرْبَةٍ
وبحر عميق ذو ظلام ولجَّة
مُصاب عظيم يالها مِن مُصِيبَةٍ
شُيُوبهم بالنَّتْف من بعد عِزَّة
على جملة الأعلاج من بعد سِتْرَةٍ
يسوقهم اللَّبَّاط قَهْرًا لَخْلُوة (٢)
على أكل خنزير ولحمٍ لِحِيْفَةٍ
وندعو لكم بالخير في كل ساعة
وعافاكم من كل سُوءٍ ومِحْنَةٍ
وأسكنكم دار الرضا والكرامة
من الضر والبُلُوّى وعظم الرِّزِيَّة
ظلمنا وعوملنا بكلِّ قَبِيْحَةٍ
نقاتل عُمَّال (٤) الصليب بنيسة
بقتلٍ وأُسْرٍ ثم جُوع وقَلَّة
بسيل عظيم جملةً بعد مُجْمَلَةٍ

(١) في ط : « في الغرب » .

(٢) اللبّاط : من رجال الدين بالكنيسة ، كما في معجم دوزى . يشير إلى ما فعله نصارى الأسبان من إكراه المسلمين على ترك دينهم .

(٣) في ط : « إلهى » .

(٤) كذا في ت . وفي ط : « أعمال » . وفي رواية : « عباد » .

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم
فكننا بطول الدهر نلقى جموعهم
وفُرسانهم تزداد في كل ساعة
فلمّا ضَعُفْنَا خَيَّمُوا فِي بِلَادِنَا
وجاءوا بِأَنقَاطٍ ^(٢) عظام كثيرة
وشدوا عليها فِي الْحِصَارِ بِقُوَّةٍ
فلمّا تَفَانَتْ خَيْلُنَا وَرَجَالُنَا
وَقَلَّتْ لَنَا الْأَقْوَاتُ وَاشْتَدَّ حَالُنَا
وُخُوفًا عَلَى أبنائنا وَبَنَاتِنَا
عَلَى أَنْ نَكُونَ مِثْلَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا
وَنُبْقِيَ عَلَى آذَانِنَا وَصَلَاتِنَا
وَمَنْ شَاءَ مِنَّا الْبَحْرَ جَازَ مُؤَمَّنًا
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُرُوطٍ كَثِيرَةٍ
فَقَالَ لَنَا سُلْطَانُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ
وَأَبْدَى لَنَا كُتُبًا بَعْدَ وَمَوْتِ
فَكُونُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ
فَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ عَقْدِ ذِمَّتِهِمْ
وَخَانَ عَهْدُهَا كَانَ قَدْ غَرَّنا بِهَا

بجد وعزم من خيول وعدة
فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفُرساننا في حال ^(١) نقص وقلة
ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
تهدم أسوار البلاد المنيعة
شهوراً وأياماً بجد وعزيمة
ولم نر من إخواننا من إغاثة
أطعنهم بالكراهة خوف الفضيحة
من أن يؤسروا أو يقتلوا شرقتلة
من الدجن من أهل البلاد القديمة
ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة
بما شاء من مال إلى أرض عدوة
تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وقال لنا هذا أمانى وذمتى
كما كنتم من قبل دون أذية
بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
ونصرتنا كرها ^(٣) بعنف وسطوة

(١) في ط : « في كل » .

(٢) كذا في ط . ويريد بالأنقاط : الآلات التي ترمى بها الحصون والأسوار كاللداغم . وفي
ت : « بأنقاض » وهو تحريف . (انظر الحاشية رقم ٢ صفحة ١٠٥ من هذا الجزء) ..

(٣) في ط : « قهراً » .

وأحرق ما كانت لنا من مصاحفٍ
وكل كتاب كان في أمر ديننا
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم
ومن صام أو صلى ويُعلم حاله
ومن لم يحجَّ مِنَّا لموضع كفرهم
ويلطم خديهِ ويأخذ ماله
وفي رمضان يُفسدون صيامنا
وقد أمرونا أن نُسب نبينا
وقد سمعوا قوماً يُغنون باسمه
وعاقبهم حكامهم وولايتهم
ومن جاء الموت ولم يُحضر الذي
ويترك في زبلٍ طريقاً مجذلاً
إلى غير هذا من أمور كثيرة
وقد بدلت أسماءنا وتحولت
فأها على تبديل دين محمد
وأها على أسماءنا حين بدلت
وأها على أبنائنا وبناتنا
يُعلمهم كفراً وزوراً وفريةً
وأها على تلك المساجد سُورت
وأها على تلك الصوامع علقت
وأها على تلك البلاد وحُسنها
وخطأها بالزبل أو بالنجاسة
ففي النار ألقوه بهزء وحفرة
ولا مصحفاً يُخلى به للقراءة
ففي النار يُلقوه على كل حالة
يعاقبه اللبّاط شرَّ العقوبة
ويجعلهُ في السجن في سوء حالة
بأكل وشرب مرة بعد مرة
ولا نذكرهُ في رخاء وشدة
فأدركهم منهم أليمُ المصرة
بضرب وتعزيم وسجن وذلة
يذكّرهم لم يدفنه بحيلة
كثل حمار ميت أو بهيمة
قباح وأفعال غزار رديّة
بغير رضا منا وغـير إرادة
بدين كلاب الروم شرّ البرية
بأسماء أعلاج من أهل الغباوة
يرُوحون للباط في كل غدوة
ولا يقدرُوا أن يمنعوا بحيلة
مزابل للكفار بعد الطهارة
نواقيسهم فيها نظير الشهادة
لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة

وصارت لِعَبَادِ الصَّلَيبِ مَعَاوِلًا
 وَصِرْنَا عبيدًا لَا أُسَارَى فُتِفَتَدَى
 فَلَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَا صَارَ حَالُنَا
 فَيَا وَيْلَنَا ، يَا بُوُسَ مَا قَدْ أَصَابَنَا
 سَأَلْنَاكَ يَا مَوْلَايَ بِاللَّهِ رَبَّنَا
 وَبِالسَّادَةِ الْأَخْيَارِ آلِ مُحَمَّدٍ
 وَبِالسَّيِّدِ الْعَبَّاسِ عَمِّ نَبِينَا
 وَبِالصَّالِحِينَ الْعَارِفِينَ رَبِّهِمْ
 عَسَى تَنْظُرُوا فِينَا وَفِي مَا أَصَابَنَا
 فَقُولَاكَ مَسْمُوعَ وَأَمْرِكَ نَأْفِذُ
 وَدِينُ النَّصَارَى أَصْلُهُ تَحْتَ حَكْمِكُمْ
 فَبِاللَّهِ يَا مَوْلَايَ مُنَّوَا بِفَضْلِكُمْ
 فَاتَّمُّ أُولُو الْإِفْضَالِ وَالْمَجْدِ وَالْعَلَا
 فَسَلِّ بِأَبْنِهِمْ^(١) أَغْنَى الْمُقِيمِ بَرُومَةَ
 وَمَا لَهُمْ مَالُوا عَلَيْنَا بَغْدَرِهِمْ
 وَجَنَسَهُمُ الْمَغْلُوبُ فِي حَفْظِ دِينِنَا
 وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَدِيَارِهِمْ
 وَمَنْ يُعْطِ عَهْدًا ثُمَّ يَغْدِرْ بَعْدَهُ^(٢)
 وَلَا سِيَّامَا عِنْدَ الْمُلُوكِ فَإِنَّهُ

وَقَدْ أَمِنُوا فِيهَا وَقُوعَ الْإِغَارَةِ
 وَلَا مُسْلِمِينَ نَطَقُهُمْ بِالشَّهَادَةِ
 إِلَيْهِ لَجَادَتْ بِالْذَّمِّ مَوْعَ الْغَزِيرَةِ
 مِنَ الضَّرِّ وَالْبُلُوى وَثُوبِ الْمَذَلَّةِ
 وَبِالمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
 وَأَصْحَابِهِ أَكْرَمَ بِهِمْ مِنْ صَحَابَةِ
 وَشَيْئَتِهِ الْبَيْضَاءِ أَفْضَلِ شَيْئَةٍ
 وَكُلِّ وَلِيٍّ فَاضِلٍ ذِي كَرَامَةِ
 لَعَلَّ إِلَهَ الْعَرْشِ يَأْتِي بِرَحْمَةٍ
 وَمَا قَلْتُ مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ بِسُرْعَةٍ
 وَمَنْ ثُمَّ يَأْتِيهِمْ إِلَى كُلِّ كُورَةٍ
 عَلَيْنَا بَرَأى أَوْ كَلَامٍ بِجُجَّةٍ
 وَغُوثُ عِبَادِ اللَّهِ فِي كُلِّ آفَةٍ
 بِمَاذَا أَجَازُوا الْغَدْرَ بَعْدَ الْأَمَانَةِ ؟
 بَغِيرَ أَذَى مِنَّا وَغَيْرَ جَرِيمَةٍ
 وَأَمِنْ مُلُوكٍ ذِي وِفَاءٍ أَجَلَةٍ
 وَلَا نَالَهُمْ غَدْرٌ وَلَا هَتَكَ حُرْمَتَهُ
 فَذَاكَ حَرَامُ الْفِعْلِ فِي كُلِّ مِلَّةٍ
 قَبِيحٌ شَنِيعٌ لَا يَجُوزُ بِوَجْهِهِ

(١) يريد البابا رئيس الدين المسيحي .

(٢) في ط : « ثم يغدر بعده » .

وقد بلغَ المكتوب منكم إليهم
وما زادهم إلا اعتداءً وجُرأةً
وقد بلغتْ أَرْسَالُ^(١) مصرَ إليهم
وقالوا لتلك الرُّسُلِ عنا بأننا
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم
لقد كَذَبُوا في قولهم وكلامهم
ولكنَّ خوفَ القتل والحرق رَدَّنَا
ودينُ رسول الله ما زال عندنا
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا
وإن زعموا أنا رضىنا بدينهم
فسلُّوْا حَرَاعاً عَنْ أَهْلِهَا كيف أصبحوا
وسلُّوْا بِلَفِيْقَا عَنْ قِضِيَةِ أَمْرِهَا
ومنيافة^(٢) بالسيف مَزَقْ أَهْلَهَا
وَأَنْدَرَشْ^(٤) بالنار أَحْرَقْ أَهْلَهَا
فها نحن يا مولاى نشكو إليكم
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا
وإلا فَيُجْلَوْنَا جميعاً مِنْ أَرْضِهِمْ
فاجْلَاؤْنَا خيرَ لنا من مُقَامِنَا
فهذا الذى نرجوه من عِزِّ جَاهِكُمْ

فلم يَعْمَلُوا مِنْهُ جميعاً بكلمة
علينا وإقداماً بكل مَسَاءة
وما نألم غدر ولا هتك حُرمة
رضينا بدين الكفر من غير قَهْرَةٍ
ووالله ما نَرْضَى بتلك الشهادة
علينا بهذا القول أكبر فِرْيَةٍ
نقول كما قالوه من غير نِيَّة
وتوحيِدُنَا لله في كل لحظة
ولا بالذى قالوا مِنْ أَمْرِ الثَلَاثَةِ
بغير أذى منهم لنا ومَسَاءة
أَسَارَى وَقَتْلَى تحت ذل ومِهْنَةٍ
لقد مَزَّقُوا بالسيف من بعد حَسْرَةٍ
كَذَا فَعَلُوا أَيْضاً بِأَهْلِ الْبُشْرَةِ^(٣)
بِجَامِعِهِمْ صَارُوا جميعاً كَفَحْمَةٍ
فهذا الذى نلناه من شَرِّ فُرْقَةٍ
كما عَاهَدُونَا قبل نقض العزيمة
بأموالنا للغَرْبِ دار الأُحْبَةِ
على الكفر فى عِزِّ عَلَى غير مِلَّة
وَمِنْ عِنْدِكُمْ تُقْضَى لَنَا كُلُّ حَاجَةٍ

[٦٢]

(١) يريد بالأرسال (هنا) : جمع الرسول .

(٢) وحرا ، ومنيافة : اسماء بلدين ، ولم نعتز عليهما في المعاجم .

(٣) البشيرة : جهة تنتظم قرى كثيرة نزهة قرب غرناطة .

(٤) أندرش (أندراش) : بلدة بالأندلس من كورة ألبيرة .

وَمِنْ عِنْدَكُمْ نَرْجُو زَوَالَ كُرُوبِنَا وَمَا نَالْنَا مِنْ سُوءِ حَالٍ وَذِلَّةٍ
فَأَتَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ خَيْرَ مُلُوكِنَا وَعِزُّكُمْ تَعْلُو عَلَى كُلِّ عِزَّةٍ
فَنَسْأَلُ مَوْلَانَا دَوَامَ حَيَاتِكُمْ بَلْكَ وَعِزٌّ فِي سُرُورٍ وَنَعْمَةٍ
وَتَهْدِينِ^(١) أَوْطَانٍ وَنَصْرٍ عَلَى الْعِدَا وَكَثْرَةَ أَجْنَادٍ وَمَالَ وَثَرَةٍ
وَتُحْمَ سَلَامِ اللَّهِ تَتْلُوهُ رَحْمَةٌ عَلَيْكُمْ مَدَى الْأَيَّامِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
انتهت الرسالة بحمد الله ، وكتبها وإن كانت ألفاظها غير بليغة ، تكميلاً
للفائدة ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

بلاغته
أهل الأندلس

وكان أهل الأندلس في عُنفوان أمرهم في غاية البلاغة ، حتى قال الرئيس
ابن الجيّاب يفخر^(٢) بذلك :

أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْيَدُ الْعُلْيَا لِأَنْدَلُسٍ مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا تُثْنِيَا^(٣)
وَأِنْ هِيَ عَصَتْهَا نِيُوبُ نَوَائِبِ فَصَيَّرَتِ الشَّهْدَ الْمَشُورَ بِهَا شَرِيَا^(٤)
فَمَا عَدِمَتْ أَهْلَ الْبَلَاغَةِ وَالْحِجَا يَقِيمُونَ فِيهَا الرِّسْمَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا
إِذَا خَطَبُوا قَامُوا بِكُلِّ بَلِيغَةٍ تُجَلِّي الْقُلُوبَ الْغُلْفَ^(٥) وَالْأَعْيُنَ الْعُمْيَا
وَأِنْ شَعَرُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ تَخَالِ النُّجُومَ النَّيِّرَاتِ لَهَا حَلْيَا
فَنَسْأَلُ فِي الدُّنْيَا مِنْ اللَّهِ سِتْرَةً عَلَيْنَا ، وَفِي الْآخِرَةِ إِذَا حَانَتِ اللَّقْيَا

[٦٣]

ولعمري ، لقد صدق قائل هذه الأبيات ، فإن البلاغة لم تزل شمسها
بالأندلس باهرة الإيالة^(٦) ، ظاهرة الآيات ، إلى أن استولى عليها العدو ، وعطل

(١) كذا في ت . والتهدين : التكين وفي ط : « وتهذيب » .

(٢) في ط : « مفتخرا » .

(٣) ولا ثنيا : ولا استثناء .

(٤) المرى : الحنظل .

(٥) في ت : « تجلي قلوب القلب » وهو تحريف .

(٦) إيالة الشمس : ضوءها .

من أهل الإسلام الرّواح إليها والغُدُو ، وفي أهلها بقية لسان ویراعة^(١) ،
وتصرف في فنون الإجابة وبراعة ، وقد قصصنا عليك آنفاً الرسالة التي كتبها
الملك^(٢) الخلويع لصاحب المغرب فيما سردناه ، واطلعت منها على ما يؤيد
ما [قلناه]^(٣) ، من الغرض الذي انتحينا وأوردناه : وقد كان ذلك الكاتب
وطبقته تلقفوا كُرّة البلاغة من يد طبقة أخرى حازت^(٤) مُعَلّي القِداح ، وتبرجت
لها من الفصاحة كل خَوْد رَداح^(٥) ، كالفقيه الكاتب أبي عبد الله الشّران ، المبرز
في أدواته على الأنداد والأقران ، وكالأديب الشهير [الفقيه عمر] ، الذي لم تزل
أخباره إلى الآن سَمَر ، وكفارس تلك الحلبة : الكاتب القاضي الرئيس ،
الوزير^(٦) | الفقيه ، أبي يحيى بن عاصم ، الذي حَلِيَتْ بعلمه اللَّبَّات والمعاصم ،
وغيرهم من الجهابذة الثّقاد ، والأعلام الذين تخضع لهم الحاسن وتنقاد ، إن جَدُّوا
وصلوا مقطوع الأسباب ، وإن هَزَلُوا ، على عادة الأفاضل في مثل هذا الباب ،
ملكوا النفوس ، وسحروا الألباب ؛ وقد سبق من كلام ابن عاصم ما يصحّح
ما ادعينا ، ولنورد زيادة إذا أبصرها المنصف المستفيد تَمَر عيناه ، فنقول :

أما الفقيه عمر فهو أشهر من نار على عَلم ، وأزجاله ومنظوماته ومقاماته عند
العامة محفوظة ، وعند الخاصة مرفوضة ، إلا القليل الذي يُسمح في مثله لصاحب
القلم ، كمقامته^(٧) التي سماها بتسريح النّصال ، إلى مقاتل الفَصّال ، ونصها :

مقامة الفقيه
عمر : تسريح
النصال إلى مقاتل
الفصّال

(١) الیراعة : قصة القلم . والمراد أنهم أهل فصاحة إذا تكلموا أو كتبوا .

(٢) في ط : « كتب ملكها » .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) في ط : « جازت » .

(٥) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ؛ والرداح : الثقيلة الأوراك والمآكم .

(٦) زيادة عن ت .

(٨) في ط : « مقاماته » .

[٦٤]

ياعمد السالكين ، ومحط رحال^(١) المستفيدين والمتبركين ، وثمان الضعفاء
 والمساكين والمتروكين ، في طريقتك يتنافس التنافس ، وعلى أعطافك تُزهى
 العباءات وتروق الدلافس^(٢) ؛ وبكتابك تحيا جوامد الأفهام ، وبمذنبك تُشرّد
 ذباب الأوهام ؛ وفي زينبك^(٣) يدسّ التالد والطارف ، وبعصاك يُهشّ على
 بدائع المعارف ، الله الله في سالك ، ضاقت عليه المسالك ؛ وشاد ، رُمي بالبعاد^(٤) ،
 أدركته متاعب الحرّفة^(٥) ، وأقيم من صفّ أهل الضّفة^(٦) ؛ فلا يجد نشاطاً
 على ما يتعاطى ، ولا يلقى اغتباطاً ، وإن حل زاوية أو نزل رباطاً ؛ أقصى
 عن أهل القرب والتخصيص ، وابتلى بمثل حالة برصيص^(٧) ؛ فأحيل عليك ،
 وتوقفت إقالته على توبة بين يديك ؛ فكتابك استدعاء ، واستوهب منك
 هداية ودعاء ؛ ليسير على ما سويت ، ويتحمل عنك أشات مارويت ؛ فيلقى
 الأكفاء الظرفاء عزيزاً ، ويباهى بك كل من خاطبك مستجيزاً ، فاصرف إلى
 محيّا الرضا ، وأعد من إيناسك العهد الذى مضى ، ولا تلقى مُعرّضاً ولا مُعرّضاً ،
 وأصغ إلى سمعك كما قدر الله وقضى :

تعال نجدّها طريقة ساسان^(٨) وعَضَّ عليها ما توالى الجديدان

(١) هذه الكلمة « رحال » : ساقطة في ت .

(٢) الدلافس : جمع دلفاس (ويقال فيه دفاًس أيضاً) : نوع من اللباس خشن كالعباءة
 إلا أنه قصير ، يلبسه الصوفية والفقراء (انظر تكملة المعاجم العربية لدوزى) .

(٣) في ط : « زينبك » وهي لغة في الزنبيل .

(٤) في ت : « بإبعاد » .

(٥) الحرّفة (بالضم والكسر) : الحرمان .

(٦) أهل الضّفة : فقراء صحابة رسول الله كانوا يبيتون في صفة مسجده صلى الله عليه
 وسلم ، وهي موضع مظلل منه .

(٧) برصيص ، ويقال فيه برصيصا : كان من عباد بنى إسرائيل ، ثم فتنه الشيطان ، وقصته
 مشهورة تذكر عند تفسير قوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر) .

(٨) يريد بطريقة ساسان علم الحيل الساسانية . قال حاجي خليفة في كشف الظنون : =

ونصرف إليها من مَثَارِ عَزَائِمٍ ونحلف عليها من مُؤَكَّدِ أَيْمَانٍ
ونعقدُ على حكمِ الوفاءِ هَوَانَا لناَمَنَ مِنْ أَقْوَالِ زُورٍ وَبُهْتَانٍ
ونقسمُ على أَلَّا نَصْدُقَ وَاشْيَاءَ يروح ويغدو بين إِيْنَمٍ وَدَوَانٍ
يطوف حوَالِينَا لِيُفْسِدَ بَيْنَنَا بمنطق إنسان وخُدْعَة شَيْطَانٍ
على أَنَا مِنْ عَالَمِ كَلِمَاتٍ بَدَا تعودُ مِنْهُ عَالَمُ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
وحاشاك أَنْ تُتْلَى عَنْ الصِّلَحِ مُعْرِضًا ^(١) إلى الصِّلَحِ آلتُ حَرْبِ عِبْسٍ وَذِيَّانٍ
وإِنِّي أَهْمَّتَنِي شُؤْنُ كَثِيرَةٍ وَصُلْحُكَ أَوْلَى مَا أُقَدِّمُ مِنْ شَانِي
فَأَنْتَ إِمَامِي إِنْ كَلِمَتُ بِمَذْهَبٍ وَأَنْتَ دَلِيلِي إِنْ صَدَعْتُ بِبَرْهَانٍ
سَأُرْعَاكَ فِي أَهْلِ الْعِبَاءَاتِ كُلِّهَا ^(٢) رَأَيْتَكَ فِي أَهْلِ الطَّيَالِسِ تَرْعَانِي
ويا لَابِسِي تِلْكَ الْعِبَاءَاتِ إِنَّمَا لِبَاسُ إِمَامٍ فِي الطَّرِيقَةِ دِهْمَانٍ
تَفَرَّقَتِ الْأَلْوَانُ مِنْهَا إِشَارَةٌ ^(٣) بِأَنْكَ ^(٤) تَأْتِي مِنْ حِلَاكِ بَالْوَانِ
ويا بَأْبِي الْفَصَّالُ شَيْخُ طَرِيقَةٍ خُلُوبٌ لِأَلْبَابِ لِعُوبٍ بِأَذْهَانٍ
إِذَا جَاءَ فِي الثَّوْبِ الْحَبْرُ خَلَّتْهُ ^(٥) زُنْبِيرَةٌ ^(٦) قَدْ مَدَّ مِنْهَا جَنَاحَانِ
فَمَا تَأْمَنُ الْأَبْدَانُ آفَةً لَسَعِيهَا وَإِنْ أَقْبَلْتَ فِي سَابِغَاتٍ وَأَبْدَانٍ ^(٧)

[٦٥]

== « ذكره أبو الخير من فروع علم السحر وقال : علم يعرف به طريق الاحتيال في جلب المنافع وتحصيل الأموال ، والذي يشرها يتزيا في كل بلدة بزي يناسب تلك البلدة ، بأن يعتقد أهلها في أصحاب ذلك الزي ، فتارة يختارون زي الفقهاء ، وتارة يختارون زي الوعاظ ، وتارة يختارون زي الأشراف ، إلى غير ذلك . ثم إنهم يختالون في خداع العوام بأمور تعجز العقول عن ضبطها . »

(١) كذا في ط . وفي ت : « على النصيح » .

(٢) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « كلها » .

(٣) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « فانك » .

(٤) زنبيرة : تصغير زنبورة ، وأصله زنبيرة ، وهي من الذباب المساع .

(٥) السابغات والأبدان : الدروع .

سأدعوك في حالات كيدى وكديتى ^(١) بشيخى ساسانٍ وعمى هامان
 وإن كان في الأنساب من تباينٍ فما تنكر الآداب أنا نسيبان
 ألا فادع لى في جنح ليلك دعوة لتنجح آمالى ويرجح ميزانى
 لك الطائر الميمون في كل وجهة سریت إليها غير نكسٍ ولا وانى ^(٢)
 فكّم من فقير بأئس قد ^(٣) عرفته فرفت عليه نعمة ذات أفنان
 وكّم من رفيع الجاه واليت أنسه فعاش قرير العين مرتقع الشان
 فلو كنت للفتح بن خاقان صاحباً لما خانه المقدار في ليلة الخان ^(٤)
 ولو كنت للصابي صديقاً ملاطفاً لما قبلت فيه مقالة بهتان ^(٥)
 ولو كنت من عبد الحميد مقررّاً لما هزّم السفاح أشياع مروان ^(٦)
 ولو كنت قد أرسلتها دعوة على أبى مسلم ما حاز أرض خراسان
 ولو كنت في يوم الغبيط مراسلاً لبسطام لم تهزم به آل شيبان ^(٧)

(١) كذا في نفع الطيب . والكدية : شدة الدهر . وفى ت : « كيد وكيدة » .

وفى ط : « كيدى وكيدتى » .

(٢) النكس : الضعيف الجبان . والوانى : المقصر .

(٣) فى ت : « مذ » .

(٤) يشير إلى مقتل الفتح بن خاقان الفيسى الأندلسى صاحب فلاند العقيان ومطمح الأنفس في الفندق الذى نزل به بمدينة مراکش سنة تسع وثلاثين وخمس مئة (انظر وفيات الأعيان) .

(٥) الصابى : هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء في دولة بنى بويه . ويشير الشاعر إلى مانال الصابى من اضطهاد وإبعاد من عضد الدولة بن بويه ، لقالة نقلت إليه عنه فأغضبه . (انظر وفيات الأعيان) .

(٦) يشير إلى مانال مروان بن محمد وعبد الحميد بن يحيى كاتبه من الهزيمة على يد السفاح

(٧) الغبيط : مكان بين الكوفة وفيد ، وبه كان يوم بنى تميم وشيبان ، غلبت فيه تميم شيبان ، وفيه أسر عتيبة بن الحارث بن شهاب بسطام بن قيس ، ففدى نفسه بأربع مئة ناقة . (انظر العقد الفريد وشرح القاموس) . ومراسلا (هنا) : معاونا ، من المراسلة بمعنى المتابعة .

- ولو كنتَ في حرب الأمين لطاهر
لما هان في يوم اللقاء ابن ماهان^(١)
- ولو كنتَ في مغزى أبي يوسفٍ لَمَّا
رماه بغدر عبده في تَلِسان^(٢)
- ولو أنَّ كسرى يزْدَجِرْ دَعرفته
لما طاح مَقْتولا على يد طحَّان^(٣)
- ولو أنَّ لُذْرِيْقًا وطِطَتْ بساطه
لما أثرت فيه مَكيدة أليان^(٤)
- وفيا مَضَى في فاسٍ أوضحُ شاهد
غنيٍّ لدينا عن بَيَّانٍ وتَبَيَّان
- ولمَّا اغتنى منك السعيدُ بكتاب
رأى ما ابتغى من عزِّ ملكٍ وسُلطان
- فلا تنسني من أهل وُدِّك إنني
أخاف الليالي أن تطول فتنساني
- ولا خير أن تجعل كِفَاءَ قصيدتي
كِفَاءَ ابنِ درَّاجٍ على مدح خَيْران^(٥)
- فجُدْ بدنانيرٍ ولا تكن التي
ألمَّ بها الكنديُّ في شَعْبِ بَوَّان^(٦)

(١) يشير إلى الواقعة التي كانت بين طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون ، وعلى بن عيسى ابن ماهان قائد جيش الأمين ، وقد انتهت بانتصار طاهر وقتل ابن ماهان .

(٢) لعنه يريد السلطان يوسف بن يعقوب بن عبدالحق الريني في غزوه تليسان ، وإقامته على حصارها مدة شهر . وقد قتله عبده « سعادة » في أثناء ذلك الحصار المشهور ، في حديث فصله السلاوي في كتاب « الاستقصا ج ٢ ص ٤١ » .

(٣) يشير إلى هرب يزدجرد آخر ملوك الفرس من أعدائه ، والتجأه إلى طاحونة لم يحسن الطحان ستره فيها ، حتى أدركه طالبوه وقتلوه (انظر غرر أخبار ملوك الفرس للشعالي صفحتي ٧٤٦ — ٧٤٧) .

(٤) يشير إلى تمكين أليان : (يليان ، جليان ، أمير المغرب من قبل لذريق ملك القوط بالأندلس) العرب من دخول الأندلس انتقاما لشرفه من لذريق ، في حديث مفصل في كتب التاريخ (انظر نفح الطيب وغيره) .

(٥) هو خيران الصقلي أمير المرية ، وهو من موالى المنصور بن أبي عامر ، وقد مدحه ابن دراج القصطلبي بقصيدة تونية مطلعها :

« لك الخير قد أوفى بمهدك خيران » ولعل خيران لم يحسن جائزة الشاعر كما يفهم من السياق هنا .

(٦) الكندي : هو أحمد بن الحسين المتنبي الشاعر المعروف ، ونسب إلى محلة كنده بالكوفة . وشعب بوان : منزله بفارس . يشير الشاعر إلى قول المتنبي في القصيدة التي مدح فيها عضد الدولة ووصف شعب بوان :

وَأَلَّتِي الشَّرْقَ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا تَفَرُّ مِنَ الْبَنَانِ =

- [٦٦]
- جودك فينا الغيث في رملٍ عالٍ^(١) وفُضِّلكَ فينا الخبزُ في دار عُثْمَانَ^(١)
وما زِلْتَ من قبل السؤال مقابلاً^(٢) مُرادى بِإِحْسَابٍ وقصدى بِإِحْسَانٍ^(٢)
ولا تنس أياماً تقصَّتْ كريمة^(٣) بزَاوِيَةِ المحروق أو دار هَمْدَانَ^(٣)
وتألفنا فيها لقبض إناوة^(٤) وإِغْرَامَ مسنون وقِسْمَةَ حُلُوان^(٤)
وقد جلس الطَّرْقُون بالبعد مُطَرِّقاً^(٥) يقول نصيبي أو أبوح بَكِيمَانِ^(٥)
عَرِيفِي يَلْحَاقُنِي إِذَا مَا أَتَيْتُهُ ولم أنصرف عنكم بواجب ألْحَانِ^(٦)
وقد جمعت تلك الطريقة عندنا^(٦) أئِمَّةَ حُسَّابٍ^(٧) وأعلام كُهَّانِ^(٧)
إِذَا اسْتَنْزَلُوا الأرواحَ بِاسْمِ تَبَادُرَتْ ظَوَائِفَ مَيْمُونِ وأشْيَاعَ بَرْقَانِ^(٨)
وإن بَجَرُوا عند الحُلُول تَأْرَجَتْ مجامِرهم عن زَعْفَرَانٍ ولُوبَانِ^(٩)
وإن فتحو الدارات في رد آبق^(١٠) ثنَّتْ عِزْمَهُ أوهام خوف وخِذْلَانِ^(١٠)

== يصف ضوء الشمس النافذ إليه من بين أوراق الأشجار ، في رسم على ثيابه أشباه الدنانير صفرة واستدارة ، إلا أن اليد لا تقدر عليها .

(١) عالٍ : موضع بالبادية يصل إلى الدهناء ، والدهناء فيما بين التلجمة والبصرة . يقول : نحن متعطشون إلى جودك كتعطش رمال عالٍ إلى الغيث ، محتاجون إلى فضلك احتياج المحصورين في دار عثمان بن عفان إلى الطعام والشراب وقد حرموها .

(٢) بإحساب : أي بما يكفيني ويرضيني .

(٣) زاوية المحروق : متعب بفاس . ودار همدان بفاس أيضاً .

(٤) الطرْقون (كلمة مغربية مولدة) : من يسده قبالة اللهو وقبض ضرائب الأعراس ونحوها ، مما تستعمل فيه الدفوف وآلات الملاهي (انظر تكملة المعجمات لدوزي) .

(٥) كذا في ت ونفتح الطيب . ويريد بالحساب : المشتغلين بحساب الطوالع للناس . وفي ط : « أحساب » .

(٦) ميمون وبرقان : من أسماء ملوك الجن التي تدور على ألسنة المشعبدین . (انظر كتاب الجواهر اللامعة ، في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة) .

(٧) لوبان : لفظة مغربية محرفة عن « اللبان » وهو الكندر المعروف . (عن دوزي)

(٨) الدارات : حلقات يعقدها شيوخ المشعبدین ومریدوهم عند استطلاع أمر خفي كإظهار مسروق ، وإرجاع آبق ، ونحو ذلك ، يقولون إذا سرق شيء : هلم نفتح الدارة .

فيحسب أن الأرض حيث ارتمت به ركائبه سرعانَ رَجُل ورُكبان
وقد عاشرتنا أسرة كيموية^(١) أقامت لدينا في مكان وإمكان
فله من أعيان قوم تألفوا على عقد سحر أو على قلب أعيان
ونحن على ما يغفر الله إنما نروح ونغدو من رباط إلى حان^(٢)
مع الصبح نُصْفِيها عباءة صَفَّة وبالليل نُذْلِيها زانيرَ رُهْبَان^(٣)
أتذكر في سفح العقاب مبيتكم ثمانين شخصاً من إناث وذُكْران^(٤)
لديكم من الألوان ما لم يحجى به طُهورُ ابنِ ذُئُون ولا عُرْسُ بُورَان^(٥)
ثم ذكر خمسة أبيات أفدع فيها ، فلذا تركتها^(٦) ، ثم قال :

فأقسم بالأيمان لولا تعفني عن سوء لأنحلت عقيدة إيماني
فعدُ للذي كنا عليه فإنَّ لي على الغير إن صاحبتَه فقد غَيْرَانِ
فمن يومٍ إذ صيرت ودي جانباً وأعرضت عني ما تناطح عِزَانِ
ولا روت الكتابُ بعدَ نِفارنا محاورَةً من ثعلبانٍ لسِرْحَانِ

(١) كذا في نفح الطيب : وفي ط : « كيموية » وكلاهما يراد به النسب إلى الكيمياء ، وفي ت : « كهيموية » ، وهو تحريف .

(٢) كذا في ت . وفي ط ونفح الطيب : « خان » .

(٣) كذا في ت عباءة صفة : يريد بها زى الفقراء النساك . انظر الحاشية رقم ٦ صفحة ١١٧ من هذا الجزء . والزانير جمع زانر ، وهو ما يشد به ابراهم وسطه ؛ يريد أنه يعمل في الليل ما لا يعمل في النهار . وفي ط : « نلويها زانير ... الخ »

(٤) العقاب : موضع بالأندلس ، كانت به وقعة مشهورة محص الله فيها المسلمين .

(٥) ابن ذئون (ابن ذنون) : هو المأمون أحد ملوك الطوائف في طليطلة ، من بني ذى النون ، وقد بلغوا في البذخ والترف إلى الغاية ، ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له : « الإعذار الذئوني » ، وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق ، والمأمون هو صاحب ذلك . وبوران هي بنت الحسن بن سهل ، وقد زفت إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد في إعراس مشهور في كتب التاريخ .

(٦) ذكر المؤلف التمهيدة كاملة من غير حذف في نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٣ طبعة الأزهرية بمصر) .

وما هو قصدى منك إلا إجازةً تخولنى التفضيل ما بين خلانى
وإنك إن سخرت لى وأجزتني لنم وليّا صان ودى وجزانى
ولم لا ترويني وأنت أجل من سقانى من قبل الرحيق فروانى
ألا فأجزنى يا إمامى بكل ما رويت لمدغليس أو لابن قزمان^(١)
ولا تنس للدبّاع نظماً عرفته فإنكما فى ذلك النظم سيّان
ومزدوجات ينسبون نظامها إلى ابن شجاع فى مديح ابن بطان
والم بشيء من خرافات عنتر والمع ببعض من حكايات سوسان
وإن كنت طالعت اليتيمة واسنى بلامية فى الفحش من نظم واسانى^(٢)
أجزنى بكشف الذك^(٣) أرضى وسيلة
وناولنى المصباح^(٤) فهو لغربى
والحق به شمس المعارف^(٥) إبنى
وقد كنت قبل اليوم عرفتني به
ولكننى أنسيته بعد عرفان

[٦٧]

(١) أبو بكر بن قزمان ومدغليس من أوائل الزجّالين بالأندلس .

(٢) هو أبو الفاسم الحسين بن الحسين بن واسانه بن محمد المعروف بالواسانى . ويشير الشاعر إلى قصيدته اللامية التى هجا بها أبا الفضل يوسف بن على ، وعرض فيه بابن القزاز ، ومطلعها :

يا أهل جيرون هل لسامركم إذا استقلت كواكب الجمل
(انظر بتيمة الدهر ج ١ ص ٢٦١ — ٢٧٤ طبعة دمشق) .

(٣) كذا فى نفع الطيب . يريد كتاب : « كشف الذك » ، وإيضاح الشك « لأبى عامر أحمد بن عبد الملك الأندلسى ، وهو كتاب مشهور فى الحيل والشعبذة . وفى الأصاين : « بكشف الذك » وهو تحريف .

(٤) فى الفهارس كتب كثيرة فى علوم مختلفة كل منها اسمه « المصباح » ، ولا ندرى أيها يريد . ولعله فى الروحانيات ، كما يفهم من السياق .

(٥) يريد كتاب : « شمس المعارف » ، ولطائف العوارف « للشيخ أحمد بن على البونى ، المتوفى سنة ٦٢٢ ، وهو كتاب مشهور فى التعاويذ ونحوها من الروحانيات .

ولا بُدَّ يا أستاذُ من أن تُجيزَني بيدُ ابنِ سبعينٍ وفصل ابنِ رضوان^(١)
وكُتِبَ ابنُ أخِي كيف كانت فإنها لوزن رقيق القول^(٢) أكرمُ ميزان
ولا تنسَ ديوان الصَّبا^(٣) والصفاء لإخوان صدق في الصفاخير إخوان
وزهر رِياض^(٤) في صنوف أضاحك وجبذ كساء في مكاييد نسوان
كذلك فناولني كتاب حُبّاحب وزدني تعريفاً بها وببرجان
ولي أمل في أن أروى رسالة مضمنة أخبار حيّ بن يقظان^(٥)
وحبس على الكاس والكوز والعصا فإنك مُثّر من عصيّ وكيزان
وصير لي الدلفاس^(٦) أرفع لبسة فقد جلّ قدرى عن حرير وكتان
وقد رقّ طبعي واعترتني خشية يكاد بها رُوحى يفارق جُمانى
وخلّ مفاتيح الطريقة في يدي وسوّغ لهم فيها^(٧) مزيدى ونقصانى
فإني لم أخدمك إلا بنية وإني لم أتبعك إلا بإحسان
فكن لي بالأسرار أفصح مُعلن فإني قد أخلصتُ سرّى وإعلاني

اتهمت المقامة . وأثبتها لأنها أخف ما رأيت من هزليات الفقيه عمر المالقي ،
رحمه الله وسامحه ، ومثل هذا الهزل قد وقع لكثير من الأئمة على سبيل

(١) يريد بيد ابن سبعين كتاب « بدء العارف » لأبي محمد عبد الحق بن إبراهيم الشهرستاني سبعين المرسى الأندلسي . وابن رضوان : هو عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري من أهل ماهة .

(٢) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « دقيق القوم » .

(٣) يريد ديوان الصبا لابن أبي حجلة أحمد بن يحيى اللساني الحنفي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

(٤) في الفهارس كتب كثيرة بهذا الاسم .

(٥) يريد كتاب : « أسرار الحكمة المشرقية » لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل ، وهو قصة خيالية فلسفية ، جمع فيها بين الفلسفة والشرعة .

(٦) الدلفاس (انظر الحاشية رقم ٢ ص ١١٧ من هذا الجزء) .

(٧) في نفح الطيب : « حكى » .

الإحاض^(١) ، ولم يَعْنُوا بها غالباً إلا إظهارَ البلاغة والافتقار ، كما فعل الحريري وغير واحد ، والأعمال بالنيات .

شيء من نظم

ومن نظم الفقيه عمر المذكور قوله عفا الله عنه :

إلى الله ربي أشتكى سوء حالتي عسى فرجٌ يأتي بأفضل حالي
وما أسنى إلا لمالئ أبيعه وخائن مالي يشتره بمالي

مقامة
في أمر الوبا

ومن أبدع ما صدر عنه رحمه الله مقامة في أمر الوبا ، رأيت أن أثبتها لغرابة منزوعها ، وإن كان بعض فصولها لا يجري على المشهور من مذاهب العلماء ، ونصها :

[٦٨]

إلى حمراء الملك وقلعته ، ومقر العز ومنعته ، ومطلع كل قمر نصري يُنجل
الأقمار بطلعته ، أبقاها الله على تعاقب الزمان ، منزل أمان ودار إيمان ، وأمتعها
بحياة الملك الخزرجي اليمان ، من مُوجبة إجلالها كما يجب ، المعترفة بفضلها
وشرفها وأنوار الشمس لا تحتجب ، والواقفة عند إشارتها وطاعتها ، فإن تأمر
أُمتثل وإن تدعُ أُستجب ، مألقة ، المستمسكة بذمتها الوثيقة ، المتشوفة إلى
أخبارها تشوف المحبة الشفيقة ، إلى ربحانة قلبها في الحقيقة ، وإلى هذا ياسيدي
ويا عُدتي ، ويا ذخيرتي ويا عُمدتي ، أمتعنا الله وإياك بحياة مَنْ استنقذنا من
الورطات ، وردنا إلى الصواب مما كان منا من الغلطات ، مولانا الغالب
بالله^(٢) وحده ، الموعود بميز النصر وقريب الفتح والله ميسر وعده .

سلام عليك يتعطر بذكر مولانا أمير المسلمين قُوْحه^(٣) ، وينشق

(١) الإحاض : الانتقال من حال إلى حال ؛ مأخوذ من إحاض الإبل ، وهو نقلها من رعي الحلة إذا سُمِّتْها إلى رعي الحوض والحض : ما ملح وأمر من النبات ، وهي كفاكة الإبل ، والحلة : ما حلا ، وهي تجبها . (عن القاموس) .

(٢) في ت : « الغالب بأمر الله » .

(٣) في ط : « بوجه » .

كل مسك^(١) الفتيت روحه ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فإني أحمد إليك الله الذي إذا استُكفي بعزته كفى ، وإذا
استُشفي بكلمته شفى ، وإذا سئل بواسع رحمته عفا ؛ وأُصلى على رسوله محمد
الكريم المصطفى ، وعلى آله وأصحابه ، أكرم من نصح له وأخلص ووفى .
كتبته إليك يا سيدتى عن نفس قلقة ، ساهرة أرقّة ، حاذرة مشقة ،
ملُهبة بل محترقة ؛ وإني أقسم عليك بالرب الذى كرمك بالعز وشرفك ، وعرفك
من لطائف الفرج بعد الشدة ما عرفك ، أن تسعديني على تسكين لوعتى ،
وتأمين روعتى ، وتراجع رقادى | بعد سُهادى ، وقضاء حاجة جأت فى فؤادى ،
وتفهمى مراد إشارتى وإشارة مرادى |^(٢) ، وتتركى هوى النفس الذى هو
للحق معاند وللرشد معادى .

ومبنى هذه الرسالة إليك على قولهم : « الشفيق مولع بسوء الظن » ، ومن
مِنَ الله على عبده الوقاية من المتأف جل الله العظيم المن ؛ وعلى قول المتنبي :
ربما ضر عاشق معشوقا ومن البر ما يكون عقوقا^(٣)

والمثل الأول لى ، والآخر لك . والله يُيسّر فى حفظ مولانا ألى وأمالك . [٦٩]
وإني أتعجب من مساعدتك على إقامة مولانا بمنزل ، هذا المرض به فاش ،
وهذا الهواء الفاسد بين دياره جاء وماش ، وسمعتُ أن حديث السفر لمائة أثقل
عليك من حديث رقيب وعاذل وواش ؛ وأن الآراء فى ذلك اختلفت ، ولم
يُرْجع فيها إلى سُنن تقدمت وعوائد سلفت ؛ والأوائل من المؤمنين رحمهم الله
ماتوا كواشيئاً سُدى ، بل نصبوا على كل طريق إلى النجاة علم هدى ؛ وسمعت

(١) فى ت : « وينشق المسك » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) لم نجد هذا البيت فى نسخ ديوان المتنبي .

ياسيدتى أن القضية عُول فيها على المُقام والاستسلام ، وخولفت فيها رأى الخليفة الرشيد لما تحول فى مثلها عن سكنى دار السلام ، بمحضر أركان الدين وأعلام الإسلام ؛ وقد سمعتُ فى الأجوبة الظريفة ، ما صدر من قوله : أخشى أن أكون أول خليفة ؛ وقد كنتُ ياسيدتى أرتجى أن يكون لهذا المرض ارتفاع ، أو يحصل بدخول فصل^(١) البرد انتفاع ؛ فتركت السكّنب منتظرة لذلك ، إلى أن تزايدت الحال وأنت على حالك ، لا يمر الترحال بخاطرك ولا ببالك ؛ وأنا أقول : أما واجب التسليم ، لتقدير العزيز العليم ؛ فمتأكد شرعاً ، لا يضيق به المؤمن ذرعاً ؛ لكن ما يفعل المستسلم بالروح والجسد ، إذا قيل له اهرب من الأسد ؛ وقد أبصره مقبلاً إليه ، أو مُنقِضاً عليه ؛ يأخذ فى تحفظه واحتراسه ، أم يصبر لافتراسه ؟ ومن قيل له فى ظلم الليل : ارتفع عن هذا المكان تنج من السيل ؛ أينام فى مكانه ، أم يبادر إلى السلامة بجهد إمكانه ؟ ومن نودى : هذه الخيل قد طلعت مغيرة ، والرعاة بالجبال مستجيرة ؛ فارفع غنمك قبل الاكتساح ، فالوقت فى انفساح ؛ أيتركها تسرح ، ولا يبرح ؛ أم يرفعها لتسلم ، ممّا تدرب وتعلم^(٢) ؟ وكذلك إذا قامت الرماة صفوفاً ، وأصابت سهامهم^(٣) من أخلق ألوفاً ؛ أيرجّح الحقّ تباعداً أم وقوفاً ؟ وكذلك أيضاً المنازل ، التى تدوم بها الزلازل ؛ فأرضها فى كل يوم تميد ، ودَهَش القلوب بها حاضر عتيد ، والخسف بها فى يوم ينقص وفى يوم يزيد ؛ لا تسمع فيها إلا سقوط جدار ، على ركن دار ؛ وانفكك الأركان ، على السكان ؛ وإخراج ميت ، من تحت بيت ؛ وسقوط سارية ، على جارية ؛ يُعزم على السكنى والاستيطان ، تحت هذه الحيطان ؛ أم يؤخذ فى الاحتيال ،

[٧٠]

(١) فى ت : « وقت » .

(٢) فى ت : « ممّا تدرى وتعلم » .

(٣) فى ت : « بسهامهم » .

بالخروج بالأطفال والعيال؟ يا سيدتي الحمراء، سألتك فأخبريني، وإن تحيّر فهمي
 فاعذريني، ووصل إليّ الكتابُ الشريف، من جنان^(١) العريف؛ يذكر أن
 السلامة كانت [به] ^(٢) مستصحبة لمولانا ولناسه، وأن العافية كانت بهم
 منتشقة مع أنفاس رنده وآسه، ما عرضت به إلى طبيب حاجه، ولا استدعى
 فيه المَعاور^(٣) للنظر في زجاجه؛ ولا تقول ولا عمل، ولا بلغ من الجساسة
 والقساوة أقل أمل؛ ولم ينتقص من الساكنين بهذا البستان، من عبيد مولانا
 السلطان، غير فتى من الخُصيان، لا يساوي عشرة دراهم في سوق الفتيان،
 والجميع بحمد الله استمرت عافيتهم على استقامه، بطول أيام الإقامة؛ وعرفني
 أيضاً جنان العريف في وافد كتابه، ووارد خطابه، أن رغبته كانت في انتقال
 مولانا نصره الله من صحيح هوائه، وسلسبيل مأنه؛ ونفحة جنابه، وتلاعب
 النسيم العاطر بين قبابه. إلى مألقة حيث الجو الصقيل، والروض الذي يطيب به
 المَقِيل، والراحة التي تمتزج بالأرواح كما قيل؛ حيث العرف الأرج، والوادي
 المنعرج، والساحل الذي ينشرح به الصدر الحرج، حيث البنفسج يدير كؤوس
 البهار، والياسمين نجوم طالعة بالنهار؛ حيث يتمازج طيب الزهر، بعرف الأترج
 ونفحات السَّحَر، حيث يشبه أنين السواني، حنين المتعشقات من الغواني، إذا
 حُمد الصباح، وانفلق الإصباح؛ وعمرت صفار القوارب، ونادت بحرية الشباك:

(١) جنان العريف، أو جنة العريف: بستان في خارج غرناطة، ذكره لسان الدين
 في الإحاطة، صفحة ٢٥ ج ١.

(٢) زيادة عن ت.

(٣) كذا في ط. ولعله يريد بالمعاور، كما يظهر من السياق الذي يفحص عن قوارير
 بول المرضى ليقدر وزنه ونوعه، وهو من عاور الشيء إذا قدره، كما يؤخذ من
 اللسان مادة «عير». وفي ت «المفاور».

إلى المضارب^(١) ، وسالت أنوار المشرق على جوانب المغرب ، ونادى محرك الجيش :
 ظهور الخيل ، وصباح الخير ، واستقبلوا الوادى الكبير لمصيد الأرنب والحوت
 والطير ؛ شكر الله جنان العريف على ما قصد ونوى ، وعلى ما أظهر من اتباع حق
 ومخالفة هوى ، اعتماداً من أخبار الدول القديمة على ما حفظ ورَوَى . وقال لى
 يا سيدتى إنك وقفت مع الحديث المنصوص^(٢) ، الوارد فى مثل هذا المرض على
 الخصوص ؛ وفيه النهى عن الخروج من منازل هذا المرض ومواضعه ، وعن
 القدوم على معتركاته ومصارعه ؛ والحديث صحيح ، والرشد فيه قول صريح ؛
 ولكن للعلماء فيه أقوال طويلة التفصيل ، وقد لخصها وبينها الإمام ابن رشد
 فى كتابه الجامع من البيان والتحصيل^(٣) ؛ والاتفاق من الجميع أن النهى فى هذا
 الحديث ليس بنهى تحریم ، وإنما هو على سبيل إرشاد وأدب وتعليم ؛ فلا إثم
 ولا حرج ، على من أقام ولا على من خرج . وقال عمرو بن العاص : الأفضل
 الخروج لأهل الفطنة ، اتقاء من اعتقاد يؤدى إلى فتنه ؛ وكفى بعمر بن العاص
 حجة لمن أراد انتصارا ، والكلام كثير ، ولكنى اختصرته اختصارا ؛ وإن
 نظراً قدمه كثير من الصحابة ورجحه ، خلّيق بأن يقال فيه ما أسعده وما أنجحه !
 ياليت تقمى كله يكون من هذا القبيل ، وجاريا على هذا السبيل ، مستنداً إلى قول
 صحابى جليل ، ومستنداً بأرشد علم ودليل ، ولو كان على خلاف المشهور من قول

(١) المضارب (هنا) : الحيام تضرب على ساحل البحار ، لبيع فيها ما يصاد من السمك .

(٢) ورد الحديث المشار إليه فى صحيح مسلم ، ونصه فى رواية أسامة : « الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .
 وفيه روايات أخر تختلف ألفاظها ، وتتفق معانيها ؛ وقد علق عليه النووى ، ونقل كلام القاضى عياض وغيره ، فليُنظر ثمة (ج ١٤ ص ٢٠٤) .

(٣) اسم الكتاب : جامع البيان والتحصيل ، لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل .

خليل^(١) . وهنا يقال : ما في هذه القلة غير هذا الإغريل^(٢) . يا سيدتي الحمراء ؛ أراك في هذه القضية تفقّمت وتوقفت فيما بينه عالم وذو عِلْم ، ومنعت مما ليس فيه حَرَج ولا إثم ؛ ولو كنت حاضرة لكان لي معك حديث طويل ، واحتجاج ينصره نصّ وتأويل . وسمعتُ أنكِ أشفقتِ من عظيم النّفقَة ، وليس هذا موضع الشفقه ؛ فالأمن ليس بغال ، ولو يُشترى بكل ذخيرة وكل مال ؛ والأولى بالملامة ، مَنْ^(٣) يفضّل شيئاً على السلامه . القمح يأكله الشّوس ، والذهب تغنى عنه الفلوس^(٤) ، فكيف يُستعظمان فيما تُؤمّن به النفوس . وبلغني أنكِ [٧٢] قلت : مألقة ليس بها زرع ، وبقليل المُقام يضيق لها صدرٌ وذرع^(٥) ، وفلاحتها وحرثها ليس لها أصل ولا فرع ؛ وعزّة على هذا الكلام ، ولكنني سلّمت والسلام^(٦) ؛ فإن سِعري عن سعر^(٧) غرناطة منحنط ، وفي لحظة بصر يضيق مني بالطعام في كثير من الأيام ساحل وشطّ ، ولا يُعلم أنه دامت لي شدة قطّ . لي في الاعتصام بالتوكل على الله ما يزيد على سبع مئة العام^(٨) ، ما أشغلت فيها فكراً ولا قلباً بادخار قوت ولا باحتكار طعام ؛ أثق في اليوم والغد ، بالرزق الرّغَد ؛ تأتي به الرياح على الأعناق ، ويفيض سيله على جوانب الدواوين وأكناف الأسواق ، وتجلبه الأحاب والأعداء بإذن اللطيف الخبير الوهاب الرزاق .

(١) هو خليل بن إسحاق المالكي ، صاحب المختصر في فقه المالكية .

(٢) كذا وردت هذه العبارة في ط . وفي ت : « ما في هذه الغلة . . الخ » .

والعبارة على الروایتين ظاهرة التحريف .

(٣) في ت : « نص » . وهو تحريف .

(٤) في ط : « النفوس » .

(٥) في ت : « وضرع » .

(٦) في ت : « والإسلام » .

(٧) في ت : « أسعار » .

(٨) في الأصلين : « السبع مئة عام » .

قالت النملة : افتخارى ، بادخارى ؛ قالت العصفورة : توسلى ، بتوكلى ؛
قالت النملة : أعتمد على الحب ؛ قالت العصفورة : أَوَكُل على الرب . فلما جَنَّ
الليل ، أقبل السيل : فخرجت النملة بالقوم ، وبقيت الحبوب بين الدَّوم ؛ فنزلت
العصفورة وسجدت ، [والتقطت] ^(١) من مدَّخر النملة كل ما وجدت ؛ وقالت :
خير المحتكر ، ورج طالب الرزق المبتكر ، الكريم لا يفتخر بما يدَّخر .

وصح عندى أن الوزير أعزه الله ليس عنده فى هذا كله كلام ولا قول ، وأن
الأمر عنده مفوض إلى الرب الذى له القوة والحول . وسمعتُ يا سيدتى أن هذا
السم ، أعظمُ تأثيره إنما هو فى قطع الأكباد ، من صغار الأولاد : الذين من فوق
السبع ودون العشر ، وهم فى هذه السنين رياحين القلوب العاطرة النَّشر ؛ وهذا
إلى كَتَبى لك أعظم داع ، فإن الأولاد سوائهم والوالد راع ؛ والراعى لا يترك
غنمه فى طريق سَبُع ضار ، ولا قريباً من حريق نار ؛ ونحن نشاهد الطير ينقل
أفراخه من وكر إلى وكر ، ويسترها بملتحف الشجر إذا خاف عليها عادية جارح ^(٢)
أو صاحب مَكْر ؛ فكيف لا نقتدى فى تأمين روعتنا بمن تقدم من الأكابر ،

[٧٣]

ونقف فى حامل السيل ^(٣) بأولادنا الأصاغر ؛ فما عندك فى هذا كله من القول ومن
الجواب ؟ وما يظهر لك من وجه الراى والصواب ؟ اكتبى بذلك كتاباً أعتمد
عليه ، وأستند إليه ؛ وقبلى عني يد مولانا تقبيلاً ، ويا ليتنى وجدت إلى ذلك
سبيلاً ؛ وأخبريه أنى [فى] ^(١) خدمته على نيتى الأولى ، عاكفة على شكر
مِنته الطولى ؛ أدام الله حياة البلاد والنفوس بحفظه وحياطته ، وأسمنى البشارة

(١) زيادة عن ت .

(٢) فى ت : « جائع » .

(٣) حامل السيل : السيل الجارف .

بقدمومه على مُحَدَّث مَالَّةٍ من حمراء غَرَنَاطَتِهِ ؛ ويحفظه في النفس والأولاد ،
والملك والبلاد ، بمنَّه وفضله .

وكتب بتاريخ ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وثمان مئة . انتهت المقامة .
وكلام المذكور كثير ، ومحله من عذوبة المنطق أثير ؛ ونظمه أعلى طبقة
من نثره طريقةً مَعْرِيةً ، حسبما يظهر ذلك بالتأمل لنفوس بالإنصاف حريه ؛
وله [عدة] ^(١) تآليف أكثرها هزلية ، ولذلك لم أجلب شيئاً منها سوى
ما تقدم ، مما يقتضى ما أصلناه من المزيه ، والفضيلة للبلاد الأندلسية ^(٢) .

ومن أحسن مقطوعاته ^(٣) التي تطارح بها على باب الكريم ، وتطفل بها
تطفل من لا يبرح عن باب سيده ولا يريم ؛ ويرجى له بها كل جميل ، والله
لا يخبث ما أمَّله من تأميل ؛ قوله رحمه الله :

بعض مقطوعاته

عميدة دين الحق أن محمداً له الفضل إطلاقاً ^(٤) على كل مخلوق
وإن سبقت رُسُلُ بكتبٍ وبعثة فما هو في مجد وفضل بمسبوق
فهذا إذا ما عشتُ أولى عميدتي وهذا إذا ما متُّ آخر منطوق
[وقوله :

جئتُك يا ربَّ ولا عذر لي وهل لعبد السوء من معذرة ؟
أرجوك فيما أنتَ أهلُّ له فأنتَ أهلُّ العفو والمغفرة
وقوله في مرضه :

يا سامعين الكلام مُختلطاً نظماً ونثراً قلانداً ودُرُزَ
صلُّوا على المصطفى وسيلتنا محمدٍ وارحموا الفقيه عمر ^(٥)

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ط : « من المزية للبلاد الأندلسية والفضلية » .

(٣) في ط : « منظومات » .

(٤) في ط : « إجماعاً » .

(٥) ما بين القوسين المربعين زيادة عن ت .

وأما الكاتب الرئيس أبو عبد الله الشَّران^(١)، فهو الشيخ الفقيه الرئيس الصدر،
العلامة العماد، الذخر الأرفع، العلم الأوحد، الأجد الأسرى، الذى لا يجارى
في الإنشاء والاختراع كلاماً جزلاً، وقولاً فصلاً، رئيس الكتبة بالحضرة العلية،
أبو عبد الله، ابن الشيخ الفاضل الماجد الأعز الأرفع الأوجه أبى إسحاق، كان
حيّاً سنة سبع وثلاثين وثمان مئة. هذا كلام بعض الأندلسيين فيه. [٧٤]

وقال القلصادى فى حقه: هو الفقيه الوجيه الليب يقظ الأدرى، الأديب
الأحظى، الرئيس النبيل الأرق؛ وحيد عصره وأوانه، وفريد دهره وأقرانه،
أبو عبد الله محمد الشران الغرناطى، تغمده الله برحمته.
وذكر هذا الشيخ القلصادى فى طالعته شرحه لأرجوزة أبى عبد الله الشران
المذكور، التى أولها:

بمحمد خير الوارثين أبتدى وبالسراج النبوى أهدى
وهى أرجوزة عذبة النظم، سهلة المأخذ مختصرة فى علم القرائض.
ومن بديع نظم الكاتب أبى عبد الله الشران رحمه الله تعالى قوله:
[فلا تمنع العين أنهما لا فانه غرام شجر إسناده غير مهمل
أحاديث تروىها الجفون عن الحشا ويثبت منها مرسل بمسلسل
وقوله يخاطب الفقيه الصالح سيمدى أحمد بن حرشون، وقد أهدى له
قرص زعفران:

أهلاً بقرصة زعفران أطلعت من حسنهما للقلب باعث أنسه
حيّاً الخلوّص به وغير عجيبة للبدر أن حيّاً بقرصة شمس
يا نيراً للمجد أهدى نيرا كل امرئ إهداؤه من جنسه
وقوله [٧٥]^(٢):

(١) هو محمد بن إبراهيم. (انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج).

(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت.

لما اختفت شمسك عن ناظري أرسلتُ منه مطر الدمع
وأقبلت ظُلمة ليل النوى فما ترى في رُخصة الجمع

وحكى الحافظ أبو عبد الله التَّنْسي رحمه الله ، أنه لما صُرف الفقيه أبو الفضل
ابن جماعة عن رياسة الكتابة بقرنطة ، إلى قضاء الجماعة ، وولى مكانه صاحب
الترجمة أبو عبد الله الشَّران ، لقي بعض رؤساء الدولة ابن جماعة يوماً ، فقال له :
يا سيدي ، إن السر الذي عهدناه في الحضرة غاب عنها بغيبتك . فقال له :
وكيف لا وقد تركتم الفضل المجموع ^(١) وأخذتم الشر المكرر ^(٢) !

طريقة لابن
جماعة وقد تولى
الشران مكانه

ثم إن ابن جماعة كان عنده إعذار ^(٣) ، فدعا أعيان البلد إليه ولم يدع
الشَّران ، فكتب إليه الشران :

شعر للشران
يعاتب ابن جماعة
على إهمال دعوته
إلى إعداده

ماذا أعد الجُدُّ من أعذاره في ترك دعوتنا إلى إعداده ^(٣)
إن كان رسم دون محضرنا اكتفى لا بد أن يبقى على إعداده ^(٤)
ثم قال الشيخ التَّنْسي : والشران هذا ممن له باع مديد في الشعر ، وتصرف

حسن . انتهى .

ومن بديع نظم الشَّران المذكور قوله رحمه الله :

قصيدته اللامية

دوام حال من قضايا الحال واللفظ موجود على كل حال
والنصر بالصبر مُحَلَّى الطُّبى والجَدُّ بالجدِّ مَرِيش النَّبال
وعادة الأيام معهودة حرب وسلم والليالى سِجَال
وما على الدهر انتقاد على حال فإن لحال ذات انتقال

[٧٥]

(١) يشير إلى اسمه : « أبي الفضل بن جماعة » .

(٢) يشير إلى لقب أبي عبد الله : « الشران » . فكانت تسمية : « شر » .

(٣) الإعذار : طعام الختان .

(٤) الإعذار (هنا) : التقصير .

مَنْ لِّلَّيَالَى بَائِتْلَافٍ وَكَمْ مِنْ اِعْتِبَارٍ بِاِخْتِلَافٍ ^(١) اللَّيَالِ
 اُخِذْ عَطَاءً ، مَحْنَةً مِّنْحَةً تَفَرَّقُ جَمْعٌ ، جَلَالٌ جَمَالٌ
 حَالٌ ^(٢) اِنْتِظَامٍ وَانْتِثَارٍ مَعًا كَأَنَّمَا هَذِي اللَّيَالَى لَالَ
 وَهَلْ سَتَى الصَّبْحِ وَجُنْحُ الدُّجَى خَلْقَةُ الْأَضْدَادِ إِلَّا مِثَالُ
 وَالظُّلُمِ الْخُلُكُ عَلَى نَوْرَهَا تَدَلُّ وَالْعُسْرِ يَسِيرٌ يُدَالُ
 وَالسَّيْفِ قَدْ يَصْدَأُ فِي غَمْدِهِ ثُمَّ يُجَلَّى صَفْحَتَيْهِ الصَّقَالُ
 وَالشَّمْسِ بَعْدَ الْغَيْمِ تُجَلَّى كَمَا لِلغَيْثِ مِنْ بَعْدِ الْقُنُوطِ اِنْهَمَالُ
 وَالْفَرَجِ الْمَوْهوبِ تَجْرَى ^(٣) بِهِ لَطَائِفٌ لَمْ تَجْرَ يَوْمًا بِيَالُ
 فَصَابِرِ الدَّهْرِ بِحَالِيهِ مِنْ حُلُومٍ وَاعْتِدَا وَاعْتِدَالُ
 فَمَا لَهُ صَبْرٌ عَلَى حَالَةٍ وَإِنَّمَا الصَّبْرُ حُلَى الرِّجَالِ
 وَلَا يَضُقُ صَدْرُكَ مِنْ أَرْزَمَةٍ ضَاقَتْ فَصْنَعُ اللَّهِ رَحْبُ الْمَجَالِ

إلى هنا توجد هذه القصيدة بأيدي الناس ؛ ورأيت بخط بعض الأخيار
 بعد هذا البيت زيادة كثيرة على ذلك ، منسوبة لصاحب القصيدة ، وهي لا تبعد
 من نفسه ، على أن فيها إبطاء ^(٤) . وها أنا أيضاً أثبتتها بجملة لغرابتها وجزالتها ،
 ولاشتهاها على مديح المصطفى المجتبي ، صلى الله عليه وسلم ، ونصها بعد قوله :
 « رحب المجال » :

وَاَنْظُرْ بِلُطْفِ الْعَقْلِ كَمْ كَرْبَةٍ فَرَجَهَا لُطْفٌ كَحَلِّ ^(٥) الْعِقَالِ
 وَكُلِّ إِلَيْهِ كَلٌّ حَاجٍ فَمَا [لَذَى] ^(٦) حِجًّا إِلَّا عَلَيْهِ اِتْكَالِ

(١) في نيل الابتهاج : « في اختلاف » .

(٢) في ت : « حلمى » .

(٣) زيد في ط فوق هذه الكلمة : « تأتى به » .

(٤) كذا في ط . والإبطاء : تكرير الفافية لفظاً ومعنى . وفي ت : « على أنه فيها وها أنا » .

(٥) في ط : « فحل » .

(٦) زيادة عن ت .

وكل بدء فله غاية
وكل عود فله آية
وفي مال الصبر عُقبى الرضا
عجبت للعبد الضعيف القوي
يهوى مع الآمال مسترسلاً
تخدعه النفس بتخيلها
يخال أن الأمر جارٍ على
الخلق والأمر لمن لم يزل
والفعل والترك دليل على
يعطى فلا منع ويقضى فلا
يُدبّر الأمر فعن أمره
يُضِل يَهْدِي حكمة أنفذت
وحكمة الباري في حكمه
والرب لا يُسأل عن فعله
فيا أبا الفكر اشتغلاً بما
سلم في التسليم من كل ما
وارض بما فاتك أو نلتَه
وفوض الأمر إلى الحق لا
فدو الحجا فيما اتقى وارتجى
يرضى بقسم الرب كل الرضا

وغاية الخطب الشديد انحلال
وآية العقل اعتبار المال
من فرج يَدني وأجر يُنال
يُغَرُّ^(١) بالرب الشديد المحال
طوع الهوى حيث أمالته مال
وهل خيال النفس إلا خيال
تديره هيات مـا يخال
في ملكه الملك وما إن يزال
مراده والكل طوع انفعال
دفع ويمضي حكمه لا يُبال
تقدير ما في الكون سُؤل وعال
فضلاً وعدلاً في هُدًى أو ضلال
ما لمجال العقل فيها مجال
قد قضي الأمر فقيم السؤال
في غيره للفكر حق اشتغال
ينفذ تسليم وتنعيم بال
فمكسه ما لك فيه مجال
تركن من الدنيا لحال مُحال
بالعدل حال ومن العدل خال
في كل حال ما عن العهد حال

[٧٦]

(١) ذكرت هذه العبارة أمام هذا البيت في هامش ط: « يعترض الرب بدل يفر » .

يرى خلال الشكر والصبر في ما سر أو ساء أبرّ الخلال
فهو على الحائنين قد نال من مناه في الدارين أقصى منال
ما أقصر الدنيا على مرّها كالظل ما أقصر مدّ الظلال !
فافطن لها حزما ففي ظلها ما قال يوما حازم حيث قال
ما يقظات العيش إلا كركى ولا مرأى العين إلا خيال^(١)
ياليت شعري والنّى عبرة^(٢) والشعر قول قد ينافي الفعّال
هل يستحيل العهد من صَبَوْتِي فقد مضى عهد الصبّا واستحال
والشيب هل يوقظني صبحه فالنوم في ليل من^(٣) اللهو طال
وكسرتني من عُسرتي هل تقى وعثرتني من^(٤) عبرتي هل تُقال
هذا زمانى في تولّ وفي غزى تواني والهوى في توال
حال من احتل بدار البلاء ولم يحدث نفسه بارتحال
يا ربّ ما الخلص من زلتى لا عمل لا حجة لا احتيال
يا ربّ ما يلقاك مثلى به عن طاعة لم ألقها بامثال
يا ربّ لا أحمل حرّ الصبا فكيف بالنار لضعفى احتمال
أم كيف عذرى وقد أعذرتلى^(٥) بأخذ حذرى من دواعى النكال
رحمك اللهم فهى التى لها على العاصين مثلى انثيال
ولا تعاملنا بأعمالنا لكن رجا آمالنا صل ووال

[٧٧]

(١) يشير إلى قول أبي الحسن التهامي في مرثيته ابنه :
فالعيش نوم والنّية يقظة والمرء بينهما خيال سارى

(٢) فى ت : « عدة » .

(٣) فى ط : « وفى » .

(٤) فى ت : « فى » .

(٥) فى ت : « فى » .

وبامتداح المصطفى هَبْ لَنَا
فَمَا سِوَى حَبِيٍّ لِلْمُصْطَفَى
ذَلِكَ تَجْرَى ^(٢) وَعَلَى فَضْلِهِ
فَإِنْ يَفْزُ قَدْحِي بِمَدْحِي لَهُ
وَرَأَيْدُ الْغُرَى الْغَوَالِي ^(٣) عَلَى
أَعْظَمَ بِأَمْدَاحِ نَبِيِّ الْهُدَى
خَيْرَ الْوَرَى مِنْ بَادٍ أَوْ حَاضِرٍ
فَادِيهِمْ مِنْ فَتَكَاتِ الرَّدَى
حَامِيهِمْ بِالْعُضْبِ إِذَا لَا حَمِيٍّ
مُنِيْلِهِمْ إِذَا لَا جَدَى يُرْتَجَى
قَرِيبِهِمْ فِي طَبَقَاتِ الْعُلَا
مُؤْوِيهِمْ مِنْ حَوْضِهِ مِنْ صَدَى
أَطْوَلَ مِنْ مَالٍ بِسَيْبِ النَّدَى
مِنْ خَصَّةِ اللَّهِ بِحَصْلِ الْعَدَى
مِنْ بَاهِرِ الْحَسَنِ وَفَضْلِ التَّقَى
حَالٍ مِنَ الْعِلْمِ بِأَسْنَى حِلَى
نُورٍ مُبِينٍ صَادِقٍ فَارِقٍ
أَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْحَيَا بِاسْمِهِ

مَاتَمِ الْفِعْلُ لِبِرِّ الْمَقَالِ ^(١)
وَسِيلَةً لِي بُعْرَاهَا اتِّصَالَ
طَمَعْتُ فِي الْفَضْلِ بِلَا رَأْسِ مَالٍ
فَقَدْ يُجِلُّ النُّورُ قَدَرُ الذُّبَالِ
مَوْثِقَةٌ مِمَّا نَوَى مِنْ نَوَالٍ
حَبْلَ اعْتِلَاقٍ أَوْ شَفَاءِ اعْتِلَالٍ
أَكْرَمَهُمْ مِنْ حَافٍ أَوْ ذَى انْتِعَالٍ
هَادِيهِمْ فِي هَالِكَاتِ الضَّلَالِ
كَالِيهِمْ ^(٤) فِي الْخُطْبِ إِذْ لَيْسَ كَالِ
مُقِيلِهِمْ إِذَا لَا عِثَارٌ يُقَالُ
شَفِيعِهِمْ فِي عَرَصَاتِ السُّؤَالِ
مُؤْوِيهِمْ مِنْ جَاهِهِ فِي ظِلَالِ
أَصُولٍ مِنْ فِي الْحَقِّ بِالسَّيْفِ صَالٍ
فِي كُلِّ مَا عَمَّ الْهُدَى مِنْ خِصَالِ ^(٥)
وَحِكْمَةِ النُّطْقِ وَبِحَجْدِ الْفِعَالِ
وَأَفٍ مِنَ الْحِلْمِ بِأَرْكَى خِلَالِ
مُبَشِّرٍ هَادٍ خَتَامِ كَمَالِ
كَهْفِ الْأَيَّامِ ، لِلْيَتَامَى ثِمَالِ

(١) في ط : « الفعل » .

(٢) تجرى : تجارتى .

(٣) في ت : « الغوالي » .

(٤) كالهم : كالهم ، أى حافظهم .

(٥) خصل المدي : إصابة الغاية .

الرحمة المهداة ضِمن احتِفًا والنعمة المُسداة خَلْف احتِفَالٍ
 كم آية جَلَّى لَنَا أو تَلَا وغاية جَلَّى بِهَا دُونَ تَالٍ^(١)
 ذُو العَرْشِ أَسْمَى قَدْرُهُ فَاسْمُهُ فِي العَرْشِ مَقْرُونٌ مَعَ اسْمِ الجَلَالِ
 وَذَكَرَهُ رَفَعَ فِي ذِكْرِهِ حَمْدًا لِيَتَلَوْا مَدْحَهُ كُلُّ تَالٍ
 أَعْطَاهُ دُونَ الرُّسُلِ خَسًّا كَفْتُ يَدَ امْتِنَانٍ فِي العَطَايَا الْجِزَالِ
 [٧٨] لَمْ يَبْعَثِ الرُّسُلَ اشْتِئَالًا وَفِي بَعْثَتِهِ لِلثَّقَلَيْنِ اشْتِمَالِ
 وَقِسْمَةَ الْأَنْقَالِ حِلًّا وَمَا مِنْ قَبْلُ كَانَتْ لِنَبِيِّ حَلَالِ
 وَالْأَرْضَ طُهْرًا وَمَصْلَى لِأَنَّ كَانَ لَهُ كَوْنٌ بِهَا وَاحْتِلَالِ
 وَالنَّصَرَ بِالرَّعْبِ لَشَهْرِ مَدَى يُنَازِلُ الْأَعْدَاءَ قَبْلَ النَّزَالِ
 وَالنَّعْمَةَ الْكُبْرَى الَّتِي نَالَهَا شِفَاعَةُ الْأُخْرَى وَنِعْمَ الْمُنَالِ
 وَلَيْلَةَ المَعْرَاجِ أُسْرِى فَمَا أُسْرِى وَجَبْرِيلَ أَنْيْسُ لَهُ
 حَتَّى انْتَهَى مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى إِلَى مَقَامٍ لَمْ يَنْلَهُ مَقَالِ
 قَالَ لَهُ الرُّوحُ مَقَامِي هُنَا وَأَنْتَ فَاصْعِدْ لِمَقَامِ الْوِصَالِ
 فَقَالَ : يَا أَنْسَى أَفْرَدْتَنِي حَيْثُ دَهْتَنِي^(٢) مُذْهَشَاتِ الْجَلَالِ
 فَقَالَ : كَلَّا إِنَّمَا الْأَنْسُ مَا أَنْتَ مُوَالٍ وَلَكَ اللَّهُ وَالْأَبِيحِ مِنْهَا إِسْوَاكِ اتِّصَالِ
 طَا حُضْرَةَ الْقُدْسِ اتِّصَالًا فَمَا وَرَاءَهُ لِلْحَقِّ نَوْرَ الْجَمَالِ
 فَرَجَّهَ فِي النُّورِ زَجًّا رَأَى عَنِ مَبْلَغِ الْعَقْلِ وَوَهْمِ الْخِيَالِ
 شَاهِدًا مَا شَاهَدَ مِمَّا ارْتَقَى وَعَالِمٌ بِالْعَيْنِ وَالْقَلْبِ قَالَ
 فَقَالَ قَوْمٌ بِفَوَادٍ رَأَى

(١) جلى بها : أتى فيها سابقا ..

(٢) فى ط : « وعنتى » .

وليس ذا وهو مُحال على حَال مَقَامِ الحُبِّ مِمَّا يُحَالُ
 حيث تدلَّى قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَذْنَى نَجِيًّا فِي ظِلَالِ الدَّلَالِ
 وبعد ما في النجم يُتَنَلَّى عَلَاً ثُمَّ أَتَى وَالنَّجْمُ فِي الْأَفْقِ عَالِ
 وباحتمال الجسم والروح في مَسْرَاهُ صَحَّ الْقَوْلُ دُونَ احْتِمَالِ
 وبانشقاق الصدر طِفْلاً فَقَسَّ لَهُ انْشِقَاقَ الْبَدْرِ عِنْدَ اكْتِمَالِ
 لنسبة بينهما في الهدى وَالْحَسَنِ وَالْقَرَبِ وَبُعْدِ الْمَنَالِ
 فنور هذا كَمَ جَلَا مِنْ دُجَى وَنُورُ هَذَا كَمَ هَدَى مِنْ ضَلَالِ
 كلا بل الأنوار حيثُ انجَلَتْ حِسًّا وَمَعْنَى مِنْهُ كُلاًَّ تُنَالِ
 ولانشقاق البدر من نوره أَبْدَى انْشِقَاقًا وَهُوَ تَغْيِيرُ حَالِ
 شَوْقٍ هَلَاكَيْنِ عَلَى صَفْحَتِي ظَلَامَاهُ فِي كُلِّ شِقِّ هَلَالِ
 والشَّطْرُ مِنْهُ لَاسْتِلَامِ الثَّرَى بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسَّلَامِ اسْتِمَالِ
 بل أَخْجَلَ الْبَدْرَ لِنَقْصَانِهِ فَانْحَطَّ مُنْشَقًا لِبَدْرِ الْكَمَالِ [٧٩]
 هم سألوها آيةَ أَعْرَضُوا عَنْهَا وَقَدْ جَاءَتْ وَفَاقَ السُّؤَالِ
 قالوا وقد جالوا^(١) بسحرٍ أَتَى فَقُلْتُ هَذَا السَّحَرُ سِحْرُ حَلَالِ
 بل عجبوا من نُكْتَةِ الْكَوْنِ أَنْ أَعْطَاهُ رَبُّ الْكَوْنِ مَا مِنْهُ سَالِ
 وهَجْرَةُ بِلْ وَضَلَّةُ لِلرَّضَا وَرَبِّمَا نِيلٌ^(٢) بِهِجْرٍ وَصَالِ
 ضفًا لِحُجْبِ السَّتْرِ دُونَ الْعِدَا فِي الدَّارِ وَالْغَارِ عَلَيْهِ انْسِدَالِ
 إذ غار بالحكمة نورُ الهدى فِي الْغَارِ مِنْ غَارَةِ حَزْبِ الضَّلَالِ
 وما اختفى من خيفة بل لَأَنَّ تَظْهَرُ أَسْرَارُ مَعَانِي الْمَعَالِ^(٣)

(١) كَذَا فِي تَوْفِي ط « خَالُوا » . وَلَعَلَّ كِلَيْهِمَا مِصْحَفٌ عَنْ : « خَالُوا » .

(٢) فِي ت : « بَيْلَى » .

(٣) الْمَعَال : أَيْ الْمَعَالَى .

حيث ثَقِيَ بعدُ عِنَانَ الرَّدَى سُرَاقَةً عَمَّا سَرَى واستقال^(١)
هَيْلَ كَثِيبِ الطَّرْفِ خَسَفًا بِهِ عَنْ كَثَبِ والصنع للطرف هال^(٢)
أَهْوَى كَمَا أَهْوَتْ بِمِثْلِهِ مِنْ قَصْرِ كَسْرَى الشُّرَفَاتِ الْعَوَالِ^(٣)
نِسْبَةَ حَالٍ كَانَ مِنْ سِرِّهَا أَنْ بِسَوَارِيهِ غَدَا وَهُوَ حَالِ^(٤)
هَنَّاكَ هَامَتْ بِالْحِمَامِ الْعِدَا فَحَامَ حَوْلِهِ حَمَامَ فَحَالِ^(٥)
فَاطَرْدَ الْكَسْرَى عَلَى جَمْعِهِمْ وَاطَّرَدَ الْفَتْحُ لَهُ صَدَقَ فَالِ
وَالْعَنْكَبُوتِ اعْتَمَدُوا حُجَّةَ خَالُوا بِهَا الْغَيْلَ مِنَ اللَّيْلِ خَالِ
فَاجِبَ لَمْ بِالْوَاهِنِ اسْتَوْثَقُوا ظَنًّا وَلِلْبَرْهَانِ هَمٌّ فِي جِدَالِ
مَا أَصْدَقَ الصَّدِيقَ فِي قَوْلِهِ عَدْلٌ لَنَا فِي حُجَجِ الصَّدَقِ قَالَ
أَشْفَقَ لَا حِرْصًا عَلَى نَفْسِهِ بَلْ غَارَ مِنْ عِلْقِ نَفْسٍ يُذَالِ
يَأْهِمُهَا الصَّدِيقُ بِشَرَاكَ لَا تَحْزَنُ^(٦) وَشِمٌّ لَانْصِرَامِضَى النِّصَالِ
فِكْمَةُ الْعِصْمَةِ إِحْرَازُهَا مَا بَيْنَ أَظْفَارِ الظُّبَى وَالْعَوَالِ
لِلَّهِ مَا أَشْرَفُهَا عِزَّةً . لَيْسَ لغير الله منها ابْتِهَالِ
نُبُوءَةٌ لَاحَتْ بِرَاهِنِهَا قَطْعِيَّةٌ تُرْغَمُ أَنْفُ الْجِدَالِ

- (١) سراقه : هو سراقه بن مالك الكنانى الذى تبع النبى صلى الله عليه وسلم عند الهجرة ، ليرده إلى قريش . (انظر خبره فى كتب السيرة) .
(٢) يشير بهذا البيت والذى قبله إلى ما روى فى كتب السير من أن سراقه لما أراد للحاق بالرسول ، وكاد يدركه ، غاصت قوائم فرسه فى الرمال ، وأفرغه مارأى من عجزه عن إدراك النبى أو إصابته بسوء ، حتى اضطر أن يعود من حيث أتى .
(٣) يريد أن فرس سراقه خر على الأرض كما سقطت شرفات قصر كسرى عند مولد النبى لإرهاصا لنبوته .
(٤) يشير إلى لبس سراقه لسوارى كسرى أيام عمر تصديقاً لقول النبى لسراقه لما خرج فى طلبه فى الهجرة : « كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ! » . (انظر شرح المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٤٨) .
(٥) يريد : أن أعداء النبى يوم الغار أرادوا قتله ، خال الحمام دون غرضهم بتعشيشه فوقه .
(٦) فى ت : « تحزع » .

وهل جدال في عُلَى أَوْجَبَتْ وآدم في طِينِهِ ذُو انْجِدَالٍ
 وإِذْ بَدَتْ في وَجْهِهِ غُرَّةٌ خَرَتْ لَهُ الْأَمْلاكُ طَوْعَ امْتِثَالٍ
 وَنُوحٌ أَدْ نَجَّى في فُلْكَه كَانَتْ عَلَى أَنْوَارٍ هَذَا اشْتِمَالٍ
 كَذَا خَلِيلُ اللَّهِ في نَارِهِ مِنْ بَوْرِهِ أَهْدَى هَدَى الْخِلَالِ
 إِذْ قَالَ جَبْرِيلُ لَهُ سَلْ تَنْفَلْ فَقَالَ عِلْمُ الْحَالِ حَسْبَ السُّؤَالِ
 وَنَالَ إِسْمَاعِيلُ مِنْهُ الْفِدَا بِالذَّبْحِ أَوْ إِسْحَاقُ إِنْ صَحَّ نَالَ [٨٠]
 وَهُودٌ أَسْتَجَلَى لَدَيْهِ الْهُدَى وَيُوسُفُ مِنْهَا تَحَلَّى الْجَمَالَ
 وَخِلْعَةُ الْإِشْرَاقِ مِنْهَا اكْتَسَى بِالطُّورِ مُوسَى عِنْدَ خَلْعِ النِّعَالِ
 وَالرُّوحُ رُوحُ اللَّهِ لَاقَى بِهَا بُشْرَى تَلَقَّتْهَا صُدُورُ الرِّجَالِ
 فِيمَا لَهُ نُورَ انْتِقَاءٍ بَدَا فِي غُرْرِ الْآبَاءِ مِنْهُ انْتِقَالِ
 وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مَعًا وَالضُّحَى وَالشَّهْبُ مِنْهُ أَشْرَقَتْ وَالْهِلَالِ
 وَنُورُهُ أَجْلَى ، وَبِرْهَانِهِ أَعْلَى ، وَكَيْمٌ مِنْ دُونِهَا مِنْ مَعَالِ
 تَفَجَّرَتْ أَنْمُلُهُ بِالنَّدى مَعْنَى وَبِالْحَسَنِ جَرَتْ بِالزُّلَالِ (١)
 وَأَنْطَقَ الطَّيْرُ بِتَصْدِيقِهِ وَأَفْصَحَ الذَّنْبُ بِهِ وَالْغَزَالِ
 وَسَبَّحَتْ فِي رَاحَتِيهِ الْحَصَى وَانْهَزَمَ الْجَمْعُ لِحُثْمِ الرَّمَالِ
 وَالْجِدْعُ إِذْ عَوَّضَ مِنْ وَصْلِهِ بِفَصْلِهِ حَنَّ حَنِيفِ الْفِصَالِ
 وَهَلْ إِلَى آيَاتِهِ مُنْتَهَى وَعَنْ عُلَى غَايَاتِهِ النُّجْمُ آلِ (٢)
 فَمَا بَلِغَ بِالْغَا وَصْفِهِ يَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْمَقَالِ
 وَبَعْدَ مَبْدَأِ (نُونٍ) أَوْ مُنْتَهَى (بِرَاءَةٍ) مَاذَا عَسَى أَنْ يُقَالَ (٣)

(١) في ط : « لا محال » . بدل : « بالزلال » .

(٢) آل : رجع عاجزا .

(٣) (يشير إلى ثناء الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم في مفتتح سورة (نون) ومختتم سورة (براءة) .

يا سيد الكونين فضلا به قد ساد في الأولى ويوم المآل
 يا سابق الرسل اصطفاء ويا خاتمهم جمعاً لمعنى الكمال
 يا ملجأ الخلق ومنجاهم إذا بهم ضاق انفساح المجال
 يا من به نال الحب الرضا ويا شفيعاً في الذنوب الثقال
 رُحماك فينا يا نبي الهدى فلم تزل رحماك ذات انهمال
 رُحماك في أوطاننا راعها من لحظك الأحمى بهين ابتها
 رُحماك في سلطاننا واله من نصرك الأمضى بأرضى نوال
 رُحماك في غربتنا كن لها أنساً فإن العهد بالأنس طال
 رُحماك في كُربتنا حلها منك بسرٍ فبهى رهن اعتقال
 رُحماك في عيلتنا أغنها إنا على رفدك طراً عيال
 رُحماك في قِلتنا زكَّها زكاة تكثير لجاه ومال
 صالت علينا بالوفور العدا وهل على راجيك غوثاً يُصال
 صالت بعدد واعتداد معاً وما على ذاك الحمى يُستطال
 خالتُ بآنا لا غيثٌ لنا حاشى غيث الخلق مما يُخال
 وبالغنى اختالتُ وما إن لنا في غير أفياء غناك اختيال
 فأنت للخلق ملاذ الورى والوزرُ الأحمى لدى ذى الجلال
 صلى عليك الله نور الهدى أزكى صلاةٍ قرنتُ^(١) باتصال

[٨١]

انتهت القصيدة . ومن ذلك قوله رحمه الله :

لك يا فقيه وضعتُ خدي في الثرى طمعاً بوصلي منك غير مؤجل
 فأجاب ذلك لا يجوز لأنه عندي رباً من باب ضَعُ وتعجل

وقوله :

لِي سَيِّدُ زَارٍ وَمَا زَرْتُهُ فَنِيَّ النِّقْصُ وَمِنْهُ التَّامُ
إِنْ يَحْتَمِلُ سَهْوَى فَقَقْهُ مُضَى لِأَنِّي الْمَأْمُومُ وَهُوَ الْإِمَامُ
[وَطَالَمَا زَارَ النِّعَامُ الثَّرَى وَلَمْ يَزَرْ قَطُّ الثَّرَى لِلْغَامِ]^(١)

وقوله رحمه الله ، وهو غاية في بابه :

بَعَثْتُ بِهَا ذِكْرِي عَلَى ثِقَةٍ إِلَى مُؤَمِّلٍ وَعَدَ مِنْ لِقَائِكَ^(٢) مَرْقُوبٍ
فَمَا زِلْتُ فَذًّا فِي رَمُوسِ ذَوَى الْعُلَى وَمَا وَعَدَ رَأْسَ مِثْلَ مَوْعِدِ عُرْقُوبٍ
[وقوله :

عَابَ مِنِّي الْعُدَاةَ شِعْرًا وَثَغْرًا رُمِيَا فِي الصَّبَا بِشَيْبٍ وَشَيْنٍ
قُلْتُ : لَا عَيْبَ فِيَّ مَا دَامَ فَضْلُ فِي النَّهْيِ وَاللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ]^(١)
وقوله :

قُلْتُ لَمَّا جَبَزْتُ بِالْعَاجِ ثَغْرًا^(٢) وَلَقَدْ رُمْتُ بِالْمُحَالِ احْتِجَاجًا
صَاحٍ لَا بَأْسَ أَنْ يَعُوجَ شَبَابِي بِالتَّلَاقِ^(٤) أَمَّا تَرَى الثَّغْرَ عَاجًا
وقوله :

رَأَيْتُنِي أَحْوَطُ الثَّغْرَ رَبْطًا فَأُصْحَكُ وَتَاهَتْ بِثَغْرِ الْجَفُونِ يُحَاطُ
فَقُلْتُ لَخُوفِ الْحَلِّ مِنْهُ^(٥) رَبْطُهُ أَيْنَكَرُ فِي الثَّغْرِ الْمَخُوفِ رَبَاطُ
وقوله :

إِلَهِي لَكَ الشُّكْوَى وَحَسْبِي رَحْمَةٌ نِدَاؤُكَ فِي شُكْوَى الْخَطُوبِ إِلَهِي

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ط : « وفائك » .

(٣) في ط : « ثغري » .

(٤) في ط : « بالتلاقي » .

(٥) في ت : « منك » .

وَحَقِّكَ مَا لِلَّهِو أَبَدَعْتَ خَلَقْتَنِي وَهَا أَنَا فِي غَيِّ الْبَطَالَةِ^(١) لَاهِي
 بِنَفْسِي وَشَيْطَانِي وَدُنْيَايَ وَالْمَوِي فُتِنْتُ وَلَكِنْ أَنْتَ حَسْبِي لَاهِي^(٢)
 وَلِنَخْتَمَ مَا أَرَدْنَا جَلْبَهُ مِنْ نَظْمِهِ الَّذِي هُوَ بِحَرْ لَّا سَاحِلَ لَهُ بِقَوْلِهِ :
 يَا رَبِّ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ الَّذِي أَحْكَمْتَ : إِنَّكَ تَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَا
 فَاخْتَمَ لِعَبْدِكَ بِالرَّضَا وَاحْكَمْ لَهُ بِالسُّتْرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَى مَعَا

[٨٢]

وأما الرئيس أبو يحيى بن عاصم فهو الإمام العلامة، الوزير الرئيس، الكاتب
 البليغ الجليل الخطيب الجامع الكامل، الشاعر المفلق النائر، الحجة، خاتمة
 رؤساء الأندلس بالاستحقاق، القاضي محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن
 عاصم القيسي الأندلسي القرناطي، قاضي الجماعة بها، كان رحمه الله تعالى من
 أكابر^(٣) فقهائها وعلمائها، أخذ عن الإمام الحقق أبي الحسن بن سمعة^(٤)،
 والإمام القاضي أبي القاسم بن سراج، والشيخ الراوية أبي عبد الله المنتوري،
 والإمام أبي عبد الله البيانى وغيرهم، وذكر في شرحه تحفة والده أنه وُلِّيَ القضاء
 عام ثمان وثمانين وثمان مئة، وله عدة تأليف منها شرحه العجيب على تحفة والده
 في الأحكام، وهو كتاب نافع، فيه فقه متين، ونقل صحيح، وكانت يده
 وبين عصره الإمام مفتي غرناطة أبي عبد الله السَّرْقَسُطِي، مراجعات
 ومنازعات في مسائل فقهية. ومن تأليفه رحمه الله: كتاب جنة الرضى، في التسليم
 لما قدر الله وقضى؛ وكتاب الرّوض الأريض، كأنه ذيل به إحاطة ابن الخطيب،

(١) في ت: « البلاغة » .

(٢) لاهى: أى يا لاهى .

(٣) في ط: « أكارم » .

(٤) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين: « سمعت » وهو تحريف .

وله غير ذلك ، وسنذكر شيئاً من كلامه بعد هذا إن شاء الله تعالى .

ومن أغرب ما صدر عنه ، رضى الله عنه ، قصيدة ، تفك منها قصيدتان
أخريان بديعتان ، إحداهما من المكتوب بالأحمر ، والأخرى من المكتوب
بالأخضر ، وكل واحدة من هاتين البنتين تلد موشحة ، كما ستره ، وقد ألفتها
بخط بعض أعلام سبته ، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن فرج ،
وجده محمد بن فرج هو الذى نأتى بجملة من نظمه فى النعل النبوية ، عند
ما نتعرض لذلك إن شاء الله تعالى ، فى محل هو أنسب من هذا الموضع ، وقد
سقط من هذه القصيدة نحو ثلاثة أبيات ، فعوضتها بغيرها على ذلك السّن (١) ،
على أن بعض كلماتها لم تسقط إلى طرف (٢) .

قصيدة له تلد
بنتين فوشحتين
فى مدح السلطان
أبو الحجاج

ونص ما كتبه السبكي المذكور من نظم السيد الأستاذ العالم الصّدر المفتي
القاضي رئيس الكتاب ، ومعدن السّاحة ، ومنبع الآداب ، سيدى أبى يحيى
ابن عاصم رحمه الله ، ورضى عنه ، يمدح السلطان العادل المقدّس المنعم المرحوم
المجاهد ، أبا الحجاج يوسف بن نصر ، قدّس الله روحه ، ونضر ضريحه ، قال :
ونقلتها من خط ناظمها رحمه الله . انتهى . وهذه هى القصيدة (٣) :

أما والهوى « ما كنت » مذ بان عهدُه أهِم بَلْتُمِيَا من (تَنَاسَرُ) (٥) وُدّه
رعى الله من « لو أنصف » الصبّ فى الهوى لما فاض منه (الدمعُ) مذ (٦) بان صدّه

(١) فى ط : « النسق » .

(٢) يريد أن الأبيات الثلاثة الساقطة قد ظهر منها بعض كلمات .

(٣) وضعنا ما كتب بالمداد الأحمر فى الأصل بين هذين القوسين « ، وما كتب

بالأخضر بين هذين الهلالين () اقتداء بما فى نسخة ت .

(٤) فى ت : « إمام الهدى » .

(٥) فى ط : « تأثر » .

(٦) فى ط : « إذ » .

ولو جاد من « بعد المطال » برؤرة
 كما خان صبرى يوم أصبح و « اصلى
 لذلك أسال الدمع (كالدر) مدمعى
 حكى لؤلؤاً (من سلكه) متناثراً
 ذخرت (الثمين) القدر منه بمقلتى
 ولا عجب (مذ أعوز) القرب أن غدا
 أي لحق باللقيا أو (الوصل) من يغو
 وصير جسمى للصبابة (والتلا
 أقطع أنفاسى « عليه ك » آبة
 فمن شعره « الليل البهيم » ومن سنى
 (ب) حكم « الدلال » الجور حكم جوره
 له معطف « مستحسن القد » ناعم
 رمى فى فؤادى جمرأ « ذكى » هيبه
 فيعقب من نار الحيا عاطر « الشذا
 ويسدو بأفاق ال (جمال ه) لاله
 كأن الطيبى فى (مرتع) الطرف لحظه
 يروق (العيون) العطف منه فشبهت
 ويانه « م ورد الخد » لو جاز (٣) قطفه

لما شب أشواقى وقلبي زنده
 لطفى « زاد ماء (من جفونى) وقده
 من « الوجد » فاستولى على الجفن سهده
 و « إلا ليم » قد تسابع مذه
 ومازلت من خوف « النكال » أعدده
 و « كالقمر الزاهى » سناه وبعده
 ر « فى نوره » بدر السماء وجنده
 ق (يتيم قايى إذ تمكّن وجده (١)
 والله (من بدر) لغيرى (٢) سعه
 مقبله له (حسن) نور يمه
 ومن شأنه أ (لا قرين) يرده
 به (علقت فى الحب) بالرغم أسده
 به (طيب أنس) قد تاهب خذه
 ك « لاني بذاك الخال قد نمت نده
 له « الليل فرعاو » الكواكب عقده
 كأن « القنا فى » اللين والفعل قدده
 به قضب البان « اعتدال » ما ومله
 وطيب رحيق الثغر ل (وحل) وزده

(١) كذا فى ط . والشرط الثانى من هذا البيت غير مستقيم وزناً . وروايته فى ت :

وصير جسمى للصبابة وابلى يتيم قلبى إذ تمكّن وجده

ولا تتفق ألفاظ هذه الرواية مع ألفاظ الموشحة التى تخرج من هذه القصيدة .

(٢) فى ت : « لغيرى » .

(٣) فى ت : « حان » .

يجول به ريق « شهي » يحيلني
ويحمي المحيا و « اللهي » بلواظ
فله من ريم ضلوعي (كيناسه)
ويمنع منه المستهام (فما له)
وبالحسن منه (يستبجح) حى النهى
ويؤلى (ديني) في الهوى وهو موسر
أفي العدل أن (يحكم) بتحريم ريقه
أخيلته لو نيل (بالنهب في) الكرى
فأجني كما شاء الوصال « رضابه »
ويشفي بذلك الميسم « العذب » ريقه
وحلو « الجني » مر الجفا باهر الس
بدا « في المثال » كالغزال محاسنا
وللحب يدع « ولحظه الأوطف » الوري
تملك رقي طرفه « مع سقمه »
وأظهر مكنون الهوى منذ جار (في ال)
وقد كان تحت الكتم (عذري) ووجد
ويحسبه في (الحكم) بالجور « ك » الوري
إذا (بالظنون) الكاذبات يناله

إليه لطي (في القلب) قد شب وقده
(عن) الدنف المكري به ^(١) فتصدده
وروض يسقيه من الدمع عهد
و « في لثمه » لو جاد بالثم قصده
و « كل المني » واليمن يحويه برده
له در ثغر « لو ينال » وعقد
لأن « كان للشهد » المعلن وزده
« وما ذقته » يشفي من السقم شهد
ويجني على قابي هواه وصده
(فوادي إذ) يشفي بلثمي خده
(نى له نهب ه) ذا القلب قسرا ^(٢) ورده
وتخشا أبطال (العرين) وأسده ^(٣)
(أ) لا (هكذا) قلب المشوق أقده
و (الشرع) في حكم الغرام يرده
معنى (ا) ذى قد طال في الحب جهده ^(٤)
ف « أسهر منه » ما اختفى قبل صده
وهل با « اسليم » القلب يحسب ضده
ينام فكم عم « الليال » ي سهد

(١) في ط : « بها » .

(٢) في ت : « سرا » .

(٣) هذا البيت ساقط في ت .

(٤) في ط : « ججده » .

يد «وح سن» ا «ه» لَلشُّوق وقربه
وفي مجتلاه «الباهر» الحُسْن والرُّوا
وأُنْعش بالإِنصاف «مهما بدا» وإن
ويبديه نور الحسن وَهَنًا «لمقلتي»
يميل على المشتاق (بالهجر) حكمة
فيا هاجري (والصد) للصب قاتل
أما (والفتون) البايلى وسحره
وياعقولى (مالى سوا) ك مؤازر
فصغ لؤلؤا من (مدحى ابن) ملوكنا
مَنْ أورثه الملك المؤصل (نصر) ه
لُبَابُ العلى «قطب المعالى و» تاجها
به قد غدا ثغر «الهدى» وهو باسم
«و» أضحى «الكمال طود» ه فإن اعتدى
ومهما عفا عاد «الحجا» وهو قائل
وبالشَّم يُزرى عقله «الأرجح» الذى
فمعنى الحلى تهديه للقلب ذاته
ومن كفه (غيث الندى) وغمامه
إذا انهل منه (الواكف ال) ثر للورى

عليه حرام إذ (يحلل) بُعدُه
حياتى ، وشبه (القتل) للنفس فقدُه
أرى (منه ظلمًا) عاود القلب وجده
ويخفيه فرغ فاحم الوصف جَعده
ف «منه» استعار الميل عنى قدّه
وروض «نعيم» فى رضاك وخُده
كَيْقنعنى هزل «الوصال» وجده
ف «خلّ الهوى وامدح» لمن حقّ حمده
«إمام الورى» الباهى على الخلق رفده^(١)
وأكسبه المجد المؤثّل سعدُه
و(بدر الهدى) وضّاح فى الدهر^(٢) سعدُه
منير سناه (مشرق) الأفق سعدُه
على البدر نقص ف (الجبين) يُمده
ك(ذا الحلم والصفح) الذى أَسعدُه
لنجد^(٣) و المعالى والمجادة قصده
و «سر العلى» يبيديه للعين مجده
و «معنى السماح» المستراح ورغده
فصنّف «و الندى و» الجود قد لذ ورده^(٤)

[٨٥]

(١) فى ط : « الباهى على الخلق قدّه » .

(٢) فى ت : « فى البحر » .

(٣) فى ت : « له والمعالى » .

(٤) هذا البيت ساقط فى ط .

تخال (هتُون) البذل منهن زائلا
وكل « نوال ه » امل من بنانه
وفيض نداه « يشرح » الحال إنه
(و) في غيظه التَّجَاج « للمعتق » الغنى
والفضل والإحسان والبأس (سبة) ه
وأفعاله عند استباق (لدا) شأت
له مشرفي (دائم ال) قطع للطلا
وبين (سكون) في الندى من الحجا
وزينه من (قصده الجمع) للعل
وحزم وعزم (بين بكر) وثيب
فيوم الندى الإسلام يسعد دهره
ومن بأسه « أضحي الحام » تَنَعًا
وتمسى عداه « كالحميم » شراهم
ويغدو « الموالد » في « مرور غبطة
قد اعتاد « ترك الكافر » ين وشأنهم
فأباطهم « رهن الفنا » ه « و » ما لهم
ولم يبق إلا من حمى الحسن (للعطا)
وأصبح في العلياء (كالبحر) كفه
فصوب الحيا (في جوده) برقه الظبي

يُكَيِّفه برق « الجلال » ورعده^(١)
فأقصى صفات الجود (قد جاز) جوده
يمد الحيا (في السمع) إذ يستمده
إذا ب (الأيادي) منه يبدأ رِفده
ولملك والإسلام والعلم عَصْدُه
و « فعل ظباه با » لكُباة وجُرْدُه
فكل كمي ل « لعدا في » ه فقصه
(و) بين مضاء ب « القتال » يُعده
كما زَيْن ا « لسيف » الصقيل فِرِنده
ب « ه المرهف » الماضي يُقَلِّل حَدُّه
و « يوم الوعى » الإشراف يتعس جَدُه
و (للفخر) منه صارم يستعده
وما شيدوا (في دهره) فيده^(٢)
من البشر أكار (وعون) تَوَدُّه
لهيب (وشأن ه) ما مل الدمع وِرْدُه
إلى (البذل) عقباه وبالسيف رَدُّه
وشفع في أح (يا) نه^(٣) منه خدّه
كما « قد غدا مثل ال » جواهر رِفده
يريك « هشيم » الكفر مما يقدّه

(١) هذا البيت ساقط في ط .

(٢) في ت : « لم يهده » .

(٣) في ط : « أحبابه » .

نَدَاهُ (الْمَعِين) الثَّرَقْدُ نَعْمُ الْهَدَى
 وَأَحْكُ «مَرْفَعُ» الْمَلِكِ إِذْ نَصَبَ الْعَدَا
 أَيَا سَامِي «الْقَدْرُ» الَّذِي جَلَّ ذِكْرُهُ
 صِفَاتُكَ فِي الْعُلِيَاءِ «عَزِيزُ» مَنَاهَا
 فَسَأَلْتَهُ مِنْ عِزَّةِ الْجَارِ «الْحُمَى»
 وَأَبْعَدْتَ فِي (وَصْفِ الْعَلِيِّ) عَنْ مَسَابِقِ
 وَجُودِكَ (فِيهِ ذُو) الرِّجَا مَغْرَمُ فَإِنْ
 وَكَمْ مِنْ (فَنُونِ) يَسْتَمِدُّ بِهَا الضَّحَى
 وَكَمْ بَاتَ يَتَدَا (وَسُورَةُ) الْفَتْحِ عِزُّهُ
 وَأَصْبَحَ بِاسْتِحْقَاقِهِ (الْحَمْدُ مِنْ) أَوَّلِيهَا
 بَعْدَلُ وَإِحْسَانُ قَدْ اخْتَلَمَ كِلَيْهِمَا
 وَبَاسُ وَبَطْشُ يَحْمِيَانِ «حَمَى الْهَدَى»
 وَحَلَمُ «وَجُودُهَا» تَدَنُ «مَكَارِمُ»
 وَكَيْفُ «يَنَالُ» الْمَدْحُ أَوْصَافُ مَا جَدَّ
 يَمُوعُهُ «وَخَصَّ بِأَلِ» ذَنْبُ نَطْقِهِ
 وَلِلسَيْفِ نَصْرِيَابِنْ «نَصَرَ عَلَى» الْعَدَا
 وَلِلْمَلِكِ عِزُّ أَوْ كَسْبُ الذَّلِّ «مَنْ بَغَى»
 فِي ذِمَّةِ الْعُلِيَاءِ (تِلْكَ الْخِلَالُ) الْعُلَى
 أَتَرْتُ بِهَا مِنْ (فَاحِمِ) الظُّلْمِ مَا دَجَا
 فَزَالَتْ (دَجُونُ) الْجَوْرِ عَنْ مَطْلَعِ الْهَدَى
 هُوَ «الْمَلِكُ» لَمْ تَغْبُطْهُ إِلَّا نَزَارُهُ

[٨٦]

وَيَشْقَى بِهِ حَزْبُ «الضَّلَالِ» وَجَنْدُهُ
 عَلَى حَالِ ذَلِّ (نَالٍ مِنْ) ضَلِّ^(١) جَهْدُهُ
 وَيَا مُحَرِّزُ (الْمَجْدِ) الَّذِي عِزُّ نَدَاهُ
 لَهَا (كُلُّ طَبْعٍ) أَحْرَزَ الْفَضْلَ فَرَدَهُ
 «وَقَدْ» رَسَمًا فَوْقَ السَّمَاءِ كَيْنَ مَجْدُهُ
 لَهَا وَ «تَدَانِي» مِنْ نَوَالِكِ رَغْدُهُ
 حَمَى «جُودُهُ» ذَمُّ الْمُهَلَّبِ أَرْزُهُ
 إِذَا مَا تَنَاضَى «لِلْعُنَالِ» مِمْدَهُ
 وَيَحْكُ «مِثْلُ الْأَمْرِ» وَالتَّهْيِ وَجْدَهُ
 عِدَالَةٌ فِي «الْأَحْكَامِ» قَدْ بَانَ رَشْدُهُ
 (حِلَالُهُ) كَمَا أَخَى الْمُهَنْدِ غَمْدُهُ
 خَفَتِ (لَقَدْ تَدَنَى) مَعِ السَّرْحِ أَسْدُهُ
 ع (لَا هُنَّ كُلُّ) الْوَصْفِ غِنَاهَا وَجْهُهُ
 يُوَدُّ الْعِلَالَ (حِينَ) وَحِينًا تَوَدُّهُ
 وَ (تَهْدِي إِلَى) الرُّشْدِ الْمُبِينِ أَلَدَّهُ
 فَسَاعَةُ (إِذْ يَجْلِي) جَلِي الْكُفْرِ حَذُّهُ
 خَفَاكَ بِهِ مِنْ مَوْءُجِ الْقَهْرِ نُكْدُهُ
 وَ «لَمَّا بَدَتْ» لِلدِّينِ أُتْبِجَزَ وَعَدُّهُ
 فَجَلَّتْ «سَعُودُهُ» نَّ الْمَلِكِ عَضْدُهُ
 فَنُورُ سَنَاهُ «فِي اقْتِبَالِ» وَسَعْدُهُ
 بِمَا لَيْسَ فِي إِيَّاهُ (كَانَهَا) وَمَعْدُهُ

وفي منتهاك «الأشرف» الأصل للورى
 ويُمناك يوم الجود «ترب الحيا» اغتدت
 لك المرفه السفاح بالفتح (مثنى)
 وجمعت شتى الجود (فى وتر) راحة
 فكم كامل (الأوصاف والذات ماجد)
 على (يمين قل) تها غير حانث
 فقد عز فى الدنيا (له المثل) فى العلى
 وأين المسامى (والمضاهى) بحادة
 كريم المسامى حافظ الدين و«الهدى
 فى الفخرأضحى» الفضل والمجد طبعه
 ومحتمده السامى «الكريم» نجاره
 فشتى «الخلال» الغر جمع عنده
 ودونك يا مولاي حسناء عادة
 مُرنحة الأعطاف تلعب بالنهى
 هدية عبد مخلص لك قلبه
 فالفاظها تحكى جُمان دُموعه

دليل يحوز (الشفع) فى المجد فردُه
 ألا (فهى) أقسامُ السباح وحده
 مع العلم الموعود بالنصر جُنده
 و«غيث الندى» منها قد انهل عهده
 إلى ذلك «الهامى العميم» مرده
 لجودك تنظيم «النوال» ونضده
 فما «يوسف ا» لا الحيا طاب ورده
 «لناصر دين» الله والمجد مجده
 ذو «الأنعام والفضل المبجل» عَقْدُه
 و(فى الدهر) أسمى ليس يُوجد نده
 يماثله (فى رفعة) القدر بنده
 بما حاز من علم (ودين) يمدّه
 مهذبة كالدر نظم عَقْدُه
 قنسى الحجا طورا وطورا ترُدّه

[٨٧]

قال جامع هذا التصنيف : أشار الرئيس أبو يحيى بهذا الشطر الأخير إلى
 الكاغد الأصفر الذى كانت فيه هذه القصيدة مكتوبة ، ثم قال :

وأنقاسها من كل لون غريها وترتيبها من ذاته يستتعه
 فأكلها من مقلتي أستميحه وأحمرها من أدمعى أستتمده

وأخضرها من طيب عيشي الذي مَضَى لديك وأرجو بالرضا تسترده^(١)
 وأعجب شيء أنها بكر فكرتي وما بلغت معشار شهر نعهده
 وقد ولدت بنتين ثنتين مثلها يروك من معناها ما توده
 وكلتاها قد جُرّدت من نظامها موشحة كالسيف راق فرنده
 نخذا فقيها للتواظر مَسْرَح ومن مدحك^(٢) الحسن الذي تستمده
 بقيت كما تهواه ما هبّت الصبا فمالت بها بان العذيب ورّده
 انتهت القصيدة الفريدة ، وهأنا أذكر البنّتين اللتين ولدت ، ثم أذكر
 ما ولدت كل واحدة منهما بحول الله وقوته .

فأما القصيدة الخارجة من المكتوب بالأخضر [فهذا نصها ، وتوشيحها
 ينتظم من المكتوب فيها بالأخضر]^(٣) وهي هذه :

(تنأثر الدمع) من جفوني (كالدر) من سلّكه الشين
 (مُذْ أعوز الوصل) والتسلاق (من بدر) حسن بلا قرين
 (علقت في الحب) ظبي أنس (جماله) صرّع العيون
 (وحل في القلب) عن كناس (فماله) يستبيح ديني
 (يحكم بالنهب) في فؤادي (إذ ناله) نهبه العرين
 (أهكذا الشرع) في المعنى (المذرى) والحكم بالظنون
 (يحلل القتل) منه ظلما (بالهجر) والصّد والفتون
 (مالى سوى مدحى) ابن نصر (بدر الهدى) المشرق الجبين
 (ذا الحلم والصفح) والمعالي (غيث الندى) الواكف المhton

(١) في ت : « نستمده » .

(٢) في ط : « مدحها » .

(٣) زيادة عن ت .

[٨٨]

(قد جاز في السمح) وَالْأَيَادِي (سبق المدي) دَائِمُ السَّكُونِ
(وقصده الجمع) بَيْنَ بَكْرٍ (للفخر) فِي دَهْرِهِ وَعُورٍ
(وشأنه البذل) لِلْعَطَايَا (كالبحر) فِي جُودِهِ الْمَعِينِ
(نال من المجد) كُلَّ طَبْعٍ (وصف العلا) فِيهِ ذُو فَنُونٍ
(وسور المجد) مِنْ حِلَاةٍ (لقد تلا) هُنَّ كُلَّ حِينٍ
(تهدي إلى الرشد) إِذْ تُجَلَّى (تلك الحلي) فَاحْمَ الدُّجُونِ
(كأنها الشفع) فَبَيَّ مَثْنَى (في وتر) الْأَوْصَافِ وَالْيَمِينِ
(قل لها المثل) وَالْمُضَاهِي (في الدهر) فِي رِفْعَةٍ وَدِينِ

انتهت البنت الخضراء ، وهذا نص بنتها الموشحة ، المستخرجة من الأخضر :

الموشحة الأولى

تَنَاسَرَ الدَّمْعُ ، كَالدَّرِّ مُذْ أَعُوزَ الْوَصْلُ ، مِنْ بَدْرِ
عَلِمْتُ فِي الْحُبِّ جَمَالَهُ
وَحَلَّ فِي الْقَلْبِ فَمَالَهُ
إِذْ نَالَهُ إِذْ نَالَهُ
يَحْكُمُ بِالنَّهْبِ يُحْلِلُ الْقَتْلَ ، بِالْهَجْرِ
أَهْكَذَا الشَّرْعُ ، الْعُذْرِي مَالِي سِوَى مَدْحِي
بَدَرَ الْهُمْدَى غَيْثَ النَّدَى
سَبَقَ الْمَدَى قَدْ جَازَ فِي السَّمْحِ
وَقَصْدُهُ الْجَمْعُ ، لِلْفَخْرِ نَالَ مِنَ الْمَجْدِ
وَسُورَ الْمَجْدِ تَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ
كَأَنَّهَا الشَّفْعُ ، فِي وَتْرِ قَلَّ لَهَا الْمَثَلُ ، فِي الدَّهْرِ

[انتهت .

ويمكن أن تستخرج باختصار هكذا] ^(١):

تنثر الدمعُ ، مُذْ أعوزَ الوصلُ
عَلِمْتُ في الحبِّ ، وَحَلَّ بالقلبِ ، يحكم بالنهبِ
أهكذا الشرعُ ، يُحَلِّلُ القتلُ ؟
مالي سوى مدحى ، ذا الحلم والصفحِ ، قد حاز في السَّح
وقصده الجمعُ ، وشأنه البذلُ
له من المجدِ ، وسُورِ الحدِّ ، تهدي إلى الرشـدِ
كأنها الشفعُ ، قلَّ لها المثلُ
انتهت .

[١٨٩]

وأما البنت الحمراء فهي الخارجة من المكتوب بالأحمر ، وتوشيحها ينتظم من المكتوب فيها بالأحمر ، وهذا نصها :

« ما كنتُ لو أنصف » بعد المطال	« أَصْلَى لَطَى الوجدِ الأليم » النكال
« كالقمر الزاهي » في نُوره	« عليه كالليل البهيم » الدلال
« مستحسن القد » ذكى الشذا	« كالليل فرعا والقنا » في اعتدال
« مُورَّدُ الخد » شهيّ اللَّمى	« في نَمِّهِ كلُّ المُنَى » لو يُنَال
« كَأَنَّ للشَّهْد » وما ذقته	« رضابه العذب الجنى » في المثال
« ولحظه الأوصف » مع سُقمه	« أسهرُ منه كالسليم » الليال
« وحُسْنُه الباهرُ » مهما بدا	« لمقلتي منه نعيمُ » الوصال
« خَلَّ الهوى وامدح » إمام الورى	« قطب المعالي والهدى » والكَمال

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت .

« طَوَّدَ الْحِجَا الْأَرْجَحَ » سَرَّ الْعَلَى
 « نَوَّالُهُ يَشْرَحُ » لِمَعْتَمِدِي
 « لَسِيْفُهُ الْمَرْهَفِ » يَوْمَ الْوَعَى
 « فَيَتْرُكُ الْكَافِرَ » رَهْنُ الْفَنَّا
 « مُرَفِّعُ الْقَدْرِ » غَرِيزُ الْحِمَى
 « مُمَثِّلُ الْأَمْرِ » وَالْأَحْكَامِ قَدْ
 « وَخُصَّ بِالنَّصْرِ » عَلَى مَنْ بَغَى
 « الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ » تَرَبُّبُ الْحَيَا
 « يَوْسُفُ النَّاصِرُ » دِينَ الْهُدَى
 « مَعْنَى السَّمَاحِ وَالنَّدَى » وَالْجَلَالِ
 « فَعَلَ ظُبَاهُ بِالْعِدَا » فِي الْقِتَالِ
 « أَضْحَى الْحِمَامِ كَالْحَمِيمِ » الْمَوَالِ
 « وَقَدْ غَدَا مِثْلَ الْهَشِيمِ » الضَّلَالِ
 « وَقَدْ تَدَاوَى جُودُهُ » لِلْمَنَالِ
 « حَمَى الْهُدَى وَجُودُهُ » أَنَّ يُنَالِ
 « لَمَّا بَدَتْ سَعُودُهُ » فِي اقْتِبَالِ
 « غِيثُ النَّدَى الْهَامِي الْعَمِيمِ » النَّوَالِ
 « ذَوَالْفَضْلِ وَالْمَجْدِ الْكَرِيمِ » الْخِلَالِ
 انتهت البنت الحمراء .

وهذا نص مَوْشَّحَتِهَا ، وهى بنتها ، الخارجة منها من المكتوب بالأحمر :

الموشحة الثانية

مَا كُنْتُ لَوْ أَنْصَفُ أَصْلَى لَطَى الْوَجْدِ الْأَلِيمُ
 كَالْقَمَرِ الزَاهِي عَلَيْهِ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ

مُسْتَحْسِنُ الْقَدِّ كَاللَّيْلِ فَرَعًا وَالْقَنَا
 مُورِدُ الْخَدِّ فِي لُتْمِهِ كُلُّ الْمُنَى
 كَأَنَّ لِلشَّهَادَةِ رِضَابَهُ الْعَذْبَ الْجَنَى

وَلَحَظْهُ الْأَوْطَفُ أَسْبَهَرُ مِنْهُ كَالسَّلِيمِ
 وَحَسَنُهُ الْبَاهِرُ لَمَقَاتِي مِنْهُ نَعِيمِ

خَلَّ الهوى وَاَمَدَحَ قطب المعالي والهدى
طَوَدَ الحِجَا الأَرْجَحَ معنى السَّاحِ والنَّدى
نَوَالُهُ يَشْرَحُ فعلَ ظُبَاهِ بالعَدَا

لَسِيفُهُ المَرْهَفُ أضْحَى الحِمَامِ كَالْحَمِيمِ
فِي—تَرَكِ الكَافِرِ وَقَدْ غَدَا مِثْلَ المَهِشِمِ

مُرْفَعُ القَدْرِ وَقَدْ تَدَانَى جُودُهُ
مُمَثِّلُ الأَمْرِ حَمَى الهُدَى وَجُودُهُ
وَحُصْنُ النَصْرِ لَمَّا بَدَتْ سَعُودُهُ

الْمَلِكُ الأَشْرَفُ غِيثُ النَّدَى الهَامِي العَمِيمِ
يُوسُفُ النَّاصِرِ ذُو الفَضْلِ والمَجْدِ الكَرِيمِ

ويمكن اختصارها أيضاً هكذا :

مَا كُنْتُ لَوْ أَنْصَفُ ، كَالْقَمَرِ الزَّاهِرِ
مُسْتَحْسِنُ القَدِّ ، مُورِدُ الخَدِّ ، كَأَنَّ الشَّهَدَ
وَلَحْظُهُ الأَوْطَفُ ، وَحُسْنُهُ البَاهِرُ
خَلَّ الهَوَى وَامَدَحَ ، طَوَدَ الحِجَا الأَرْجَحَ ، نَوَالُهُ يَشْرَحُ
لَسِيفُهُ المَرْهَفُ ، فَيَتَرَكِ الكَافِرُ
مُرْفَعُ القَدْرِ ، مُمَثِّلُ الأَمْرِ ، وَحُصْنُ النَصْرِ
الْمَلِكُ الأَشْرَفُ ، يُوسُفُ النَّاصِرُ

قلت : وإنما لم أجزم بهذه المختصرة لأجل أن الناظم صرح بأن كل واحدة من البنيتين الحمراء والخضراء لم تلد إلا موشحة واحدة من البنيتين ، ولو ولدت موشحتين لصرح بذلك ، ولا شك أن الموشحة غير المختصرة أتم معنى ، وأكمل مساقاً ، فالأصوب الاختصار عليها ، وإن كان يمكن استخراج أكثر منها لمن تأمل حق التأمل ، والله تعالى أعلم .

وعلى كل حال فقد أبدع هذا الرئيس في هذه القصيدة ، وإن كان فيها بعض تكلف ، وقصده أبدع من قصد صاحب عنوان الشرف الشامي^(١) . لأن هذا أخرج من الخارج شيئين^(٢) على ما لا يخفى ، غير أن صاحب عنوان الشرف أطال ، واستخرج أربعة علوم متباينة ، من أول وهلة ، وكلاهما قد أبدع رحمه الله ؛ ولم أتحقق : هل وقف ابن عاصم على كتاب عنوان الشرف ، فاهتدى بأضوائه أم لا ؟ والله تعالى أعلم .

موازنة بين ابن عاصم وصاحب عنوان الشرف الشامي

ومن كتاب جنة الرضى له رحمه الله ما نصه^(٣) :

مختار من كتابه جنة الرضى

« الحمد لله الذى عَوَّضَ من الخلافِ وفاقاً ، وأعقبَ من الافتراقِ اجتماعاً واتفاقاً ، وهياً لأسواقِ الائتلافِ برفعِ الخلافِ^(٤) ، نفقاً ، ويسرَ لوطنِ الجهادِ^(٥) من توثيرِ المهادِ أرفاقاً ، وزينَ بأنجمِ المسعودِ من النصرِ الموعودِ آفاقاً ، وعقدَ على جمعِ الكلمةِ من الأمةِ المسالمةِ إجماعاً وإصفاقاً . نحمدُه سبحانه وهو الحمودُ بجميعِ اللغاتِ ،

(١) كذا في الأصلين . واسم الكتاب : « عنوان الشرف الوافى ، في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافى » ، وهو لـشرف الدين بن المقرئ إسماعيل بن أبي بكر النجنى ، المتوفى سنة ٨٣٧ هـ . (انظر كشف الظنون) .

(٢) في ط : « أشياء أخر » .

(٣) العبارة « له رحمه الله ما نصه » : ساقطة في ت .

(٤) في ت : « الاختلاف » .

(٥) في ت : « الاجتماع » .

ونشكره على ماسّنى من آمال على وَفْقِ الأُمْنِيَةِ مُبْلَغَاتٍ ، وَنُثْنِي عليه بما أَسَدَى من عوارِفَ مُخَوَّلَاتٍ ، ومواهبَ مُسَوَّغَاتٍ ؛ حمدا نستكثر من دُرره النفيسة إِنْشَاقًا ، وأمانته العظيمة فلا نأبى من حَمَلِهَا إِنْشَاقًا ؛ ونشهد أنه الله ^(١) لا إله إلا هو الواحد الأحد ، الفرد الصّمد ، الذى لم يلد ولم يُولَدْ ولم يكن له كُفْوًا أحد ؛ شهادة نرفع لواءها المرنج ^(٢) العَذَبَاتِ خَفَاقًا ، فلا لاقى بعد هذه الشهادة لمقاصد السعادة إِنْخَافًا ^(٣) ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، ونبيه المصطفى وخليفه ؛ نبي الرحمة ، ونور الظُّلُمَةِ ، وشفيع الأُمَمَةِ ، والمبعوث بالكتاب والحِكمه ، والجموع له بَيْنَ مزية السبق ومزية القتمة ؛ شهادة تستحفظ بقاع الأرض أَرْفَاقًا ، فلا تخشى معها القلوب ، وقد حصل منها الغرض المطلوب ، [٩٢] شُكَّا وَلَا نِفَاقًا ؛ ونصلى على النبي الكريم ، المبعوث بالخلق العظيم ؛ صلاة نَحُلُّ بها من عُقَلَةِ الذِّكْرِ وَثَاقًا ، ونؤكد بها القبول إذا عارض العمل المقبول مِثَاقًا ؛ ونَرْضَى عن آل محمد وصحبه ، وعشيرته وحزبه ، المختصين بقربه ، الفائزين بالرضا من ربه ؛ أكرم الناس أَعْرَاقًا ، وأعظمهم من خشية الله إِطْرَاقًا ، وأبهرهم فى مقامات الهداية إِشْرَاقًا ؛ ونستوهب منه التأييد والنصر ، والفتح الذى تقوت عجائبه الحضر ، والمَنَحَ الذى لا تعرف صَلَاتُهُ صَلَاتِهِ الْقَصْر ؛ لهذه الخِلافة الغالبية ، التى أطبقت على الإغضاء أجداقًا ، وأظهرت من الحلم لما كان من مكنون العلم صِدَاقًا ؛ ونبتهل إلى الله فى دوام أيامها ، وإِعْلَاءِ أعلامها ، وإِمضاء ذابِلِهَا المَرهوب وحُسامها ؛ حتى يتنفس الإسلام خِنَاقًا ، وتسير بها الرِّفَاق ، وقد تهافتها الآفاق ، وَخُدًّا وإِعْنَاقًا ، وتخضع لها الجبابرة ، والملوك القياصرة ، رقابا وأعناقًا ؛ ونمد إليه

(١) فى ط : « الذى » .

(٢) فى ط : « المترنج » .

(٣) هذه العبارة ، من قوله : « فلا لاقى » إلى قوله : « إِنْخَافًا » ساقطة فى ت .

يَدَ الافتقار ، ونبسط كف الضراعة والاضطرار ؛ في كفّ الفتن ، عن هذا الوطن ؛
وكف الكفار ، عن هذه الديار ؛ وتيسير الفرج القريب ، لهذا القطر الغريب ؛
وتسهيل الصعب العسير ، لهذا الصقع النائي عن الولي والنصير ؛ فيجمع بين ^(١)
القلوب النافره ، والنفوس المتنافره ، افتراقاً ؛ ويجعل دم العُداة بسيوف الحُماة
السكامة مُراقاً ؛ ويُتجف بأنبيائه المعجبه ، وأخباره المغربة المطربة ، شاماً وعراقاً .

أما بعد ، فإن الله على كل شيء قدير ، وإنه بعباده خبير بصير ، وهو لمن
أهل نيته ، وأخلص طويته ، نعم المولى ونعم النصير ؛ بيده الرفع والخفض ،
والبسط والقبض ؛ والرشدُ والغنى ، والنشر والطحى ؛ والمنح والمنع ، والضر والنفع ؛
والبطء والعجل ، والرزق والأجل ؛ والمسرّة والمساءه ، والإحسان والإساءه ؛ [٩٣]
والإدراك والقوّت ، والحياة والموت ؛ فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ،
فهو الفاعل في ^(٢) الحقيقة ، وتعالى الله عما يقول الآفكون ، وهو السكفيل بأن
يُظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ؛ وإن في أحوال الوقت الداهية ،
لذِكْرَى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعِبْرَةٌ لمن تفهم قوله تعالى :
إن الله يفعل ما يشاء ، وإن الله يحكم ما يريد ؛ فبينما الدُسُوت عامره ، والوُلاة
آسره ؛ والفئة مجموعته ، والدعوة مسموعه ؛ والإمرة مُطاعه ، والأجوبة سماعه
وطاعه ؛ إذا بالنعمة قد كُفِرت ، والذمة قد خُفِرت .

ثم قال رحمه الله :

« والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمره إلاّ خيراً ، جعلنا الله ممن
قضى بخيره ؛ وبينما الفرقة حاصله ، والقطيعة فاصله ، والمضرة واصله ؛ والحبل

(١) في ت : « به من » .

(٢) في ط : « على » .

في انبتات ، والوطن في شتات ، والخلاف يمنع رعى ممتات ^(١) ، والقلوب شتى من قوم أشتات ؛ والطاغية يتمطى لقضم الوطن وقضمه ، ويلحظه لحظاً الخائف على هضمه والأخذ بكظمه ، ويتوقع الحسرة ^(٢) إن يأذن الله بجمع شمله ونظمه ، على رغم الشيطان ورغمه ؛ إذا بالقلوب قد ائتلفت ، والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله قد ابتهلت ، في إصلاح الحالة التي سلفت ؛ فألقت الحرب أوزارها ، وأدنت الفرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها أعذارها ، وأرضت الخلافة الفلانية ^(٣) أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة ^(٤) أبصارها ، وأصلح الله أسرارها ؛ فتجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة ^(٥) الفلانية يد التسليم والضراعة ؛ فتقبّلت فيئاتهم ، وأُخمدت جيئاتهم ؛ وأسعدت آمالهم ، وارْتَضيت أعمالهم ؛ وكُمّلت ^(٦) مطالبهم ، وتمّت ما ربههم ؛ وقضيت حاجاتهم ، واستمّعت مناجاتهم ؛ وألستهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم في الخلوص قد صدّقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت ، وأكفّهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة في الوقت على عدوّ الدين قد ظهرت وبرّقت .

[٩٤]

(١) الثبات (بفتح الميم) : ما يتوسل به من حرمة أو قرابة أو نحو ذلك .

(٢) في ت : « المسرة » .

(٣) يريد خلافة الغالب بالله صاحب غرناطة ، وقد سبق التصريح بذلك .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « المعترضة » .

(٥) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الأمانة » .

(٦) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « وقلت » .

إلى أن قال رحمه الله تعالى :

[وكَفَّتْ^(١) ، بقدرة ربه ، القدرة القاهرة^(٢) ، والعِزة الباهرة ، من عدوان الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فوائح وأوائل .
ومعلوم بالضرورة أن الله لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ، وإن تُعدّوا نعمة الله لا تحصوها دليل على ما سَوَّغَ الكرم والجود ؛ وإن من أعظم نعمه التي يُعْجِزُ عن أداء شكرها ، وإن طالت آماد الأعمار ، ويُتناغى في الثناء عليه في أمرها ، فلا يبلغون من ذلك معشار المعشار ، وتجارى الألسنة والأقلام في تقرير وصفها ، فلا تصل من ذلك إلى حد يُقْنَع ولا إلى مقدار ؛ وفي مثلها قال الله تعالى]^(٣) : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فأثف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار » . وما ذلك إلا مِنَّةٌ قدرها عظيم ، وخطرُها جسيم ، وصراط العدل بها مستقيم ، وبها أمتن الله في قوله : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله » إلى : « حكيم » .
فهل يُستطاع شكرُ النعمة التي لا يكون إنفاق الأرض جميعا لها قيمه ، أو يختلف اثنان بوجه أو حال في كون هذه النعمة عظيمة ، أو يتأرى أحدٌ في كون جمع الكلمة في هذا الوطن الغريب مِنَّةً كبيرة ومنحة كريمة !

ومن استقرأ التواريخ المنصوصه ، وأخبار الملوك المقصوصه ؛ علم أن النصارى دمرهم الله لم يدركوا في المسلمين نارا ، ولم يرفعوا^(٤) عن أنفسهم عارا .

(١) كفت : صرفت ومنعت .

(٢) في نفح الطيب : « وكفت القدرة القاهرة » .

(٣) ما بين القوسين زيادة عن ت .

(٤) فيما مر من هذا الجزء (ص ٥٠) : « ولم يرفعوا » .

قال جامع الموضوع وفقه الله :

قد قدّمتُ هذا من كلام الرئيس ابن عاصم ، وهو قوله : « ومن استقرأ التواريخ المنصوصة » فراجعها فيما سبق ، إلى قوله هناك : « وروية وارتجال » .
ثم قال هنا بآثره ما نصه :

« إلى أن استقلت هذه الدولة الفلانية على قواعدها ، واستقرت بأحلامها الراجحة ، وأعلامها الشاخحة ؛ واستمرت على قوانين من السياسة كانت ضابطةً نشر المملكة عن الافتراق ، واستظهرت أبنائها الغر من الوفاء بشيمٍ اعتلت بها أتم الاعتلاق ؛ حفظ الله الدولة الفلانية إلا في الثُدره ، ووقاها من ذلك الأمر الصعب بوقاية من الإكتساب ووقاية من القدره ؛ وتناولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة » . [٩٠]

وقال جامع الموضوع وفقه الله : راجع تمام هذا الكلام فيما قدمناه إلى قوله هنالك : « اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين » .
وقال هنا بآثره ما نصه :

« وإِنما النعمة التي لا يُقدَّر قدرُها ، ولا يُوفَّى شكرُها ؛ هي التي تكفَلتُ بتبيينها تكييفات [الأقدار ، وانجلت عن بيانها تديبرات الفاعل المختار ؛ فجمع الله بها القلوب ، وهياً^(١) الغرض المطلوب ؛ وتتابع بيعاتُ البلاد ، وتوافقت أهواء العباد ؛ وانتظم الملك جسماً واحداً له روح طاهر ، واستقل الإسلام رسماً ثابتاً حكمه نصّ وعدله ظاهر ؛ وهدى الله المسلمين مع جمع الكلمة إلى القصد الشرعي ، ووقفهم إلى القيام بحكمه المحتوم وحقه المرعي ؛ فاتخاذُ السلطان في [مثل^(١)]

هذه الأوطان واجب قياساً وسماعاً، وتعذرُ الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز إجماعاً .
أيها الملاء المشتمل على الشرفاء الذين بتقديمهم [يُسْتَجَز من البركة
موعودُها ، والعلماء الذين هم حَفَظَةُ الشريعة الحنيفية^(١) أن تُتَعَدَّى حدودُها ؛
والأشياخ الذين بجهادهم استقرَّ واجبها^(٢) ، واستقام واجبها ، واستند عمودها ،
والقواد الذين بحمايتهم^(٣) تقام أحكامها ، وتُحَاط أعلامُها ، وتُوَفَّى عهودُها ؛
والفرسان الذين هم حُمَاتُهَا وأنجادُها ، وأنصارُها وجنودُها ؛ والخاصة الذين بهم
يرجح عملها ، وينجح أَمَلُها ، ويتم مقصودُها :

تعلمون حقاً أن هذا الوطن الفلاني كان قد تَعَيَّنَ للهلاك ، بسبب هذا الخلاف ،
وتوقعت القلوب المُشْفِقة حُدُوثَ الفارقة بسبب هذا الاختلاف ؛ وأن الشارع
صلواتُ الله وسلامه عليه يَمْنَع من كل ما يؤدي إلى الفُرقة بأتم الوجوه ، ويؤكد
الترغيب والترهيب بكل ما يخافه المؤمن ويرجوه ؛ وأن الفقه^(٥) المذهبي ، إذا [٩٦]
حصلت البيعة في الأعناق ، وتحملت بها تحلَّى الحَمَام بالأطواق ، معروف ومعلوم ؛
وأن اشتداده في سدِّ باب الافتراق ، على العموم والإطلاق ، لازم محتوم ؛
والأقذار الإلهية قد هيأت قصد الألفه ، بلا كُلفه ؛ ويسرت سبب الاتفاق ،
بحكم الوفاق ؛ فأقبلوها نعمة مُسَدَّاه ، وتحفة مُهْدَاه ؛ وشُدُّوا عليها أيدي الضَّئنه ،
واعلموا ما فيها لله عليكم من المنه ؛ وتعاهدوا على ألا تُبْقُوا من الخلاف أثراً ،
واتفقوا على القصد الذي يخلصكم عند الله سمعاً ونظراً ؛ وفي هذا التيسير الذي
ساعدت به الألفاظ الخفيفة ، وساعفت به من قبل الرب الصنائع الخفية ؛ ما يتأكد

(١) في ت : « حفظ الشريعة الحنيفة » . وظاهر أنه محرف عما أثبتناه .

(٢) استقر واجبها : سكن روعها بعد اضطراب .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) تعين ، أي تهلّل وتمزق ؛ مأخوذ من تعين السقاء ، وذلك إذا بلى ورق منه مواضع .

(٥) في ط : « العقد » .

به الاعتبار ، ويرشد إلى أنه أراد الله نفوذه ^(١) ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .
ومما يستكمل هذا القصد الذى أشرنا إليه ويستوفيه ، قول تاج الدين رحمة الله
عليه : ما ترك من الجمل شيئاً مَنْ أراد أن يُظهِر في الوجود غير ما أراد الله أن
يُظهِر فيه .

وَقَرَضَ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي نَفْسِهِ مَا طَلِبَهُ [به] ^(٢) الشارع ، وَعَذَّبَتْ فِيهِ
بِالتَّفْوِيزِ لِحُكْمِ اللَّهِ ^(٣) المَشارِعَ . فالواجب علينا أن نجتمع ونأتلف ، ونتفق ولا
نختلف ؛ ونعتمد صريح الفقه أخذاً وتركاً ، ونتبع صحيح النقل الذى لا يدع رَيْباً
ولا شكاً ؛ ونسأل من الله الهداية إلى سبيل السلف الذين سَبَقُوا ، ونعزم العزم على
أمر الله في قوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

وإن أولى الناس في ذلك بإرهاد العزيمة ، وتوخي السبل المستقيمة ؛
والقيام بمضمون هذا الرسم المستقل ، والوفاء بتكميل قَصْدِ الكاتب فيه والمُعل ؛
لِخَوَاصِّ الدَّوْلَةِ الفَلَانِيَةِ الَّذِينَ لِحَقِّهِمُ التَّحْيِصُ والاختبار ، وتحوَّلَتِهم بأبلغ الموعظة [٩٧]
الْأَقْصَى والأقدار ؛ وهم الذين ربحت منهم في هذه السوق التجاره ، والمقصودون
بالخطاب من باب إِيَّاكَ أَعْنَى واسمى يا جاره ؛ وهم الممنون عليهم باسترجاع
المَغْصُوبِ الْمُسْتَحَقِّ ، والواقفون من انكسار القلوب ، والتنصل من الذنوب ،
موقف الأولي به والأحق ؛ والمَعْنِيُونَ بقوله : « ألم يأنِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ لذكر الله وما نَزَّلَ من الحق » . ويختص منهم عماد الدولة ، وعميد الجُمْلَةِ ،
بالحظ الأوفر ، مما يتضمّنه هذا التأنيب ؛ ويستمنح من الله عَقِبَ التذكرة ، بهذه
الموعظة : « وما يتذكر إلّا من يُنِيب » .

(١) في ت : « لإنفاذ نفوذه » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) في ت : « لحكمه » .

فإنا إذا نظرنا إلى ما كان قد طرّق من الابتلاء ، وشاهدنا ما كان مُعَرَّضا
للووقوع من البلاء ؛ وراجعنا البصيرة في النعم التي كنا عنها مَسْلُوبين ^(١) ، والثَّربَة ^(٢)
التي كنّا عليها مغلوبين ، والأبواب التي كنا عنها مَحْجُوبين ، والشَّرْذِمَة التي
كنا بها مَرْبُوبين ، [والأنفال] ^(٣) التي كنّا في عَدَد مَنْ يُحْبِي رُسُومَهَا مَحْسُوبين ؛
وقد سَلَطَ اللهُ علينا كثيرا من الظَّلمَة الذين أَعْتَمَهُمْ ، فعند ذلك لَعَنّاهُمْ ، وأهاننا
الذين كُنّا أكرمناهم ، جزاء لما احترمناهم ؛ فَنَسُونَا ، أحوج ما كنا إلى أن
يذكرونا ، وخذلونا ، أَقْفَرَ ما كنا إلى أن ينصرونا ، وأسلمونا ، أشد ما كنا فاقَة
إلى أن يُنْجِدُونَا ، وتركونا ، أعْظَمَ ما كنّا حاجةً إلى أن يُسْعِدُونَا ؛ وخانونا ، أظهر
ما كنا اضطرارا إلى وفائهم ، وظاهروا علينا ، أتم ما كنا افتقارا إلى غنائهم ؛
فلا شك أن المؤاخذه كانت بسبب تلك الذنوب ، وأن الجناية هي التي أوجبت
ما طرّقنا من الخطوب ؛ فأزف العذاب ، وعاد من أعدى الأعداء الأحاب ،
وتبرأ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا وتقطعت بهم الأسباب ؛ وكادت العقوبة
العظيمة أن تَلْحَقَ ، والأخذة الربانية أن تَمَحَقَ ؛ لولا أن الله تداركنا بالعفو ،
وتجاوز عن الهُتُو ؛ وأنالكم من الإدالة ما كنتم تؤمّلون ، واستخلفكم في الأرض
ليمنظر كيف تعملون . فلنَجْعَلْ ما وعظنا الله به من تلك الأزمات نُصَبَ الأعين ،
ولنتخذ حمده على ما منحنا من الإنالة ^(٤) هَجِيرِ الألسن ^(٥) ؛ ولنعلم أن ذلك التمهيص
إنما كان تنبيهاً من الله على ما عطلّنا من حُدُوده ، وإيقاظاً من الغفلة عن القيام
بمحقوقه ، والوفاء بعهوده ؛ ولنتحقق أن ما مَنَّ الله به من جَبَرِ الأحوال ، وخَلَفَ

(١) في ط : « مَسْلُوبين » .

(٢) في ط : « الرتبة » .

(٣) زيادة عن ت :

(٤) في ط : « الإقالة » .

(٥) هجير الألسن ، أي دأبها وشأنها .

الأموال ؛ واستقبال العز غصاً جديداً ، وصرف الهون وقد كان عذاباً شديداً ؛ إنما هو إبلاغ في الحجة علينا ، وإعذار بالموعظة إلينا ؛ وربما عاهدنا الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، ولننزعن عما ارتكبنه من جرائم العاصين وجرائم الطالحين ؛ فالوفاء الوفاء حتماً [إن أردنا] ^(١) أن نكون من المفلحين . وقلماً ^(٢) أرف العذاب فرُفع إلا عن كان من المصلحين ، « فلولاً كانت قرية آمنت » إلى قوله : « إلى حين » ؛ فلنقدّر [قدر] ^(٣) هذا التدارك ، الذى أخذ بأيدينا من مهاوى الانتقام ، ولنتأمل موقع هذا البلاء الذى أحلنا من تجديد النعمة بأسنى مقام ؛ ولنحذر نسيان ما ذُكرنا به ، فلم نذكر تلك الشدائد بل نسيناها ، ولا نفرح بما أوتينا [فرح] ^(٤) المغرور الذى لا يتراجع ولا يتناهى ؛ فإن فى ذلك أمل الشيطان وسؤله ، ولعن الله ومقته ، قال الله تعالى : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » إلى قوله : « بغته » .

اللهم هل بلغت ، وبالغت فى النصيح وأبلغت ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد . [٩٩] و « يا قوم إن كان كبرُ عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت » ، وإليه أبرأ من حولى وتقصيرى عما فيه قصرت ، وعما عنه نكلت » .
ثم قال رحمه الله :

« وإن مولانا السلطان الملك الفاضل التالى الذاك ، العفيف الطاهر ، المسترجع الصابر ، المجاهد المصابر ، الرابط المشاعر ^(٣) ؛ أمير المسلمين ابن نصر الخزرجى نسباً ، السعدى ^(٤) منشأ ، النصرى جدا وأبا ؛ أيده الله على أعداء الدين ، وجعله

(١) زيادة عن ت .

(٢) فى ط : « وربما » .

(٣) المشاعر ، من الشغار ، وهو (هنا) : المعاونة فى الحرب .

(٤) السعدى : نسبة إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وإليه ينتهى نسب بنى الأحرار ملوك غرناطة .

من الأئمة المهتدين ؛ ممن إذا جُنِيَ عليه غُفِر ، لِعِلْمنا به أنه حلِيم والله آخِذ بيده
 كلما عَثَرَ ؛ فأرشدنا بذلك إلى أنه كريم ؛ ومَن تطرَّقه الخطوب ، وهو بالأنطاف
 مصحوب ، وتُحَدِّق إليه النواثب وهو من نظرها الشَّرُّر محجوب ؛ ومَن جمع له
 الناس على أن يخشاهم فزاده إيماناً ، وقال : حسبى الله ونعم الوكيل ، فانقلب بفضل
 من الله ونعمه ، وممن صبر واسترجع في نقص الأموال والأنفس والثمرات ،
 [فبشِّر] ^(١) بصلوات من ربه ورحمه ؛ قبالات على أذيتِه أصناف من الناس
 في سرِّات متعدده ، وآناء من الدهر متجدده ؛ فاتعس الله جدودهم ، وأضرع إليه
 خدودهم ، وأرغم بحوِّله وقُوَّته أنوفهم ، وردَّ عنه بسيف ^(٢) من الأقدار رماحهم
 وسيوفهم ، وأدنى لهم بأسباب مختلفة الأنواع حُتُوفهم : فَمِن آمِنٍ أَخِذَ من مَأْمَنه
 الذى كان يستند إليه ، ومِن خائف قد أدهشه الرَّوْع فهو يحسب كل صيحة
 عليه ؛ فكانَ ألسنة الأقدار تنهّاهم عن منازعة الإرادة ، وكانَ واعظ الاعتبار
 يحذِّرهم من شقائهم الكفيل له بالسعادة ؛ وكانَ شاهد الحال يقول هذه إرادة
 الله قضاها ، وسنَّته السابقة أنفذها وأمضاها ؛ فَمِن المنازعُ فيما حكم الله به وقضى ،
 [١٠٠] وَمِن الساخط في الحل الذى يطلب فيه من الله الرضا ؟ ولو كان استيلاؤه على
 المُلك بقوة عصبِيَّه ، وإهلاك مناوئِه عن طبيعة غضبيَّه ؛ لارتاب في ذلك الناظر ،
 ووجد السبيلَ إلى الاحتجاج المُناظِر ؛ ولكنه طالما عُورِض في المُلك فكَبَّبا معارضه
 لِفِيه ، وأتيحت له النُّصرة من محلٍّ لم يحسبها فيه ؛ وشَدَّ ما احتال على نصرته
 غير واحد ، فانعكست عليه حيلته ؛ وتوسَّل إلى مكروهه ، فطاحت في قلبه
 الانقلاب عليه وسيلته ؛ وُبغى عليه غيرَ ما مرَّه فنصره الله على من بَغى عليه ،

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ط : « بدفاع » .

(١) وابتغى بالسوء فردّه الله على من سعى به إليه ؛ ولعل ذلك لغيب عن العيان مكتوم ، وحكم من الحكيم العليم محتوم ؛ أو لأثر من الاختصاص قد علمه الله وليس لنا بعلوم ، أو لأمر قد تقاصرت عنه مدارك العقول ، وكَلَّتْ دونه رواجح الحُلُوم ؛ ولهذا المعاني المقرّرة ، والمقاصد المحرّرة ، والمذاهب المفسّرة ، والفوائد المسطرّة ، وغرائب أحاديثها المشتهرة ، خصّ الملأ المقصود فيه بالتذكّره ، المعتمد منه بالإيقاظ والتبصره ؛ من أعضاء الدولة ، وسيوف الصّولة ؛ وأولياء الخُلوص الزكي الشيمه ، وموالى النعمة الفلّانية ، وهم الذين خولتهم موعظته الحسنه ، وأعجبهم أغراضه المتعدده ، ومقاصده المستحسنه ؛ وعلموا أنه الحق ، فسألوا من الله التوفيق إليه ، والإرشاد إلى الاتصاف به والعمل عليه ، والهداية إلى التماس رضا الله لديه ؛ ووقفوا على ما هو لهم في هذا الكتاب منصوص ، وأن سلطانهم بمزية الدفاع عنه مخصوص ، وأنه قد تطابقت على إشاره نصوص ، واستوى^(٢) في تسليم الطاعة له عموم وخصوص ؛ فجذّدوا له البيعة الوثيقة ، على ما أوجب في ذلك الحكم المشروع ، وأعطوه على ذلك العهد الأكيد حسبا اتفقت عليه أصول وفروع ؛ وعقدوا له مضمونها عقدا صحيحا ، وعهدوا^(٣) على ما تقتضيه الشئنة صريحا ؛ وشهدوا له فيه على أنفسهم أنهم بالوفاء بها قائمون ، ولشروطها المرعية حافظون ، وعلى أحكامها الشرعية محافظون ؛ وعلى ما بُويع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة ، ولزوم السنة والجماعة ، وإحماض النصيحة جُهد الاستطاعة ؛ فأيدهم في السلم والحرب مصروفة^(٤) في مرضاته ، ونيتهم صادقة في مسنونات الوفاء ومفترضاته ؛ ولقد شاهدوا الفرقة وما جَنَّتْه ، والفتنة وما فتنته ، والألفة وما سنّته ، والهدنة

(١) في ت : « وسمى » .

(٢) في ت : « واستولى في تسليم » . وفي ط : « واستوى في تسليم » . وظاهر أن كليهما محرف عما أثبتناه .

(٣) في ط : « وعهدا » .

(٤) في ت : « معروفة » .

وما قرّبت من إصلاح وأدنته ؛ فليغبطوا بها عهدا كريما ، وعقدا قد تضمّن فضلا [عظيما بل] ^(١) عيما ، واستلزم إنعاما جسيما ، وليوفوا بها الوفاء الذي يؤلّيهم بها نعيما مقيما ، ويدفع عنهم عذابا أليما ، فإنه عز وجل يقول : « فمن نكث » إلى قوله : « عظيما » . وقد بسطوا أكفّهم إلى الله ضارعين ، وفي رحمته طامعين ، ولعظمته خاضعين ، ومن هيئته خاشعين ، ولخليفته طائعين ، وفي الخيرات مسارعين ؛ يدعونه رغباً ورهباً مستنزّلين لرحمته بالإخلاص والإنابة ، واقفين على قدم الرجاء بباب الذي أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة ؛ ويسألونه خير ما قدره وقضاه ، والسلوك على ما فيه رضاه .

اللهم بآبِكَ قَصَدْنَا ، وَقَبُولِكَ أَرَدْنَا ، وَعَلَى فَضْلِكَ اعْتَمَدْنَا ، وَإِلَى عِزَّتِكَ اسْتَعْدْنَا ، وَفِي مَرْضَاتِكَ اجْتَهِدْنَا ، وَبِهِدَايَتِكَ اسْتَرْشَدْنَا ؛ فَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرَفَةَ عَيْنٍ ، وَأَصْلَحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ ؛ اللَّهُمَّ إِنَّا بِكَ مُسْتَنْصِرُونَ ، وَبِعِزَّتِكَ مُسْتَظْهِرُونَ ، وَلِعَنَّاكَ مُفْتَقِرُونَ ، وَمِنْ تَقْصِيرِنَا مُسْتَعِيدُونَ ، وَمِنْ ذُنُوبِنَا مُسْتَغْفِرُونَ ، وَلِشَامِلِ ^(٢) [١٠٢] عَفْوِكَ مُنْتَظَرُونَ ، وَفِي خَفَى الطَّافِكَ مُسْتَبْصِرُونَ ، وَلِعَظِيمِ انتِقَامِكَ مُسْتَحْضِرُونَ ، وَلِعَمِيمِ صَفْحِكَ مُسْتَشْعِرُونَ ؛ فَأَتْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .
اللهم انصر من بايعناه سلطانا ، ومهد به بلاداً وأوطانا ، وأرغم بتوخيّه للحق طاغيةً وشيطانا ، وآتنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رَشَدًا . اللهم أَعْمُرْ بِالْمَسْرَةِ ناديه ، وكافٍ ^(٣) عَنَّا أَيَادِيهِ ، وَاكْبِتِ اللَّهُمَّ أَعَادِيهِ ؛ وَكُنْ لَنَا وَلِيًّا وَنَصِيرًا ، فَأَنْتَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ . وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، الْقُرْشِيِّ الْهَاشِمِيِّ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا ، فَأَنْتَ اللَّطِيفُ وَأَنْتَ الْخَبِيرُ .

(١) زيادة عن ت .

(٢) في ت : « لشمول » .

(٣) الأصل : كافٍ . سهل الهزرة ، ثم عامل الفعل معاملة الناقص .

انتهى ما أردت نقله من جنة الرضا للرئيس أبي يحيى بن عاصم رحمه الله عليه .
ورأيت بخط الوادى آشى ناقلاً من كتابه المسمى « بالروض الأريض » مانصه :
ابن فتوح إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقيلي ، يكنى أبا إسحاق ، العالم
المتفنن ، صاحبنا ، محقق نظار ، وأستاذ فوائد تدرسه لجين ونضار ؛ كلا بل
جواهر وواقيت ، ومناسك هدى لها من السعادة مواقيت ؛ فحسب الطالب
الموثوق بفهمه ، المصروف للتحصيل مطالع مواقع سهمه ^(١) ، أن يلزم حلقة تعليمه ،
وأن يشد يد الضنة بما يلقى من محصول تفهيمه ؛ فأكسر الإفادة ، إنما حصّله
الوافدون ، من جابر ^(٢) صنعته ؛ وكيمياء السعادة ، إنما يلقاها ^(٣) الظافرون في نضرة
روضة المخضّل ونبعته ؛ وقرض الشعر مما يمكن دخوله تحت فرعه ، ويندرج
تحت قدرة تصرفه بجنسه ونوعه ؛ إلا أنه لما يصدّر منه عن قريحته كاتم ، وسالك
من البخل به على طرف النقيض بما سلكه حاتم .

فما علق بحفظى منه خطبة أرجوزة صنّفها في النجوم :

سبحان رافع السماء سقفا ناصبها دلالة لا تخفى
مُبدعها فلا ترى فروجا مُودعها الأفلاك والبروجا

[١٠٣]

انتهى . وإنما ذكرته لتعلم اصطلاحه في كتاب الروض الأريض . وقد
نقلت كلاماً آخر منه فيما سبق فراجعه ؛ ولو تتبعته ما حصل لدى من نظمه
ونثره لظال الكتاب جدا .

(١) كذا وردت هذه العبارة في ط . وفي ت : « المصروف للتحصيل مطالع... الخ » .
وكلتاها غامضة .

(٢) يورى باسم جابر بن حيان الصوفى من كبار الكيمائيين وتلميذ خالد بن يزيد بن
معاوية بن أبى سفيان .

(٣) في ط : « يتلقفها » .

نشور سلطان
ولي ابن عاصم
القضاء

وقد وقفت بتامسان المحروسة^(١) على ظهور منشور سلطاني أصدر للرئيس
أبي يحيى بن عاصم المذكور ، بتقديمه للنظر في أمور القضاء وغيره ، ونصه :
هذا ظهور كريم إليه أنهيت^(٢) الظواهر ، شرفاً علياً ؛ وبه تقررت المآثر ،
برهاناً جلياً ؛ وراقت الفاخر ، قلائد وحُلِيّا ؛ وتميّزت الأكابر ، الذين افتخرت
بهم الأقلام والمحابر ، اختصاصاً مولوتياً^(٣) . فهو وإن تكاثرت المرسومات
وتعددت ، وتوالت المنشورات وتجددت ، أكبرُ مرسوم تَمُّ في الاعتقاد نظراً
خطيراً ، وأحكم في التفويض أمراً كبيراً ، وأبرم في الاستخلاص^(٤) عزماً
أبياً ؛ اعتمد بمسطوره العزيز ، واختص بمنشوره الذي تلقاه اليمين بالتعزيز ، مَنْ
لم يزل بالتعظيم حقيقاً ، وبالإكبار خليفاً ، وبالإجلال حرّياً ؛ فهو شهير لم يزل
في الشهرة سابقاً ، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقاً ، بليغ لم يزل بالبلاغة درياً ؛ عظيم
لم يزل في النفوس معظماً ، عَلم^(٥) لم يزل في الأعلام مقدماً ، كريم لم يزل في
الكرام سنّياً ؛ اشتملت منه محافل الملك على [العقد]^(٦) الثمين ، وحات به
المشورة في الكنف المحوط والحرّم الأمين ، فكان في مشكاة الأمور هادياً ،
وفي ميدان المآثر^(٧) جَرِيّاً ؛ فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته
تنتهى مراتب الاختصاص ؛ فيمن حاز فضلاً ، وزين فعلاً^(٨) ، وشرفَ ندياً ؛
واستكمل هما ، واستعمل قلماً ، واستخدم مشرفياً ؛ فله ! ما أعلى قدرَ هذا
الشرف ، الجامع بين المُتَلَدِّ والمُطَرَفِ ، السابق في الفضل أمداً قصياً ؛ الحال من [١٠٤]

(١) الكلام من ابتداء هذه الكلمة إلى آخر نص الظهور ساقط من ت .

(٢) في نفح الطيب (ج ٣ ص ٨٩ طبعة الأزهرية) : « انتهت » .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « قولياً » .

(٤) في نفح الطيب : « الاختصاص » .

(٥) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « عالم » .

(٦) زيادة عن نفح الطيب .

(٧) في نفح الطيب : « المرشد » .

(٨) في نفح الطيب : « حاز خصلاً ، وزين حفلاً » .

الاصطفاء مظهرًا ، الفارع من العلاء منبرًا ، الصاعد من العز كرسيا ؛ حاز
الفضل إرثًا وتعصيبًا ، واستوفى السكال حظًا ونصيبًا ؛ ثناء أَرْجُهُ كالروض لو لم
يكن الروض ذابلًا ، وهدياً نوره كالبدور لو لم يكن البدر آفلا ، ومجداً علوه
كاشها لو لم يكن الشها خفياً ؛ فما أشرفَ الملك الذى اصطفاه ، وكَمُلَ له حق
التقريب ووفاه ، وأحلّه قرارة التمكين ، ومَنَّ باختصاصه بالمكان المكين ،
فسبق فى ميدان التفويض وسما ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعاً
بالحق إماماً علماً ، موضحاً من الدين نهجاً أمّماً ، هادياً من الواجب صراطاً سويّاً ؛
بانيّاً للمجد صرحاً مُشَيِّداً ، مشهراً للعدل قولاً مؤيِّداً ، مُبرِّماً للخير سبباً قويّاً ؛
فإنّه تعالى يصل لمقام هذا^(١) الملك الذى أطلع فى سمائه بدرّاً دونه البدور ، وصدرّاً
تلوذ به الصدور ، سعداً لا تماطله^(٢) الأيام فى تقاضيه ، ونصرّاً يَمْضى به نَصْلُ
الجهاد فلا يزال ماضيه ، على الفتح مَبْنِياً ؛ ويؤالى له عزّاً يذود عن حرم الدين ،
وَيَمْنَحُه تأييداً يُصْبِحُ فى أعناق الكفر حديث سيفه قَطْعِيّاً ؛ أمر به مرسومًا
عزيزاً لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا تُبدى بآثار الاختصاص مثل ما أبداه ،
عبدُ الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله ، ابن الأمير المقدس فلان أيد الله تعالى
مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، ويسرّ صرامه ؛ لإمام الأئمة ، وعلم
الأعلام ، وعماد ذوى العقول والأحلام ، وبركة حملة السيوف والأقلام ، وقُدوة
رجال الدين وعلماء الإسلام ؛ الشيخ الفقيه أبى يحيى ابن كبير العلماء ، شهير
العطاء ؛ حجة الأكابر والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ؛ قاضى القضاة
وإمامهم ، أُوحد الجِلَّة وطوّد شَمَاهم ، الشيخ الفقيه أبى بكر بن عاصم ، أبقاه الله
تعالى ؛ ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ،

(١) كذا فى نفح الطيب . وفى ط : « يصل لهذا » .

(٢) فى نفح الطيب : « لا تماطله » .

وقلائد الأيادي منه مُقلّدة^(١) بجيد كل إنسان ؛ قد تقرر والمفاخر لا تنسب إلا
لبنيها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها ويذنبها ؛ والكمال لا يصفى [١٠٥]
شربه ، إلا لمن يؤمن سرّبه ؛ وإن هذا العلم الكبير . الذى لا ينى بوصفه
التعبير ؛ علم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ؛ وبإشارته يُستشهد ، وبإرادته
يسترشد ؛ إذ لا أمد علو إلا وقد تخطاه ، ولا مرّ كب فضل إلا وقد تمطّاه ؛
ولا شارقة هذى إلا وقد جالّاه ، ولا لبسة نحر إلا وقد حلّاه ؛ ولا نعمة إلا
وقد أسداها ، ولا سُومة^(٢) إلا وقد أبداه ؛ لما له فى دار الملك من الخصوصية
العظمى ، والمكانة التى تسوغ النعمى ؛ والرتب التى تسمو العيون إلى مرتقاها ،
وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتتلقاها ؛ حيث سر الملك مكتوم ، وقِرطاسه محتوم ،
وأمره محتوم ؛ والأقلام قد رَوّضت الطروس وهى ذاويه ، وقسمت الأرزاق
وهى طاويه ؛ شُقت ألسنتها فنطقت ، وقُطت أرجلها فسبقت ؛ ويست فأنمرت
إنعاما ، ونُكّست فأنظرت قواما ؛ وخطت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومُشِقت
فدَفّقت^(٣) ، وأُبرّمت فأنعمت ؛ فكُم يسّرت الجبر ، وعقرت الهزبر ؛ وشَنّقت
المسامع ، وكَيّقت المطامع ؛ وأقلّت فيما ارتفع من المواضع ، وأحلّت لما امتنع
من المراضع ؛ فهى تنجز النعم ، وتحجزُ النقم ؛ وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ؛
وتروض المرّاد ، وتُهضّ المواد^(٤) ؛ وتحرس الأكناف ، وتفرس الأشراف ؛
مُصَيّخة لنداء هذا العباد الأعلى ، طامحة لمكانه الذى سما واستعلى ؛ فيما يعلو عليها
من البيان ، الذى يقر له بالتفضيل ، الملك الضليل^(٥) ؛ ويشهد له بالإحسان ،

(١) فى نفع الطيب : « متقلّدة » .

(٢) كذا فى نفع الطيب . والسومة (فى الأصل) : العلامة . وفى الأصلين : « حرفة » .

(٣) فى نفع الطيب : « فرفقت » .

(٤) فى ط ونفع الطيب : « المراد » . ولعلها محرفة عما أثبتناه .

(٥) الملك الضليل : لقب امرئ القيس بن حجر الكندى الشاعر المعروف .

لسان حسان ؛ ويحكم له يرمى القوس ، حبيب بن أوس ؛ ويهيم بما من الأساليب
عنده ، شاعر كنده ^(١) ؛ ويستمطر سحبه الثَّره ، فصيح المعرة ^(٢) ؛ إلى منشور
تزيل الفقر فقره ، وتدّر الرزق درره ؛ لو انهمى إلى قسّ إباد لشكر في الصنعة
أياديّه ، واستمطر سحبه وغواديه ؛ أو بلغ إلى سحبان لسحره ، وما فارقه عشيقته
ولا سحره ؛ ولو رآه الصابي لأبدى إليه من صَبوته ما أبدى ؛ أو سمعه ابن عباد ، [١٠٦]
لكان له عبدا ؛ أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائعه ، واستنذر بضائعه ؛ أو أتحف
به البسّتي لا تحذه بستانا ، أو عرّض على عبد الحميد لأحمد من صَوْبِه هَتّانا ؛ فأعظم
به من عالٍ لا تُرقى ثنيتّه ، ولا تُحاز مزيته ؛ ولا يُرجم أفعه ، ولا يُكتم حقه ؛
ولا يقام له عن ^(٣) اكتساب الحمد ناظر ، ولا ينقاس به في الفضل مناظر ؛ وهل
تقاس الأجادل بالبُعْثات ، أو الحقائق بالأضغاث ؛ ألا وإنّ بيته هو البيت الذي
طلع في أفعه كل كوكب وقاد ، ممن رَسَخ ^(٤) به للعلوم اتقاء واتقاد ، وتراعى ^(٥)
به للمدارك ذكاء وانتقاد ؛ فأعظمّ بهم أعلاما وصدورا ، وأهله وبدورا ؛ خلّدت
ذكرهم الدواوين المسطرّه ، وسرت في محامدهم الأنفاسُ المعطره ، إلى أن نشأ
في سماءهم هذا الأوحد ، الذي شهرة فضله لا تُجحد ؛ فكان قمرهم الأزهري ، ونيرهم
الأظهر ؛ ووسيلة عقدهم الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأفعس ؛ فأبعد في المناقب
آماده ، ورفع الفخر وأقام عماده ؛ وبني ^(٦) على تلك الآساس المشيده ، وجرى
لإدراك تلك الغايات البعيدة ؛ فسبق وجلى ، وشنف بذكره المسامع وحلى ؛ ورفع

(١) شاعر كنده : أبو الطيب أحمد بن الحسين الثغني لأنه ولد بـمحلة كنده بالسكوفة .

(٢) فصيح المعرة : أبو العلاء المعري .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « على » .

(٤) في نفح الطيب : « وشيخ » .

(٥) في نفح الطيب : « وتراعى » .

(٦) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « وبناء » .

المشكل ببيانه ، وحرّر الملبس ببرهانه ؛ إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفعه الأصعد ، وبوأه عزيز ذلك المقعد ؛ فشرّف الخطه ، وأخذ على الأيدي المشتطه ؛ لا يراقب إلا ربه ، ولا يضر إلا العدل وحيه ؛ والمجلس السلطاني أعلاه ^(١) الله تعالى يختصه بنفسه ، ويفرغ عليه من حُلل الاصطفاء ولبسه ؛ ويستمطر فوائده ، ويمجى ^(٢) بأنظاره حقوق الملك وعوائده ؛ فكان بين يديه حكماً مُقسّطاً ، ومقسماً لحظوظ الإنعام مقسّطاً ، إلى أن خصّه بالكتابة المولوية ، ورأى له في ذلك حق الأولوية ؛ إذ كان والده المقدس نعم الله تراه ، ومنحه السعادة في أخراه ؛ مُشرّف ذلك الديوان ، ومُعَلّي ذلك الإيوان ؛ يُحجّر رفاع ^(٣) الملك فتروق ، وتلوح كالشمس عند الشروق ؛ فخلّ ابنه هذا الكبير شرفاً ، الشهير سلفاً ؛

مرتبه التي سمّت ، وافترت به عن السعد وابتسمت ؛ فسحبت به للشرف مطارف ، [١٠٧] وأحرزت به من الفخر التالد والطارف ؛ فهو اليوم في وجهها غرّه ، وفي عينها قرّه ؛ والله هو في ملاحظة الحقائق ورعيتها ، وسمع الحجج ووعيتها ؛ فلقد فضل بذلك أهل الاختصاص ، وسبقهم في تبين ما يشكل منه وما يعتاص ؛ إذ المشكلة معه جليّة الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض ؛ فكم رتبة عمرها بذويها ، فأكسبها تشريفاً وتنويهاً ^(٤) ؛ وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عبّر منهم وقطن ؛ مع أقدارهم الساميه ، ومعاليهم التي هي للزهر مُساميه ؛ إنما رقتهم ^(٥) وساطته التي أحسنت ، وزينت بهم المجالس وحسنت ؛ فيه أمضوا

(١) في نفح الطيب : « أسماء » .

(٢) في نفح الطيب : « يجرب » .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « وقائع » .

(٤) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « تنزيها » .

(٥) كذا في نفح الطيب . وفي ط : « راقهم » .

أحكامهم ، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم ؛ وكتبوا الرسوم ، وكتبوا الخصوم ؛ وحلوا دَسْت القضاء ، وسلوا سيف المضاء ؛ وفي زمانه تخرجوا ، وفي بُستانه تأرجوا ؛ ومن خُلِقهُ اكتسبوا ، وإلى طُرُقهِ انتسبوا ؛ وعلى مَواردِهِ حاموا ، وحول فرائده^(١) قاموا ؛ وبتَغْرِيفِهِ عُرِفوا ، وبتَشْرِيفِهِ شَرُفوا^(٢) ؛ وبصِفَاتِهِ كَلِفوا ، وبِعِرْفَانِهِ وَقَفوا ؛ فَأَمِنُوا مع انسكاب سُحُبِ إفادته من الجَدْب ، وقاموا بذلك الغرض بسبب ذلك النَّدْب ؛ وهل العلماء وإن عَمَّت فوائدهم ، وانتظمت بحياذ الأذهان فرائدهم ؛ إلا من أنواره مُسْتَمِدُّون ، وإلى الاستفادة من أنظاره ممتدِّون ، وببركانه معتدِّون ، وبأسبابه مشتدِّون ؛ فِيهِ اجْتُنِيَتْ من أفنان المنابر ثمراتهم ، وتأرَّجَتْ في روضات المعارف زَهْرَاتِهِمْ ؛ وبه عَمَرُوا الحَلَق ، واثَّلقوا من أنوارهم ما اثَّلق ؛ إذ كلٌّ من اصطناعه محسوب ، وإلى بركتِهِ منسوب ؛ فهو بَذَرهم الأهدى ، وغَيْثهم الأجدى ؛ وعَقْدُهم المُقْتَنى ، ورَوْضُهم المُجْتَنى ؛ وبدر منازلهم ، وصَدْر محافلهم ؛ وعلى ما أعلَى المقام المَولَوَى من مكانه ، وقضى به من استمكانه ؛ واعتمد من إرامه ، وأبْرَم من اعتماده ، ومَهَّد من إكرامه ، وأَكْرَم من مهاده ؛ واختصَّ من علاه ، وأعلَى من اختصاصه ، واستخلص من حُلَاه ، وحلَّى من استخلاصه ؛ ووقى من تكرِّمه ، وكَرَّم من وفائه ، واصطفى من تجلِّده ، وتجدد من اصطفاؤه ؛ وقدَّم من براعته ، وحكَّم من براعته^(٣) ؛ وشَقَّق^(٤) من كتابته ، وأنطق من خطابته ؛ وسجَّل من أنظاره ، وعدَّل^(٥) من اختياره ؛ فذا ذكره ،

(١) في نفع الطيب : « فوائده » .

(٢) في ط : « أَلْفُوا » .

(٣) في ط : « بداعته » .

(٤) شقق ، يريد : اقتن . مأخوذ من شقق الرجل الكلام ، وذلك إذا أخرجه أحسن مخرج .

(٥) في ط : « عجل » .

وسطا سَطَرُهُ ؛ وأمعن مَعْنَاهُ ، وأغنى مَعْنَاهُ . أشار أَيْدَهُ اللهُ تعالى باستئناف
 خُصُوصِيَّتِهِ وتَجْدِيدِهَا ، وإثبات مقاماته وتَحْدِيدِهَا ؛ لَتُعْرِفَ تلكَ الحدودَ فلا
 تُتَخَطَّى ، وتُكَبِّرُ تلكَ المراتبَ فلا تُسْتَعطَى ؛ فأصدر له — شكر الله تعالى إصداره ،
 وعَمَّرَ بالنصر داره — هذا المنشورَ الذي تَأْرَجُ بِمُحَامِدِهِ نَشْرُهُ ، وتضمَّن من مناقبه
 البديعَ فَرَأَقَ طِيَّهَ ونَشَرَهُ ؛ وغداً وفرائدُ المآثرِ لديه مُوجدةٌ مَكُونَةٌ ، وأصبح
 للمفاخرِ مالِكاً لما أتى به مُدَوَّنَةٌ ؛ وخصَّه فيه بالنظر المُطلقِ الشروطِ ، الملازمِ
 للتفويضِ ملازمةَ الشرطِ للمشروطِ ؛ المستكملِ الفروعِ والأصولِ ، المُستوفى
 الأجناسِ والفصولِ ؛ في الأمورِ التي تختصُّ بأعلامِ القضاةِ الأكابرِ ، وكتابِ
 القضاةِ ذوى الأقاليمِ والمحابرِ ، وشيوخِ العلمِ وخطباءِ المنابرِ ، وسائرِ أربابِ الأقاليمِ
 القاطنِ منهم والغابرِ ؛ بالحضرةِ العليةِ ، وجميعِ البلادِ النصيريةِ ؛ تولى اللهُ جميعَ
 ذلكَ بمجهودِ سَتَرِهِ ، ووَصَلَ لَهُ ^(١) ما تعود من شَفْعِ اللطفِ ووترهِ ؛ يحوطُ مراتبَهُم
 التي قُطِفَتْ من روضاتها ثمراتُ الحكمِ وجُنَيْتِ ، ويُرَاعِي أمورَهُم التي أُقيمت
 على القواعدِ ^(٢) وُبُنِيَتْ ، وحقوقَهُم التي حُفِظَتْ لَهُم في المجالسِ السلطانيةِ
 ورُعِيَتْ ؛ ويَحُلُّ كلَّ واحدٍ منهم في منزلته التي تليقُ ، ومُرتبته التي هو بها خَلِيقٌ ؛
 على مُقْتَضَى ما يعلم من أدواتِهِم ، وَيَخْبُرُ من تباينِ ذواتِهِم ؛ وَيُرْشِحُ كلَّ واحدٍ
 إلى ما استحقَّه ، وَيُوَفِّي كلَّ ذى حقٍّ حَقَّهُ ، اعتماداً على أغراضِهِ التي عدَّتْ ،
 وصَدَحَتْ على أفنانِها من الأفواه طيورُ الشكرِ وهَدَلَتْ ؛ واستناداً في ذلك إلى
 آرائِهِ ، وتفويضاً له في هذا الشأنِ بينَ خُلَصَاءِ الملكِ وظُهرائِهِ ؛ وذلكَ لمُقْتَضَى
 ما كان عليه أعلامُ الرياسةِ الذين سبقوا ، واتهضوا بِهِمَّهِم واستبقوا ؛ كالشيخِ

(١) في نفح الطيب : « لديه » .

(٢) في نفح الطيب : « العوائد » .

الرئيس الصالح أبي الحسن بن الجيّاب ، والشيخ ذى الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب ، رحمهما الله تعالى .

[١٠٩] فليقم — أبقاه الله تعالى — بهذه الأعمال التي سَمَتَ واعتَزَت ، ومالت بها أعطاف العدل واهتزت ؛ وسار بها الخبر حيث سرى ^(١) ، وصار بها الحقّ مَشْدُودَ العُرَى ؛ وعلى جميع القضاة الأصفياء ، والعلماء الأَرْضِيَاء ، والخطباء الأولياء ، والمُقرئين الأذكياء ، وَحَمَلَةَ الأَقْلَامِ الأَحْطِيَاء : أن يعتمدوا على هذا الوليّ العِمَادِ في كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختصّ في دار الملك من مَرَاتِبِهِمْ وفوائدهم ؛ وما يتعلق بولاياتهم [وأمنياتهم] ^(٢) ، ويليق بمقاصدهم ونيتاتهم ^(٣) ؛ فهو الذي يُسَوِّغُهُم المَشَارِبَ ، وَيُبَلِّغُهُم المَآرِبَ ؛ وَيَسْتَقْبِلُ العَلَى بِالْعَلَى ، والعاطل بِالْحُلَى ، والمُشْكِلَ بِالْحَلَى ؛ والمُفَرِّقَ بِالتَّاجِ ، والمَقْدَمَةَ بِالإِنْتِاجِ ؛ وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولايتهم ^(٤) وأبقاهم ، ولَقَّاهم من حفظ المراتب ما رقَّاهم ؛ فليجروا على ما هم بسبيله ، وليهتدوا بِرُشْدٍ ^(٥) هذا الاعتناء ودليله .

وكتب في صفر عام سبعة وخمسين وثمان مئة . انتهى .

وإنما كتبه برؤيته لتعلم به مِصْدَاقَ ما قدمناه من تَمَكُّنِ ابنِ عاصم المذكور من مراتب الاصطفاء والاحتفاء ^(٦) .

ولنختم ترجمته ، رحمه الله ، بتخميس عجيب من نظمه :

سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ الْأَنْوَارَ وَاحْتَجَبَهَا وَكَلَّ حَمْدَ وَتَمْجِيدَ لَهُ وَجَبَا

تخميس
لابن عاصم

(١) في نفع الطيب : « ... الخبر حثيث السرى » .

(٢) زيادة عن نفع الطيب .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « وأفضياتهم » .

(٤) في نفع الطيب : « ولاياتهم » .

(٥) في نفع الطيب : « برشد » .

(٦) إلى هنا ينتهي الساقط من نسخة ت .

إذا ابتغى العقل في إدراكه سبباً جاء الحجاب فالتقى دونه الحجباً
حتى إذا ما تلاشى عندها ظهراً

سبحان من كان والأكوان لم تكن في غير أين ولا وقت ولا زمن^(٢)
حتى أتى الجود بالإيجاد والمين^(١) وكان ما^(٣) قد رسمناه بما ومن^(٤)

وأظهر الشمس ذات النور والقمر
سبحان من حجب الأبصار فاحتجبت
من حدثته أمانيه فقد كذبت حقيقة ذاتها عن ذاتها وجبت
لا يدرك العقل من أخبارها خبراً

سبحان من شأنه في شأنه عجب يخفى فيظهر أو يبدو فيحتجب [١١٠]
يأبها العاكفون السادة النجب هل فيكم من سعى سعيًا كما يجب
فهاز بالعرض المطلوب أو ظرفراً

سبحان من لم يزل بالعلم منفرداً ومن تعالى عن الأشباه فاتحداً
سبحانه وتعالى واحداً صمداً تبارك الله لم يولد ولم يلد^(٤)
تنزه الله عما يلحق البشر

سبحان من أخرج الموجود من عدم رشحاً برى كونه في غير مرسوم
فلا محل سوى كنه من الكلام ولم يزل هو في ديمومة القدم
مؤثراً يخلق التأثير والأثر

سبحان من خلق الأشياء أجمعها فمن رآها رأى أفعاله معها

(١) الأبن : الإعياء .

(٢) في ط : « من » .

(٣) بما ومن : يريد ما خلق الله مما لا يعقل ومن يعقل .

(٤) في ط : « وما ولدا » .

وكان أُنْقِنَهَا صُنْعًا وَأَبْدَعَهَا نَفْسٌ إِلَى الْعَالَمِ الْعُلُويِّ رَفَعَهَا
وخصَّهَا من معاليه بما بهرَّـا

سُبْحَانَ مَنْ عَمَّ بِالْإِنْعَامِ مَا خَلَقَا وَشَفَعَ الْعَدْلَ بِالْإِحْسَانِ فَاتَّفَقَا
وزاد بالذِّكْرِ فِي قَلْبِ التَّقَى فَاسْتَكَمَلَ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ وَالْخُلُقَا
وكان مدرِّكُهُ الصَّدِيقَ أَوْ عُمرَا

سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْهُ كُلُّ سَابِحَةٍ وَكُلُّ عَائِمَةٍ فِي الْمَاءِ سَائِحَةٍ
وَكُلُّ غَادِيَةٍ تَعْدُو وَرَائِحَةٍ وَسَبَّحَتْهُ خَفَايَا كُلِّ جَانِحَةٍ
لم تعرف السرَّ حتى جاورت صُورَا

سُبْحَانَ مَنْ حَمَدَتْهُ أَلْسُنُ الْبَشَرِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ وَالْأَصَالِ وَالْبُكْرِ
وَفِي دُجَى تَشْدُو نِصْفَ اللَّيْلِ وَالسَّحَرِ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ وَالْآيَاتِ وَالشُّورِ
تَوَلَّيْهِ حَمْدًا وَتَتَلُو بَعْدَهُ سُورَا

سُبْحَانَ مَنْ نَزَّهَتْهُ أَلْسُنُ عَزَزَتْ عَنْ كُلِّ مَا يُؤْهِمُ التَّشْبِيهَ إِذْ وَصَفَتْ
صَفَا لَهَا مَوْرِدَ التَّحْقِيقِ حِينَ صَفَتْ فَلَمْ تُقَارِقْهُ حَتَّى أَثْبَتَتْ وَنَفَتْ
وَلَمْ تَدْعِ شُبُهَةً تُؤْذِي وَلَا ضَرَرَا

سُبْحَانَ مَنْ شُكْرُهُ فِي الدِّينِ مُفْتَرَضٌ وَلَيْسَ يُشْبِهُهُ جِسْمٌ وَلَا عَرَضٌ
يَنْهَى وَيَأْمُرُ مَا فِي ذَا وَذَا غَرَضٌ فَادْكُرْ لِنِعْمَاهُ ذِكْرًا لَيْسَ يَنْقُضُ
فَمَنْ تَحَدَّثَ بِالْمُعْمَى فَقَدْ شَكَرَا

[١١١] سُبْحَانَ مَنْ خَضَعَ السَّبْعُ الطَّبَاقُ لَهُ وَأَعْظَمَتَهُ قُلُوبُ حَشَوُهَا وَلَهُ
تَرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ الْأَبْقَى وَتَعْقِلَهُ طُوبَى لِمَنْ أَمَلَ الْأَبْقَى وَأَمَّ لَهُ^(١)
وَاسْتَكْثَرَ الزَّادَ لَمَّا آتَى السَّفَرَا

(١) ورد هذا البيت محرفاً هكذا في ت :

تريد تعلم ماتق وتعمله طوبى لمن أمل الأتقا وأم له

سُبْحَانَ مَنْ زَيْنَ الْأَفْلاكَ بِالشُّهُبِ وَيَبَيِّنُ الدِّينَ بِالآيَاتِ^(١) وَالْكِتَابِ
وَلَمْ يَدْعُنَا لَدَى لَهْوٍ وَفِي لَعِبٍ^(٢) لَكِنْ نَهَانَا وَآتَانَا عَلَى الرُّتَبِ

حَتَّى اتَّهَيْنَا وَأَذَعْنَا لِمَا أُمِرَا

سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْأَشْيَاءَ تَحْتَلِفُ فَتَارَةً تَنْتَازِي ثُمَّ تَأْتِلُفُ
هَذَا الظُّلَامَ بِنُورِ^(٣) الصُّبْحِ يَنْصَرِفُ كَمَا الضُّلَالُ لِنُورِ الْعِلْمِ لَا يَتَقِفُ

فَسَلَّهُ نُورًا يُنِيرُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْأَخْلَاقَ وَالْخَلِيقَا وَالشَّمْسَ وَالْبَدْرَ وَالظُّلُمَا وَالنَّسَمَا
يَرْوِقُ الْكُلَّ مَجْمُوعًا وَمُفْتَرَقًا وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَاسْلُكْ نَحْوَهُ طُرُقًا

فَأَسْعِدُ النَّاسَ مَنْ فِي نَفْسِهِ نَظَرًا

سُبْحَانَ مَنْزِلِ مَاءِ الْمَرْزَنِ فِي الْمَطَرِ يُرْوِي النَّبَاتَ وَيَسْقِي يَارِيعَ الشَّجَرِ
كَأَنَّمَا الزُّهْرُ تُهْدِيهِ إِلَى الزَّهْرِ إِذَا رَأَيْتَ تَلَاقِيهَا عَلَى قَدَرٍ

رَأَيْتَ صُنْعَ قَدِيرٍ أَحْكَمَ الْقَدَرَا

سُبْحَانَ مَنْ قَدَّرَ الْأَقْوَاتَ وَالْأَجَلَا وَتَابَعَ الْوَحْيَ وَاسْتَتَلَى بِهِ الرُّسُلَا
فَمَنْ تَعَدَّى حُدُودَ الْفَوْقِ قَبِيلَ غَلَا وَمَنْ تَجَوَّزَ مُنْحَطًا فَقَدْ سَفَلَا

وَمَنْ تَخَطَّى خُطُوطَ الْمُنتَهَى كَفَرَا

سُبْحَانَ مَنْ فَجَّرَ الْأَنْهَارَ فَانْفَجَرَتْ وَقَدَّرَ الْخَيْرَ فِي إِجْرَائِهَا فَجَرَتْ
فَرِينَةُ الْأَرْضِ بِالْأَزْهَارِ قَدْ ظَهَرَتْ وَلِلْبَصِيرَةِ عَيْنٌ كُلَّمَا نَظَرَتْ^(٤)

رَأَتْ جَمَالًا وَإِجْمَالًا وَمُعْتَبَرًا

(١) في ط : « في الآيات » .

(٢) في ت : « ولا لعب » .

(٣) في ت : « بضوء » .

(٤) في ت : « بصرت » .

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ وَأَعْقَبَ اللَّيْلَةَ اللَّيْلَاءِ بِالْعَسَقِ
يَا مُهْجَةَ الشَّمْسِ دُونِي عُدْتُ^(١) مِنْ فَلَقٍ وَيَا سَنَا الْبَدْرِ عَارِضَ مُخْمَرَةِ الشَّفَقِ

حَتَّى تُعِيدَ لَنَا مِنْ لَيْلِنَا سَحَرًا

سُبْحَانَ مَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْقَلَمِ وَسَلَّطَ الْهَمَّ وَالْبَلَوَى عَلَى الْهَمِّ
فَقَاوَمَتْهَا جُنُودُ الصَّبْرِ وَالْكَرَمِ ثُمَّ ابْتَلَى قَلْبَ غَيْرِ الْعَارِفِ الْفَهْمِ
فَمَا أَطَاقَ وَلَا أَوْفَى وَلَا صَبَرًا

[١١٢] سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ فَلَيْسَ يَمْشِي إِلَى شَيْءٍ عَلَى مَهَلٍ
وَلَا يَقُولُ سِوَى هَذَا وَذَلِكَ لِي مُقَسَّمُ الْحَالِ بَيْنَ الْحِرْصِ وَالْحِيلِ
فَلَيْسَ تَلْقَاهُ إِلَّا ضَارِعًا حَذَرًا

سُبْحَانَ مَنْ زَانَهُ بِالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَبِالْفَضَائِلِ وَالْإِيمَانِ وَالطَّلَبِ
فَلَا يَزَالُ حَلِيفَ الْفِكْرِ وَالتَّعَبِ رَامَ الْكَمَالِ فَلَمْ يَبْلُغْ وَلَمْ يَجِبْ
وَلَمْ يَرِدْ بَعْدُ فِي رِيٍّ وَلَا صَدْرًا

سُبْحَانَ مَنْ شَانَهُ بِالْكِبَرِ وَالْأَشْرِ يُمَشَى وَيُصْبِحُ فِي غَيٍّ وَفِي بَطْرِ
مُرْدَدِّ الْعَزَمِ بَيْنَ الْجَبَنِ وَالْخَوْرِ لَا يَسْتَفِيقُ مِنَ الشَّكْوَى إِلَى الْبَشْرِ
وَلَا يُرْخِزُ عَنْ ظُلْمٍ إِذَا قَدَرَا

سُبْحَانَ مُحْرِقِهِ فِي وَقْدَةِ الْحَسَدِ فَلَا يَزَالُ أَخَا غَيْظٍ وَفِي نَكَدٍ
كَالْبَحْرِ يَرْمَى إِلَى الْعَيْنِينَ بِالزَّبَدِ إِذَا رَأَى أَثَرَ الثُّغْمَى عَلَى أَحَدٍ
يَوَدُّ لَوْ كَانَ أَعْمَى لَا يَرَى ضَجْرًا

(١) فِي ت : « النَّفْس » .

(٢) فِي ت : « عُدْتُ » بِالْدَالِ الْمُهْمَلَةِ .

سُبْحَانِ مَنْ أَمَرَ الْأَرْوَاحَ فَأَتَمَرَتْ ثُمَّ اسْتُدِّمَتْ فَلَمْ تَنْهَضْ بِمَا أُمِرَتْ
وَكُلُّ نَفْسٍ إِذَا سَاحَتْهَا جَفَرَتْ فَلَا تَصِلُهَا إِذَا خَانَتْكَ أَوْ غَدَرَتْ
وَاقْطَعْ عِلَاقَ مَنْ قَدْ خَانَ أَوْ غَدَرَ

سُبْحَانِ مَنْ بَسَطَ التَّعْلِيمَ ثُمَّ طَوَى فَأَعْقَبَ الْقَلْبَ وَجَدًّا دَائِمًا وَهَوَى
وَذَابَ^(١) فِي مُلْتَظَى أَشْوَاقِهِ وَذَوَى وَكَانَ أَرْزَمَ وَاسْتَوْفَى الْمُنَى وَنَوَى
حَجًّا فَلَمَّا أَتَى مِيقَاتَهُ حُصِرَا

سُبْحَانِ مَنْ فِي بَسَاطَةِ الْعَدْلِ أَجْلَسَنَا وَبِاغْتِفَارِ عَظِيمِ الذَّنْبِ آنَسَنَا
وَزَانَ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ أَنْفُسَنَا فَكَانَ أَعْظَمَنَا قَدْرًا وَأَنْفَسَنَا
مَنْ أَتَمَّ أَوْ نَهَى أَوْ خَافَ فَازْدَجَرَ

سُبْحَانِ مَنْ خَصَّ بِالْإِيمَانِ أَنْفُسَنَا وَخَافَهُ مِنَ عَذَابِ النَّارِ أَنْفُسَنَا
لَوْلَاهُ لَمْ نَعْرِفِ الْمَعْرُوفَ^(٢) وَالْحَسَنَا وَلَا اسْتَفَدْنَا لِسَانًا نَاطِقًا لَسِنَا
وَلَا دَرَيْنَا : أَبَاحَ الشَّرْعُ أَوْ حَظَرَ

سُبْحَانِ مَنْ جَعَلَ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ وَالْحُشْرَ وَالنَّشْرَ مَنْجَاةً مِنَ الضَّرَرِ
فَلَا خُلُودَ مَعَ الْإِيمَانِ فِي سَقَرٍ وَلَا وُصُولَ إِلَى أَمْنٍ بِلا حَذَرٍ
حَتَّى تَكُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ مُؤْتَمِرَا

سُبْحَانِ مَنْ إِنْ يَشَأْ أَعْطَاكَ أَوْ مَنَعَا وَمَنْ إِذَا شَاءَ أَمَرًا حَادِثًا وَقَعَا [١١٣]
وَتَارَةً يَخْفِضُ الْأَمْرَ الَّذِي رَفَعَا يَوْمًا يَفْرُقُ لِلْإِنْسَانِ مَا جَمَعَا
وَلَا يُبَالِي بِمَنْ أَثَرَى وَمَنْ خَسِرَا

سُبْحَانِ مَنْ هُوَ يَوْمَ الْفَصْلِ يَجْمَعُنَا وَلِلنَّعِيمِ بِفَضْلٍ مِنْهُ يَرْفَعُنَا

(١) في ط : « وزاد » .

(٢) في ت : « السنون » .

مِنْ بَعْدِ رُؤْيَا أَهْوَائِ تَرُوعِنَا يُرَى لَهَا وَهَامًا هَيَّانَ أَوْعِنَا
 حَيْرَانَ عُرْيَانَ يُبْدِي كُلَّ مَا سُتِرَا
 سُبْحَانَ مَنْ شَاءَ فِي الدُّنْيَا سَعَادَتَنَا بِطَاعَةٍ أَحْسَنَتْ مِنَّا إِرَادَتَنَا
 وَيَبْتَلِينَا وَيَسْتَحِلِّي عِبَادَتَنَا حَتَّى إِذَا شَاءَ فِي الْآخِرَى إِعَادَتَنَا
 أَعَادَنَا مِثْلَ مَا كُنَّا كَمَا ذَكَرْنَا
 سُبْحَانَ مَنْ يَحْشُرُ الْإِنْسَانَ مُكْتَتِبًا خَوْفَ الْجَزَاءِ وَيَجْزِيهِ بِمَا كَسَبَا
 وَيَحْكُمُ الْحُكْمَ يُبْهِمُهِ كَمَا وَجَبَا فَالْقَاسِطُونَ إِلَى نِيرَانِهِ عُصَبَا^(١)
 وَالْمُقْسِطُونَ إِلَى جَنَّتِهِ زُمَرَا
 سُبْحَانَ مَنْ فَضَّلَ الْإِسْلَامَ فِي الْأُمَمِ بِالطَّيِّبِ الطَّاهِرِ التَّبَعُوثِ فِي الْحَرَمِ
 مُحَمَّدٍ خَيْرٍ مَنْ يَمْشَى عَلَى قَدَمِهِ إِذَا عَدَدَتْ بَيْوتَ الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ
 فَفَنَّهُ حَتَّى إِلَى عَدْنَانَ أَوْ مُضَرَ
 سُبْحَانَ مَنْ خَتَمَ الْأَدْيَانَ فِي الْأَرْزَلِ بِالْمِلَّةِ السَّامِعَةِ الْبَيْضَاءِ فِي اللَّيْلِ
 أَنَّى بِهَا خَيْرُ مَأْمُورٍ وَمُمْتَنِلٍ مُحَمَّدٌ خَاتَمُ السَّادَاتِ وَالرُّسُلِ
 وَخَيْرُ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
 إِذَا وَصَفْنَا فَبِالْتَقْصِيرِ نَعْتَرِفُ فَكُلُّ لَفْظٍ بَلِغٍ دُونَهُ يَقِفُ
 هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي فِي ذِكْرِهِ شَرَفُ فَإِنْ طَلَبْتَ رِضَاهُ بِالَّذِي تَصِفُ
 فَكُنْ عَلَى وَصْفِهِ فِي الذِّكْرِ مُقْتَصِرَا
 صَلَّى إِلَهُهُ عَلَيْهِ مَا بَدَأَ قَرُوما سَرَّتْ فِي الدِّيَاجِي أَنْجَمُ زُهْرُ
 وَمَا تَبَايَنَتِ الْأَشْكَالُ وَالْصُّورُ وَمَا تُدَوِّرُ سَتِ الْآيَاتِ وَالشُّورُ
 وَمَا قَضَى مُؤْمِنٍ مِنْ حَاجَةٍ وَطَرَا

وبالجملة فابنُ عاصم أبو يحيى كان يسميه أهلُ زمانه ابنَ الخطيب الثاني ،
حسبنا قاله الوادى آشى وغيره .

تعريف
باب الخطيب

[١١٤] ولا بد أن نلّم ببذة من أخبار ابن الخطيب [السلماني الوزير] ^(١) : إذ هو
لسان الدين ، ونخري الإسلام بالأندلس في عصره ، فنقول : هو محمد بن عبد الله
ابن سعيد [بن عبد الله بن سعيد] ^(٢) بن علي بن أحمد السلماني ، قرطبي الأصل ،
ثم لوشية ^(٣) ، يُكنى أبا عبد الله ، ويلقب من الألقاب المشرفة بلسان الدين ،
الوزير الشهير ، الطائر الصيت ، المثل المضروب في الكتابة والشعر والمعرفة
بالعلوم على اختلاف أنواعها ، رحمه الله .

أوليته :

أوليته ونسبه

قال ابن الأحرر ^(٤) في نثر فرائد الجمان في حقه ما نصه : « ذو الوزارتين الفقيه
الكاظم ، أبو عبد الله محمد ، ابن الرئيس الفقيه الكاتب المفتي ^(٥) ببلدة لوشة ،
عبد الله ، ابن الفقيه القائد الكاتب سعيد بن عبد الله ، ابن الفقيه الصالح
ولى الله الخطيب سعيد السلماني اللوشى ، المعروف بابن الخطيب » . انتهى .
وقال غيره : إن بيتهم يُعرف في القديم ببني الوزير ^(٥) ، ثم في الحديث

(١) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٢) لوشية : نسبة إلى لوشة (بفتح فسكون) : مدينة بالأندلس غربي ألبيرة قبل قرطبة ،
منحرفة يسيرا ، بينها وبين قرطبة عشرون فرسغا ، وبينها وبين غرناطة عشرة
فراسخ . (عن معجم البلدان) .

(٣) ابن الأحرر : هو أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن السلطان القائم بأمر الله محمد
ابن الأحرر .

(٤) كذا في ط . وفي ت : « المعتزى » . يريد المنتسب إلى بلدة لوشة . إلا أن هذا
العمل يتعدى إلى . وفي نفع الطيب المطبوع والمخطوط : « المنتزى » .

(٥) كذا في نفع الطيب . وفي ط : « وزير » . وفي ت : « وزيد » .

ببني الخطيب . وسعيدٌ جدُّه الأعلى أول من تلقَّب بالخطيب ، وكان من أهل العلم والدين والخير ، وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة ، من خطِّ ، وتلاوة ، وفقه ، وحساب ، وأدب ، خيراً ، صدراً ، تُوفِّي عام ثلاثة وثمانين وست مئة ؛ وأبوه عبد الله كان من أهل العلم بالأدب والطب ، وقرأ على أبي الحسن البلوطي ، وأبي جعفر بن الوزير^(١) ، وغيرها^(٢) ، وأجازه طائفة من أهل المشرق ، وتُوفِّي بطريف عام واحد وأربعين وسبع مئة شهيداً يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام مفقوداً^(٣) ثابت الجأش ، شكر الله فعله .

قال ابنه لسان الدين صاحب الترجمة : أنشدتُ والدي أبياتاً من شعري ، فسرُّ وتهلَّل ، وارتجل رحمه الله تعالى :

الطبُّ والشَّعرُ والكِتَابُ سَمَاتُنَا فِي بَيْتِ النَّجَابَةِ
هِيَ^(٤) ثَلَاثُ مُبْلَغَاتٍ مَرَاتِبًا بَعْضُهَا الْحِجَابَةِ

[١١٥]

اتمى .

نشأته :

ونشأ لسان الدين على حالة حسنة سالكا سنن أسلافه ، فقرأ القرآن على المکتب ، الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن عبد الولى العواد ، تكتُّباً ، ثم حفظاً ، ثم تجويداً ؛ ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيحايطي ، وقرأ عليه العربية ، وهو أول من انتفع به ؛ وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جُزَيّ ؛

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « زير » .

(٢) كذا في ت ونفع الطيب . والذي في ط : « وقرأ على أبي الحسن البلوطي ، وأبي

إسحاق بن زروال ، » وغيرها .

(٣) كذا في الأصلين ونفع الطيب .

(٤) في نفع الطيب : « هن » .

ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار البيري ، شيخ النحويين لعهدده ؛ وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر ؛ وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجيّاب ؛ وروى عن كثير من الأعيان ، كالحديث شمس الدين بن جابر ، وأخيه أبي جعفر ، والقاضي أبي البركات بن الحاج ، والشيخ أبي محمد بن سلمون ، وأخيه أبي القاسم بن سلمون ، وأبي عمرو بن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ، وله رواية عالية ، والأستاذ اللغوي أبي عبد الله بن بيش^(١) ؛ والحديث الكاتب أبي الحسن التلمساني المسين ، والقائد الكاتب أبي بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم ، والقاضي الحديث أبي بكر ابن شيرين^(٢) ، والشيخ أبي عبد الله ابن الفقيه القاضي أبي عبد الله بن عبد الملك ، والخطيب أبي جعفر الطنجالي ، والقاضي أبي بكر بن منظور ، والرواية أبي عبد الله بن حزب الله ، وعن أشهر أسلافنا المتأخرين القاضي أبي عبد الله محمد المقرئ القرشي ، التلمساني المولد والمنشأ والمقبر ، قاضي الجماعة بفاس ، وعن [١١٦] الشريف أبي علي حسن بن يوسف ، وعن الخطيب الرئيس الراوية أبي عبد الله ابن مرزوق ، وعن الحديث الفاضل الحسيب أبي العباس بن يربوع السبتي ، والرئيس الكاتب أبي محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي ، والشيخ المقرئ أبي محمد بن أيوب المالقي ، آخر الرواة عن^(٣) ابن أبي الأحوص ، وعن أبي عثمان ابن ليون من أهل المرية ، وعن القاضي أبي الحجاج المنتشافي^(٤) ، من أهل رُنْدَة ، إلى غيرهم ممن يطول ذكره من أهل الأندلس ، والعُدوة الغربية ،

(١) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « بيش » .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « بشيرين » .

(٣) في ت : « علي » .

(٤) كذا في نفع الطيب (ج ٣ ص ٣٢٣ ، ٣٩٥ طبعة بلاق) . وفي ط : « المنتشافي » .

وفي ت : « المتشافري » .

والمشرق وإفريقية بالإجازة ؛ وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هُذَيْل ، ولازمه .

تأليفه :

قال ابن الأحرر رحمه الله : « [لابن الخطيب ^(١)] الأوضاع المصنفات ، التي آذَانُ إحسانها هي المقرّطات المشكّفات ، منها في التصوف الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوّف : روضة التعريف بالحلب الشريف » . انتهى .

ثم سرد غيرها من كتبه ، ومنها : الإحاطة ، في تاريخ غرناطة ، في خمسة عشر سِفْراً ؛ واللّمْحة البدرية في الدولة النّصْرية ؛ والحُلل المَرْقُومة ؛ ومُثْلِي الطريقة ، في ذم الوثيقة ؛ والسحر والشعر ^(٢) ؛ وريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب ، في أسفار ؛ والصيّب والجهم ، والماضي والكهام ، في مجموع شعره ؛ ومِيعَار الاختيار ^(٣) ؛ ومفاضلة مألّقة وسلا ؛ ورسالة الطاعون ؛ والمسائل الطبية ، في سِفْر ؛ والرّجَز في عمل التّرياق ؛ واليُوسُفي في الطب ، في سَفرين ؛ والتّاجُ الحَلِّي في مساجلة التّدح المَعْلَى ؛ والكتيبة الكامنة ، في أدباء ^(٤) المئة الثامنة ؛ ونُفاضة الجِرَاب ، في أربعة أسفار ، وهي من تأليفه ، ولم أزل أكثر البحث في هذا التاريخ عنها ، فلم أقف منها على عين ولا أثر ، إلا عدة أوراق متفرقة ، وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها . والبيزرة ، في سِفْر ؛ والبيطرة ، في سفر جامع ، لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغيره ؛ ورسالة تَكْوُن الجنين ؛ والوصول لحفظ الصحة في الفصول ؛ ورجز الطب ؛ ورجز الأغذية ؛ ورجز السياسة ؛

(١) زيادة عن نفع الطيب (ج ٤ ص ٦٥٢) .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب (ج ٤ ص ٦٥٤) . وفي ت : « والشعر » .

(٣) في نفع الطيب : « الأخبار » .

(٤) كذا في نفع الطيب . وفي ت : « في شعراء » . وفي ط : « في آداب » .

[١١٧] وكتاب الوزارة ؛ ومقامة السياسة ؛ والغيرة على أهل الحيرة ؛ وحمل الجمهور على السّنن المشهور ؛ والزبدة المخوضة ؛ والرد على أهل الإباحة ؛ وسد الذريعة ؛ في تفصيل الشريعة ؛ وخطرة الطيف ؛ ورحلة الشتاء والصيف ؛ وطرفة العصور في دولة بني نصر ، في ثلاثة أسفار ؛ وتقرير الشبه ؛ وتحرير الشبه ؛ واستنزال اللطف الموجود في سر الوجود ؛ وبستان الدول ، وهو غريب في معناه ، في فنون السياسة ، في ثلاثين جزءاً ، ولم يكمل ؛ وأبيات الأبيات ، فيما اختاره رحمه الله من مطالع ماله من الشعر ؛ ورّم الحُلل في نظم الدول ، في غاية من الحلاوة والمذوبة والجزالة ؛ وفُتات الخوان ، ولقط الصوان ، في سفر يتضمن المقطوعات ؛ وعائد^(١) الصلة ، في سفرين ، وصل به صلة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير ؛ وتخليص^(٢) الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات ؛ وجيش التوشيح ؛ ورجز في أصول الفقه ، شرحه ولي الدين بن خلدون ، صاحب التاريخ المشهور ؛ والإكليل الزاهر^(٣) ؛ وكُناسة الدُّكان بعد انتقال الشُكان ؛ وعمل مَنْ طَبَّ لِنَ حَبِّ ؛ والدرر^(٤) الفاخرة ، والألجج الزاخرة ، جمع فيه نظم بن صفوان ؛ والمباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية ؛ وخلع الرّسن في أمر القاضي ابن الحسن ؛ وأعمال الأعلام ، فيمن^(٥) بويغ من ملوك الإسلام ، قبل الاحتلام^(٦) . وأَنف أيضاً في الموسيقى ، ومصنفاته زادت على الخمسين ، وقد ذكرنا نحو الخمسين^(٧) .

(١) في ط : « غاية » .

(٢) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « تلخيص الذهب ... الخ » .

(٣) اسم الكتاب كاملاً كما في نفح الطيب : « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر » .

(٤) كذا في نفح الطيب (ج : ص ٦٥٥) . وفي الأصلين : « والدرة » .

(٥) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « بمن » .

(٦) اسم الكتاب كما في نفح الطيب : « لأعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، وما يجر ذلك من شجون الكلام » .

(٧) تختلف مؤلفات ابن الخطيب المذكورة في نفح الطيب (ج : ص ٦٥٣ — ٦٥٥) عنها هاهنا زيادة ونقصانا .

رأى ابن الأحمر
فيه

ماله :

قال ابن الأحمر :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنيا ؛ وكتب الأرض ، إلى يوم العرض ؛ لا يدافع مدحه في الكتب ، ولا يُجَنَحُ فيه إلى العتب ؛ آخر من تقدّم في الماضي ، وسيف مقولة ليس بالكهام إذ هو الماضي ؛ وإلا فانظر [١١٨] كلام الكتاب الأول من العُصْبَة ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبه ؛ للبراعه ، بالبراعه ؛ وبه أسكت صائلهم ، وما مُحدث بُكرهم وأصائلهم ؛ المشوبة^(١) بالخلالوه ، المُمكنة من مفاصل الطّالّوه ؛ وهو نفيس العُدوتين ، ورئيس الدولتين ؛ بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقليه ؛ لكنّ صلّ لسانه في الهجاء لَسَع ، ونجاد نِظاقه في ذلك اتسع ؛ حتى صدمني ، وعلى القول فيه أقدمني ؛ بسبب هجوه في ابن عمى ملك الصّقع الأندلسي ، سلطان ذلك الوطن في نفر الجنسى ، المعظم في الملوك بالقول الجنى والإنسى ؛ ثم صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير الصادر ؛ لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات ، ولا يجمل به تتبّع العثرات ؛ اتباعاً للشرع في تحريم الغيبه ، وضرباً عن الكريهة ، وإثباتاً لحظوظ النقيبة الرغيبه ؛ فما ضرّه لو اشتغل بذنوبه ، وتأسف على ما شرب من ماء الهجو بذنوبه . وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض ، أرسى عِرْضه هدفاً لسهام الأغراض » . انتهى كلام ابن الأحمر .

وقال غيره :

تقلد^(٢) الكتابة أيام السلطان أبي الحجاج ، في أخريات دولته ، بعد

(١) في ت : « المشربة » .

(٢) أبو الحجاج : هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الأنصارى الخزرجي ، من أمراء المسلمين بالأندلس .

شيخه ابن الجيّاب .

قال ابن الصباغ العقيلي : « كان أبو الحسن بن الجياب رئيس كتاب الأندلس ، وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب اختصاصاً تاماً ، وأورثه رتبته من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور^(١) عمره . وتدرّب بذكائه ، حتى استحق أزمتته ، فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التي لا فوقها من الحظوة ، وبُعد الصيت ، وسعادة البخت .

كلام لابن الصباغ
عنه وعن قوة
بديته

اتفق له يوماً بعد ما عزم النصراني على ورود البلاد^(٢) ، وضائق به الصدور ، [١١٩]
فأنشد ابن الجياب بديهاً بمحضر الكتاب :

هذا العدو قد طغى وقد تعدّى وبغى
[وقال لابن الخطيب : أجز أبا عبد الله ، فأنشده بديهاً]^(٣) :
وأظهر السلم وقد أسرّ حسّواً في أرتفاً
فبلغ الرحمن سيف النصر فيه ما ابتغى^(٤)
ورده ردّ ثمود والفصيل قد رغا
حتى يرى وليمة لكل مرهوب الثغاة^(٥)

(١) في ت : « ظهور » .

(٢) في ت : « البلد » .

(٣) زيادة عن ت .

(٤) رواية هذا البيت في ت :

فأبلغ الرمح بسيف النصر فيه ما ابتغى

(٥) الثغاة (ممدودا وقصر للشعر) : صوت الشاء والموز وما شاكلها ، ويريد به صوت المفترس من الحيوان ، أو صوت الرماح والسيوف .

فقال ابن الجيَّاب : هكذا وإلا فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة .
انتهى كلام ابن الصباغ .

أيام ابن الخطيب
مع السلطان
أبي عبد الله

ولما توفي أبو الحجاج ازدادت ^(١) منزلة ابن الخطيب عند ابنه أبي عبد الله ،
إلى أن كانت عليه الدائرة ، فقبض على ابن الخطيب وعلى أملاكه ، ثم تخلص
منها نكبة مصحفية ^(٢) بشفاعة السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان
الشهير الكبير أبي الحسن المريني ، صاحب المغرب ، وكان ^(٣) تحريك عزائم
السلطان أبي سالم للشفاعة فيه بسعاية الغالب على دولته الحاجب الرئيس الخطيب
الرحال أبي عبد الله بن مرزوق . ولما تخلص ابن الخطيب من هذه الأنشودة
لحق بسلطانه أبي عبد الله ، كما نذكره قريبا ، وورد صُحبته المغرب ، واستقر
أبو عبد الله بن الخطيب بسلا تحت الجراية التامة ، متكلفا خدمة ضريح الملوك
من بني مرين ، ليُمتَّ بذلك إلى صاحب الملوك من بينهم ، كما يقضى له ما بقي
من مآربه ^(٤) بالأندلس ، بشفاعة غير مردودة ؛ وفي أثناء هذه المدة كان
يتطوف ببلاد المغرب مثل مراکش وأنظارها ^(٥) . ثم لما رجع مخدومه لغرناطة
عاد هو في محبة أولاده ، فالتقى إليه مقاليد رياسته ، وأزمة سياسته ، ورقاه إلى الذروة

(١) في ت : « زادت » .

(٢) مصحفية : نسبة إلى المصحف جعفر بن عثمان الحاجب . ويشير إلى نكته على يد ابن
أبي عامر التي انتهت بسجنه في المطبق ثم موته . وإلى هذه النكبة يشير ابن
الخطيب بيته :

تخلصت منها نكبة مصحفية لفقداني المنصور من آل عامر

(انظر نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩ — ٦٤ طبعة أوربا ، ج ٣ ص ٤٢ طبعة بلاق)

(٣) نص هذه العبارة في ت : « وكان من تحريك السلطان أبي سالم للشفاعة فيه بسعاية
الغالب على دولة أبي سالم الحاجب .. الخ » .

(٤) في ط : « أعراضه » .

(٥) هذه العبارة من قوله « وفي أثناء » إلى قوله « وأنظارها » ساقطة في ت .

[١٢٠] التي لا فوقها ؛ ثم سَمَّ الخدمة ، وتسَخَط النِّعمة ، وأُضْمِر الفرار عند ما سمع بأن المَلِك استوثق للسلطان أبي فارس بن أبي الحسن المَرِينِي ، وأنه مَلَك تَمِيمَان ، فأظهر الذهاب إلى تَقْعَد أحوال بعض الثُّغُور ، فكان آخرَ عهد الأندلس به ، وخرج بِتَمِيمَان ، واهتَزَّت دولة السلطان أبي فارس لِقُدومه ، ثم كان من أمره ما سَنَدُ كره .

ولنُورِد بعض تفصيل لما سبق الإمام به ، وما لم يسبق ، فنقول :
قال في كتابه المسمى بِالْمَحَّة البدرية ، في الدولة النصرية ، عند ذكره حَلَع السلطان أبي عبد الله ، وقيام الأمير إسماعيل عليه ، وذلك في شهر رمضان المُعَظَم من عام ستين وسبع مئة ، ما نصه :

تفصيل لتلك
السلطان أبي عبد
الله وذهابه إلى
فاس

« وكان السلطان أبو عبد الله عند تَصَيُّر الأمر إليه قد ألزم أخاه إسماعيل قَسْرًا من قصور أبيه بجوار داره ، مَرُفَهَا ^(١) عليه ، مَتَمَّةً وظائفه له ، وأَسْكَن مئة أمه وأخواته منها ، وقد أَسْتَأْثَرَت يومَ وفاة والده بِمَال جَمٍّ من خزائنه الكائنة في بيتها ، فوجدت السبيلَ إلى السعي لولدها ، فجعلت تُواصل زيارة ابنتها التي عقد لها الوالد مع ابن عمه الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي ^(٢) إمليد ، ابن الرئيس أبي عبد الله المبيع له بِأَنْدَرَش ، ابن الرئيس أبي السعيد جَدِّهم الذي تجمعهم جُرُثُومته ، وَشَمَر الصَّهْر المذكور عن ساعد عَزَمِه وجِدِّه ، وهو [على] ^(٣) ما هو من الإقدام ومُداخلة ذُوْبَان الرجال ، وأَسْتَعَانَ بِمَن آسَفْتَهُ ^(٤) الدولة ، وَهَفَّت به الأطاع ، فتأَلَّف منهم زهاء مئة قَصَدُوا جهة

(١) كذا في ط ونفع الطيب (ج ٣ ص ٤٥) . وفي ت : « صرفها » .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « ابن » .

(٣) زيادة عن نفع الطيب .

(٤) آسَفْتَهُ : أَغْضَبْتَهُ .

من جهات القلعة مُتَسَمِّين شَفَا صَعَبَ المُرْتَقَى ، واتخذوا آلة تُدْرِك ذروته لصعود^(١) [بِنِيَّة] ^(٢) كانت به عن التمام ، وكبسوا حَرَسِيًّا بأعلاه بما اقتضى صُمَاتِهِ ^(٣) ، فاستَوَوْا به ، ونزلوا إلى القلعة سَحَر ^(٤) الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان عام ستين وسبع مئة ، فاستظهروا بالمشاعل والضراخ ، وعالجوا دار الحاجب رضوان ، ففَضُّوا أغلاقها ودخلوها ، فقتلوه بين أهله وولده ، واتهبوا ما اشتملت عليه داره ، وأسرعت طائفة مع الرئيس ، فاستخرجت الأمير المَعْتَقَل إسماعيل وأركبته ، وقُرِعَت الطبول ، ونُودِيَ بدعوته ، وقد كان أخوه السلطان مُتَحَوِّلاً بولده إلى سُكْنَى الجَنَّة المنسوبة للعَرِيف ، لَصِقَ داره ، وهى المَثَل المضروب فى الظل الممدود ، والماء المسكوب ، والنسيم البليل ، يفصل بينها وبين مَعْتَقَل الملك الشَّوْر المنيع ، والخندق المصنوع ؛ فما راعه إلا النداء والعجيج ، وأصوات الطبول ، وهَبَ ^(٥) إلى الدخول إلى القلعة . فألقاها قد أخذت دونه شِعَاهُهَا كُلَّهَا ونقابها . وقذفته الحِراب ، ورشقه المِهْام ، فرجَعَ أدرأجه ، وسدَّه الله فى محل الحَيِّرة ، ودسَّ له عِرْقُ الفحول من قومه ، فامتطى صَهْوَة فرس كان مرتبطاً عنده ، وصار لوجهه فأعيا المتبع ، وصَبَّح مدينة وادى آش ، ولم يشعر حافظ قصبتهما إلا به ، وقد تَوَلَّجَ عليها ، فالتفت به أهلها ، وأعطوه صَفْقَتَهُم بالذَّب عنه ، فكان أملكَ بها ؛ وتجهزت الحشود إلى منازلته ، وقد جدَّد

(١) كذا فى النسخة الخطية من نفح الطيب (المخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٣١٠ تاريخ) . وفى ط والنسخة المطبوعة فى بلاق من نفح الطيب : « لعود » . وفى ت : « لعود » .

(٢) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٣) الصمات (بالضم) : الصمت والسكرت . ولعله يريد : موته .

(٤) فى الأصلين ونفح الطيب : « سحر » .

(٥) كذا فى ط ونفح الطيب . وفى ت : « وذهب » .

أخوه المتغلب على ملكه عقد السلم مع طاغية قشتالة ، باحتياجه إلى سلم المسلمين ،
 لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين من أمته ؛ واغبط به أهل المدينة ، فذبوا
 عنه ، ورضوا بهلاك نعمتهم دونه ، واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام
 التاريخ ، ووصله رسول صاحب المغرب ^(١) [مستنزلاً منها ^(٢)] ، ومستدعياً إلى حضرته
 لما عجز عن إمساكها . وراسل ^(٣) ملك الروم ^(٤) فلم يجد عنده من موعول ،
 فانصرف ثاني يوم عيد النحر المذكور ، وتبعه الجمع الوافر من أهل المدينة خيلاً
 ورجلاً إلى مرّبة من ساحل إجازته . وكان وصوله إلى مدينة فاس ، مُضْحَباً من
 البرّ والكرامة بما لا مزيد عليه ، في السادس من شهر محرم ، فاتح عام واحد
 وستين وسبع مئة ، وركب السلطان للقائه ، ونزل إليه عند ما سلم عليه ، وبالغ [١٢٢]
 في الحفاية به .

وكنّت قد لحقت به مُفْلِتاً من شَرَكِ النكبة التي استأصلت المال ، وأوهمت
 سوء الحال ، بشفاعة السلطان أبي سالم قدّس الله روحه ، فقامت بين يديه
 في المحفل المشهود حينئذ ، وأنشدته :

قصيدة
 ابن الخطيب بين
 يدى السلطان أبي
 سالم يستصرخه
 لولاه

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُحَبَّرَةٍ ذِكْرُ وهل أعشب الوادى ونَمَّ به الزَّهْرُ
 وهل باكَرَ الوسمي داراً على اللوى عَفَتْ آيُهَا إِلَّا التَّوَهُّمُ والذِّكْرُ
 بلادى التي عاطيتُ مشمولَ الهوى بأَ كَنَافِهَا والعِيشُ فِينَانُ نُخْضَرُ
 وجَوَى الذى، رَبِّي جَنَاحِي وَكَرُهُ فَمَا أَنَا ذَا مَالِي جَنَاحَ وَلَا وَكْرُ

- (١) هو السلطان المولى أبو سالم ، كما سيأتى قريباً .
- (٢) كذا في النسخة الخطية من نفح الطيب . وفي ت والنسخة المطبوعة : « عنها » .
 يريد : من وادى آش ، أو عن وادى آش .
- (٢) كذا في نفح الطيب . وفي ت : « وأرسل » ؛
- (٤) ما بين القوسين زيادة عن ت ونفح الطيب .

نَبَتْ بِي لَا عَنْ جَفْوَةٍ وَمَلَالَةٍ وَلَا نَسَخَ الْوَصْلَ الْهَنَىٰ بِهَا هَجْرُ
ولكنها الدنيا قليلٌ متاعها ولذاتها دأبا تزور وتزورُ
فمن لى بقرب العهد منها ودوننا مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله عينا من رآنا وللأسمى ضرام له فى كل جارحة حجر
وقد بددت دُرَّ الدموع يدُ النوى^(١) وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
بكينا على النهر الشروب عشيةً فعاد أجابا بعدنا ذلك النهر
أقول لأطعانى وقد غالها الشرى وآنسها الحادى وأوحشها الزجر
رويدك بعد العسر يسر أن أبشرى بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر
ولله فينا سرٌ غيب وربما أتى النفع من حال أريد بها الضر
وإن تخن الأيام لم تخن النهى وإن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
وإن عرّكت مئى الخطوب مجربا نقابا تساوى عنده الحلو والمر^(٢)
فقد عجمت عودا صليبا على الردى^(٣) وعزما^(٤) كما تمضى المهتدة البثر
إذا أنت بالبيضاء قررت^(٥) منزلى فلا اللخم حل ما حييت ولا الظهر
زجرنا يا إبراهيم برء^(٦) مهمونا فلما رأينا وجهه صدق الزجر
بمنتخب من آل يعقوب كلما دجا الخطب لم يكذب لعزمته فجر
تناقلت الركبائب طيب حديثه فلما رآته صدق الخبر الخبر
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه ولم يتعقب مدّه أبدا جزر

(١) كذا فى ط ونفع الطيب . وفى ت : « الهوى » .

(٢) النقاب : الفطن العالم بالأشياء .

(٣) كذا فى نفع الطيب . وفى ط : « النوى » . وفى ت : « الندى » .

(٤) كذا فى ط ونفع الطيب . وفى ت : « وعرفا » .

(٥) كذا فى النسخة الخطية والمطبوعة من نفع الطيب . وفى الأصاين : « قدرت » .

(٦) كذا فى ت ونفع الطيب . وفى ط : « جل » .

وبأس غدا يرتاع من خوفه الردى
 أطاعته حتى العضم في قنن الربا
 قصدناك يا خير الملوك على النوى
 كففنا بك الأيام عن غلوائها
 وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى
 ولما أتينا البحر يرهب موجه
 خلافتك العظمى ومن لم يدن بها
 ووصفك يهذى المدح قصد صوابه
 دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت
 ومدت إلى الله الأكف ضراعة
 وألبسها النعمى ببيعتك التى
 فأصبح ثغر الثغر يتسم ضاحكا
 وأمنت بالسلم البلاد وأهلها
 وقد كان مولانا أبوك مضرحا (١)
 وكنت خليقا بالإمارة بعده
 وأوحشت من دار الخلافة هالة
 فرد عليك الله حقك إذ قضى
 وقاد إليك الملك رفقا بحلقه

وترفل في أثوابه الفتكة البكر
 وهشت إلى تأميله الأنجم الزهر
 لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
 وقد رابنا منها التعسف والكبر
 ولذنا بذاك العز فانهرزم الدعر
 ذكرنا نذاك العمر (٢) فاحتقر البحر
 فإيمانه لغو وعرفانه نكر
 إذا ضل في أوصاف من دُونَكَ الشعر
 وقد طاب منها السر لله والجهر
 فقال نهى الله قد قضى الأمر
 لها الطائر الميمون والمحتد الحر
 وقد كان مما نابيه ليس يفتقر
 فلا ظبة تعرى ولا زوعة تعرو
 بأنك في أبنائه الولد البر
 على القور لكن كل شيء له قدر
 أقامت زمانا لا يلوح بها (٣) البدر
 بأن تشمل النعمى وينسدل الستر
 وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا

(١) ما بين القوسين ساقط في ط .

(٢) ما بين القوسين ساقط في ط .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب (ج ٣ ص ٤٧ طبعه بلاق) . وفي ت : « لها » .

وزادك بالتمحيص عزاً ورفعاً
وأنت الذى تُدعى إذا دهم الردى
وأنت إذا جار الزمان مُحكمٌ
وهذا ابن نصرٍ قد أتى وجناحه
غريب يُرجى منك ما أنت أهله
فقر يا أمير المسلمين ^(٢) ببيعة ^(٣)
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
وخذ يا إمام الحق ^(٤) بالحق ثاره
وأنت لها يناصر الحق فلتقم
فإن قيل مالٌ مالك الدهر وافرٌ
يُكف بك العادى ويحيا بك الهدى
أعده إلى أوطانه عنك راضياً
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة
سرايمك سهل لا تؤودك كلفة
وما العمر إلا زينة مُستعارة
ومن باع ما يفنى بباقي مخلد

وأجراً ولولا السبك ما عرف ^(١) التبر
وأنت الذى تُرجى إذا أخلف القطر
لك النقض والإبرام والنهى والأمر
مهيضٌ ومن عليك يلتهمس الجبر
فإن كنت تبغى الفخر قد جاءك الفخر
مؤتقة قد حلَّ عروتها الفدر
بياتمرين جاءه العز والنصر
ففى ضمن ما تاتى به العز والأجر
بحق فما زيد يُرجى ولا عمرو
وإن قيل جيشٌ عندك العسكر المجر
ويبنى بك الإسلام ما هدم الكفر
وطوقه نعماك التى مالها حصر
فقد صدّهم عنه التغلب والقهر
تحاولها يمينك ما بعدها خسر
سوى عراض ما إن له فى العلا خطر
تردّ ولكنّ الثناء هو العمر
فقد أتجح المسعى وقد ربح التجر

[١٢٤]

(١) كذا فى ط ونفع الطيب . وفى ت : « لم يعرف » .

(٢) فى ط : « المؤمنين » .

(٣) كذا فى نفع الطيب . وفى الأصلين : « لبيعه » .

(٤) كذا فى ت ونفع الطيب . وفى ط : « الخلق » .

وَمِنْ دُونِ مَا تَبَغَّيْهِ يَا مَلِكَ الْهُدَى
وَرَادُّ وَشُقُّرٍ وَاضْحَاتِ شِيَاتِهَا
وَشُهْبٌ إِذَا مَا ضَمُرْتُ يَوْمَ غَارَةٍ
وَأُسْدُ رَجَالٍ مِنْ مَرَيْنِ خُحَيْفَةٍ
عَلَيْهَا مِنَ الْمَادَى كُلِّ مُفَاضَةٍ
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ هَبُّوا لِكَشْفِ مُلْتَمَةٍ
إِذَا سُئِلُوا أَعْطَوْا وَإِنْ نُورِزُوا سَطَّوْا
وَإِنْ مُدِحُوا اهْتَزَّوْا ارْتِيَا حَاكَائِهِمْ
وَإِنْ سَمِعُوا الْقَوَاءَ فَرُّوْا بِأَنْفُسِ
وَتَبَسُّمٍ مَا بَيْنَ الْوَشِيحِ ثَعُورِهِمْ
أَمْوَلَايَ غَاضَتْ فِكْرَتِي وَتَبَلَّدَتْ
وَلَوْلَا حَنَانٌ مِنْكَ دَارَكْتَنِي بِهِ
فَأَوْجَدْتَنِي مَنَى فَائِتًا أَيْ فَائِتَ
بَدَأْتَ بِفَضْلٍ لَمْ أَكُنْ لِعَظِيمِهِ
وَطَوَّقْتَنِي النُّعْمَى الْمُضَاعَفَةَ الَّتِي
وَأَنْتَ بَتَّتِمِ الصَّنَائِعَ كَافِلٌ
جَزَاكَ الَّذِي أَسْنَى مَقَامَكَ عِصْمَةً
إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِمِدْحَةٍ
وَلَكِنَّا نَأْتِي بِمَا نَسْتَطِيعُهُ

جِيَادُ الْعَذَاكِي وَالْمُحَجَّلَةُ الْغُرُ
فَأَجْسَامُهَا تَبْرُ وَأَرْجُلُهَا دُرُ
مَطْهَمَةٌ غَارَتْ بِهَا الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ
عَمَامُهَا بَيْضٌ وَأَسْـالُهَا سُمرُ
تَدَافِعُ فِي أَعْطَافِهَا اللَّجْجُ الْخُضْرُ
فَلَا الْمُلْتَقَى صَعْبٌ وَلَا الْمُرْتَقَى وَغُرُ
وَإِنْ وَاعِدُوا وَقَوَّأُوا إِنْ عَاهَدُوا بَرُّوْا
نَشَاوَى تَمَشَّتْ فِي مِعَاطِفِهِمْ خمرُ
حَرَامٌ عَلَى هِمَّاتِهَا فِي الْوَعَى الْفَرُّ^(١)
وَمَا بَيْنَ قُضْبِ الدَّوْحِ يَبْتَسِمُ الزُّهْرُ^(٢)
طِيَاعِي فَلَا طَبْعٌ يُعِينُ وَلَا فِكْرُ
وَأَحْيَيْتَنِي لَمْ تَبْقَ عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
وَأَنْشَرْتَ مَيِّتًا ضَمَّ أَشْلَاءَ قَبْرِ
بِأَهْلِ فَجَلِّ اللَّطْفِ وَانْفَرَجَ الصَّدْرُ
يَقِلُّ عَلَيْهَا مَنَى الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ
إِلَى أَنْ يَعُودَ الْجَاهُ وَالْعِزُّ وَالْوَفَرُ
يُفَكُّ بِهَا عَانَ وَيُنْعَشُ مُضْطَرُّ
فَهَيْهَاتَ يُحْصَى الرَّمْلُ أَوْ يُحْصَرُ الْقَطَرُ
وَمَنْ بَذَلَ الْمَجْهُودَ حَقَّ لَهُ الْعُذْرُ

(١) العوراء : الكلمة القبيحة .

(٢) الوشيح : الرماح .

فلا تسأل عن امتعاض وانتقاض^(١)، وسداد أنحاء في التأثر لنا وأغراض،
والله غالب على أمره .

انصراف
السلطان
أبي عبد الله
إلى الأندلس

[١٢٥] وفي صَبِيحَةِ يوم السبت السابع عشر من شهر شَوَّال عام اثنين وستين
وسَبْع مِئَةٍ كان انصرافه إلى الأندلس ، وقد أُلحَّ صاحب قَشْتَالَةِ في طلبه ،
وترجَّحَ الرَّأْيُ على قصده ، فقعد السلطان بِقُبَّةِ العَرَضِ من جنة المصارة ، وبرز
الناس وقد أسمعهم البُريج^(٢) ، واستحضرت البُنود ، والطبول والآلة ، وألبس خِلعة
الملك ، وقيدت له مراكبه فاستقل ، وقد التف عليه كل من جلا عن الأندلس
من لَدُنِ الكائنة في جملة كثيفة ، ورئى من رقة الناس وإجهاشهم وعلو
أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مَظَنَّةُ ذلك سكوناً وعطافاً^(٣) وقرِّبا ،
قد ظلَّه الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشأج الحجة ، إلى كونه مظلوم العقْد ،
منتزع الحق ، فتبعته الخواطر ، وحَمِيَتْ عليه الأنفس ، وانصرف لوجهته ؛ وهو
الآن بِرُنْدَةٍ مستقل بها وبجهاتها ، ومقتنع برسم [سلطنتها^(٤)] وقد قام له برسم
الوزارة الشيخ القائد أبو الحسن علي بن يوسف بن كَمَاشَةِ الحضرمي ، وبكتابته
الفقيه أبو عبد الله بن زَمْرُك ، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتميقظ
للأمور والمعرفة بوجوه المصالح ما لا يُنكر ، كان الله له ولنا بفضلُه .
انتهى كلام ابن الخطيب في اللحة البدرية .

(١) كذا في نفح الطيب المطبوع والمخطوط . وفي الأصلين : « وانتقاض » .
(٢) البريع (كلمة دخيلة وهي كما في دوزي) : بمعنى الصريح ، أو إعلان الحرب ، أو
التهاتف بالتعبئة .
(٣) كذا في النسخة الخطية من نفح الطيب . وفي المطبوعة والأصلين : « وعطافا » .
(٤) زيادة عن نفح الطيب . ومكان هذه الكلمة في ط : « الوزارة » .

وقد عرفت أنه في ذلك التاريخ لم يكن دخل السلطان غرناطة ، ولم يلحق به ابن الخطيب حتى دخلها .

وقد ذكر ولي الدين بن خلدون هذه الواقعة في تاريخه الكبير ، وأحسن سردها ، فقال في ترجمة أيام السلطان أبي سالم مانسه :

خير هذه القصة
كما رواها ابن
خلدون

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة
ومقتل رضوان ومقدمه على السلطان

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين [وسمع مئة ^(١)] ونصب ابنه محمد للأمر ، واستبد عليه رضوان مولى أبيه ، وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته ، فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم ، وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد ، فكان يدعوه سرًا إلى القيام بأمره ، حتى أمكنته فرصة في الدولة بخروج السلطان [١٢٦] إلى بعض مُتَنَزَّهاته برياضه ، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في [بعض] ^(٢) أو شاب جمعهم من الطعام لثورته ، وعمد إلى دار الحاجب رضوان ، فافتحم عليه الدار ، وقتله بين حرّمه وبناته ، وقربوا إلى إسماعيل فرسه فركب ، فأدخلوه القصر ، وأعلنوا بيعته ، وقرعوا طبولهم بسور الحمراء ، وفر السلطان من مكانه بمتنزهه ، فلحق بوادي آش ، وغدا ^(٣) الخاصة والعامة على إسماعيل فبايعوه ، واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمه ، فخلعه لأشهر ^(٤) من بيعته ، واستقل

(١) زيادة عن نفح الطيب .

(٢) زيادة عن تاريخ ابن خلدون (ج ٧ ص ٣٠٦ طبعة بلاق) .

(٣) السلام من قوله « وغدا » إلى قوله « بوادي آش » ساقط في تاريخ ابن خلدون .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « فخلعه لشمهرين » .

بسلطان الأندلس . ولما لحق السلطان أبو عبد الله محمد بوادى آش ، بعد مقتل حاجبه رضوان ، واتصل الخبرُ بالسلطان المولى أبى سالم ، امتنع لمهلك رضوان ، وخلع السلطان رعيًا لما سلف له فى جوارهم ، وأزعج لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه ، فوصل إلى الأندلس ، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادى آش إلى المغرب ، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله ابن الخطيب ، كانوا اعتقالوه لأول أمرهم ، لما كان رديفا للحاجب رضوان ، ورُكنا لدولة المخلوع ، فأوصى المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه ؛ ولحق مع الرسول أبى القاسم الشريف بسلطانه المخلوع بوادى آش للإجازة إلى المغرب ، وأجازَ لندى القعدة من سنته ، وقدم على السلطان بفاس ، وأجلّ قدومه ، وركب للقائه ، ودخل به إلى مجلس ملكه ، وقد احتفل ترتيبه وغصّ بالمشيخة والعلية ، ووقف وزيره ابن الخطيب ، فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه ، ويستجته لمظاهرته على أمره ، واستعطف واسترحم بما أبكى الناس ، شفقة له ورحمة .

ثم سرّد ولّى الدين بن خلدون القصيدة التى قدمنا ذكرها إلى آخرها ، قال ^(١) : ثم انقض المجلس ، وانصرف ابن الأحمر إلى منزله ^(٢) وقد فرشت له القصور ، وقرّبت الجياد بالمراكب الذهبية ، وبعث إليه بالسكسى الفاخرة ، ورُتبت الجرايات له ولمواليه من المغلوجى ^(٣) ، وبطانته من الصنائع ، وحفظ عليه رسم سلطانه فى الراكب والراجل ، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة ^(٤) ،

(١) فى ت : « ثم قام ثم انقضى ... الخ » .

(٢) كذا فى ت ونفح الطيب وتاريخ ابن خلدون . وفى ط : « منزله » .

(٣) يريد المغلوجين ، أى الموالى من النصارى . (عن تكملة المعجمات لدوزى) .

(٤) فى تاريخ ابن خلدون : « الأداة » .

أدبا مع السلطان ، واستقر في مُجَلَّتِهِ إلى أن كان من لحاقه بالأندلس . وارتجاع
مُلْكِهِ سَنَةً ثَلَاثَ وَسِتِينَ ، مَا نَحْنُ نَذْكُرُهُ .

اتَّهَمَى كَلَامَ ابْنِ خَلْدُونِ ، وَفِيهِ بَعْضُ مَخَالَفَةِ يَسِيرَةِ كَلَامِ ابْنِ الْخَطِيبِ فِي
الْلَمَحَةِ الْبَدْرِيَّةِ .

وَلَا بَدَّ أَنْ نَسَرِدَ كَلَامَ ابْنِ خَلْدُونِ فِي شَأْنِ ابْنِ الْخَطِيبِ ، إِذْ ذَكَرَهُ فِي تَرْجُمَةِ
السُّلْطَانِ أَبِي فَارِسِ ابْنِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ الْمُرِينِيِّ بِمَا نَصَهُ :

شيء عن أحوال
ابن الخطيب كما
رواه ابن خلدون

الْخَبْرُ عَنْ قُدُومِ الْوَزِيرِ ابْنِ الْخَطِيبِ عَلَى السُّلْطَانِ بِتِلْكَ
نَازِعَاتِهِ إِلَيْهِ عَنْ سُلْطَانِهِ ابْنِ الْأَحْمَرِ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ

أَصْلُ هَذَا الرَّجُلِ مِنْ لَوْشَةَ ، عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ غَرْنَاطَةِ ، فِي الشَّمَالِ مِنَ الْبَسِيطِ
الَّذِي فِيهِ سَاحَتُهَا ، الْمُسَمَّى بِالْعَرُوجِ ، عَلَى وَادِي شَنْجِيلٍ ، وَيُقَالُ شَنْبِيلٍ ^(١) ، الْمَحْتَرَقُ ^(٢)
فِي ذَلِكَ الْبَسِيطِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ ، كَانَ لَهُ بِهَا سَلْفٌ مُعَدُّودٌ فِي وَزَرَائِهَا ،
وَانْتَقَلَ أَبُوهُ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى غَرْنَاطَةِ ، [وَاسْتُخْدِمَ لِلْمُلُوكِ بَنِي الْأَحْمَرِ ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى
مَخَازِنِ الطَّعَامِ ، وَنَشَأَ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ بِغَرْنَاطَةِ ^(٣)] وَقَرَأَ وَتَأَدَّبَ عَلَى مَشِيخَتِهَا ، وَاخْتَصَّ
بِصَحْبَةِ الْحَكِيمِ الْمَشْهُورِ بِحَبِيبِ بْنِ هُذَيْلٍ ، وَأَخَذَ عَنْهُ الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّةَ ، وَبَرَزَ فِي
الطَّبِّ ، وَانْتَحَلَ الْأَدَبَ ، وَأَخَذَ عَنْ أَشْيَاخِهِ ، وَامْتَلَأَ حَوْضُ ^(٤) السُّلْطَانِ مِنْ نَظْمِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلَيْنِ وَابْنُ خَلْدُونِ . وَظَاهِرُ أَنَّ السَّكْمَتَيْنِ مُحَرَّفَتَانِ عَنْ « شَنْبِيلٍ »
وَهُوَ اسْمُ نَهْرٍ غَرْنَاطَةِ الْمَشْرِيقِ ، وَقَدْ وَلَعَ الشَّعْرَاءُ بِوصفِ هَذَا الْوَادِي وَتَفْصِيلِهِ عَلَى
النِّيلِ بِزِيَادَةِ الشَّيْنِ ، وَهِيَ أَلْفٌ مِنَ الْعَدَدِ ، أَيْ أَنَّهُ يَفْضُلُ النَّيْلُ بِأَلْفِ ضِعْفٍ .
(رَاجِعُ نَفْحِ الطَّيْبِ ج ١ ص ٩٤ طَبْعَةُ أَوْرُبَا وَالْإِحَاطَةُ ج ١ ص ٢٦) .

(٢) فِي تَارِيخِ ابْنِ خَلْدُونِ : « الْمُنْحَرَقُ » .

(٣) هَذِهِ الْعِبَارَةُ سَاقِطَةٌ فِي ط .

(٤) كَذَا فِي تَارِيخِ ابْنِ خَلْدُونِ . وَفِي الْأَصْلَيْنِ وَنَفْحِ الطَّيْبِ : « وَامْتَلَأَ مِنْ حَوْلِ
السُّلْطَانِ نَظْمَهُ » .

ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ في الشعر والترسيل ، بحيث لا يجارى فيهما ،
وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره ^(١) ، وملأ الدنيا بمدائح ،
وانتشرت في الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبتته في ديوان الكتاب
ببابه ، مرءوسا بأبي الحسن بن الجيآب ، شيخ العدوتين في النظم والنثر ، وسائر
العلوم الأدبية ، وكاتب السلطان بفرنطة من لدن أيام محمد الخلوع من سلفه ، [١٢٨]
عند ما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبد عليه ، كما مر في أخبارهم . فاستبد
[ابن الجيآب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف
سنة تسع وأربعين وسبع مئة ، فولى السلطان أبو الحجاج يومئذ محمد ^(٢)
ابن الخطيب رياسة الكتاب ^(٣) ببابه ، مُنْتَهَاً بالوزارة ، ولقّبها بها ، فاستقل
بذلك ، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ،
ثم داخله السلطان في تولية العمال على يده بالمشارطات ، فجمع له بها أموالا ،
وبلغ به في الخالطة ^(٤) إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله ؛ وسفر عنه إلى السلطان
أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة ، معزيا بأبيه السلطان أبي الحسن ، فحلى في
أغراض سفارته . ثم هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين ، عدا عليه
بعض الزعانف [يوم الفطر بالمسجد] ^(٥) في سجوده للصلاة ، وطعنه فأشواه ،
وفاظ لوقته ^(٦) وتعاورت سيوف الموالى العلوجي ^(٦) هذا القاتل ، فزقه أشلاء ،

(١) هذه الكلمة : « لعصره » . ساقطة في ت وتاريخ ابن خلدون .

(٢) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الكتابة » .

(٤) كذا في ت والنسخة الخطية من نفع الطيب . وفي ط وابن خلدون والنسخة

المطبوعة من نفع الطيب : « في الخالصة » .

(٥) هذه العبارة : « وفاظ لوقته » ساقطة في ت . وفاظ : مات .

(٦) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

وبويع ابنه محمد [بالأمر] ^(١) لوقتته ، وقام بأمره مولاهم رضوان ، الراسخ القدم في قيادة عساكرهم ، وكفالة الأصغر من ملوكهم . واستبد بالدولة ، وأفرد ابن الخطيب بوزارته . كما كان لأبيه ، [واتخذ لكتابته غيره] ^(٢) وجعل ابن الخطيب رديفا له في أمره ^(٣) ، ومشاركا في استبداده معه ، فجرت الدولة على أحسن حال ، وأقوم طريقة ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبي عنان ، مستمدين له على عدوهم الطاغية ، على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه ، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وقياداتها ، واستأذنه في إنشاد شعر ^(٤) قدّمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى لنا وفي الحجل كفك المطر
والناس طرّا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمّروا
وجملّة الأمر أنه وطن في غير عليك ما له وطّر ^(٥)
ومن به مذ ^(٥) وصلت حبلهم ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهتت بهم بأنفسهم فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، وأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس :

(١) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

(٢) كذا في ط وتاريخ ابن خلدون . وفي ت ونفع الطيب : « رديفا لرضوان في أمره » .

(٣) في تاريخ ابن خلدون : « شيء من الشعر » .

(٤) هذا البيت ساقط في تاريخ ابن خلدون .

(٥) كذا في نفع الطيب وتاريخ ابن خلدون . وفي الأصلين : « قد » .

ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان ، وردّهم بجميع ما طلبوه . وقال شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف ، وكان معه في ذلك الوفد : لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا .

ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين ، ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان ، شرّكه في جدّه الرئيس أبي سعيد ، وتحيّن خروج السلطان إلى منزله خارج الحمراء ، وتسوروا دار الملّك المعروفة بالحمراء ، وكبس رضوان في بيته ، فقتله ونصب الملّك إسماعيل بن السلطان أبي الحجاج ، بما كان صهره على شقيقته ، وكان معتقلاً بالحمراء ، فأخرجه ، وباع له ، وقام بأمره مستبداً عليه ، وأحسن السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالباستان ، فركب ناجياً إلى وادي آش ، وضبطها ، وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملّك آبائه بالمغرب ، وقد كان مشواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس ، واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب ، وضيق عليه في محبسه ، وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودة استحكمت أيام مُقامه بالأندلس ، وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم ، فزين له استدعاء هذا السلطان الخلع من وادي آش ، يعدّه زبوناً^(١) [١٣٠]

على أهل الأندلس ، ويكفّ به عادية القرابة المرشحين هنالك ، متى^(٢) طمحووا إلى ملك المغرب ، فقبل ذلك منه ، وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه ، وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني ، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب ، وحلّ مُعتقله ، فأطلق ؛ وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش ، وسار في ركاب سلطانه ، وقدِموا على

(١) زبوناً ، أى حرباً وقوة . (انظر تكملة المعجمات لدوزي مادة زن) .

(٢) كذا في فتح الطيب . وفي ط : « كما » . وفي ت : « بمن » .

السلطان أبي سالم ، فاهتزَّ لقدم ابن الأحمر ، وركب في الموكب لتلقيه ، وأجلسه
إزاء كرسيه ، وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مر ، يستصرخ السلطان لنصره ،
فوعده ، وكان يوماً مشهوداً ، وقد مر ذكره ، ثم أكرم مشواه ، وأرغد نزلَه ،
ووفر أرزاق القادمين في ركابه ، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجِراية والإقطاع .
ثم استأنس^(١) واستأذن السلطان في التجوال بمجبات^(٢) مراكش ، والوقوف على
آثار الملِك بها ، فأذن له وكتب إلى العمَّال بإتحافه ، فتباروا^(٣) في ذلك ،
وحصلَ منه على حظ . وعند ما مر بسلا إثر قفوله من سفره ، دخل مقبرة الملوك
بشالة ، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن ، وأنشد قصيدة على روى الراء
[الموصولة]^(٤) ، يرثيه ويستجيره في استرجاع ضياعه بفرناطة ، مطلعها :

إن بان منزله وشطَّت دارُهُ قامت مقامَ عِيانه أخبارُهُ
قسَمَ زمانك عِبرةً أو عِبْرَةً هذا ثراه وهذه آثاره

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة ، فشَفَّعوه ،
واستقر هو بسلا ، مُنْتَبِذاً عن سُلْطانه طول مُقامه بالعدوة . ثم عاد السلطان محمد
الخلوعُ إلى مُلكه بالأندلس سنة ثلاث وستين ، وبعث عن مَخْلَفه بفاس من
الأهل والولد ، والقائم بالدولة يومئذ عمرُ بن عبد الله بن عليّ ، فاستقدم ابن
الخطيب من سلا ، وبعثهم لنظره ، فسُرَّ السلطان بقدومه ، وردَّه إلى منزلته ،
كما كان مع رضوان كافله ، وكان عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة وابن
أشياخهم قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه ، عندما أحسَّ بالشرِّ من الرئيس

(١) في ط ونجح الطيب : « استأنس » .

(٢) في تاريخ ابن خلدون : « في التحول إلى جهات . . . الخ » .

(٣) في تاريخ ابن خلدون : « فتبادروا » .

(٤) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

صاحب غرناطة ، وأجاز يحيى من هنالك إلى العُدوة ، وأقام عثمانُ بدار الحَرْب ، فصَحِبَ السلطانُ [في مَثْوَى اغترابه هنالك ، وتقلَّب في [مذاهب] ^(١) خدمته ، وانحرفوا عن الطاغية بعد ^(٢) ما يئسوا من الفتح على يده ، فتحوَّلوا عنه إلى ثُغُور بلادهم ، وخاطبوا [الوزير] ^(٣) عمر بن عبد الله في أن يَمَكِّنهم من بعض الثُغُور الغربية ^(٤) التي لطاغيتهم ^(٥) بالأندلس ، يرتقبون منها الفتح ، وخاطبني السلطانُ الخُلُوع في ذلك ؛ وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله أَدَمَّة مَرَعِيَّة ، وخاصَّة متأكِّدة ، فوفِّيت ^(٦) للسلطان بذلك من عُمر بن عبد الله ، وسَمَلته على أن يَرُد عليه مدينة رُنْدَة ، إذ هي من ثُراث سَلَفه ، فقبِلَ إشارتي في ذلك ، وتَسَوَّغَهَا السلطانُ الخُلُوع ، ونزل بها عثمانُ بن يحيى في جُمَلته ، وهو المَقْدَم في بطانته ، ثم غزوا منها مالقة ، فكانت ركابا للفتح ، وملَكها السُّلطانُ ، واستولى بعدها على دار ملكه بغرناطة ؛ وعثمانُ بن يحيى متقدم القوم في الدولة ، عريق في الخالصة ، وله على السلطان دَالَّة ، واستبداد على هواه . فلما وصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده ، وأعادَه إلى مكانه في الدولة ، من عُلُوِّ يده ، وقبول إشارته ، أدركته الغيرة من عثمان ، ونكِر على السلطان الاستكفاء به ، و [أراه] ^(٧) التخوف من هؤلاء الأعياض ^(٨) على ملكه ، فحذَرَه السلطان ، وأخذ في التدبير عليه ، حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين ، وأودعهم ^(٩) المُطْبِق ، ثم غرَّبهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب

(١) زيادة عن نفح الطيب .

(٢) كذا في تاريخ ابن خلدون . وفي الأصلين : « عند » .

(٣) كذا في نفح الطيب وابن خلدون . وفي الأصلين : « الغربية » .

(٤) في تاريخ ابن خلدون . « أطاعتهم » .

(٥) زيادة عن ت ونفح الطيب .

(٦) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الأعياض » .

(٧) في ط : « وأودعهم » .

الجو ، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بينه بُدْمَانَه وأهل خَلْوَتَه ، وانقرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، [١٣٢] وعَلِقَتْ به الآمال ، وَغَشِيَ بَابَه الخاصة والكافّة ، وَغَصَّتْ به بِطَانَةُ السلطان وحاشيته ، فتفننوا^(١) في السّعايات فيه ، وقد صُمِّمَ السلطان عن قبُولها ؛ ونَمَى الخبر بذلك إلى ابن الخطيب ، فشمّر عن ساعده في التفويض ، واستُخْدِمَ للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، ملك العُدوة يومئذ ، في القبض على ابن عمه عبد الرحمن بن أبي يَفْلُوسَن ابن السلطان أبي عليّ ، كانوا قد نَصَبُوهُ شيخاً على الغزاة بالأندلس ، لما أجاز من العُدوة بعد ما جاسَ خِلَالها ، لَطَلَبَ الملك ، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية ، وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله ، القائم حينئذ بدولة بني مَرِين ، فاضطرّ إلى الإجازة إلى الأندلس ، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماساي ، ونزلوا على السلطان المخلوع عام سبعة وستين ، فأكرم تَرْكُهُم ، وتَوَقَّى عليّ بن بدر الدين شيخ الغزاة ، فقدم عبد الرحمن مكانه . وكان السلطان عبد العزيز قد استبد بملكه بعد مقتل الوزير عمر بن عبد الله ، فقصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك ، وتوقع انتقاض أمره منهم ، ووقف على مخاطبات من عبد الرحمن يسرّ بها في بني مَرِين ، فجزع لذلك ، ودخله ابن الخطيب في اعتقال ابن يَفْلُوسَن وابن ماساي ، وإراحة نفسه من شغبهم ، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب له العهد بخطه ، على يد سفيره إلى الأندلس وكتبه أبي يحيى بن أبي مدين^(٢) ؛ وأغرَى ابن الخطيب سُلْطَانَه بالقبض على ابن يفلوسن وابن ماساي ، فقبض عليهم [١٣٣] واعتقلهم ، وفي خلال ذلك استحكمت نُفُورَةُ ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة ،

(١) في تاريخ ابن خلدون : « فتوافقوا على ... الخ » .

(٢) العبارة من قوله : « جزع » إلى هنا ساقطة في تاريخ ابن خلدون .

من القدح فيه والسعاية ، وربما تخيل أن السلطان مال إلى قبورها ، وأنهم قد أحفظوه عليه ، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب ، واستأذن السلطان في تفقد الثغور [الغربية] ^(١) ، وسار إليها في لُمة من فرسانه ، ومعه ابنه عليّ الذي كان خالصة للسلطان ، وذهب لطِيبته ، فلما حاذى جبل الفتح ، فرضة الجاز إلى العدو ، مال إليه ، وسرح إذنه بين يديه ، ونخرج قائد الجبل لتلقيه . [وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك ، وجهز له الأسطول من حينه ، فأجاز إلى سبتة ، وتلقاه ولايتها بأنواع التكرمة ، وامتنال المراسم ، ثم سار لقصد السلطان ، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين ، بمقامه تلمسان ، فاهتزت له الدولة ، وأركب السلطان خاصته لتلقيه] ^(٢) ، وأحلّه من مجلسه بمحلّ الأمن والغبطة ، ومن دولته بمكان التنويه والعزة ، وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في أهله وولده ، فجاء بهم على أكمل حالات الأمن والتكرمة ، ثم أكثر ^(٣) المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وإبداء ما كان كامناً في نفسه من سقطاته ، وإحصاء معايبه ، وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة ، أحصوها عليه ونسبوها [إليه] ^(٤) ، ورُفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن بن الحسن فاسترعاها ، وسجّل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه ، وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجّلات ، وإمضاء حكم الله فيه ، فصمّ عن ذلك ، وأنف لذمته أن تُخفّر ، ولجواره أن يُردّ ، وقال لهم : هلا انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ! وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارى ؛ ثم وفرّ

(١) زيادة عن تاريخ ابن خلدون .

(٢) زيادة عن ت وابن خلدون ونفع الطيب .

(٣) في ابن خلدون : « لفظ » .

الجَزَاية والإِقطاع له ولبنيه ، ولمن جاء من أهل الأندلس في جملة . فلما هلك
السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين ، ورجع بنو مرين إلى المغرب ، وتركوا [١٣٤]
تِلْغَسَان ، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي ، القائم بالدولة ، فنزل
بفاس ، واستكثر من شراء الضياع ، وتأنق في بناء المساكن ، واغترس
الجنات ، وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى ،
واتصلت حاله على ذلك ، إلى أن كان ما ذكره .
انتهى كلام ابن خلدون وأكثره بلفظه .

قلت : وقد وقعت على كتاب للقاضي أبي الحسن بن الحسن المذكور يخاطب
به ابن الخطيب ويعظه ، ويشير إلى ما اشتغل به من البنيان ، وفيه ما بين كلام
ابن خلدون السابق وزيادة ، وما يدل على ما ذكره ابن خلدون من أنه سَجَّلَ
عليه بأمر منكورة ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وقد أسقطت بعضه اختصارا ،
ونص ما تعلق به الغرض قوله يخاطب الوزير ابن الخطيب :

كتاب القاضي
أبي الحسن إلى
ابن الخطيب

فشرعتم في الشراء ، وتشديد البناء ؛ وتركتم الاستعداد لهادم الذات ،
هيهات هيهات ؛ تبنون مالا تسكنون ، وتدخرون مالا تأكلون ، وتؤملون مالا
تدركون ؛ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مُشَيَّدة ، فأين للمهرب
مما هو كائن ! ونحن إنما نتقلب في قدرة الطاب ، شَرَقَمَ أو غَرَبَمَ ، [والأيام
تتقاضى الدَّينَ ، وتنادى بالنفس الفرارة إلى أين إلى أين ! ونترك الكلام مع
الناقد] ^(١) فيما ارتكبه من تركيته نفسه ، وعدَّ ما جلبه من مناقبه ، ما عدا ما هدَّدَ
به من حديد لسانه ، خشية اندراجهِ في نَمَطٍ من قال فيه رسول الله صلى الله عليه

(١) ما بين الفوسين زيادة عن ت ونفع الطيب .

وسلم : « إن من شر الناس من تركه الناس اتقاء فُحْشه » ^(١) . ولا غيبة فيمن ألقى جلباب الحياء عن وجهه ؛ و ترجمه على ما أبداه وأهداه من العيوب التي نسبها لأخيه ، واستراح على قوله بها فيه ، ونذكره على طريقة نصيحة الدين ، بالحديث الثابت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : [١٣٥] « أتدرون من المُفْلِس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ! فقال : إن المُفْلِس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعْطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » . ويعلم الله أن معنى هذا الحديث الثابت عن النذير الصادق ، هو الذي حملني على نصحتكم ومُراجعتكم في كثير من الأمور ، منها الإشارة عليكم بإذهاب عين ما كتبتم به في التاريخ وأمثاله ، فإنكم نفعتم بما وقعتم فيه من الغيبة المحرمة أحياء وأمواتاً ، لغير شيء ، حصل بيدكم ، وضررتم أنفسكم بما رتبتم لهم من المطالبات بنص الكتاب والسنة قبلكم ، والرضا بهذه الصفقة الخاسرة أمر بعيد من الدين والعقل . وقد قلت لكم غير ما مرة عن أطراسكم المسودة ، بما دعوتهم إليه من البدعة ، والتلاعب بالشريعة : إن حقها التخريق والتحريق ، وإن من أطراها لكم فقد خدع نفسه وخدعكم ، والله الشهيد بأنني نصحتكم وما غششتكم ، وليس هذا القول وإن كان ثقيلاً عليكم ، بمخالف كل الخالفة لما ذنبتم ^(٢) به من تقدم المواجبة بالملاطفة ، والمعاملة بالمكارمة ، فليست المداراة بقادحة في الدين ، بل هي محدودة

(١) الحديث كما في الجامع الصغير للسيوطي (ج ١ ص ٢٢٨) : « إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه » .

(٢) كذا في الأصلين ونفح الطيب . ولعلها محرفة عن « زنتم به » ، أى ظنتم به .

في بعض الأحوال ، مستحسنة على ما بينه العلماء ، إذ هي مقاربة^(١) في الكلام ،
أو مجاملة بأسباب الدنيا ، لصلاحها أو صلاح الدين ، وإنما المذموم المداهنة ، وهي
بذل الدين لجرد الدنيا ، والمصانعة به لتحصيلها ؛ ومن خالط للضرورة مثلكم
وزايله بأخلاقه ، ونصحته مخاطبة ومكاتبة ، واستدل له بكتاب الله وسنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم على صحة مقالته ، فقد سَلِمَ والحمد لله من مداهنته ، وقام لله [١٣٦]
بما يجب عليه في حقكم من التحذير والإنكار ، مع الإشفاق والوجل . وأكثرتكم
في كتابكم من المن بما ذكركم أنكم صنعتكم ، وعلى تقدير الموافقة لكم ، ليتكم فعلتم
فصلنا من المعرفة وسلمتم ، وجلّ القائل سبحانه : « قول معروف ومغفرة خير من
صدقة يتبعها أذى والله غني حليم » . وقلما شاركتكم أتم في شيء إلا بأعراض حاصلة
في يديكم ، أو لأغراض دنيوية خاصة بكم ، فالللام إذاً في الحقيقة إنما هو متوجه
إليكم . وأما ما أظهرتم بمقتضى حركاتكم وكلامكم ، من التندم^(٢) على فراق محلكم ،
والتعلل بأخبار قطركم وأهلكم ، فتناقض منكم ، وإن كنتم فيه بغدركم^(٣) :
أتبكي على لبي وأنت تركتها فكنت كآتٍ حنّفه^(٤) وهو طائع
وما كل ما منتك نفسك خالياً^(٥) تلاقٍ ولا كلّ الهوى أنت تابع
فلا تبكين في إثر شيء ندامة إذا نزعته من يديك النوازع^(٦)

(١) في النسخة الخطيبة من نفح الطيب . « مقاربة » .

(٢) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « الشؤم » .

(٣) كذا في نفح الطيب المطبوع والخطي . وفي الأصلين : « بغدركم » .

(٤) كذا في الأغاني (ج ٩ ص ٢١٧ طبعة دار الكتب) . وفي الأصلين ونفح
الطيب : « غيه » .

(٥) كذا في الأغاني . وفي الأصلين ونفح الطيب : « مخليا » .

(٦) البيت كما في الأغاني :

فلا تبكين في إثر لبي ندامة وقد نزعته من يديك النوازع
وهذه الأبيات من شعر لقيس بن ذريح في زوجته لبي بنت الحباب الكعبية .

وعلى أن تأسفكم^(١) لما وقعتم فيه من الغدر لسلطانكم ، والخروج للضرورة غالبية عن أوطانكم ، من الواجب بكل اعتبار عليكم ، سيما وقد مددتم إلى التمتع لغيرها عينيكم . ولو لم يكن لهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة إلا ما خست به من بركة الرباط ، ورحمة الجهاد ، لكفاهها غمراً على ما يجاورها من سائر البلاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه » ، وقال عليه السلام : « الرّوْحَةُ بروحها العبد في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما فيها » . وعلى كل تقدير فإذا لم يكن يا أخى فراركم من الأندلس إلى الله وحده بالتوبة المكتملة والاستغفار ، مع الانقطاع في أحد المواطن المكرومة المعظمة بالإجماع ، وهى طيبة أو مكة أو بيت المقدس ، فقد خسرتم صفقة رحلتكم ، وتبين أن لغير وجه الله العظيم كانت نية هجرتكم ؛ اللهم إلا إن كنتم قد لاحظتم مسألة الرجل الذى قتل مئة نفس ، وسأل أعلم أهل الأرض ، فأشار عليه بعد إزماع التوبة بمفارقة المواطن التى ارتكب فيها الذنوب ، واكتسب بها العيوب ؛ فأمر^(٢) آخر ، مع أن كلام العلماء فى هذا الحديث معروف^(٣) ؛ ويقال لكم من الجواب الخاص بكم : فعليكم إذاً بترك القيل والقال ، وكسر حربة الجدال والقتال ، وقصر ما بقى من مدة العمر على الاشتغال بصالح الأعمال . ووقعت فى مكتوبكم كلمات أوردها النقد فى قالب الاستهزاء والازدراء ، والجهالة بمقادير الأشياء ، منها : ربح صرصر ، وهو لغة القرآن ، وقاع قرقير ، وهو لفظ سيد العرب والعجم محمد صلى الله عليه وسلم . ثبت فى الصحيح فى باب التغليظ فيمن لا يؤدى زكاة ماله ، « قيل : يا رسول الله ، والبقر والغنم ؟ قال : ولا صاحب بقر ولا غنم

(١) فى ت : « أسفكم » .

(٢) انظر القرطبي (ج ٦ ص ١٥٣ طبعة دار الكتب) عند تفسير قوله تعالى :

« أو ينفوا من الأرض » .

لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بَطِّحَ لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها^(١). الحديث الشهير. قال صاحب المعلم^(٢):
بَطِّحَ لها بقاع قرقر، أى ألقى على وجهه، والقاع: المستوى من الأرض، والقرقر: كذلك؛ هذا ما حضر من الجواب. وبقي في مكتوبكم حشو كثير من كلام الإقذاع، وفحش بعيد من الحشمة والحياء، رأيت أن من الصواب الإضراب عن ذكره، وصون اليد عن الاستعمال فيه، والظاهر أنه إنما صدر عنكم وأتم بحال مَرَضٍ، فلا حرج فيه عليكم إن شاء الله، أجلكم، ومكن أمنكم، وسكن وجلكم، ومنه جل اسمه^(٣) نسأل لى ولكم حسن الخاتمة، والفوز بالسعادة الدائمة، والسلام الأتم يعتمدكم، والرحمات والبركات من كاتبه على بن عبد الله بن الحسن، وفقه الله.

وذلك بتاريخ أخريات جمادى الأولى من عام ثلاثة وسبعين وسبع مئة.

وقيد رحمه الله في مُدْرَج طى هذا الكتاب ما نصه:

يا أخى، أصلحني الله وإياكم، بقى من الحديث شيء، الصواب الخروج [١٣٨] عنه لكم، إذ هذا أوانه، وتأخير البيان عن وقت الحاجة فيه ما فيه، وليكن البناء بعد أن كان على أصل صحيح بحول الله، وحاصله:

أنكم عددتم ما شاركتكم فيه بحسب الأوقات، وقطعتم بنسبة الأمور كلها لأنفسكم^(٤)، وأنها إنما صدرت عن أمركم وبإذنيكم، من غير مشاركة فى شيء منها لكم، ثم منتم بها المن القبيح، المبطل لعمل بركم، على تقدير

(١) ارجع إلى مسلم والبخارى في باب الزكاة في لفظ الحديث روايات.

(٢) لعله يريد: المعلم بفوائد مسلم، وهو شرح على صحيح مسلم للإمام أبى عبد الله محمد التميمي.

(٣) في النسخة الخطية من نفح الطيب: «ومنه سبحانه نسأل... الخ».

(٤) في نفح الطيب: «إلى أنفسكم».

التسليم في فعله لكم ، ورميتم غيركم بالتقصير في حاله كله ، طريقة من يبصر القذى في عين أخيه ويدع الجذع في عينه ، وأقصى ما تسنى للمحب أيام كونكم بالأندلس ، تقلد كلفة قضاء الجماعة ، وما كان إلا أن وليتها بقضاء الله وقدره ، فقد تبين لكل ذى عقل سليم أنه لا موجد إلا الله ، وإذا كان كذلك كان الخير والشر والطاعة والمعصية حاصلًا بإيجاده سبحانه وتخليقه وتكوينه ، من غير عاضد له على تحصيل مراده ولا معين ، ولكنه ، جلّت قدرته ، وعد فاعل الخير بالثواب فضلا منه ، وأوعد فاعل الشر بالعقاب عدلا منه ، وكأني بكم تضحكون من تقرير هذه المقدمة ، وما أحوجكم إلى تأملها بعين اليقين ، فكابدت أيام تلك الولاية النكد^(١) من النكايّة ، باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمر الدينيّة ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك في جملة مسائل ، منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة بعد تقصّي موجداته ، على كره منكم ؛ ومنها مسألة ابن أبي العيش المثقف^(٢) في السجن على آرائه المضلة ، التي كان منها دخوله على زوجه إثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحلمتم أحد ناسكم تناول إخراجه من الثقف^(٣) ، من غير مبالاة بأحد ؛ ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم توجهت عليه مطالبة بدم قتيل ، وسبق المدعى عليه للذبح^(٤) بغير سكين ، فما وسعني بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة ، فأنقمت لذلك ، وسجنتم الطالب^(٥) وليّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور ، إلى غير ذلك مما لا يسع الوقت شرحه ، ولا يجمل بي ولا بكم

[١٣٩]

(١) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « النكرة » .

(٢) المثقف : المسجون . (عن تكملة المعجم لدوزي) .

(٣) الثقف : الحبس والسجن . (عن دوزي) .

(٤) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الذبيح » .

(٥) في النسخة الخطية من نفع الطيب : « الطالب » .

ذكره . والمسألة الأخرى أتم توليتم كبرها ، حتى جرى فيها القدر بما جرى من الانفصال ، والحمد لله على كل حال . وأما الرمي بكذا وكذا مما لا علم لنا بسببه ، ولا عذر لكم من الحق في التكلم به ، فشىء قلما يقع مثله من البهتان ، ممن كان يرجو لقاء ربه ، وكلامكم في المدح والمجوهو عندى من قبيل اللغو الذى نمر به كراما ، والحمد لله فكثروا^(١) أو أقلوا من أى نوع شئتم ، أتم وما ترضونه لنفسكم^(٢) ، وما فُهِتْ لكم بما فُهِتْ من الكلام ، إلا على جهة الإعلام ، لا على جهة الانفعال ، لما صدر أو يصدر عنكم من الأقوال والأفعال ، فذهبي غير مذهبكم ، وعندى ما ليس عندكم .

وكذلك رأيتم تكثرون في مخاطبتكم من لفظ الرقية في معرض الإنكار لوجود نفعها ، والرمي بالمنقصة والحق لمستعملها ، ولو كنتم قد نظرت في شىء من كتب السنة ، وسير الأمة المسلمة ، نظر مصدق ، لما وسعكم إنكار ما أنكرتم ، وكتبه بخط يدهم ، فهو قادح كبير في عقيدة دينكم ، فقد ثبت بالإجماع في سورة الفلق أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المراد بها هو وآحاد أمته ؛ وفي أمهات الإسلام الخمس أن رسول صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى رقا جبريل ، فقال : بسم الله يُبريك^(٣) ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شرّ حاسد إذا حسد ، [١٤٠] ومن شر كل ذي عين . وفي الصحيح أيضاً أن أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في سفر ، فمروا بحى من أحياء العرب ، فاستضافوهم فلم يضيفوهم ، فقالوا : هل فيكم راق ؟ فإن سيد الحى لديغ أو مصاب ؟ فقال رجل من القوم : نعم ، فأتاه فرقاها بفاتحة الكتاب ، فبرى الرجل ، فأعطى قطيعا من

(١) في الفسخة الخطية من نفع الطيب : « أكثروا أو قللوا » .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « لأنفسكم » .

(٣) يريد : « يبرئك » فسهل .

غنم ، الحديث الشهير . قال أهل العلم : فيه دليل على جواز أخذ الأجرة على الرقبة والطب وتعليم القرآن ، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وأبي ثور وجماعة من السلف ، وفيه جواز للمقارضة ، وإن كان ضد ذلك أحسن ، وفي هذا القدر كفاية . وما رقيت قط أحداً على الوجه الذي ذكرتم ، ولا استرقيت ، والحمد لله ، وما حمّاني على تبين ما بينته الآن لكم في المسألة ، إلا إرادة الخير التام لجهتكم ، والطمع في إصلاح باطنكم وظاهركم ، فإني أخاف عليكم من الإفصاح بالطنن في الشريعة ، ورمي علمائها بالمنقصة ، على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم ، منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب على جميع الممكنات ؛ وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام ، قلما تجوز عليهم ، حَفِظَهُمُ اللهُ ، المغالطات ، فتأسرهم شهادة العدول التي لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة ، أعاذنا الله من دَرَكِ الشقاء ، وشماتة الأعداء ، وجهْدِ البلاء .

وكذلك أحذركم من الوقوع بما لا ينبغي في الجنب الرفيع ، جناب سيد المرسلين ، وقائد المُرَّاحِجَيْنِ ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نقل عنكم في هذا الباب أشياء منكورة ، يكبر في النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها ، وهي التي زرعت في القلوب ما زرعت من بغضكم ، وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص ظل السلطنة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة ، امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجملات ، لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خُدَامِ الدُولِ ما صدر عنكم ، من العبث في الأبشار والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأسرار ، واستعمال السكر والحيل والغدر في غالب^(١) الأحوال ، للشريف والمشروف ، والخديم والخدم ، ولو لم يكن في الوجود من الدلائل على صحة ما رضىتم به لنفسكم ، من

الاتسام بسوء العهد، والتجاوز للحض، وكفران النعم، والركون إلى ما تحصل من الحطام الزائل^(١)، إلا عملكم مع سلطانكم مولاكم وابن مولاكم، أيده الله بنصره، وما ثبت من مقالاتكم السيئة فيه، وفي الكثير من أهل قطره، لكفاكم وصمة لا يغسل دَنَسها البحر، ولا ينسى عارها الدهر، فإنكم تركتموه أولاً بالمغرب عند تلون الزمان، وذهبتُم للكديهِ^(٢)، والأخذ بمتنقضي المقامة الساسانية، إلى أن استدعاه الملك، وتخلصت له بعد الجهد الأندلس، فسقطتم عليه سقوط الذباب على الحلواء، وضربتم وجوه رجاله بعضاً ببعض، حتى خلا لكم الجو. وتمكن الأمر والنهي، فهمزتم ولمزتم، وجهتم من المال ما جمعتم، ثم ورَّيتُم بتفتد ثغر الجزيرة الخضراء، مكرراً منكم، فلما بلغتُم أرض الجبل انخرقتم عن الجادة، وهربتم بأثقالكم الهروب الذي أنكره عليكم كل من بلغه حديثكم أو يبلغه إلى آخر الدهر في العُدوتين، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، فكيف يستقيم لكم بعد المعرفة بتصرفاتكم حازم، أو يثق بكم في قول أو فعل صالح أو طالح. ولو كان قد بقي لكم من العقل [١٤٢] ما تتفكرون به في الكيفية التي ختمتم بها عملكم بالأندلس، من الزيادة في الغرم وغير ذلك، مما لكم وزره ووزر من عمل به بعدكم إلى يوم القيامة، حسبما ثبت في الصحيح لحملكم على مواصلة الحزن، وملازمة الأسف والندم على ما أوقعتم فيه نفسكم الأثارة، من التورط والتنشَب في أشطان الآمال، ودسائس الشيطان، ونعوذ بالله من شرور الأنفس، وسيئات الأعمال.

وأما قولكم عن فلان: إنه كان حشرة في قشور^(٣) اللوز، وإن فلاناً كان

(١) كذا في نقح الطيب. وفي الأصلين: «الحطام باليد».

(٢) كذا في نقح الطيب المطبوع. وفي النسخة الخطية: «للكذبة». وفي الأصلين: «للكيدة».

(٣) في نقح الطيب: «في قلوب».

بُرْغوثًا في تراب الخمول ، فكلام سَفَسَاف ، يقال لكم من الجواب عليه : وأتم
يا هذا ، أين كنتم منذ خمسين سنة مثلاً ؟ خلق الله الخلق لا استظهاراً بهم ولا
استكثاراً ، وأنشأهم كما قدر أحوالاً وأطواراً ، واستخلفهم في الأرض بعد أمة
أُمَمًا ، وبعد عصر أعصاراً ، وكَلَّفَهُم شرائع وأحكامه ، ولم يتركهم هَمَلًا ، وأمرهم
ونهاهم ، ليلومهم أيُّهم أحسن عملاً ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، وبكل اعتبار
فلا نعلم في نَمَط الطلبة تدريجاً كان أسمح في تدريجكم ، ونبدأ من كذا ، فإنه
كان كذا وكذا ، وأكثر أهل زمانه تخملاً وتقللاً في نفسه بالنسبة إلى منصبه ،
كان الشيخ أبو الحسن بن الجياب ، ولكنه حين علم رحمه الله من نشأتكم ؛
وحالتكم ما علم ، نبذ مصاهرتكم ، وصرف عليكم صداقكم وكذلك فعلت بنت
جَزَيَّ زوج الرهيصي معكم ، حسباً هو مشهور في بلدكم ، وذكرتم أنكم ما زلتم
من أهل الغنى حيث تقرتم بذكر العَرَض [وهو بفتح العين والراء : حُطام
الدنيا ، على ما حكى أبو عبيد ، قال أبو زيد : هو بسكون الراء : المال الذي
لا ذهب فيه ولا فضة] ، وأى مال خالص يعلم لكم أو لأبيكم بعد الخروج
من الثقافة ^(١) ، على ما كان قد تبقى عنده من محبى قرية مترايل ،
ثم من العدد الذى برز قبلكم ، أيام كانت أشغال الطعام بيدكم ، على ما شهد به
الجمهور من أصحابكم ؛ وأما الفلاحة التى أشرتم إليها ، فلا حق لكم فيها ، إذ هى
فى الحقيقة لبيت مال المسلمين ، مع ما بيدكم ، على ما تقرر فى الفقهيات ، والمعدوم
شرعاً كالمعدوم حساً ، ولو قبل من أهل المعرفة بكم بعض ما لديهم من سَقَطَاتكم
فى القال والقيل ، ولم يُصْرَف إلى دفع معرفتها عنكم وجه التأويل ، لكانت مسألتكم
ثانية لمسألة أبى الخير بل أبى الشر ، الحادثة أيام خلافة الحكم ، المسطورة فى نوازل

(١) يريد : الحبس والسجن . (انظر تكملة المعجمات لدوزى) .

أبي الأصبع بن سهل ، فاعلموا ذلك ، ولا تهملوا إشارتي عليكم قديماً وحديثاً بلزوم الصلوات ، وحضور الجماعات ، وفعل الخيرات والعمل على التخلص من التبعات ، إنَّ وعد الله حق ، فلا تغرَّكم الحياة الدنيا ، ولا يغرَّكم بالله الغرور .

وقلم في كتابكم : أين الخطط المتوارثة عن الآباء والأجداد ؟ وقد أذهب الله عنا ببركة الملة الحمديّة غيبة الجاهلية ، في التفاخر بالآباء ، ولكنني أقول لكم على جهة المقابلة لكلامكم : إن كانت الإشارة إلى الجيب بهذا ، فمن المعلوم المتحقق عند أفاضل الناس أنه من حيث الأصالة أحد أمائل قطره . قال القاضي أبو عبد الله ابن عسكر : وقد ذكر في كتابه من سكتي فلان بن فلان ما نصه : وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة ، لم يزالوا يرثون ذلك كبراً عن كابر ، استقضى جده المنصور ابن أبي عامر . وقال غيره وغيره ، ويبدى من عهود الخلفاء ، وصُكوك الأمراء المكتتة بخطوط أيديهم ، من لدن فتح جزيرة الأندلس إلى هذا العهد القريب ، [١٤٤] ما تقوم به الحجة القاطعة للسان الحاسد والجاحد ، والمنة لله وحده . وإن كانت الإشارة إلى الغير^(١) من الأصحاب في الوقت ، حفظهم الله ، فكل واحد منهم إذا نظر إليه بعين الحق ، وجد أقرب منكم نسباً للخطط المعتمدة ، وأولى بعيراتها بالفرض والتعصيب ، أو مساوياً على فرض المسامحة لكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، حرام دمه وماله وعرضه .

ونرجع إلى طريقة أخرى فنقول : من كان يافلان من قومكم في عمود نسبكم فقيهاً مشهوراً ، أو كاتباً قبلكم معروفاً ، أو شاعراً مطبوعاً ، أو رجلاً نبهاً مذكوراً ، ولو كان يالوشى وكان ، لكان من الواجب الرجوع إلى التناصف

(١) في النسخة المطبوعة من نفع الطيب : « للغير » .

والتواصل والتواضع ، وترك التحاسد والتباغض والتفافع ، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وكذلك العَجَبُ كل العجب من تسميتكم الخَرَبَات التي شرعتم في بنائها بدار السلامة ، وهيئات هيئات ، المعروف من الدنيا أنها دار بلاء وجلاء ، وعناء وفناء ، ولو لم يكن من الموعدة الواقعة بتلك الدار في الوقت إلا موت سعيدكم عند دخولها ، لأغناكم عن العلم اليقيني بما لها ، وأظهرتم سروراً كثيراً بما قلتم إنكم نلتهم حيث أنتم من الشهوات التي ذكرتم أن منها الإكثار من الأكل والحرق ، والقعود بإزاء جارية الماء على نِطْع الجلد ، والإمسك أولى بالجواب على هذا الفصل ، فلا خفاء بما فيه من الخِسة والخبائث والخبث ، وبالجملة ، فسروور العاقل إنما ينبغي أن يكون بما يجمل تقديمه من زاد التقوى للدار الباقية ، فما العيش كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا عيش الآخرة ، فقدموا إن قبلتم وصاة الحبيب أو البغيض [١٤٥] بعضاً ، عسى أن يكون لكم ، ولا تخلفوا كيلاً^(١) يكون عليكم ، هذا الذي قلته لكم وإن كان لدى من يقف عليه من نمط^(٢) الكثير ، فهو في اعتبار المكان ، وما مر من الزمان في حيز اليسير ، وهو في نفسه قول حق وصدق ، ومُستندٌ أكثره كتاب الله وسنة محمد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبيائه ، فاحمدوا الله العلي العظيم على تذكركم به ، إذ هو مجرى النصيحة الصريحة ، يترنى الله وإياكم لليسرى ، وجعلنا ممن ذُكر فانتفع بالذكرى ، والسلام .

اتهى كلام القاضي ابن الحسن النبأى رحمه الله .

قلت : ولعل هذا الكلام وأشباهه هو الحامل لابن الخطيب على هجو القاضي

(١) كذا في ط . وف ت ونفع الطيب : « كلا » .

(٢) في النسخة الخطية من نفع الطيب : « وغط » .

ابن الحسن المذكور في السكتيبة الكامنة ، حيث ذكره ولقبه بـجُغُفسوس^(١) ، ووصفه بما لا يليق ذكره ، ثم ألف في ذلك تأليفاً مستقلاً ، سماه بـجُغُفسوس الرّسن ، في وصف القاضي ابن الحسن ، حسبما ألفيت ذلك بخط شيخ شيخنا القاضي سيدي عبد الواحد الوائش رسي رحمه الله ، ولا يخلو كلام كل واحد منهما من تحامل على صاحبه ، والله يسمح لنا ولهما بجاه النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال ولي الدين بن خلدون في تاريخه ، في موضع آخر ما نصه :

كان محمد بن الأحمر الخلوع قد رجع من زُندة إلى ملكه بغرناطة ، في جهادى من سنة ثلاث وستين ، وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنزى على ملكهم ، حين هرب من غرناطة إليه ، وفاءً بعهد الخلوع ، واستوى على كرسيه ، واستقل بملكه ، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب ، فاستخلصه ، وعقد له على وزارته ، وفوض إليه في القيام بملكه ، فاستولى عليه ، [١٤٦] وملك هواه ، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكنائه إلى إن نزلت به آفة في رياسته ، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه ، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من^(٢) ولد عمهم السلطان أبي علي ، ويخشونهم على أمرهم ، ولما لحق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفوسن بالأندلس ، اصطفاه ابن الخطيب ، واستخلصه لنجواه ، ورفع في الدولة رتبته ، وأعلى منزلته ، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة ، مكان بنى عمه من الأعياض^(٣) ، فكانت له آثار في الاضطلاع بها ، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره ، واستقل بملكه ، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند سلطانه ، فدرس^(٤) إليه باعتقال عبد الرحمن

(١) الجعفسوس : الفصير الدميم .

(٢) في تاريخ ابن خلدون (ج ٧ ص ٣٣٧ طبعة بلاق) : « على » .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الأعياض » .

(٤) كذا في ط وتاريخ ابن خلدون ونفع الطيب . وفي ت : « فأسر » .

ابن أبي يفوسن ، ووزيره [المطارد به] ^(١) مسعود بن ماساي ؛ وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره ، وحمل السلطان عليهما ، إلى أن سطا بهما ابن الأحمر ، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز ؛ وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم ، وتنكر له ، فنزح عنه إلى عبد العزيز ^(٢) سلطان المغرب سنة ثنتين وسبعين ، لما قدم من الوسائل ، ومهد من السوابق ؛ فقبله السلطان ، وأحلّه من مجلسه محل الاصطفاء والقرب ، وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه ، واستقر في جملة السلطان . ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان [عبد العزيز] ^(٣) في ملك الأندلس ، وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب ؛ ونمى ذلك إلى ابن الأحمر ، فبعث إلى السلطان [عبد العزيز] ^(٣) بهدية لم يُسمع بمثلا ، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها ، وبغالها الفارهة ومعلوجي ^(٤) السبي وجواريه ، وأوفد بها رسلا ، يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه ، فأبى السلطان من ذلك ونكره . ولما هلك واستبد الوزير ابن غازي بالأمر ، تميز إليه ابن الخطيب وداخله ، وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان [عبد العزيز] ^(٣) ، فلج واستنكف عن ذلك وأقبح الرد ، وانصرف رسوله إليه وقد رهب سطوته ؛ فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفوسن ، وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية ^(٥) ، ومعه الوزير مسعود بن ماساي ، ونهض — [يعني ابن الأحمر] — ^(٣) إلى جبل الفتح ، فنازله بعساكره ، ونزل عبد الرحمن ببطوية .

(١) زيادة عن ابن خلدون .

(٢) العبارة من قوله « وتغير الجو » إلى قوله « عبد العزيز » ساقطة في تاريخ ابن خلدون .

(٣) زيادة عن نفح الطيب .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٥) بطوية : من حصون ورباطات سفاقس ، وهي على البحر وبها منار مفرط في الارتفاع .

(عن المغرب للبكري) .

ثم ذكر ابن خلدون كلاما كثيرا، تركته لطوله، وملخصه: أن الوزير أبو بكر ابن غازي، الذي كان معه^(١) ابن الخطيب، ولي ابن عمه محمد بن عثمان مدينة سبتة، خوفا عليها من ابن الأحمر، ونهض هو، أعنى الوزير، إلى منازل عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ببطوية، إذ كانوا قد بايعوه، فامتنع عليه، وقاتله أياما، ثم رجع إلى تازا^(٢)، ثم إلى فاس، واستولى عبد الرحمن على تازا، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأي، إذ وصله الخبر بأن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم، وهو المعروف بذي الدولتين، وهذه هي دولته الأولى، وذلك أن ابن عم الوزير، وهو محمد بن عثمان، لما تولى سبتة، كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح، وأخذ بمخنقه، وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب، فاستعجب له، وقبح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر بن غازي، من الاستغلاظ له في شأن ابن الخطيب وغيره، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه، ودخله في [١٤٨] البيعة لابن السلطان أبي سالم، من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة، وأن يقيمه للمسلمين سلطانا، ولا يتركهم فوضى وهملات تحت ولاية الصبي الذي لم يبلغ، ولا تصح ولايته شرعا، وهو السعيد بن أبي فارس، الذي بايعه الوزير أبو بكر بن غازي بتلمسان حين مات أبوه، واستبد عليه، واختص ابن الأحمر أحمد ابن أبي سالم من بين أولئك الأبناء، لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من الموالاة. وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطا، منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح، الذي هو محاصر له، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بني مَرِّين، ليكنونوا تحت حوطته، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدرُوا

(١) في نفع الطيب: «الذي كان تحيز إليه ابن الخطيب».

(٢) تازا: موضع من أعمال بني العافية، في جبل منه الذهب. (عن المغرب للبكري).

عليه ؛ فانهقد أمرهم على ذلك ، وتقبل محمد بن عثمان شروطه ، وركب من سبتة إلى طنجة ، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله ، فبايعه ، وحمل الناس على طاعته ، واستقدم أهل سبتة للبيعة وكتابتها ، فقدموا وبايعوا ، وخاطب أهل جبل الفتح ، فبايعوا ، وأفرج ابن الأحمر عنهم . وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح ، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته ؛ فارتحل ابن الأحمر من مألقة إليه ، ودخله ، ومحا دعوة بني مرين ، مما وراء البحر ، وأهدى للسلطان أبي العباس ، وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس ، وحمل إليه مالا للإعانة على أمره . ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر بن غازي ، قامت عليه القيامة ، وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يُمَوِّه بأن هذا عن أمره ، فتهرباً من ذلك ، ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر ، فاعتل له [١٤٩] بانعقاد البيعة لأبي العباس . وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى مارامه منه ، بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم للأندلس ، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر ، فوجم وأعرض عن ابن عمه ، ونهض إلى تازا المحاصرة عبد الرحمن بن أبي يفوسن ، فاهتبل^(١) في غيبة ابن عمه محمد بن عثمان مُلْكَ المغرب ، ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة^(٢) نحو ستائة ، وعسكرهم آخر من الغزاة . وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه السلطان أحمد ، ومظاهرتة ، واجتماعهما على مُلْك فاس ، وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه ، فتراضيا . وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس ، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من

(١) اهتبل : غنم .

(٢) الناشبة ، يريد : الرماة .

تازا ، فانفضّ معسكره ، ورجع إلى فاس ، ونزل بكُذْيَة العرائس ؛ وانتهى
السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون^(١) ، فصمد إليه الوزير بعساكره ، فاقتل
مَصَافَه ، ورجع على عقبه مفلولا ، وانتهب عسكره ، ودخل البلد الجديد البيضاء ،
وجأجا^(٢) بالعرب أولاد حسين ، فعسكروا بالزيتون ظاهر فاس ، فنهض إليهم
الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف ، وشرّدهم إلى
المصحراء ، وشارف السلطان أبو العباس أحمد بمجموعة من العرب وزناته ،
وبعثوا إلى وليّ دولتهم ونزمار بن عريف ، بمكانه من قصره الذي اختطه
بملوية^(٣) ، فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم ، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق ،
فاجتمعوا بوادي النجا ، وتحالفوا ، ثم ارتحلوا إلى كُذْيَة العرائس في ذى القعدة
من سنة خمس وسبعين ، وبرز إليهم الوزير بعساكره ، فانهمزت جموعه ، [١٥٠]
وأحيط به ، وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق . واضطرب معسكر
السلطان أبي العباس بكُذْيَة العرائس ، ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه ، وضربوا
على البلد الجديد سياجا بالبناء للحصار ، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب ؛
ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر ، فأحكموا الحصار ، وتحكموا في ضياع ابن
الخطيب بفاس ، فهدموها ، وعاثوا فيها . ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل
محمد بن عثمان ابن عمّه الوزير أبا بكر في النزول عن البلد الجديد ، والبيعة للسلطان ،
لسكون الحصار قد اشتد به ويثس ، وأعجزه المال ، فأجاب ، واشترط عليهم الأمير

(١) الذي في المغرب للبكري : « زرهونة » .

(٢) كذا في ت ونفح الطيب : وجأجا : أهاب ودعا . وفي ط : « وجاء » .

(٣) ملوية : نهر كبير مشهور في المغرب الأقصى ويصب إليه نهر سبلماسة ويصيران
نهر واحد يصب في بحر الروم في شرق سبتة وجنوبها على ثلاث مئة وعشرة
أميال . (عن تقويم البلدان) .

عبد الرحمن التجاني له عن أعمال مراکش بدل سجلهامة ، ففقدوا له على كره ، وطوّوا على المكر ، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العباس وبايعه ، واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة ، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم ، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراکش ، واستولى عليها .

نكته ووفاته

محنة ابن الخطيب ووفاته :

ثم ذكر ابن خلدون الخبر عن مقتل ابن الخطيب فقال :

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه [فاتح] ^(١) سنة ست وسبعين ، امتثلَ بسلطانه ، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه ، وسليمان بن داود بن أعراب كبير بني عسكر رديف له ، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب ، وإسلامه إليه ، لما نعى إليه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز المريني ^(٢) بملك الأندلس ، فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ، ولقيه أبو بكر بن غازي بساحة البلد الجديد ، فهزمه السلطان ، ولازمه بالحصار ، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد ، خوفا على نفسه . فلما استولى السلطان على البلد أقام أياما ، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه ، فقبضوا عليه ، وأودعوه السجن ، وطّبروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر ؛ وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب ، لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة

(١) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٢) هذه الكلمة ساقطة في ت ونفع الطيب .

الغزاة بالأندلس ، متى أعاده الله إلى ملكه ، فلما استقر له سلطانه ، أجاز له سليمان سفيرا عن [الوزير] ^(١) عمر بن عبد الله ، ومقتضيا عهده من السلطان ، فصدده ابن الخطيب عن ذلك ، [محتجا] ^(٢) بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياض الملك من بنى عبد الحق ، لأنهم يعسوب زنانة ؛ فرجع سليمان ، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب ، ثم جاوز الأندلس لحل إمارته من جبل الفتح ، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ، يشير ^(٣) كل واحد منهما لصاحبه بما يحفظه ، مما كمن في صدورهما . وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ، وهو أبو عبد الله ابن زمرك ، فقدم على السلطان أبي العباس ، وأحضر ابن الخطيب بالمشور ^(٤) في مجلس الخاصة ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في الحجة ^(٥) ، فعظم النكير فيها ، فوبَّخ ونكَّل ، وامْتَحَن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ، ثم نُقِل ^(٦) إلى محبسه ، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه ، ودسَّ سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله ، فطرقوا السجن ليلا ، ومعه زعانفة جاءوا في لقيف الخدم ، مع سفراء السلطان ابن الأحمر ، وقتلوه خنقا في محبسه ، وأُخرج شلوه من الغد ، فدفن في مقبرة باب الحروق ، [١٥٢] ثم أصبح من الغد على شافة ^(٦) قبره طريحا ، وقد جمعت له أعواد ، وأضرمت

(١) زيادة عن نفح الطيب .

(٢) في نفح الطيب : « ينفث » .

(٣) كذا في ت ونفح الطيب . والمشور : يريد مجلس المشورة . (راجع تكملة العجبات لدوزي) . وفي ط : « بالمشور » .

(٤) في ت : « بالحجة » .

(٥) كذا في ط ونفح الطيب المطبوع . وفي ت والنسخة الخطية من نفح الطيب « تل » .

(٦) كذا في الأصلين . وفي نفح الطيب المطبوع والخطي : « سافة » . وفي الإحاطة : « سافة » . ولعل الكلمة محرفة عن : « حافة » .

عليه نار ، فاحترق شعره ، واسودَّ بشره ، فأعيد إلى حفرته ، وكان في ذلك انتهاء محنته . وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان ، واعتدوها من هَنَاتِه ، وعظمُ النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته ، والله الفعال لما يريد . وكان ، عفا الله عنه ، أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت ، فتجهش شعره في محبسه يبكي نفسه هواتفه بالشعر ، يبكي نفسه ، ومما قال في ذلك :

بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْبُيُوتُ وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ
وَأَنْفَاسُنَا سَكَتٌ دَفْعَةٌ كَجَهْرِ الصَّلَاةِ تَلَاهِ الْقُنُوتُ
وَكُنَّا عِظَامًا فَصَرْنَا عِظَامًا وَكُنَّا نَقُوتُ فَهِيَ نَحْنُ قُوتُ
وَكُنَّا شُمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَا غَرَبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْنَا السَّمُوتُ^(١)
فَكَمْ خَذَلْتُ ذَا الْحُسَامِ الظُّبَا وَذُو الْبُخْتِ كَمْ جَدَّلْتَهُ الْبُخُوتُ
وَكَمْ سَيِّقَ لِلْقَبْرِ فِي خِرْقَةٍ فَتَى مُلِئَتْ مِنْ كُسَاهِ الثَّخُوتِ
فَقُلْ لِّلْعَدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ وَفَاتِ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتُ
وَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْهُمْ لَهُ فَقُلْ : يَفْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ
انتهى كلام ابن خلدون في ديوان العبر .

ورأيت تخميسا لبعض بنى الصباغ على هذه القطعة ، لكنه زاد فيها بعض أبيات على ما ذكره ابن خلدون ، وها أنا أثبتته تيمنا للفائدة ، وهو :

أَيَا جَاهٍ لَا غَرَّةَ مَا يَفُوتُ وَأَلْهَاهُ حَالُ قَلِيلِ الثَّبُوتِ
تَأْمَلْ لِمَنْ بَعْدَ أَنْسِ يَصُوتُ^(٢) بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا الْبُيُوتُ
وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ

(١) السموت : الطرق ؛ الواحد : سمت . ولعله يريد : مدارات النجوم .

(٢) في ط ونفع الطيب : « يقوت » .

لقد نلتُ من دَهْرنا رِفْعَةً تقضتُ كَبْرُقَ مَضَى سُرْعَةً
فهيّاتُ ترجو لها رَجْعَةً وأصواتنا^(١) سَكنتُ دَفْعَةً
كجهر الصلاة تلاه القنوتُ

بدالى من العِزِّ وجهُ شَبَابُ يُؤمِّلُ سَيِّئِي وبأسى يُهَابُ^(٢) [١٠٣]
فَسَرعانُ مَرْقُ ذاكُ الإِهَابُ ومَدَّتْ وقد أنكرتنا الثِيَابُ
علينا^(٣) نَسْأُجِهَا العَنَكِبُوتُ

فآها لعِزٍّ تقضى مَنَامًا مُنِحْنَا به الجاه دَوَمًا^(٤) كِرَامًا
وكنا نَسُوسُ أُمُورًا عِظَامًا وكنا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا
وكنا نَقُوتُ فها نحن قُوتُ

وكنا لذا المُلْكِ حَلَى الطَّلَا فآها عليه زمانًا خَلَا
نَعْوِضُ مِنْ جِدَّةِ اللَّيْلِ وكنا شُمُوسَ سَما العُلا
غَرَبْنَ فَناحت علينا السُّمُوتُ

تَعَوَّذْتُ بِالرَّغْمِ صَرَفَ اللَّيَالِي وَحَمَلْتُ نَفْسِي فَوْقَ احْتِمَالِي
وَأَيَقَنْتُ أَنْ سَوْفَ يَأْتِي ارْتِحَالِي وَمَنْ كَانِ مُنْتَظَرًا لِلزُّوَالِ
فَكَيْفَ يُؤمِّلُ مِنْهُ الثَّبُوتُ

(١) فيما مر : « وأنفاسنا » .

(٢) كذا في نفع الطيب . والسبب : العطاء . وفي ت : « يؤمن شبي » . وفي ط :

« يؤمن سيني وسيني .. الخ » .

(٣) في ط : « عليها » .

(٤) كذا في ت . وفي ط : « قدما » . وفي نفع الطيب : « قوما » .

هو الموت يا ماله من نبأ^(١) يجوز الحجاب إلى من أبى
ويألف^(٢) أخذ سنى الحبا^(٣) فكم أسلمت ذا الحسام الطبا
وذا البخت كم جدلته البخوت

هو الموت أفصح من عجمة وأيقظ بالوعظ من نومة
وسلى عن الحزن ذا حرقرة فكم سيق للقبر^(٤) في خرقرة
ففى ملئت من كساه التخوت

تقضى زمانى بعيش خصب وعندى لذنى انكسار المنيب
وها الموت قد صبت منه نصيب^(٥) قفل للعدا ذهب ابن الخطيب
وفات ومن ذا الذى لا يفوت

مضى ابن الخطيب كمن قبله ومن بعده يقتفى سبله
وهذا الردى نائر شمله^(٦) فمن كان يفرح منهم له
قفل يفرح اليوم من لا يموت

(١) يريد : « نبأ » فسهل للشعر .

(٢) كذا فى نفح الطيب المطبوع . وفى الأصلين والنسخة الخطية من نفح الطيب :
« ويألف » .

(٣) كذا فى النسخة الخطية من نفح الطيب ، يريد : الحباء ، وقصره للشعر . ويريد
بسنى الحباء : الشريف العزيز المتنع فى خبائه . وفى الأصلين ونفح الطيب
المطبوع : « الحبا » .

(٤) فى ت (هنا) : « للموت » .

(٥) كذا فى نفح الطيب المطبوع والمخطوط . وفى ت : « قد ضقت منه نصيب » .
وفى ط : « قد ضعت منه نصيب » .

(٦) موضع هذا الشطر فى الأصلين بياض . وقد زدناه عن نفح الطيب .

هو الموتُ عَمَّ فما للعَدَا يُسْرُونَ بي حين^(١) ذُقْتُ الرَدَى
ومن فاتَه اليومَ يَأْتِي غَدَا سَيَبْلَى الجَدِيدُ إذا ما المَدَى

[١٠٤]

تتابع آحاده والشُّبُوتُ

أُخِيَ تَوَخَّ طَرِيقَ النِّجَاةِ وَقَدَّمَ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَاتِ
وَشَمَّرَ بِجِدٍّ لِمَا هُوَ آتِي وَلَا تَغْتَرِزْ بِسَرَابِ الْحَيَاةِ
فَإِنَّكَ عَمَّا قَرِيبَ تَمُوتُ

انتهى . وقد تذكرت بقوله :

سَيَبْلَى الجَدِيدُ إذا ما المَدَا تتابع آحاده والسُّبُوتُ
قول الآخر :

نَطَوَى سُبُوتًا وَآحَادًا وَنَنَشْرُهَا وَنَحْنُ فِي الطَّيِّ بَيْنَ السَّبْتِ وَالْأَحَدِ
فَعَدَّةً مَا شَلَّتْ مِنْ سَبْتٍ وَمِنْ أَحَدٍ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ الْمَطْوِيُّ فِي الْعَدَدِ

سُفَرِهِ :

شعر ابن الخطيب

قال بعض الأعلام : شعر ابن الخطيب ما بعده مطمع لطامع ، ولا مُعَرَّج
على شاعره بعده للأذان والمسامع ؛ فمن ذلك قوله سماحه الله :

عَسَى خَطَرَةُ^(٢) بِالرَّكْبِ يَا حَادِيَ الْعِيسِ عَلَى الْهَضْبَةِ الشَّمَاءِ مِنْ قَصْرِ بَادِيسِ^(٣)

(١) في ت : « حيث » .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب (ج ٤ ص ٥٨٤) . وفي ت : « نظرة » .

(٣) باديس : فرضة بينها وبين سبته مئة ميل ، ويقابلها من الأندلس مالقة . (عن
تقويم البلدان) .

- لَنظْفِرَ مِنْ ذَاكَ الزُّلَالِ بَعْلَةً وَنَنَمَ فِي تِلْكَ الظَّلَالِ بِتَعْعِيرِيسٍ^(١)
 حَبَسْتُ بِهَارِكُنِي فُوقًا وَإِنَّمَا عَقَدْتُ عَلَى قَلْبِي لَهَا عَقْدَ تَحْبِيسٍ^(٢)
 لَقَدْ رَسَخْتُ آئِي الْجَوَا فِي جَوَانِحِي كَمَا رَسَخَ الْإِنْجِيلُ فِي قَلْبِ قَسْتِيسٍ
 بِمَيْدَانِ جَفْنِي لِلْسَّهَادِ كَتِيبَةٌ تُغَيِّرُ عَلَى سَرَّحِ الْكَرَى فِي كِرَادِيسٍ^(٣)
 وَمَا بِي إِلَّا نَفْحَةٌ حَاجِرِيَّةٌ سَرَتْ وَالِدَجِي مَا بَيْنَ وَهْنٍ وَتَغْلِيسٍ^(٤)
 أَلَا نَفْسٌ يَارِيحُ مِنْ جَانِبِ الْحِمَى تُنَفِّسُ مِنْ نَارِ الْجَوَى بَعْضَ تَنْفِيسٍ
 وَيَا قَلْبَ لَا تُلْقِ السَّلَاحَ فَرِمًا تَعْذَرُ فِي الدَّهْرِ اطْرَادُ الْمُقَايِيسِ
 وَقَدْ تُعْتَبِ الْأَيَّامُ بَعْدَ عِتَابِهَا وَقَدْ يُعْتَبِ اللَّهُ النِّعَمَ مِنَ الْبُوسِ
 وَلَا تَخْشَى لُجَّ الدَّمْعِ يَا خَطَرَةَ الْكَرَى إِلَى الْجَفْنِ بَلْ قَيْسِي عَلَى صَرَّحِ بَلْقِيسٍ^(٥)
 تَقُولُ سُلَيْمَى : مَا لِحَسَمِكَ شَاحِبًا مَقَالَةً تَأْنِبُ يُشَابَابَ بَتَانِيسٍ
 وَقَدْ كُنْتَ تَعْطُونَ كُلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا بِرِيَّانَ فِي مَاءِ الشَّبِيبَةِ مَخْمُوسِ
 وَمَنْ رَاجَحَ الْأَيَّامَ يَا بَنْتَ عَاصِرٍ يَجُوبُ الْفَلَاحَ رَاحَتَ يَدَاهُ بِتَغْلِيسٍ^(٦)

- (١) التعيريس : النزول للاستراحة آخر الليل .
 (٢) الفواق (بالصم والفتيح) : ما بين الخلتين من الوقت ؛ أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع . يريد : وقتنا قصيرا .
 (٣) الكراديس : القطع العظيمة من الخيل . يريد : جيوش السهادر .
 (٤) حاجرية : نسبة إلى حاجر . وهو منزل من منازل الحاج . والوهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه . والتغليس : آخره .
 (٥) لا تخش : الصواب فيه فتح الشين وإسكان الياء ، إلا أن الوزن لا يستقيم بهذا الضبط . ويشير بصرح بلقيس إلى الآية الكريمة : « قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ » .
 (٦) راجح الأيام : غالبا ، يرجو أن ترجع كفته .

فلا تحسبي والصدق خير^(١) سجيّة
وقفــــراء أما ركبها فمُضَلَّل
ســــنحنا^(٢) بها من هضبة لقرارة
إذا مانهضنا عن^(٣) مَقِيلِ غَزَالَةٍ
أردنا بها كأْساً دِهَاقاً من الشَّرَى
وحانة سَحَّار هَدانا لقصّدها
تَطْلَع رَبَّائِهَا من جــــداره
بكرنا وقُلْنَا إذْ نزلنا بساحة
أيا عابدَ الناسوت إنا عــــصابة
وما قَصَدْنَا إلا المقام بحانة
فأنزلنا قوراء في جَنَبَاتِهَا^(٤)
بَدَرْنَا بها طين الخِتَامِ بِسَجْدَةٍ
ودار العَذَارَى بِالْمَدَامِ كَأَنَّهَا
وصارَفْنَا فيها نُضَاراً بِمِشْـلِهِ
ظُهُورَ النَّوَى إِلَّا بطونَ النّوَامِيسِ^(٥)
وسرّبعها من آنس غيرُ مَانُوسِ^(٦)
ضَلالاً وِملْنَا من كِنَاسٍ إلى خِيسِ^(٧)
نزلنا فعرّسنا بساحة عرّيس^(٨) [١٥٥]
أملنا بها عند الصّباح من الروس
شَمِيمُ الحُمَيَّا واصطكك النّوَاقِيسِ
يُهَيِّمُ في جُنح الظّلام بتقديس
عن الصّافناتِ الجُرْدِ والضّميرِ العِيسِ
أَتَيْنَا لَتَثْلِيثِ بَلَى وَلِتَسْـدِيسِ
وكم أُلْبِسَ الحقّ المبينُ بتلبّيسِ
محارب شتى لاختلافِ النّوَامِيسِ
أردنا بها تجديد حَسْرَةِ إبليسِ
قطاً تتهادى في رياش الطّواويسِ
كأنا ملأنا الكأس ليلاً من الكِيسِ

(١) في ت : « غير » . وهو تحريف .

(٢) كذا في الأصلين ونقح الطيب المخطوط والمطبوع . ولعلها محرفة عن « النواويس »

بمعنى القبور .

(٣) المربع : الموضع الذي يرتفع فيه في الربيع .

(٤) في نقح الطيب : « سجننا » .

(٥) الكناس : بيت الظي . والحيس : موضع الأسد .

(٦) في ت : « من » .

(٧) العريس : مأوى الأسد .

(٨) في نقح الطيب المخطوط والمطبوع : « فأنزلنا قوراء على جنباتها » .

وَقَدْ نَشَأَوْنِي عِنْدَمَا ^(١) مَتَعَ الضُّحَى كَمَا نَهَضَتْ غُلْبُ الْأَسْوَدِ مِنَ الْخَيْسِ ^(٢)
 فَقَالَ : لِبُئْسِ الْمُسْلِمُونَ ضَيُوفُنَا أَمَا وَأَبِيكَ الْحَبْرَ ^(٣) مَا نَحْنُ بِالْبَيْسِ ^(٤)
 وَهَلْ فِي بَنِي مَثْوَاكَ إِلَّا مُبَرِّزٌ بِحَلْبَةِ سُورَى أَوْ بِحَلْقَةِ تَدْرِيسٍ
 إِذَا هَزَّ عَسَّالَ الْيَرَاعَةِ فَاتَكَأَ أَسَالَ نَجِيعِ الْحَبْرِ فَوْقَ الْقَرَاطِيسِ
 يَقْلَّبُ تَحْتَ النَّتْعِ مُقْلَةً ضَا حَكْ إِذَا تَفَتَّ الْأَبْطَالُ عَنْ مُقْلِ شُوسٍ ^(٥)
 سَبِينَا عُقَارُ الرُّومِ فِي عُقْرِ خَانِنَا ^(٦) بِحِيلَةٍ ^(٧) تَمُوِيهِ وَخُدْعَةٍ تَدْلِيسٍ
 لَئِنْ أَنْكَرْتَ شَكْلِي فَفَضْلِي وَاضِحٌ وَهَلْ جَائِزٌ فِي الْعَقْلِ أَنْكَارُ مُحْسُوسٍ !
 رَسَبْتُ بِأَقْصَى الْغَرْبِ ذُخْرَ مَضْنَةٍ ^(٨) وَكَمْ دُرَّةَ عَلِيَاءٍ فِي قَاعِ قَامُوسٍ
 وَأَغْرَيْتِ سُورِي ^(٩) بِالْعَذِيبِ وَبَارِقٍ عَلَى وَطْنٍ دَانِي الْجَوَارِ مِنَ الشُّوسِ ^(١٠)

ومن ذلك قوله رحمه الله في الميلاذ النبوي على صاحبه الصلاة والسلام
 يمدح مخدومه أبا عبد الله الخلوع :

مَا عَلَى الْقَلْبِ بَعْدَكُمْ مِنْ جُنَاحٍ أَنْ يُرَى طَائِرًا بَغْيَ جَنَاحٍ

(١) في ت : « بعدما » .

(٢) متع الضحى : بلغ آخر غايته .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « الحبر » .

(٤) بالبيس : يريد : بالبئس ، أى لسنا بمن يقال لهم : بئس المسلمون .

(٥) شوس ، أى تنظر بمؤخر العيون غضبا .

(٦) في نفع الطيب : « دارها » .

(٧) في ط ونفع الطيب : « بحيلة » .

(٨) في نفع الطيب : « ثغر مضلة » .

(٩) كذا في الأصلين ونفع الطيب المطبوع . والسوس (هنا) : السجية والطبع . وفي

النسخة الخطية من نفع الطيب : « موسى » .

(١٠) العذيب وبارق : موضعان بالكوفة وفيهما يقول أبو الطيب :

تذكرت ما بين العذيب وبارق بحر عوالينا وبحرى السوابق

والسوس : كورة بالمغرب مدينتها طنجة .

قصيدة
 لابن الخطيب
 في المولد النبوي

وعلى الشوق أن يُشَبَّ إذا هَبَّ بأنفاسكم نسيمُ الصباحِ
 جيرة الحى والحديث شُجون والليالى تلينُ بعد الجُمُاحِ
 أتروُن السَّلُوَّ خامرَ قلبي بعدكم ؟ لا ، وفالقِ الإصباحِ
 ولو أنى أُعْطِيَ اقتراحى على الأيام ما كان بُعْدُكم باقتراحى [١٥٦]
 ضايقتنى فيكمُ صروفُ الليالى واستدارت على دُور الوُشاح^(١)
 وسَقَتنى كأسُ الفراقِ دِهاقًا فى اغتباقِ مُواصلِ واضطباح^(٢)
 واستباحَت من جدَّتى وفتائى حَرَمًا لمْ أخْلُهُ بالمُسْتَباحِ
 ومنها :

يأتُرَى والنفوسُ أُسْرِى أمانى ما لها من^(٣) وثاقها من سَراحِ
 هل يُباحُ الورودُ بعد ذِياد أو يُباحُ اللّقاءُ بعد انتزاحِ
 وإذا أعوذَ الجسومَ التلاقي نابَ عنه تعارفُ الأرواحِ

وهى طويلة ، ولم يحضرنى منها فى هذا التاريخ سوى ما كتبتّه . قلت : وأظن
 أن الفقيه الكاتب أبا زكريا يحيى بن خلدون كاتب الإنشاء يتلمّسان المحروسة ،
 أيام السلطان أبى حمو^(٤) موسى بن يوسف الزيّانى رحمه الله نسج على منوال
 هذه القصيدة فى قصيدة بديعة له ، ورفعها إلى السلطان أبى حمو فى مولد سنة

قصيدة
 لأبى زكريا
 ابن خلدون
 يحاكى بها
 قصيدة
 ابن الخطيب

(١) الوشاح (بالضم والكسر) : أديم مريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها
 وكشحتها .

(٢) الاغتباق : شرب الغبوق ، وهو شراب العشى . والاضطباح : شرب الصبوح ،
 وهو شراب الصبح .

(٣) كذا فى ط ونفع الطيب (ج ٤ ص ٦٠٢) . وفى ت : « عن » .

(٤) كذا فى نفع الطيب . وفى الأصلين هنا : « حم » .

ثمان وسبعين وسبع مئة . وهذا ابن خلدون أخو ولي الدين صاحب التاريخ
المشهور ، ونص القصيدة :

ما على الصَّبِّ في الهوى من جُنَاحِ	أَنْ يَرَى حِلْفَ عَبْرَةٍ وافتضح
وَإِذَا مَا الْمُحِبِّ عَمِلَ اصْطَبَارًا	كَيْفَ يُضْعَى إِلَى نَصِيحَةٍ لَاحِي
يَا رَعَى اللَّهُ بِالْمُحْصَبِ رَبًّا	أَذْنَتْ عَهْدَهُ النَّوَى بِاتِّزَاحِ ^(١)
كَمْ أَدْرْنَا كَأْسَ الْهَوَى فِيهِ مَرْجَا	رُبَّ جِدٍّ مِنَ الْجَوَى فِي الْمَزَاحِ
هَلْ إِلَى رَسْمِهِ الْمُحِيلِ سَبِيلُ	يَا حُدَاةَ الْمَطَى تِلْكَ الطَّلَاحِ ^(٢)
نَسْأَلُ الدَّارَ بِالْخَلِيطِ وَنَسْقِي	ذَلِكَ الرَّبْعَ بِالذُّمُوعِ السَّفَاحِ
أَيَّ شَجْوٍ عَايَنْتُ بَعْدَ نَوَاهَا	مَنْ أَمَى لَازِمَ وَصْنِهِ مَزَاحِ ^(٣)
أَهْلَ وَدَى إِنْ رَابَكُمْ بَرْحٌ وَجَدَى	مَنْ صَبَّأَ بَارِحَ وَبَرَقَ لِيَاحِ
فَاسْأَلُوا الْبَرْقَ عَنْ خُفُوقِ فَوَادَى	وَالصَّبَّا عَنْ سَقَامِ جِسْمِي الْمُتَاحِ
يَا أَهْيَلُ الْحَمَى نَدَاهُ مَشُوقُ	مَا لَهُ عَنِ هَوَى الدُّمَى مِنْ بَرَّاحِ
طَالَمَا اسْتَعَذَبَ الْمَدَامَعُ وَرَدَا	فِي هَوَاكُمُ عَنْ كُلِّ عَذْبٍ قَرَّاحِ
عَادَهُ بِالطُّلُولِ لِلشُّوقِ عَيْدُ	مَنْ حَمَامَ بَدَوْحَهُنَّ صِدَاحِ
مَنْ لِقَابٍ مِنَ الْجَوَى فِي ضِرَامِ	وَلَجَفْنَ مِنَ الْبُكَاءِ فِي جِرَاحِ
وَلَصَبٍ يَهْيِجُهُ الذِّكْرُ شَوْقًا	فَهُوَ سُكْرًا يَرْتَاحُ مِنْ غَيْرِ رَاحِ
وَلَيَالٍ قَضَيْتُ لِلَّهِ فِيهَا	وَطَرًا وَالشَّبَابَ ضَافِي الْجَنَاحِ

[١٥٧]

(١) المحصب : موضع فيما بين مكة ومنى ، وهو إلى منى أقرب . (عن معجم البلدان) .
(٢) الطلاح : الإبل التي أعيها السفر وأضناها .
(٣) مزاح : بعيد .

راكباً في الهوى ذُلُولَ تَصَابٍ^(١) ساحباً في الغرام ذيلَ مَراحٍ
 ونجومُ النُّنى تُنِيرُ إلى أنْ رَوَّعَ الشَّيْبُ سِرْبَهَا بِالصَّبَاحِ
 أَيْ مَسْرَمَى حَمِدَتْ لَمْ أَخْلُ^(٢) مِنْهُ بسوى حَسْرَةٍ وَطُولِ افْتِضَاحِ
 وَأَخْسَارِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ زَلَّتِي وَاجْتَرَحِي
 لَمْ أَقْدَمْ وَسِيلَةً فِيهِ إِلَّا حُبَّ خَيْرِ الْوَرَى الشَّفِيعِ الْمَاحِي
 سَيِّدِ الْعَالَمِينَ دُنْيَا وَآخِرَى أَشْرَفِ الْخَلْقِ فِي الْعَالَا وَالسَّمَاحِ
 سَيِّدِ الْكَوْنِ مِنْ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ سِرُّهُ بَيْنَ غَايَةِ وَافْتِتَاحِ
 زَهْرَةِ الْغَيْبِ مَظْهَرُ الْوَحْيِ مَعْنَى النُّورِ كُنْهُ الْمَشْكَاةِ وَالْمُضْبَاحِ
 آيَةُ الْمَكْرُمَاتِ قُطْبُ الْمَعَالِي مَصْطَفَى اللَّهِ مِنْ قُرَيْشِ الْبِطَاحِ
 أَوَّلِ الْأَنْبِيَاءِ تَخْصِيصُ زُلْفَى آخِرِ الْمُرْسَلِينَ بَعَثَ نَجَاحِ
 صَفْوَةِ الْخَلْقِ أَرْفَعَ الرُّسُلِ قَدْرًا وَسَرَّاجِ الْهَدْيِ وَشَمْسِ الْفَلَاحِ
 مَنْ لِمِيلَادِهِ بِمَكَّةَ ضَاءَتْ مِنْ قُرَى قَيْصَرَ جَمِيعُ الضَّوَاخِ
 وَخَبَّتْ نَارُ فَارِسٍ وَتَدَاعَتْ مِنْ مَشِيدِ الْإِيْوَانِ كُلِّ النُّوَاخِ
 مِنْ رَقِيٍّ فِي السَّمَاءِ سُبْعًا طِبَاقًا وَرَأَى آتَى رَبِّهِ فِي اتِّضَاحِ
 وَدَنَا مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ قُرْبًا ظَافِرًا فِي الْعُلَى بِكُلِّ اقْتِرَاحِ
 مِنْ هَدَى الْخَلْقِ بَيْنَ خُمْرٍ وَسُودٍ وَجَلَّ لِـلْغَيْثِ غَيْثُهُمْ بِالصَّبَاحِ
 مَنْ يُجِيرُ الْوَرَى غَدَا يَوْمَ يُجْزَى كُلُّ عَاصٍ وَطَائِعٍ بِاجْتِرَاحِ

(١) في نفح الطيب : « تقاب » .

(٢) كذا في ط ونفح الطيب الخطي والمطبوع . وفي ت : « لم أئل » .

مَنْ إِلَى حَوْضِهِ وَظِلُّ لَوَاهُ^(١) يَلْجَأُ النَّاسُ بَيْنَ ظَامٍ وَضَاحِي^(٢)
أَحْمَدَ الْمُجْتَبَى حَبِيبًا وَأَتَى فَوْقَ عِزِّ الْحَبِيبِ مَرْنَى طِيَّاحٍ
فِي أَنَاجِيهِ لَهَ الْمَسِيحُ تَلَاهُ بِاسْمِهِ وَالْكَلِيمُ فِي الْأَلْوَاكِ
وَلَكُمْ حُجَّةٌ وَبِرْهَانٍ صَدَقَ فِي سَمَاعٍ أَتَى بِهَا وَالنِّمَاحِ
إِنَّ فِي النَّجْمِ وَالنَّبَاتِ لَأَيًّا بَهَّرَتْ وَالْجَمَادِ وَالْأَرْوَاحِ
مُعْجَزَاتٍ فَتَنَ الْمَدَارِكَ وَضَفَا وَحِسَابًا كَالزُّهْرِ أَوْ كَالصَّبَاحِ
يَا رُؤَاةَ الْقَرِيضِ وَالشَّعْرِ عَجَزَا مَا عَسَى تُذَرِّكُونَ بِالْأَمْدَاحِ
إِنَّمَا حَسَبْنَا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ وَهِيَ لِلْفَوْزِ آيَةٌ أُسْتَفْتَحَ
يَا إِلَهِي بِحَقِّ أَحْمَدَ عَفْوَا عَنْ^(٣) ذُنُوبٍ جَنَيْتُهُنَّ قَبَاحِ
وَأَدِمَّ دَوْلَةَ الْخَلِيفَةِ مُوسَى ذِي الْمَعَالِي الْمُبِينَةِ الْأَوْضَاحِ
مُفَخَّرُ الْمُلُوكِ مُسْتَقَرُّ الْمَرَايَا مَظْهَرُ اللَّطْفِ ذُو التَّقَى وَالصَّلَاحِ
نَاصِرُ الْحَقِّ خَازِلُ الْجَوْرِ عَدْلًا مَلْجَأُ الْخَائِفِينَ بِحَرِّ السَّمَاحِ
يَتَلَقَّى النَّسْدَى بِوَجْهِ حَيِّي وَيُلَاقِي الْعِدَا بِبَاسِ صِفَاحِ
وَلَهُ الْمَكْرُمَاتُ إِرثًا وَلُبْسًا^(٤) حَازَ خَمْدًا بِهَا مُعَلَّى الْقِدَاحِ
مِنْ عُلَا بَاذِخٍ وَفَخْرٍ صَمِيمٍ وَكَمَالٍ بِحُجَّتٍ وَنَجْدٍ صُرَاحِ
وَأَحَادِيثَ فِي الْمَعَالِي حِسَانِ رُوِيَتْ عَنْهُ فِي الْعَوَالِي الصَّحَاحِ
عَاقِدَ صِفْتَةِ الْعُلَا كُلِّ حِينٍ فَائِزٌ فِيهِ سَعْيُهُ بِالرَّبَّاحِ

(١) كَذَا فِي تَوْفِيقِ الطَّيِّبِ . وَفِي ط : « حَمَاه » .

(٢) الضَّاحِي : الَّذِي يَبْرُزُ لِلشَّمْسِ وَيُصَلِّي حَرًّا .

(٣) كَذَا فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ . وَفِي الْأَصْلَيْنِ : « مِنْ » .

(٤) كَذَا فِي الْأَصْلَيْنِ وَنَفْحِ الطَّيِّبِ . وَلَعَلَّهَا : « كَسْبَا » .

لَلْنَدَى وَالْهَدَى يَرْوَحُ وَيَقْدُو أَيْ مَقْدَى إِلَى الْعَلَا وَمَرَّاحٍ
 مَلِكٌ تَشْرِيقِ الْأَمِيرَةِ مِنْهُ فِي سَمَاءِ السَّرِيرِ نُورُ صَبَاحٍ
 وَإِذَا مَا عَلَا بِعَالِي الْعَوَالِي صَهْوَةَ الْجُرْدِ فَهُوَ لَيْثُ الْكِفَاحِ
 لَيْسَ الدَّهْرُ مِنْهُ حُلَّةٌ حُسْنُ وَتَنَى لِلشُّرُورِ عِطْفَ مِرَاحٍ
 وَعَلَا عَاتِقَ الْخِلَافَةِ مِنْهُ طِرْزٌ فَخْرٍ سَبَى النُّهَى بِالنَّاحِ
 وَرِثَ الْمُلُوكَ شَاخِحًا عَنْ مَرَاةٍ شَتَدُوا رُكْنَهُ بِأَيْدِي الصَّفَاحِ
 مِنْ بَنِي الْقَاسِمِ الَّذِينَ تَحَلَّوْا بِالْمَعَالَى وَاسْتَأْتَرُوا بِالْفَلَاحِ
 فَرَعَوْا هَضْبَةَ الْخِلَافَةِ مَجْدًا رَفَعُوا سَقْفَهُ عَلَى الْأَرْمَاحِ
 نَشَرُوا رَايَةَ الْمَفَاخِرِ حَمْدًا خَافَقَ النُّورَ بِالرُّبَا وَالْبِطَاجِ
 يَا إِمَامًا بَدَّ الْمُلُوكَ جَلَالًا وَجَمَّالًا فُذِّتَ بِالْأَرْوَاحِ
 أَنْتَ شَمْسُ الْكَمَالِ دُمْتَ عَلِيًّا فِي اغْتِبَاقٍ مِنَ الْعُنَى وَاضْطِجَابِ
 وَبَنُوكَ الْأَعْلُونَ أَنْجَمُ سَعْدٍ زَاهِرَاتُ بُنُورِكَ الْوَضَاحِ
 وَأَبُو تَاشَفِينَ بِدَرْ مُنِيرٍ زَانَهُ اللَّهُ بِالْخِلَالِ الصَّبَاحِ
 أَكْمَلَ الْعَالَمِينَ خَلْقًا وَخُلُقًا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي النَّدَى وَالْكِفَاحِ
 وَبِكُمْ زُيِّنَتْ سَمَاءُ الْمَعَالَى وَاهْتَدَى النَّاسُ فِي الدُّجَى وَالصَّبَاحِ

قلت : قوله :

أَكْمَلَ الْعَالَمِينَ خَلْقًا وَخُلُقًا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي النَّدَى وَالْكِفَاحِ

لا يخلو من قلة تحفظ ، ومثل هذا في الحقيقة إنما يُطلق على رسول صلى الله عليه [١٥٩]
 وسلم ، وإن كان المتكلم أراد أهل عصره .

وكان السلطان أبو حمو^(١) موسى بن يوسف المدوح في هذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله يَعْتَنُونَ بذلك ، ولا يقع منهم فيه إغفال ؛ وقد تقدم أن العزني صاحب سبته هو الذي سَنَّ ذلك في بلاد المغرب ، وأتى بزُني تدينه إلى الله وتُقرَّب ؛ واقتنى الناس سَنَّهُ ، وتقلدوا مِنَّنَه ؛ تعظيماً للجناب الذي [وَجِبَ] له السموات والعلو ، على أن بعضهم قد خرج في ذلك إلى حد الإسراف والغلو ؛ وكل يعمل على شاكلته .

ومن جملة احتفال السلطان أبي حمو^(١) المذكور ما قاله صاحب راح الأرواح^(٢) : « إنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوي ، على صاحبه الصلاة والسلام ، بمشورة من تلمسان المحروسة ، مدعاة حفيظة ، يحشُر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من غمارق مصفوفة ، وزراني مبثوثة ؛ وبُسْطُ مَوْشَاء ، ووسائد بالذهب مُغَشَّاه ؛ وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهالات ؛ ومباخر صُفْر منصوبة كالقباب ، يخالها المبصر من تَبَر [مذاب]^(٣) ؛ ويُفاض على الجميع أنواع الأَطْعَمَة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ؛ تشتهيها الأنفس وتستلذها النواظر ، ويخالط حُسن رِيَّاهَا^(٤) الأرواح ويخامر ؛ رُتَّب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت الجميع أُبْهَةٌ الوقار والإجلال ؛ وبعقب ذلك يحتفل المُسْمِعُونَ بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومُكَفَّرَات ترغَّب في الإقلاع عن الآثام ؛ يخرجون فيها من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ؛ ويأتون من ذلك بما^(٥) تطرب له [١٦٠]

(١) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « أبو حم » .

(٢) صاحب راح الأرواح هو أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني .

(٣) التكملة عن نفح الطيب .

(٤) في ط : « رؤياها » .

(٥) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « ما » .

النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ؛ وبالقرب من السلطان ، رضوان الله عليه ،
خزانة [المنجاة]^(١) ، قد زُخِرَتْ كأنها حُلَّةٌ يمانية ، لها أبواب مُرْتَجَّةٌ^(٢) ، على
عدد ساعات [٣] الليل الزمانيه ؛ فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ،
وفتح عند ذلك باب من أبوابها ؛ وبرزت منه جارية صُورَتْ في أحسن صورهِ ،
في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطوره ؛ فتضعها
بين يدي السلطان بلطافه ، ويُسرّاهَا على فيها كالمؤدية بالبيعة حق الخلافه ؛
هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداء المنادي حتى على الفلاح .
اتتهى كلام صاحب راح الأرواح .

وقال^(٤) في نظم الدرر والعقيان في هذا المعنى ما نصه :

«وكان ، يعنى السلطان أباحو ، يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ،
ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يُقيم مدعاة ، يحشر لها الأشراف والسُّوقَة ،
فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزراني مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان
الحضرة على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخزّ الملون ، وبأيديهم
مباخر ومِرْشَات ، ينال كل منها بحظه ، وخزانة المنجاة ذات تماثيل الجُين
محكمة الصنعة ، بأعلاها أيكة تحمل طائرا ، قرّخاه تحت جناحيه ، ويحتله
فيهما^(٥) أرقم ، خارج من كوة بجذر الأيكة صُعُدا^(٦) ، وبصَدْرَها أبواب مُرْتَجَّة

(١) المنجاة : آلة لرصد الوقت . (انظر تكملة المعجمات لدوزي) .

(٢) كذا في النسخة الخطية من نفح الطيب وفيما سيأتى في الأصلين . وفي الأصاين هنا
ونفح الطيب المطبوع : « موجفة » .

(٣) التكملة عن ت ونفح الطيب .

(٤) يريد أبا عبد الله النعماني ثم التتسي صاحب راح الأرواح .

(٥) في نفح الطيب : « فيها » .

(٦) في نفح الطيب : « صاعدا » .

بعدد ساعات الله الزمانية ، يصاقب طَرَفُها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوكُنْ رأس الخِزانة ، قرأ كل ، يسير على خط الاستواء سير نظيره من الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابُها المرتج ، فينقُضُ من البابين الكبيرين عُقَابان ، يَفِي^(١) كل واحد منهما صَنْجَة صُفْر ، يلقيها إلى طَسْت من الصُّفْر محجوف ، بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخِزانة فيرن ، وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبواه ، فهنا يفتح باب الساعة الزاهية ، وتبرز منه جارية محتزِمة ، كأظرف ما أنت راء ، يمينها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها ، كالمُبايعة بالخلافة ، والمُسمِع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم . ثم يُؤتَى آخرَ الليل بموائد كالهالات دَوْرًا ، والرياض نَوْرًا ؛ قد اشتملت من أنواع محاسن الطعام على ألوان تشتهيها الأنفس ، وتستحسنها الأعين ، وتلذَّ بسماع أسمائها الأذن ، ويشهره مُبَصِّرُها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بفرّثان ؛ والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه ، وكل ذلك بمرأى منه ومسمع ، حتى يصلّى هنالك صلاة الصبح .

على هذا الأسلوب تمضي ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ، أعلى الله مقامه في عليين ، وشكر له في ذلك صنعه الجميل ، آمين .

وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلا ونظم فيها [قصيدا]^(٢) في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم أول ما يبتدئ المُسمِع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشاد مَنْ رفع إلى مقامه العلى في تلك الليلة نظماً .

اتهى كلام صاحب نظم الدرر والعقيان ، وهو أتم مساقا من كلامه في راح الأرواح .

(١) في نفع الطيب : « في يد » .

(٢) زيادة عن ت ونفع الطيب .

شعر لأبي زكريا
ابن خلدون
في المنجاة

أقول : ولا بد أن نذكر جملة من القطع التي أنشأها الكاتب أبو زكرياء
يحيى بن خلدون كاتب السلطان أبي حمو المذكور ، على لسان جارية المنجاة ،
مخاطبة بما سر من الليل ، وكانت الجارية تأتي بها في يدها اليمنى ، كما ذكرناه ؛
فمن ذلك [قوله رحمه الله في مضيّ ساعتين من الليل :

أخليفة الرحمن والملك الذي تعنو لعزّ علاه أملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي عُلا بك ما لي أفق السماء لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهرها وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت تُثنى عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصوراً بكم وبلغت مما ترتجي أسنى الوطر

[و] قوله رحمه الله في انقضاء ثلاث ساعات من الليل :

أمولاي يا بن الملوك الألى لهم في المعالي سنيّ الرتب
تولت ثلاث من الليل أبقت لك الفخر في عُجمها والعرب فدم حجة الله في أرضه
تنال الذي شئت من أرب

وقوله رحمه الله في مضيّ ست ساعات :

يا ماجدا وهو فرد تحاله في عساكر
ست من الليل وآت ما إن لها من نظائر
دامت لياليك حتى إلى المعاد نواضر

وقوله رحمه الله في مضيّ ثمان ساعات :

يا أكرم الخلق ذاتا وأشرف الناس أسرة
مرّت ثمان وأبقت في القلب مني حشرة

فَإِنَّ كَانَ شَبَابِي أَخَا نَعِيمٍ وَنَضْرَه
وَلَىٰ بِهَا الدَّهْرُ عَنِّي تُرْسِي لَهَا بَعْدُ كَرَّه
فَاللَّهُ يُبْقِيكَ مَوْلى يُطِيلُ فِي السَّعْدِ عُمْرَه

وقوله رحمه الله في مضي عشر ساعات :

يا مالِك الخير والخيل التي حكمت له بَعِزِّي عَلَى الْأَيَّامِ مُقْتَبِلِ
هَذَا الصَّبَاحِ وَقَدْ لَاحَتْ بِشَائِرُهُ وَاللَّيْلُ وَدَّعْنَا تَوَدِيعَ مُرْتَحِلِ
لِلَّهِ عَشْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ بَاهِرَةٌ مَضَيْنَ لَا عَنْ قَلِيٍّ مِنَّا وَلَا مَلَلِ
كَذَا تَمَرُّ لَيْلَى الْعُمْرِ رَاحِلَةٌ عَنَّا وَنَحْنُ مَعَ الْأَمَالِ فِي شُغْلِ
نُفْسِي وَنُضْجِ فِي لَهْوٍ نُسْرُ بِهِ جَهْلًا وَذَلِكَ يُذْنِبُنَا مِنَ الْأَجَلِ
وَالْعَمْرُ يَمْضِي وَلَا نَدْرِي فَوَا أَسَفًا عَلَيْهِ إِذْ مَرَّ فِي الْأَنَامِ وَالزَّلَلِ
يَا لَيْتَ شَعْرِي غَدًا كَيْفَ الْخِلَاصِ بِهِ ^(١) وَلَمْ نَقْدِّمْ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْعَمَلِ
يَا رَبُّ عَفْوِكَ عَمَّا قَدْ جَنَّتْهُ يَدِي فَلَيْسَ لِي بِجِزَاءِ الذَّنْبِ مِنْ قَبْلِ
يَا رَبِّ وَانصِرْ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ أَبَا حَمُو الرِّضَا وَأَنَّ لَهُ غَايَةَ الْأَمَلِ
وَأَبْقِ فِي الْعِزِّ وَالتَّمَكُّنِ مَدَّتَهُ وَأَعْلَى دَوْلَتِهِ الْفَرَا عَلَى الدُّوَلِ

[١٦٣]

ومن الموشحات التي خوطب بها السلطان أبو حمو رحمه الله في مولد سنة سبع وستين وسبع مئة ، قولُ طبيب دولته أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهير بالتلايلسي ، رحمه الله تعالى :

لِي مَذْمَعٌ هَتَّانَ يَنْهَلُ مِثْلَ الدَّرَزِ
قَدْ صَيَّرَ الْأَجْفَانَ مَا إِنْ لَهَا مِنْ أَثَرِ

(١) كذا في نفع الطب . وفي ط : « ياليت أن غدا » . وفي ت « ياليت غدا » .
وما ظاهرهما التعريف .

حُقَّ لَهُ يَجْرِي دَمًا عَلَى طَوْلِ الدَّوَامِ
مُذْ جَدَّ فِي السَّيْرِ نَاسٌ إِلَى خَيْرِ الْأَنَامِ
وَعَاقِبَتِي وَزَرِي يَا صَاحِرَ عَنْ ذَاكَ الْمَقَامِ
وَسَارَتِ الْأَطْعَانُ يُحْدِي بِهَا فِي السَّحَرِ
فَاسْتَبْشِرِ الرِّكْبَانَ بِقَرَبِ نَيْلِ الْوَطَرِ
يَا سَمْعِدَةَ مَنْ زَاوَى قَبْرَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى
مُحَمَّدَ الْمُخْتَارَ قُطْبَ الْمَعَالِي وَالْوَفَا
فِي مَدْحِهِ قَدْ حَازَ الْخَلْقُ طُرًّا وَكَفَى
فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ وَشَرَحِهِ وَالسَّيْرِ
فَضَّلَهُ الرَّحْمَنُ عَلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ
يَا حَادِيَ الرِّكْبِ بِاللَّهِ إِنْ جِئْتَ الْبَقِيعَ
تَحِيَّةَ الصَّابِ بَلِّغْ إِلَى الْهَادِي الشَّفِيعِ
غُرْبَتُ بِالْغَرْبِ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الرَّفِيعِ
وَلَيْسَ لِي إِمْكَانُ يُنْهَضُنِي لِلسَّفَرِ
إِلَّا مِنْ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْمُو إِلَى الْمَعَالَى كُلِّ حِينِ
ذَاكَ أَبُو حَمُو الْمَوْلَى أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ
طَاعَتُهُ غُنْمٌ نَلْنَا بِهَا دُنْيَا وَدِينِ
أَظْهَرَ فِي الْبُلْدَانِ مِنْ عَدْلِهِ الْمُشْتَهَرِ
وَعَمَّ بِالْإِحْسَانِ لِلْبِدْوِ ثُمَّ الْحَضَرِ

قَابَلَهُ إِسْمَاعَادُ تَكَلَّ عَنْهُ الْأَلْسِنَةُ
 قَبِيلُ عَبْدِ الْوَادِ^(١) بِهِ غَدَّتْ فِي سُلْطَنِهِ
 أَيَّامُهُ أَعْيَادُ يَالَيْتَهَا أَلْفَا سَنَةً
 مُلْكُ بَنِي زَيْبَانَ بِالْمَشْرِقِ الذِّكْرُ
 أَحْيَاهُ إِذْ قَدْ كَانَ لَيْسَ لَهُ مِنْ خَبَرٍ
 تَاهَتْ تِلْمِزَانُ بِمَلِكِهِ عَلَى الْبِلَادِ
 صَارَ لَهَا شَانُ وَسَعْدُهَا حِلْفُ ازْدِيَادِ
 قَدْ ضَلَّ إِنْسَانُ قَالَ بِهَا يَشْكُو الشَّهَادُ
 لَيْلُ الْهَوَى يَقْطَانُ وَالْحَبَّ تَرْبُ السَّهَرِ
 وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانُ وَالنُّومُ مِنْ عَيْنِي بَرَى^(٢)

وكان هذا السلطان أبو حمو رحمه الله يقرض الشعر ، ويحب أهله ، وله رحمه الله تأليف حسن في السياسة ، لخص فيه « سُلوَانُ الْمُطَاع » لابن ظَفَر ، وزاد عليه فوائد ، وأورد فيه جملة من نظمه ، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مَرَيْن وغيرهم ، وصنّفه برسم ولي عهده أبي تاشفين ، وسمّاه « نظم السلوك ، في سياسة الملوك » .

وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب المذكور آنفا كثيرا ما يوجّه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجّه له^(٤) قصيدة سيّنية فائقة ، وذلك عند ما أحسن بتغيير سلطانه عليه ، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه ، لتمهّد له مشواه ؛

(١) في ط : « الجواد » .

(٢) كذا في ط . وفي ت : « عن » .

(٣) برى : يريد : « برى » فسهل للشعر .

(٤) كذا في ط ونقح الطيب (ج ٤ ص ٢٧ ؛ طبعة بلاق) . وفي ت : « إليه » .

شئ عن
السلطان
أبي حمو

قصيدة
ابن الخطيب
للسلطان أبي حمو
يستعبد به

[١٦٥]

وتحصل له المستقر ، إذا أُلْجَاه الأمر إلى المَفَرِّ ؛ فلم تساعده الأيام ، كما هو شأنها في أكثر الأعلام ؛ وهي هذه :

أُطْلَعْنَ فِي سُدَفِ الْفُرُوعِ شُمُوسًا ضَحِكَ الظَّالِمُ لَهَا وَكَانَ عُبُوسًا
وَعَطَفْنَ قُضْبًا لِلْقُدُودِ نَوَاعِمًا بُوْئِنَ أَدْوَاهِ النِّعَمِ غُرُوسًا
وَعَدَلْنَ عَنْ جَهْرِ السَّلَامِ مَخَافَةَ الْوَأَشَى فَجِئْنَ بِلَفْظِهِ مَهْمُوسًا
وَسَقَرْنَ مِنْ دَهْشِ الْوَدَاعِ وَقَوْمَهُنَّ إِلَى التَّرَحُّلِ قَدْ أَنَاخُوا الْعِيسَا
وَحَلَسْنَ مِنْ خَلَلِ الْحِجَالِ إِشَارَةً فَتَرَكْنَ كُلَّ حِجَالِهَا مَخْلُوسَا
لَمْ أَنْسَهَا مِنْ وَخْشَةٍ وَالْحَيُّ قَدْ زَجَرَ الْحَمُولَ وَأَتَرَ التَّقْلِيسَا
لَا الْمُلْتَقَى مِنْ بَعْدِهَا كَتَبَ^(١) وَلَا عُوجُ الرَّاكِبِ تَسَامُ التَّخْيِيسَا^(٢)
فَوَقَفْتُ وَقْفَةً هَائِمٌ بِرُحَاوُهُ وَقَفْتُ عَلَيْهِ وَحُبِسْتُ تَخْيِيسَا
وَدَعَوْتُ عَيْنِي عَاتِبًا وَعُيُونَهَا بَعَا النَّوَى قَدْ بُجِسْتُ تَبْجِيسَا
نَافَسْتُ يَا عَيْنِي دُرَّ دُمُوعِهِمْ فَعَرَضْتُ دُرًّا لِلدُّمُوعِ نَفِيسَا
مَا لِلْحِمَى بَعْدَ الْأَحَبَّةِ مُوَحِّشًا وَلَكَمْ تَرَأَى أَهْلًا مَأْنُوسَا
وَلِيسِرَ بِهِ حَوْلَ الْخَيْسَلَةِ نَافِرًا عَمَّنْ يُحْسِنُ بِهِ وَكَانَ أُنِيسَا
وَلِظَلِّهِ الْمُرُودِ عَمْرُ قَلْبِيهِ لَا يَقْتَضِي وَرْدًا وَلَا تَعْرِيسَا^(٣)
حَيِّيتُهُ فَأَجَابَنِي رَجْعُ الصَّدَى لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِذَا مَا قَيْسَا
مَا إِنْ يَزِيدُ عَلَى الْإِعَادَةِ صَوْتُهُ حَرْفًا فَيَشْفِي بِالْمَزِيدِ نَسِيسَا^(٤)

(١) كَتَبَ ، أَيْ قَرِيبَ .

(٢) كَذَا فِي ط . وَالتَّخْيِيسُ : أَنْ تَدُلَّ الدَّابَّةُ وَتَرَاوِجَ بِالرُّكُوبِ . وَفِي ت وَنَفَحَ الطَّيْبُ : « التَّخْيِيسَا » .

(٣) الْقَلْبُ : الْبُتْرُ . وَغَمْرُهُ : أَيْ مَأْوَاهُ الْغَامِرُ . وَالتَّعْرِيسُ : النُّزُولُ آخِرَ اللَّيْلِ .

(٤) النَّسِيسُ : غَايَةُ جَهْدِ الْإِنْسَانِ .

نَضَبَ المَعِينِ وَقَلَصَ الظِّلُّ الَّذِي ظَلْنَا وَوُفُوا عِنْدَهُ وَجُلُوسَا
 نتواعد الرُّجُوعِي وَنَفْتَمِ اللَّقَا وَنُدِيرُ مِنْ شَكْوَى الغَرَامِ كُؤُوسَا
 فَإِذَا سَأَلْتَ فَلَا تَسْأَلْ مُخْبِرَا وَإِذَا سَمِعْتَ فَلَا تُحَسِّ حَسِيدَا
 عَهْدِي بِهِ وَالدهرُ يُنْحِفُ بِالْمُنَى وَقَدْ اقْتَضَتْ نِعْمَاهُ أَنْ لَا بُوسَا^(١)
 والعَيْشُ غَضُّ الرِّيعِ والدُّنْيَا قَدِ اجْبُتَلَيْتْ بِمَغْنَاهُ^(٢) عَلَى عَرُوسَا
 أَتُرَى يُعِيدُ الدهرُ عَهْدًا لِلصَّبَا دَرَسَتْ مَعَانِي الْأَنْسِ فِيهِ دُرُوسَا
 [أَوَطَانِ أَوَطَارٍ تَعَوَّضَ أَفْقُهَا مِنْ رَوْنَقِ الْبِشْرِ الْبَهِيِّ عُبُوسَا]^(٣)
 هِيَاتَ لَا تُغْنِي لَعَلٌّ وَلَا عَسَى فِي مِثْلِهَا إِلَّا لَآيَةُ عِيسَى
 والدهرُ فِي دَسْتِ الْقَضَاءِ مُدَرِّسٌ فَإِذَا قَضَى يَسْتَأْنِفُ التَّسْدِيسَا
 تَقَسَّتَ فِي جُمَلِ الْوَرَى أَبْحَاثُهُ لَاسِيًّا فِي بَابِ رِنْعَمٍ وَبِيسَا
 وَسَجِيَّةُ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِنَاصِلٍ مِنْ صِبْغِهَا حَتَّى يُرَى مَرْمُوسَا
 يَغْتَرُّ مَهْمَا سَاعَدَتْ أَمَالُهُ فَإِذَا عَرَاهُ الْخَطْبُ كَانَ يُؤْمُوسَا
 فَلَوْ أَنَّ نَفْسًا مُكَنَّتْ مِنْ رُشْدِهَا يَوْمَا وَقَدَّسَهَا الْهُدَى تَقْدِيسَا
 لَمْ تَسْتَفْزِ رَسُوخَهَا التُّغْمَى وَلَا هَلَعَتْ إِذَا كَثُرَتْ^(٤) إِلَيْهَا الْبُوسَا
 قُلْ لِلزَّمَانِ إِلَيْكَ عَنْ مَتَدَمٍّ^(٥) بِضَمَانٍ عِزٍّ لَمْ يَكُنْ لِيَخِيسَا^(٦)

(١) لَا بُوسَا : لَا بُوسَا ، فَسْهَل .

(٢) كَذَا فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ . وَفِي الْأَصْلَيْنِ : « بِمَغْنَاهُ » .

(٣) التَّكْمَلَةُ عَنْ تِ وَنَفْعِ الطَّيِّبِ .

(٤) كَذَا فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ . وَفِي تِ : « كَسُرَتْ » . وَفِي طِ : « كَثُرَتْ » وَكَلَاهَا تَحْرِيفٌ .

(٥) التَّمَدُّمُ : السُّتُكُفُ .

(٦) كَذَا فِي طِ وَنَفْعِ الطَّيِّبِ . وَفِي تِ : « تَبْخِيسَا » .

فإذا استحرَّ جِلادُهُ فأنا الذي اسـتَغشيت مِن سَرَدٍ^(١) اليقين لبُوسا^(٢)
 وإذا طغا فِرْعونه فأنا الذي مِن ضُرِّه وأذاه عُدْتُ بموسى
 أنا ذا أبو مثنوا^(٣) من يَحْمِي الحمى لَيْثًا وَيُعْلِمُ بِالزَّيْرِ الحِيسا
 بِحِمَى أَبِي حَمُو حَطَطْتُ رِكاثِي لما اختبرتُ اللَّيْثَ والعَرِيسا
 أَسَدَ الهِياجِ إذا خطا قُدُما سَطًا فَيُخَلِّفُ الأَسَدَ الهِزْبُ فَرِيسا
 بَذرَ الهُدَى يَأْتِي الظَّلَالُ ضِياؤُه أبدأً فيجْلُو الظَّلمَةَ الحِنْدِيسا^(٤)
 جَبَلَ الوَقارِ رَسًا وأَشْرَفَ واعْتَلَى وَسَمًا فَطَاطَتِ الجِبَالُ رُؤوسا
 عَينُ النِّوالِ إذا الغمامُ حَلوبَةٌ مَثَلْتُ بِأَيْدِي الحالِبِينَ بَسُوسا^(٥)
 تلقاه يومَ الأُنسِ روضًا ناعما وِترامَ بَاسًا في الهِياجِ بَئِيسا
 كَمْ غَمْرَةٍ جَلَّى وَكَمْ خَطْبٍ كَفَى إن أوطأ الجُرْدَ العِتاقَ وَطِيسا
 كَمْ حِكْمَةٍ أَبْدَى وَكَمْ قَصْدٍ هَدَى للساكِينَ أبانَ مِنْهُ دَرِيسا^(٦)
 أَعلى بَنى زِيانَ والقَدْزَ الذي لَيْسَ الكَمالَ فزَيْنَ المَلْبُوسا
 جَمَعَ النَّدَى والباسَ والشِّيمَ العُلَا والسُّودَدَ المتواتِرَ القُدُموسا^(٧)
 والحَلْمَ لَيْسَ يُبَايِنُ الخُلُقَ الرُّضا والعَلَمَ لَيْسَ يَعارضُ الناموسا

(١) سرد اليقين : أى درع من اليقين .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « البوسا » .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « مثنوا » .

(٤) الجنديس : الشديد الظلمة .

(٥) البسوس : الناقة التى لا تدر إلا على الإساس ، أى التلطف ، بأن يقال لها : بس
 بس ، تسكينها .

(٦) الدريس : الطريق الحق .

(٧) القدموس : القديم .

والسعد يغنى حكمه عن نصبة
تستخبرُ التربع والتسديسا
كم راض صعباً لا يراضُ معاصيا
كم خاض حرباً لا يُخاض ضرُوسا
بلغ التي لا فوقها متملاً
وعلاً الشها واستسفل البرجيسا^(١)
يا خير من خفت عليه سحابة
للنصر تُمطره أجش بجيسا^(٢)
وأجل من حملته صهوة ساج
إن كره ضعضع كرهه الكرودوسا^(٣)
قسماً بمن رفع السماء بغير ما
عسد ورفع فوقها إدريسا
ودحا البسيطة فوق لج مزيد
ما إن يزال على القرار حبيسا
حتى يهيب بأهله الوعد الذي
حشر الرئيس إليه والردوسا
ما أنت إلا ذخردهرك دُمت في الصون الحريز مُمتعا محروسا
لوساومته الأرض فيك بما حوت
لواك مُستاماً بها مبخوسا
حلف^(٤) البرور بها أليّة صادق
ويمين من عقد اليمين غموسا^(٥)
من قاس ذاتك بالذوات فإنه
جهل الوزان وأخطأ التقييسا
لا تستوي الأعيان فضل مزينة
وطبيعة فطر الإله وسوسا^(٦)
لعناية التخصيص سر غامض
من قبل ذرء الخلق خص نفوسا
من أنكر الفضل الذي أوتيته
جحد العيان وأنكر الحسوسا

[١٦٧]

(١) البرجيس (بالكسر) : نجم ، أو هو المشتري .

(٢) بجيسا : غزيرا .

(٣) الكرودوس : القطعة العظيمة من الخيل .

(٤) كذا في نفج الطيب . وفي الأصاين : « كلف » .

(٥) عين : يكذب . واليمين الغموس : التي تغمس صاحبها في الإنم ثم في النار ، وهي

الكاذبة التي يعتمدها صاحبها عالماً بأن الأمر بخلافه .

(٦) السوس : الطبيعة والسجية .

من دَانَ بالإخلاص فيكَ فمَقْدُهُ لا يَقْبَلُ التَّوْبَةَ والتَّوْبَةَ
 والْمُنْتَمَى الْعَلَوِيُّ عَيْصُكَ لم تَكُن لَتَرَى دَخِيلًا فِي بَنِيهِ دَسِيمًا^(١)
 يَبْتَ التَّبَتُولِ وَمُنْتَمَى الشَّرَفِ الَّذِي تَحْمِي المَلَائِكُ دَوْحَهُ المَفْرُوسَا
 أَمَّا سِيَّاسَتُكَ الَّتِي أَخْكَمْتَهَا فَرَمَيْتَ بِالتَّقْصِيرِ أَسْطَالِيْسَا
 فَلَوَّانَ كَسَرَى الْفَرَسِ أَبْعَرُ بَعْضَهَا مَا كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يُعَدَّ سَوَوْسَا^(٢)
 لَوْ سَارَ عَدْلُكَ فِي السَّنِينَ لَمَا اشْتَكَّتْ بَخْسًا وَلَمْ يَكُ بَعْضُهُنَّ كَبِيْسَا
 وَلَوْ الْجَوَارِي الْخُنُسُ انْتَسَبَتْ إِلَى أَقْوَامٍ عَزَّكَ مَا خَنَسْنَ خُنُوسَا^(٣)
 قُدَّتِ الصَّعَابُ فَكُلِّ صَفْبٍ سَامِحٌ لَكَ بِالْقِيَادِ وَكَانَ قَبْلُ شَمُوسَا
 تَلَقَّى اللَّيْثُ وَلِلْقَتَامِ غَمَامَةٌ قَدَحَ الصَّفِيحُ وَمِيعَهَا الْمُقْبُوسَا
 وَكَانَتْهَا تَحْتَ الدُّرُوعِ أَرَاقِمٌ يَنْظُرُونَ مِنْ خَلَلِ الْمَغَافِرِ شُوسَا^(٤)
 مَا لَابَنُ مَامَةٍ فِي الْقَدِيمِ وَحَاتِمٌ ضَرَبَ الزَّمَانُ بِجُودِهِمْ نَاقُوسَا^(٥)
 مِنْ جَاءَ مِنْهُمْ مِثْلَ جُودِكَ كُلَّمَا حَسِبُوا الْمَكَارِمَ كُسُوةً أَوْ كِيْسَا
 أَنْتَ الَّذِي افْتَتَكَ السَّفِينَ وَأَهْلَهُ إِذْ أَوْسَعْتَ سُبُلَ الْإِخْلَاصِ طُمُوسَا
 أَنْتَ الَّذِي أَمَدَدْتَ ثَغْرَ اللَّهِ بِالصَّدَقَاتِ تَبْلُسُ كَرَّةً إِبْلِيْسَا
 وَأَعْنَتْ أُنْدُلُسَا بِكُلِّ سَبِيكَةٍ مَوْسُومَةٍ لَا تَعْرِفُ التَّدْلِيْسَا

(١) العيس : الأصل .

(٢) في نفع الطيب المطبوع والمخطوط : « بسوسا » .

(٣) الجوارى الخنس : منها زحل والمرغ والمشتري وعطارد والزهرة ؛ وخنوسها : اختفاؤها .

(٤) شوسا : ناظرة بمؤخر العين غضبا .

(٥) ابن مامة : هو كعب ، وهو من أجواد العرب .

وَشَحْنَتْهُ بِالْبَرِّ فِي سُبُلِ الرِّضَا وَالْبَرِّ قَارِبَ قَاعُهَا الْقَامُوسَا
 إِنْ لَمْ تَجْرَتْ بِهَا الْخَمِيسَ فَطَالَمَا جَهَزَتْ فِيهَا لِلنَّوَالِ خَمِيسَا
 وَمَلَأَتْ أَيْدِيهَا وَقَدْ كَادَتْ عَلَى حُكْمِ الْقَضَاءِ تُشَابِهَ التَّفْلِيسَا
 صَدَقَتْ لِلْأَمَالِ صَنْعَةُ جَابِرٍ^(١) وَكَفَيْنَهَا التَّشْمِيعَ وَالتَّشْمِيسَا^(٢) [١٦٨]
 وَالْحَلَّ وَالتَّقْطِيرَ وَالتَّضْمِيدَ وَاللَّهْ خَمِيرَ وَالتَّضْوِيلَ وَالتَّكْلِيسَا^(٣)
 فَسَبَكَتْ مِنْ آمَالِهَا مَا لَا مِنْ أَوْرَاقِهَا وَرَقًا وَكُنَّ طُرُوسَا
 بَهْتُوا فَلَمَّا اسْتَخْبَرُوا لَمْ يُنْكِرُوا وَزَنَا وَلَا لَوْنَا وَلَا مَلُوسَا
 تَذِيرَ مَنْ قَلَبَ السُّطُورَ سَبَائِكَا مِنْهَا وَمِنْ طَعِيعِ الْحُرُوفِ فُلُوسَا
 وَنَحَوْتَ نَحْوَ الْفَضْلِ تَعَصَّدُ مِنْهُ بِالْمَسْمُوعِ مَا أَلْقَيْتَ مِنْهُ مَقِيسَا
 وَجَبَرَتْ بَعْدَ الْكَسْرِ قَوْمَكَ جَاهِدَا تُغْنِي الْعَدِيمَ وَتُطْلِقُ الْمَخْبُوسَا
 وَنَشَرْتَ رَايَةَ عِزِّهِمْ مِنْ بَعْدَمَا دَالَ الزَّمَانُ فَسَامَهَا تَنَكِّيسَا
 أَحْكَمْتَ حِيلَةَ بُرْنِهِمْ بِلُطَافَةٍ قَدْ أَعْجَزَتْ فِي الطَّبِّ جَالِينُوسَا
 وَقَلَّتْ مِنْ حَدِّ الزَّمَانِ وَإِنِّهِ أَوْحَى وَأَمْضَى مِنْ غِرَارِ الْمُوسَى
 وَشَحَذْتَ حَدًّا كَانَ قَبْلُ مُثْلَمَا وَنَعَشْتَ جَدًّا كَانَ قَبْلُ تَعِيسَا

(١) انظر الحاشية (رقم ٢ ص ١٧١ من هذا الجزء) .

(٢) التَّشْمِيعُ : تَلِينُ الشَّيْءِ وَتَصْيِيرُهُ كَالشَّمْعِ . (عن مفاتيح العلوم لأخوارزمي) .

(٣) الْحَلُّ : أَنْ تَجْعَلَ الْمُنْقَعِدَاتِ مِثْلَ الْمَاءِ . وَالتَّقْطِيرُ : مِثْلُ صَنْعَةِ مَاءِ الْوَرْدِ ، وَهُوَ أَنْ يَوْضَعُ الشَّيْءُ فِي الْفِرْعِ وَيُوقَدُ تَحْتَهُ ، فَيَصْعَدُ مَائِهِ إِلَى الْأَنْبِيْتِ ، وَيَنْزِلُ إِلَى الْقَابِلَةِ ، وَيَجْتَمِعُ فِيهِ . وَالتَّضْمِيدُ : شَبِيهِهُ بِالتَّقْطِيرِ ، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْأَشْيَاءِ الْيَابِسَةِ . وَالتَّضْوِيلُ : أَنْ يَجْعَلَ الشَّيْءَ الَّذِي يَرْسِبُ فِي الرُّطُوبَاتِ طَافِيَا ، وَذَلِكَ أَنْ يَصِيرَ مِثْلَ الْهَبَاءِ حَتَّى يَصُولَ عَلَى الْمَاءِ . وَالتَّكْلِيسُ : أَنْ يَجْعَلَ جَسَدَ كَيْزَانَ مَطِينَةً وَيَجْعَلَ فِي النَّارِ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الدَّقِيقِ . وَالشَّيْءُ يَكْلُسُ ثُمَّ يَصُولُ . (عن مفاتيح العلوم) .

لم تَرْجُ إِلَّا اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ فِي شِدَّةٍ تُكْفَى وَجُرْحُ يُوسَى
 قَدِمَتْ صُحُبًا فَاسْتَضَاءَتْ بِنُورِهِ وَوَجَدَتْ عِنْدَ الشِّدَّةِ التَّنْفِيسَا
 مَا أَنْتَ إِلَّا فَالِحٌ ^(١) مُتَيَقِّنٌ بِالنُّجْحِ تَعَمَّرُ مُمَرَّعًا وَيَبْيَسَا
 وَمُتَاجِرٌ جَعَلَ الْأَرِيكَةَ صَهْوَةً عَرَبِيَّةً وَالْمَتَكَ الْقَرَبُوسَا ^(٢)
 مَا إِنْ تُبَاعِ أَوْ تُشَارَى ^(٣) وَائِقَا بِالرَّيْحِ إِلَّا الْمَالِكَ الْقُدُّوسَا
 وَالْعَزْمُ يَفْتَرِعُ النُّجُومَ بِنَاوِهِ مَهْمَا أَقَامَ عَلَى التَّقَى تَأْسِيسَا
 وَمَقَامُ صَبْرِكَ وَاتِّكَالِكَ مُذَكِّرٌ بِحَدِيثِهِ الشَّيْلَى أَوْ طَاوُوسَا ^(٤)
 وَمَنْ ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَفَّقَ سَعْيَهُ فَرَأَى الْعَظِيمَ مِنَ الْحُظُوظِ خَسِيسَا
 مَا أَزْدَدَتْ بِالْتِمَحِيصِ إِلَّا جِدَّةً وَنُضُوتَ مَنْ خَلَعَ الزَّمَانَ لَبِيسَا
 وَلِظَالِمَا طَرَقَ الْخُسُوفُ أَهْلَةٌ وَلِظَالِمَا اعْتَرَضَ الْكُسُوفُ شُمُوسَا
 ثُمَّ انْجَلَتْ نِسْمَاتُهَا عَنْ مَشْرِقِ لِلسَّعْدِ لَيْسَ بِحَاذِرٍ تَعْيِيسَا
 خُذْهَا إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى سَيْنِيَّةٍ تُرْضِي الطَّبَاقَ وَتَشْكُرُ التَّجْنِيسَا
 إِنْ طُوِّلَتْ ^(٥) بِالذَّرَمِ حَوْلَ الطَّلَى يَوْمًا تَشَكَّتْ حَقْلَهَا الْمَوْكُوسَا
 لَوْلَاكَ مَا أَصْغَتْ لِحِطْبَةِ خَاطِبٍ وَلَعُنَّتْ فِي بَيْتِهَا تَعْنِيسَا
 قَصَدَتْ سَلِيمَانَ الزَّمَانَ وَقَارِبَتْ فِي الْخَطْوِ تَحْسِبُ نَفْسَهَا بَلْقِيسَا

(١) كَذَا فِي الْأَصْلَيْنِ وَنَفَعَ الطَّيِّبُ . وَفِي ت : « وَاج » .

(٢) الْقَرَبُوس : حَنُوس السَّرَج .

(٣) كَذَا فِي نَفْعِ الطَّيِّبِ . وَفِي الْأَصْلَيْنِ : « مَا إِنْ يَبَاعِ أَوْ يُشَارَى » .

(٤) الشَّيْلَى : هُوَ أَبُو بَكْرٍ دَلْفُ بْنُ جَعْدَرِ الصُّوفِيِّ وَكَانَتْ وَفَاتِهِ سَنَةُ ٣٣٤ هـ .
 وَطَاوُوس : هُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَبُو سَعِيدٍ الْمَالِئِيِّ الصُّوفِيِّ وَكَانَتْ وَفَاتِهِ
 سَنَةُ ٤١٢ هـ .

(٥) كَذَا فِي ط وَنَفَعَ الطَّيِّبُ . وَفِي ت : « طُولَتْ » .

لى فيك ودّ لم أكن من بعدما أعطيت صفة عهده لأخيسا
 كم لى بصحة عقده من شاهد لا يحذر التجريح والتدليس
 ينفقوا الشهادة باليمين وإنه لمؤمن من أن يعدّ فيسبا^(١)
 لا يستقر قرار أفكارى إلى أن أستقر لدى غلاك جليسا
 وأرى تجاهك مستقيم السير للقصّد الذى أعملته معكوما [١٦٩]

هى دين أيامى فإن سمحت به لم يبق من شىء عليه يؤسى
 لا زال صنع الله مجنوبا إلى مثواك يهذى البشر والتأنيسا
 متتابعسا ككتاب الأيام لا يذر التعاقب جمعة وخيسا
 فلو أنصفتك إبالة الملك التى رُضت الزمان لها وكان شريسا
 قرنت بذكرك والدعاء لك الذى تختاره التسبيح والتقديسا
 القلب أنت لها رئيس حياتها لم تعتبر مهما صلحت رئيسا
 قال الحافظ أبو عبد الله التتسي، رحمه الله ورضى عنه : هذا ابن الخطيب
 فى هذه السينية حذو أبى تمام فى قصيدته التى أولها :

أقشيب ربهم أراك دريسا تقرى ضيوفك لوعة ورسيسا
 واختلس كثيرا من ألفاظها ومعانيها . انتهى .

ووصل ابن الخطيب هذه السينية بنثر بارع يخاطب به السلطان أبا حمو
 المذكور ، ونصه :

(١) الفيس : الأحق الضعيف العقل . وفى ت : « فيسا » بالفاء بدل الفاء ،
 وهو تصحيف .

« هذه القصيدة ، أبقى الله أيام المثابة المُولوية الموسوية متمعة بالشمل المجموع ،
 والثناء المسموع ، والملك المنصور الجموع ؛ نَفْثَةً من باح بسرّ هواه ، ولَبَّيْ دعوة
 الشوق العاثر بلبه ^(١) وقد ظفّر بمن يهدى خبر جَوَاه إلى محل هَوَاه ؛ ويختلس
 بعث تحيَّته ، إلى مُثير أريحته ؛ وهى بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال ، الشاذّ
 عن الآمال ؛ عُنوان من كتاب ، وذَوَاق من أوقار ذات أقتاب ؛ وإلا فمن يقوم
 بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافئ إحسانها إحسانه ؛ أو يستقل بوصفها يراعه ،
 أو تهض بأيسر وظيفها ذراعه ؛ ولا مكابرة بعد الاعتراف ، والبحر لا ينفد
 بالاغتراف ؛ لا سيما وذاتكم اليوم والله يُبقيها ، ومن المكاره يقيها ، وفي معارج
 القُرب من حضرة القدّس يُرقيها ، ياقوتة اختارها واعتبرها ، ثم بلاها بالتمحيص [١٧٠]
 في سبيل التخصيص واختبرها ، وسبيكة خلصها وسجّرها ، نخلصها بسجّره
 من الشوب ، وأبرزها من لُباب الذّوب ^(٢) ؛ وقصرت عن هذه الأثمان ، وسُرّ
 بصدق دعواه ^(٣) البهرمان ^(٤) ؛ ليفاضل بين الجَهم والصيّب ، ويميز الله الخبيث
 من الطيّب ؛ فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعُدّة ، وعرفكم بنفسه في حال
 الشّده ، ثم فسّح لكم بعد ذلك في المُدّة ؛ لتعرفوه إذا دال الرّخاء ، وهبّت بعد
 تلك الزعازع الرّيح الرّخاء ؛ وملاكم من التجارب ، وأوردكم من الطافه أعذب
 المشارب ؛ ونقلكم بين إصرار الزمان وإحلاله ، ولم يسلبكم إلا احتيرا عند أوليائه ؛

(١) وردت هذه العبارة محرفة في ت هكذا : « ودعوة الشوق الثابت بلبه » .

(٢) وردت هذه العبارة في الأصلين هكذا : « وسبيكة خلصها وشعرها نخلصها
 الشجرة من الشوب وأبرزتها من ... الخ » . وفي نفع الطيب : وسبيكة خلصها
 وسخرها ، نخلصها لتسخيره من الشوب ... الخ » . والعبارة في كل ذلك قلقة ،
 ولعل ما أثبتناه أقرب إلى المعنى المراد . والسجّر : مصدر سجر التنور ونحوه ،
 إذا أمّاه .

(٣) كذا في نفع الطيب . وفي ت : « دموعه » . وفي ط : « دعوته » .

(٤) البهرمان : المصفر ، وهو دون الأرجوان شدة حمرة .

وأعادكم المعاد المطهر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المعلم المشهر ؛ فأنتم اليوم
 بعين العناية ، بالإفصاح والكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف
 بالجنایه ؛ فإن كان الملك اليوم علماً يُدرّس ، وقوانين في قوة الحفظ تُعْرَس ،
 وبضاعة برصد التجارب تُحْرَس ؛ فأنتم مالك دار هجرته الحسوبه ، وأصمعي
 شعوبه المنسوبه ؛ إلى ما حُزتم من أشتات الكمال ، المُرَبَّية على الآمال ؛ فالبیت
 علوی المنتسب ، والمُلك بين الموروث والمكتسب ؛ والجود يعترف به الوجود ،
 والدين يشهد به الركوع والسجود ؛ والبأس تعرفه التهاشم والتجود ، والخلق
 يحسده الروض المجود ؛ والشعر يغترف من عذب ندير ، ويصدق من قال
 بُدِيْ بِأَمِيرٍ وَخِمْ بِأَمِيرٍ ؛ وإن مملوكم حوّم من بابكم على العذب البرود ،
 فعاقه الدهر عن الورود ؛ واستقبل أفعه ليحقق الرصد ، ولكنه أخطأ القصد ؛
 [١٧١]
 ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ؛ فربما خبي نصيب ، أو كان
 مع الخواطي سهم مُصِيب ؛ وكان يؤمل صحة ركّاب الحِجَاز ، فانتقلت الحقيقة
 منه إلى الحجاز ؛ وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التي خلّص
 منها إلى الفتنة الانتساب ؛ ومن طلب الأيام أن تجرّ على اقتراحه ، وجب
 العمل على أطراحه ؛ فإنما هي البحر الزاخر ، الذي لا يُدرك منه الآخر ؛ والرياح
 متغايره ، والسفينة الحائره ؛ فتارة يتعذر من المُرْسَى الصّرف ، وتارة تقطع المسافة
 البعيدة قبل أن يرتد الطرف ؛ هذا إن سالها عطبها ، وأغنى من الوقود حطبها ؛
 ولقد علم الله جلّ جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب ،
 ممن ^(١) يجبر كسر القلوب ؛ فإنه مما انعقد على كماله الإجماع ، وصح في عوالم
 معاليه السماع ، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع ؛ أخلاقاً هذبها الكرم الوضاح ،

(١) كذا في ط ونفع الطب . وفي ت : « فن » .

وسجية كلف بها السكال الفصاح ؛ وحرصا على الذكر الجميل ، وما يتنافس فيه
إلا من سمت هممه ، وكرمت ذممه ، وألفت الخلد ريمه ؛ إذ الوجود سراب ، وما
فوق التراب تراب ؛ ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يُسَطَّر في أوراق^(١) ؛
حسبا قلت من قصيدة كتبها على ظهر [مكتوب]^(٢) موضوع ، أشار به من
كانت له طاعة ، فوفت بمقترحه استطاعه :

يمضى الزمان فكلّ فانٍ ذاهبٌ إلا جميلَ الذكر فهو الباقي
لم يبق من إيوان كسرى بعد ذا لك الحقل إلا الذِّكرُ في الأوراق
هل كان للسفاح والنصور والـمهدى من ذِكرٍ على الإطلاق
أو للرشيد وللأمين وصنوه لولا شـبـاهة يراعة الزقاق
رجع التراب إلى التراب بما اقتضت في كلّ خلقٍ حكمة الخلاق
إلا الثناء الخالد العطر الشذا يهدي حديث مكارم الأخلاق
والرغبة من مقامكم الرفيع الجنب ، أن يمدّها من حُسن المثاب^(٣) ؛ فتحظى
بحلول ساحته ، ثم بلثم راحته ؛ ثم بالإصفاء ، ولا مزيد للاقتفاء ؛ إلى أن ترتفع
الوساطه ، وتغنى عن التركيب البساطه ؛ ويُدسّى الأثر بالعين ، ويُحسّن الدهر
قضاء الدّين ؛ ونسأل الذي أغرى بها القريحه ، ولم يجعل الباعث إلا الحجة الصريحه ؛
أن يُبقى تلك المثابة زينا للزمان ، وذخرا مكنوفا باليمن والأمان ، مظلا برحمة
الرحمن ، بفضل وكرمه . انتهى .

ومن مقطوعاته ، أى ابن الخطيب ، البديعة في مخاطبة هذا السلطان أبى حمو
صاحب تليسان ، قوله يشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس :

بعض مقطوعات
لابن الخطيب
في السلطان
أبى حمو

(١) في ط : « أو ذكر جميل » .

(٢) زيادة عن نفح الطيب .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « المناب » .

لقد زار الجزيرة منك بحرٌ يُمِدُّ فليس تعرف منه جزراً
أعدت لها بعهدك عهد موسى سميكَ فهي تلو منه ذِكراً
أقت جدارها وأفدت كنزاً ولو شئت اتخذت عليه أجراً

وقوله :

وقالوا الجزيرة قد صوّحت فقلت : غمام الندى تنتظر
إذا وكفت كف موسى بها غماما يعود الجنبُ الخضر
ومخاطبات الوزير ابن الخطيب للسلطان أبي حمو كثيرة جداً ، ولنفقصر منها
على ما ذكرناه .

ومن نظم ابن الخطيب رحمه الله :

يا إمام الهدى وأى إمام أوضح الحق بعد إخفاء رثمه
أنت عبد الحليم حاكم نرجو فالمسمى له نصيب من اسمه

[وله يخاطب عبد الواحد بن زكرياء بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان
إفريقية مؤدعاً :

أبا مالك أنت نجل الملوك غيوث الندى وليوث النزال
ومثلك يرتاح للمكرّمات ومالك بين الورى من مثال
عزيز بأنفسنا أن نرى ركابك مؤذنة بارتحال
وقد خبرت منك خلقاً كريماً أناف على درجات الكمال
وفازت^(١) لديك بساعات أنس كما زار في الليل طيف الخيال
ولولا تعللنا أننا نزورك^(٢) فوق بساط الجلال

(١) كذا في نفح الطيب (ج ٤ ص ١٧٦) . وفي الأصلين : « وجازت » .

(٢) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « بزورك » .

ونبلغُ فيكَ الذي نبتغي وذاك على الله سهل المنال
لما فترتْ أنفُسُ من أمي ولا برحت أدْمَعُ في انهمال
تلقّتك حيثُ احتللت السعودُ وكان لك الله في كل حال
وتوفى أبو مالك الخطّاب بهذا ببلد الجريد سنة خمسين وسبع مئة^(١) .

ومن أبدع ما وقع لابن الخطيب لاميته التي أولها :

* الحق يعلو والأباطل تسفل *

قال ابن حجة في شرح بديعته ، الذي سماه بتقديم أبي بكر ، ما نصه :
« وما يشعر بالتهنئة والنصر على الأعداء ، براعة الاستهلال للعلامة إمام
المغرب ، ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب ، وهى :

من قصيدة
« المنح الغريب »
له

الحق يعلو والأباطل تسفل والله^(٢) عن أحكامه لا يُسأل [١٧٣]

فإنه قال : نظمت للسلطان أسعده الله تعالى وأنا بمدينة سلا ، لما انفصل
طالباً حقه بالأندلس ، قصيدة كان صنع الله براعة استهلالها^(٣) ، ووجهت بها إليه
إلى رُندة قبل الفتح ، ثم لما قدّمتُ أنشدتها [بين يديه]^(٤) بعد الفتح وفاء
بنذرى ، وسَمَّيتها : « المنح الغريب ، فى الفتح القريب » ، منها قوله رحمه الله :
وإذا استحال حالة وتبدلت فالله عزّ وجلّ لا يتبدّل
واليسرُ بعد العسر موعود به والصبر بالفرج القريب مُوَكَّل
والمستعدّ لما يؤمّل ظافر وكفأك شاهد « قيدوا وتوكلوا »

(١) فى نفع الطيب : سنة ٧٤٠ .

(٢) فى شرح بديعية ابن حجة : « والحق » .

(٣) فى شرح البديعية المذكور : « كان صنع الله مطابقا لاستهلالها » .

(٤) الزيادة عن شرح البديعية لابن حجة .

أمحمد والحمد منك سجية بحُلَيْهَا دون^(١) الْوَرَى تَتَجَمَّلُ
 أمّا سُعودك فهو دون مُنازع عَقَدَ بِأَحْكَامِ الْقَضَاءِ مُسَجَّلُ
 ولك السجايَا الغُرُّ والشَّيْمُ التي بغريهـمَا يَتَمَثَّلُ الْمُتَمَثَّلُ
 ولك الْوَقَارُ إِذَا تَزَلْزَلَتِ الرُّبَا وَهَفَّتْ مِنْ الرُّوْعِ الْهَضَابُ الْمُثَلُّ
 عَوِّذْ كِمَالَكِ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ قَدْ تَنْقُصُ الْأَشْيَاءُ مِمَّا تَكْمُلُ
 تَابَ الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِمَّا قَدْ جَنَى وَاللَّهُ يَأْمُرُ بِالْمَتَابِ وَيَقْبَلُ
 إِنْ كَانَ مَاضٍ مِنْ زَمَانِكَ قَدْ مَضَى بِإِسَاءَةٍ قَدْ سَرَّكَ الْمُسْتَقْبَلُ
 هَذَا بِذَاكَ فَشَفَعَ الثَّانِي^(٢) الَّذِي أَرْضَاكَ^(٣) فِيمَا قَدْ جَنَاهُ الْأَوَّلُ
 وَاللَّهُ قَدْ وَلَّاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ لِمَا ارْتَضَاكَ وَلَايَةً لَا تُغْزَلُ
 وَإِذَا تَعَمَّدَكَ الْإِلَهِ بِنَصْرِهِ وَقَضَى لَكَ الْحُسْنَى فَمِنْ ذَا يَخْذُلُ
 وَظَعَنْتَ عَنْ أَوْطَانٍ مُلْكُكَ رَاكِبًا مَتْنٌ^(٤) الْعُيُوبُ فَأَيُّ صَبْرٍ يَجْمَلُ ؟
 وَالْبَحْرُ قَدْ حُنِنَتْ^(٥) عَلَيْكَ ضُلُوعُهُ وَالرَّيْحُ تَقْطَعُ لِلزَّفِيرِ^(٦) وَتُرْسِلُ
 وَلَكِ الْجَوَارِي الْمُنَشَّاتُ قَدْ اغْتَدَتْ تَحْتَالُ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ وَتَرْفُلُ
 جَوْفَاءَ يَحْمِلُهَا وَمَنْ حَمَلَتْ بِهِ مَنْ يَعْلَمُ الْأُنْثَى وَمَاذَا تَحْمِلُ
 صَبَّحَتْهُمْ غُرَرُ الْحِيَادِ كَأَنَّمَا سَدَّ^(٧) الثَّنِيَّةَ عَارِضٌ مَتَهَلَّلُ

(١) في شرح البديعية : « بين » .

(٢) كذا في البديعية . وفي الأصلين : « الجاني » .

(٣) كذا في ط . وفي ت : « ارتضاك » .

(٤) كذا في البديعية . وفي الأصلين : « بين » .

(٥) كذا في نفح الطيب ، وفي ط : « خفقت » وفي ت : « خفت عليه » .

(٦) في البديعية : « تبتلع الزفير » .

(٧) كذا في البديعية . وفي ت : « كأنها بيد الثنية » أي بطريق الثنية . وفي ط :

« كأنها أسد الثنية » وهي محرفة عما أثبتناه في صلب الكتاب .

مِنْ كُلِّ مَنْجَرِدٍ أَغْرَ مُحَجَّلٌ يَرْمِي الْجِيَادَ^(١) بِهِ أَغْرَ مُحَجَّلٌ
زَجَلَ الْجَنَاحَ إِذَا أَجَدَ لِفَارَةٍ^(٢) وَإِذَا تَغَنَّى لِلصَّهِيلِ فُبْلُبُلٌ
جَيِّدٌ كَمَا التَفَتَ الظَّلِيمُ وَفَوْقَهُ أُذُنٌ مَمَشَقَةٌ وَطَرْفٌ أَكْحَلُ
ومنها :

[١٧٤] وَخَلِيجٌ هَنْدٍ رَاقٍ حَسَنُ صَفَائِهِ حَتَّى يَكَادُ يَعُومُ^(٣) فِيهِ الصَّيْقَلُ
غَرَقَتْ بِصَفْحَتِهِ النَّالُ وَأَوْشَكَتْ تَبْغِي النِّجَاةَ فَأَوْشَقَتْهَا الْأَرْجُلُ
فَالْصَّرْحُ مِنْهُ مَمْرَدٌ ، وَالصَّفْحُ مِنْهُ مُورَدٌ ، وَالشَّطُّ مِنْهُ مُصْنَدَلٌ^(٤)
وَبِكُلِّ أَزْرَقٍ إِنْ شَكَتْ أَلْخَاظُهُ مَرَّةَ الْعُيُونِ فَبِالْعَجَاجَةِ يُكْحَلُ^(٥)
مُتَأَوِّدٌ أَعْطَافُهُ فِي نَشْوَةِ مِمَّا يُعَلِّقُ مِنَ الدَّمَاءِ وَيُنْهَلُ
عَجَبًا لَهُ أَنْ النِّجَاجَ بِطَرْفِهِ رَمَدٌ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مُقْتَلُ
لَهُ مَوْقِفُكَ الَّذِي وَثَبَاتِهِ وَثَبَاتُهُ مَثَلٌ بِهِ يُتَمَثَّلُ
وَالنَّضْلُ خَطٌ ، وَالْمَجَالُ صَحِيفَةٌ وَالسَّمَرُ تَنْقُطُ ، وَالصَّوَارِمُ تَشْكُلُ
وَالْبَيْضُ قَدْ كَسِرَتْ حُرُوفُ جُفُونِهَا وَعَوَامِلُ الْأَسَلِ الْمُثَقَّفُ تَعْمَلُ

وهي طويلة ، وجميعها فرائد ؛ ولم أذكر منها إلا لعلمي أن كلام لسان الدين
ابن الخطيب غريب في هذه البلاد . انتهى كلام ابن حجة رحمه الله .

ومن هذه بعد قوله « وطرف أكحل » :

فكأنما هو صورة في هيكل من لطفه وكأنما هو هيكل

(١) كذا في البديعة . وفي الأصلين : « الجلاد » .

(٢) في ت والبديعة : « لغاية » .

(٣) في البديعة . « يقول » .

(٤) في ط والبديعة ونفع الطيب : « مهمل » .

(٥) مره العيون : خلوها من الكحل ، أو فسادها لتركة .

ومنها ، بعد قوله : « والبيض قد كسرت » البيت ، قوله :

لله قومك عند مُشْتَجَرِ القَنَا إِذْ تَوَّبَ الدَّاعِي المُهَيَّبَ وأقبلوا
قوم إذا لَفَحَ الهَجِيرُ وجُوههم حَبَّبُوا برايات الجهاد وظلَّلُوا

ومن مقطوعات ابن الخطيب قوله لما أشرف على مراکش :

ماذا أُحْدِثَ عن بَحْرٍ سَبَّحَتْ به مِنْ البَحَارِ فلا إثم ولا حَرَجُ
دَحَاهُ مبتدع الأشياء مستويا ما إن به دَرَكٌ كَلَّا ولا دَرَجُ
حتى إذا ما للمنازل الفرد لاح لنا صَحَّتْ أبشري يامطايا^(١) جاءك الفرج
قَرُبْتُ من عامر داراً ومَنْزَلَةً والشاهد العدل هذا الطيب والأرج
وقال رحمه الله :

كَنَّا بَتَامِسْنَا نَجُوسُ خِلَالَهَا وممدودها في سيرنا ليس يُقْصَرُ
مراكبُ في البحر المحيط تَحَبَّبْتُ ولا جهة تدرى ولا البر يُبْصَرُ

[١٧٥]

قال ابن الخطيب : ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا
من العُدوة ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والتَّيْه على
السلطان ، والدَّالَّة^(٢) والتكبر على أعلى رُتَبِ الخدمة ، وتطارحتُ على السلطان
في استنجاز وَعْدِ الرحلة ، ورغبت في تَبْرِئة^(٣) الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ،
خاطبني ، يعنى أبا جعفر بن خاتمة ، بعد صدر بلغ من حسن الإشارة ، وبراعة
الاستهلال الغاية ، بقوله :

(١) هذه الكلمة ساقطة في ت .

(٢) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « والدولة » .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي ت : « تغدية » وفي ط : « تفويت » .

من مقطوعات
لما أشرف على
مراكش

كتاب ابن خاتمة
إلى ابن الخطيب

« وإلى هذا يا سيدى ومحل تعظيمى وإجلالى ، أمتع الله تعالى بطول بقائكم ، وضاعف فى العز درجات ارتقائكم ^(١) ؛ فإنه من الأمر الذى لم يغب عن رأى العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ؛ أنكم بهذه الجزيرة شمس أفتقها ، وتاج مفرقها ؛ وواسطة سلكتها ، وطراز ملكها ؛ وقلادة نحرها ، وفريدة دُرّها ^(٢) ، وعقد جيدها [النصوص] ^(٣) ، وكمال زينها ^(٤) على العموم والخصوص ؛ ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ؛ وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب ^(٥) مارستانها ؛ والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ؛ فلذلك يُحلّ المشكل ، وإليه يلتجأ فى الأمر المعضّل ؛ فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحقق نحوكم الأذهان والأفكار ؛ ويُزجر عنكم السانح والبارح ، ويُستنبأ ما تطرف عنه العين وتحتلج الجوارح ؛ استقراء لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم ، واستكشافاً عن سراى سهامكم ؛ لا سيما مع إقامتكم على جناح خُفوق ، وظهوركم فى مُلتَمَع بُروق ، واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ؛ حتى تستقر بكم الديار ، ويلقى عصاه التسيار ؛ ولها العذر فى ذلك ، إذ صدّعها بفراقكم لم يندمل ، وسرورها ببقائكم لم يكتمل ؛ فلم يَبْرَ بَعْدُ جناحها المهيض ، ولا جَمَ ماؤها المغيض ، [١٧٦] ولا تميزت من داجيها ليلالها البيض ؛ ولا استوى نهارها ، ولا تألقت أنوارها ؛ ولا اشتملت نعاؤها ، ونسيت غماؤها ؛ بل هى كالناقة ، والحديث العهد بالمكاره ، تستشعر نفس العافيه ، وتمسح منكم باليد الشافيه ؛ فبحنانكم عليها ، وعظيم

(١) فى ط : « ارتفاعكم » .

(٢) فى ط : « دهرها » .

(٣) التكملة عن نفع الطيب .

(٤) فى نفع الطيب : « وتمام زينتها » .

(٥) كذا فى نفع الطيب . وفى الأصلين : « وطب » .

حرمتكم على من لديها ؛ لا تشوبوا لها عذب المُجَاج بالأجَاج ، وتقطموها عما
عُودت من طيب المِزاج ؛ فما لدائها — وحياء قربكم — غير طِبكم من علاج ؛ وإني
ليخطرُ بخاطري محبة فيكم ، وعناية بما يغنيكم ، ما نال جانبكم — صانه الله — بهذا
الوطن من الجفاء ، ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء ؛ وأن الوطن
إحدى الحواضن الأظَار ، التي يحق لها جميل الاحتفاء ، وما يتعلق بكم من حرمة
أولياء القرابة وأوداء الصفاء : فيغلب على ظني أنكم لحسن العهد أجتج ، وبحق
نفسكم عن حق أوليائكم أسمح ، ولاتي هي أعظم قيمة من فضائلكم أوهب وأسجح .
وهب أن الدُر لا يحتاج في الإثبات ، إلى شهادة النحور واللِّبَات ؛ والياقوت
غنى المكان ، عن مظاهرة القلائد والتيجان ، أليس أنه أعلى للعِيان ، وأبعد
عن مكابرة البُرْهان ، تألقها في تاج الملك أنوشِروان ؛ فالشمس وإن كانت أم
الأنوار ، وجلاء الأبصار ، مهما أغنى مكانها من الأفق قيل : أليل هو أم نهار ؛
وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ؛ مواطن استقرارهم ، وأما كن
قرارهم ، إلا برغمتهم واضطرارهم ، واستبدال دار خير من دارهم ؛ ومتى توازن
الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء
أولياء وعُباد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاقد ألوية في سبيل الله ومضارب
أوتاد ؛ ثم يَبْوَى ولده مَبْوَأَ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتِلاده ؛ أعيد
أنظاركم المسددة من رأى فائل ، وسعى طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من
هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد . . وهي طويلة .

[١٧٧]

قال ابن الخطيب : فأجبتة بقولي :

لَمْ فِي الْهَوَى الْعُذْرَى أَوْ لَا تَلَمْ فَالْعَذْلُ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي
شَأْنُكَ تَعْنِينِي وَشَأْنِي الْهَوَى كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

أهلاً بتُحفّة القادم ، وريحانة المُنادِم ، وذِكْرى الهوى المتقدّم ؛ لا يُصْفِرُ^(١) الله
مَسْرَاك ، بما أسراك ؛ لقد جُبْتُ^(٢) إلى من همومي ليلاً ، وجست رَجُلًا وخيلاً ،
وَوَفَّيْتُ من صاع الوفاء كيلاً ، وظنّنت بي الأسف على مافات فأعملت الالتفات
لكيلاً ؛ فأقسم لو أن أمرى اليوم بيدي ، أو كانت اللّمة السوداء من عُدْدِي ؛
ما أفلتَ شراكي المنصوبة لأمثالك ، حول المياه وبين المسالك ، ولا علمت
ما هنالك ؛ لكنك طرقت حِمِي كَسَعْتَهُ الغارة الشَّواء ، وغيّرت ربهه الأنواء ؛
نحمد بعد ارتجاجه ، وسكت أذِنُ دَجَاجه ، وتلاعبت الرياح الهُوج فوق فجاجة ؛
وطال عهده بالزمان الأوّل ، وهل عند رسم دارس من مُعَوَّل ؛ وحيّا الله ندبا
إلى زيارتي ندّبك ، وبآدابه الحكّمية أدّبك :

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهى شيمة بوركت من شيمه ، وهبة الله قِبَلَه مِن لَدُن المشيمه ، ومن مثله
فى صِلَة رَغَى ، وفَضَّل سَعَى ، وقولٍ ووَعَى ؟

قسما بالكواكب الزُّهُر والزهر عاتم

[١٧٨]

إنما الفضل مِلَّة ختمت بابن خاتم

كسانى حُلّة فضله ، وقد ذهب زمان التجمّل ، وحملنى شكره وكِتْدَى وإِه عن
التَّحْمَل ، ونظرنى بالعين الكليّة عن العيب فهلا أجاد التأمل ، واستطلع طلع
نَتَى ، ووالى فى مَبْرَك المَعْجَزَة حَتَّى ، إنما أشكو بَتَى :

* ولو تُرِكَ القطا ليلاً لنا ما *

(١) فى ط ونفع الطيب : « لا يصفر » .

(٢) كذا فى نفع الطيب . وفى الأصلين : « جئت » .

وما حال شَمْلٍ وتَدُهُ مفروق ، وقاعدته فَرُوق ، وصُواعُ بنى أبيه
مسروق ؛ وقلبٍ قرْحُهُ من عضة الدهر دام ، وجمرة حَسْرته ذات احتدام ؛ هذا
وقد صارت الصغرى ، التى كانت الكبرى ؛ لشيب^(١) لم يدع أن هم لما
نجم ، ثم تهلل عارضه وانسجم :

لا تجمعى هَجْرًا على غُرْبَةٍ فالهجر فى تَلَفٍ الغريب سريع
نظرتُ فإذا الجنب ناب ، والنفس فريسة ظُفُر وناب ، والمالُ كَيْلَةُ اتِّهَاب ،
والعمر رَهْنٌ ذهاب ، واليد صِفْرٌ من كل اكتساب ، وسوق المَعَاد مترامية
والله سريع الحساب :

ولو نُعْطِيَ الخِيَارَ لما افترقنا ولكن لا خِيَارَ مع الزَّمانِ
وهب أن العمر^(٢) جديد ، وظل الأمن مديد ، ورأى الاغتياب بالوطن شديد ،
فما الحُجَّةُ لنفسى إذا مرت بمطارح جفوتها ، وملاعب هفوتها ؛ ومشاقف قناتها ،
ومظاهر عُزَّاءها ومَنَاتِها ؛ والزمان ولود ، وزناد الكون غير صُلُود !

وإذا امرؤ لدَغَتْهُ أَقْصى مرة تركته حين يُجَرُّ حَبْلٌ يَفْرُق
ثم إن المرغَّب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وُهَب ، والعارض قد اشتَهَب ؛
وآراء الاكتساب مرجوحة^(٣) مرفوضة ، وأسماءه على الجوار مخفوضة ، والنية
مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقوده ، والتوبة بفضل الله عز وجل منقوده ،
غير معترضة ولا منقوده^(٤) ؛ والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ؛ والاقتصاد

[١٧٩]

(١) كذا فى نفع الطيب . وفى الأصلين : « لسبب » وهو تصحيف .

(٢) فى ط : « الأمر » .

(٣) فى ط : « مرجومة » .

(٤) منقودة (الأولى) : من تقد الثمن ، وهو تعجيله . و(الثانية) : من النقد ، وهو

تمييز ما فى الشيء من حسن وقبح .

قد قرت العين بصحبته ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته ؛ فإذا راجعها مثلى
من بعد الفراق ، وقد رَقَى لَدَغَتْهَا أَلْفُ رَاقٍ ؛ وجمعتني بها الحجرة ، فما الذى تكون
الأجرة ؟ جل شانى ، وإن رضى الوامق ^(١) وسخط الشانى ؛ إني إلى الله مهاجر ،
وللعرض الأدنى هاجر ، ولأطعان الشرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى أوحاجر ؛
لكن دعائى للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ؛ خلعت نعلى الوجود وما خلعت ،
وشوق أمرنى فأطعته ، وغالب صبرى والله فما استطعته ؛ والحال أغلب ، وعسى
ألا ينجيب المطلب ؛ فإن يسر رضاه فأمل كَمَل ، وراحل احتمال ، وحادٍ أشجى
الناقة والجل ؛ وإن كان خلاف ذلك ، فالزمان جم العوائق ، والتسليم بمقاي لائق :

ما بين غمضة عين وانتباهتها يصرف الأمر من حال إلى حال
وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليؤمن طيره ، وعموم خيره ؛ وبركة جهاده ،
وعمران رباه ووهاده . بأشلاء عباده وزُهاده ؛ حتى لا يفضلهُ إلا أحد الحرمين ،
فحق برئ من المين ؛ لكننى للحرمين جَنَحْتُ ، وفى جو الشوق إليهما سَنَحْتُ ؛
فقد أفضت إلى طريق قصدى محجته ، ونصرتنى والمنه لله حُجَّتْ ؛ وقصد سيدى
أسنى قصد توخاه الحمد والشكر ، ومعروف عُرِفَ به التُّكْرُ ؛ والآمال من فضل
الله بعد تُمْتار ، والله يخلق ما يشاء ويختار ؛ ودعاؤه بظهر الغيب مدد ، وعُدَّة
وعَدَد ، وبره حالى الظعن والإقامة معتمل ومعتمد ، وبجال المعرفة بفضلهِ لا يحصره
أمد . والسلام . انتهى .

وقال فى الإحاطة فى ترجمة السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المربنى ،
بعد كلام كثير ، ما نصه :

من رثاء السلطان
أبى سالم

(١) كذا فى فتح الطيب . وفى الأصلين : « الموافق » .

[١٨٠]

« فلقد كان بقيّة البيت ، وآخر القوم دَمائة وحياء ، وبعداً عن الشر ، وركونا للعافية ، وأنشدت على قبره الذى وُوريت به جُثته بالقلّة من ظاهر المدينة ، قصيدة أدبت فيها بعض حقه ، وهى :

بنى الدنيا بَنَى لَمَعَ السَّرَابِ لِدُوا لِلْمَوْتِ وابنوا للخرابِ
اتمى المقصود منه .

ومن نظم ابن الخطيب فى الرغبة إلى الله تعالى :

إِلَهَى بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَالْمَسْعَى وَجَمْعٍ إِذَا مَا الْخَلْقُ قَدْ نَزَلُوا جَمْعًا
وَبِالْمَوْقِفِ الْمَشْهُودِ يَا رَبِّ فِى مَنَى إِذَا مَا أَسَالُ النَّاسُ مِنْ خَوْفِكَ الدَّمْعَا
وَبِالْمُصْطَفَى وَالصَّحْبِ عَجَلٌ إِقَالَتِى وَأَتَجَبَّحُ دُعَاىَ فَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى
صَدَعْتُ وَأَنْتَ الْمُسْتَغَاثُ جَنَابِهِ أَقِلْ عَثْرَتِى يَا مَأْمُلِى وَاجْبُرِ الصَّدْعَا

وقال رحمه الله عقب الإياب من الرحلة المراكشية :

أَفَادَتْ وَجِهَتِى بِنَدَاكَ مَا لَا قَضَى دَيْنِى وَأَصْلَحَ بَعْضَ حَالِى
وَمَتَّعَتْ الْخَوَاطِرَ بِالنِّشْرَاحِ وَأَطْرَفْتُ النُّوَاطِرَ بِاِكْتِحَالِ
وَأُبْتُ خَفِيفَ ظَهْرِى وَالْمَطَايَا بِجَاهِكَ تَشْتَكِى ثِقَلِ الرَّحَالِ
وَشَانِى لِلْعَالَمِ غَيْرِ شَانِى وَحَالِى بِالْمَكَارِمِ جِدُّ حَالِ
فَحُبُّ عُلَاكَ إِيْمَانِى وَعَقْدِى وَشَكَرُ نَدَاكَ دِينِى وَاتِّحَالِ
كَأَنَّ قَدْ صَحَّ لَكَ انْقِطَاعِى بِتَأْمِئِلِى جَنَابَكَ وَارْتِحَالِ
وَمَا يَبْقَى سِوَى فِعْلٍ جَمِيلِ وَحَالِ الدَّهْرِ لَا تَبْقَى بِحَالِ
وَكُلُّ بَدَايَةٍ فَإِلَى اِتِّهَاءِ وَكُلُّ إِقَامَةٍ فَإِلَى اِرْتِحَالِ
وَمِنْ سَامِ الزَّمَانِ دَوَامُ أَمْرِ فَقَدْ وَقَفَ الرَّجَاءُ عَلَى الْمُحَالِ

شعر له فى
الرغبة إلى الله

شعر له
بعد عودته
من الرحلة
المراكشية

وقال رحمه الله في الضراعة إلى مولاه :

مولاي إن أذنبت ، يُنكَرُ أن يُرَى منك الكمالُ ومنى النقصان ؟
والعفو عن سبب الذنوب مُسَبَّب لولا الجناية لم يَكُنْ عُفْرَان
[وقال سألحه الله مما كُتِبَ في حيطان المدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج :

وله في مدرسة

ألا هكذا تَبْنِي المدارس لِلْعِلْمِ وتَبْقَى عهود المجد ثابتة الرِّسْمِ
وَيُقْصَد وجهه الله بالعمل الرِّضَا وتُجَنَّى ثمار العز من شجر العزم
تفاخر منى حضرة الملك كَلِمَا تقدَّم خصم في الفخار إلى خصم
فأجْدَى إذا ضن الغامُ من الحيا وأهدى إذا جَنَّ الظلام من النجم
فيا ظاعناً لِلْعِلْمِ يطلب رحلة كُفِيتَ اعتراض البِيداءِ وأُجِجَ اليمِّ
ببَابِي حُطَّ الرِّحْلُ لا تنو وجهه فقد فزت في حال الإقامة بالغنم
فكم من شهاب في سماءي ثاقب ومن هالة دارت على قمر تيمِّ
يُفِيضُونَ من نور مبين إلى هُدَى ومن حكمة تجلو القلوب إلى حُكْمِ
جزى الله عني يُوسُفاً خيراً ما جَزَى ملوك بني نصر عن الدين والعلم

وقال ابن الخطيب مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ببعض مسالك
غرناطة ، فأنشد من نظمه :

وله في غرناطة

« غرناطة ما مثلها حَضْرَةٌ الماء والبهجة والخُضْرَة
واستجازني رحمه الله تعالى ، فقلت » (١) :

سكانها قد أُسْكِنُوا جَنَّةً فَهُمْ يُلَقَّوْنَ بها نَضْرَةً (٢)
وكتب رحمه الله عن سلطانه أبي عبد الله بن نصر يخاطب الضريح المقصود ،
والمهل المورد ، والمرعى المنتجع ، والخِوان الذي يكفي الغرّي ، ويمرّض المرضى ،

وله يخاطب قبر
الولي السبتي

(١) ما بين هذين القوسين « عن نفح الطيب وهو ساقط من ت .

(٢) ما بين القوسين ساقط في ط .

[١٨١] ويقوت الزماني ، ويتعداهم إلى أهل الجدة زعموا والغنى ، قبر ولي الله سيدي أبي العباس السبتي^(١) ، نفعنا الله به وجبر جالنا ببركاته النعم ، ودفع علينا النقم :

يا ولي الإله أنت جواد وقصدنا إلى حماك المنيع
راعنا الدهر بالخطوب فحننا نرتجي من علاك حسن الصنيع
فمددنا لك الأكف نرجي عودة العز تحت شمل جميع
قد جعلنا وسيلة ترهبك الزا كي وزلني إلى العليم السميع
كم غريب أسرى إليك فوافي برضاً عاجلٍ وخير سريع
يا ولي الله الذي جعل جاهه سبباً لقضاء الحاجات ، ورفع الأزمات ،
وتصريفه باقياً بعد الممات ، وصدق نقل الحكايات ظهور الآيات ؛ نفعني الله
بنيتي في بركة تربك ، وأظهر علي أثر توسلي بك إلى الله ربك ؛ مزق شملِي ،
وفرق بيني وبين أهلي ؛ وتعدى علي ، وصرفت وجوه^(٢) المسكايد إلى ؛ حتى^(٣)
أخرجت من وطني وبلدي ، ومالي وولدي ؛ ومحل جهادي ، وحق الذي صار لي
طوعاً عن آبائي وأجدادي ؛ عن بيعة لم يحل عقدتها الدين ، ولا ثبوت جريمة
تشين ؛ وأنا قد قرعت باب الله بتأميلك ، فالتمس لي قبوله بقبولك ؛ ورُدني إلى
وطني على أفضل حال ، وأظهر علي كرامتك التي تُشد إليها ظهور الرجال ؛ فقد
جعلت وسيلتي إليك رسول الحق ، إلى جميع الخلق ؛ والسلام عليك أيها الولي
الكريم ، الذي يأمن به الخائف وينتصف الغريم ، ورحمة الله .

(١) أبو العباس السبتي هو الولي الصالح الشيخ أحمد بن جعفر السبتي الخزرجي ، وهو غير أبي العباس الشريف السبتي الذي تقدم ذكره في هذا الجزء في صفحة ٣٢ وما بعدها .

(٢) في ت : « وجهة » .

(٣) في ت : « حين » .

وقال سأل الله في معنى التورية الطبية ، بالدواء المسمى بدم الأخوين ،
في شأن سلطان الأندلس القائم عليهم وأخيه ، وشأن ذلك الدواء النفع من الجراح :

وله يورى
بدم الأخوين

بإسماعيل ثم أخيه قيس تأذن هم ليلى بانبلج
دم الأخوين داوى جرح قلبي وعالجني وحسبك من علاج

وقال مقتبساً في غير ذلك :

وله في اقتباس

يامن بأكناف فؤادى ربيع^(١) قد ضاق بي في حبك المتسع
ما فيك لي جدوى ولا أرعى شح مطاع وهوى متبع

وقال في التورية بالطب :

شعر له في
التورية بالطب

إني وإن كنتُ ذا اعتلالٍ رثَّ القوى بين الهزال
في «عارض التيس» لي شفاء فكيف في عارض الغزال

وقال يخاطب الحاجب الفقيه الخطيب ، سيدي أبا عبد الله بن ممرزوق ،

وقال يخاطب
ابن ممرزوق

وطفا على بيت المشاركة في العذار :

[١٨٢]

أما والذي تُبلى لديه السرائرُ لَمَّا كنتُ أرضى الخسفَ لولا الضرائرُ
غدوتُ لضمِّم ابن الربيب فريسةً أما ثار من قومي لنصرى ثائر^(٢)
إذا التمت كفى لديه جرايتي كأني جان^(٣) أو بقتته الجرائرُ
وما كان ظنى أن أنال جرياً يُحكّم من جرّائها في جائر
متى جاد بالدينار أخضر زائفاً ودارته دارت عليها الدوائر
وقد أخرج التعنيت كيس ممراتي ورقّت لبسواى النفوس الأخائر

(١) ربيع : أقام وسكن .

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « ناصر » .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « جار » وهو تحريف .

تذكرت بيتاً في العذار لبعضهم له مثل بالحسن في الأرض سائر :
 « وما اخضرّ ذاك الخدّ نباتاً وإنما لكثرة ما شقت عليه المرائر »^(١)
 وجاه ابن مرزوق لدى ذخيرة وللشدة العظمى تعدّ الذخائر
 ولو كان يدري مادها في لساء وأنكر ما صارت إليه المصائر
 وكان ابن الريب هذا من خدام السلطان أبي سالم ، وكانت جريّة
 ابن الخطيب وغيره ممن قدم من أعيان الأندلس على يده ، فكان لا يوفى بحقوقهم ،
 فاشتكى ابن الخطيب به إلى الحاجب ابن مرزوق بهذا النظم المذكور ، وإلى الله
 ترجع الأمور .

شعر له في مخاطبة
 أحد الشرفاء

وقال رحمه الله يخاطب أحد الشرفاء الكرام :
 أعيى اللقاء على إلا لحمة في حجة لا تقبل التفصيل
 فجعلت بابك عن يمينك نائباً أهديه عند زيارتي تقييلاً
 فإذا وجدتُك نلتُ ما أملتُه أو لم أجدك فقد^(٢) شفت غليلاً

[١٨٣]

وقال في مخاطبة السلطان أبي سالم رحمه الله في سبيل الشكر ، عندما خلّصه
 من الورطة بشفاعته التي قدّمنا ذكرها :

سمي خليل الله أحيتْ مُهجتي وعاجلني منك الصريحُ على بُعد
 فإن عشتُ أبلغ فيك نفسى عذرها وإن لم أعشْ فالله يجزيك من بعدى

قال : وقلت في التغزل ، وما أبعدُه عني في الوقت ، والحمد لله :

(١) هذا البيت لعيسى بن سنجر المعروف بالحاجري المتوفى سنة ٦٣٢هـ من قصيدة مطلعها :

على دمع عيني من فراقك ناظر يرفقه لئلا ترفقه الحاجر

(٢) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « فاه » .

وله في التغزل

أصبح الخلد منك جنة عدن مجتلى أعين وشم أنوف
ظلتها من الجفون سيوف جنة الخلد تحت ظل السيوف
وخاطب صاحب الأشغال أبا عبد الله بن أبي القاسم بن أبي مدين يهنئه
بتقلد الخطة من رسالة :

من رسالة له
في تهنئة ابن أبي
مدين بتقلد الخطة

تعود الأمانى بعد انصراف ويعتدل الشيء بعد انحراف
فإن كان دهرك يوماً جنى فقد جاء ذا خجل واعتراف
طلع البشير ، أبقاك الله ، بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ^(١) ،
خصها الله بنيل الأمنيه ؛ على تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت ، وتأوّهت
العلياء لتذكر عهدا وبكت ، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث
الذى تركت ؛ فلولوا العذر الذى تأكدت ضرورته ، والمانع الذى ربما تقررت
لديكم صورته ؛ لكنت أول مُشافه بالهناء ، ومُصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ،
فنقول والحمد لله والثناء . وهى طويلة .

وقال يخاطب السلطان أبا سالم عند انقطاعه بضريح والده بشالة سلا ، حيث
مدفن ملوك بني مرين :

رسالته إلى
السلطان
أبي سالم
مستعينا به

عن باب والدك الرضا لا أبرح يأسو الزمان لأجل ذاك ويبحر ^(٢)
ضربت خيالى فى حماء فصيتى تحنى الجميم ^(٣) به وبهمى تشرح
حتى يُراعى وجهه فى وجهتى بعناية تشفى الصدور وتشرح
أيسوغ عن مشواه مسيرى خائبا ومنابر الدنيا بذكرك تصدح

(١) فى ط : « السرية » :

(٢) فى ط : « لأجل ذا أو يبحر » .

(٣) كذا فى الأصلين والسلاوى ، ولعلها مصحفة عن « الجميم » وهو النبات الكثير .
يريد أنهم فى بسطة من العيش .

أنا في حماء وأنت أبصر بالذى يرضيه منك فوزن عقلك أرجح
 في مثلها سيف الحمية يُنتضى في مثلها زند الحفيظة يُقدح
 وعسى الذى بدأ الجليل يُعيدهِ وعسى الذى سد المذاهب يفتح

[١٨٤] ومما كتب به إلى السلطان أبى سالم من مدينة سلا ، بعد عودته من
 مرّاكش .

مولاي المرجو لإتمام الصنيعة ، وصلة النعمة ، وإحراز الفخر ، أبقاكم الله
 تُضرب بكم الأمثال في البر والرضا ، وعلو الهمة ، ورغى الوسيلة .

مقبّل موطئ قدمكم ، المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب ، من
 الضريح المقدس بشالة ، وقد حطّ رحل الرجاء في القبة المقدسة ، وتيمّم^(١) بالتربة
 الزكية ، وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ، ساعة إيايه من الوجهة المباركة ، وزيارة الرُّبُط
 المقصودة ، والترّب المعظمة ، وقد غزم ألاّ يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم ،
 والدخيل المرعى ، حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى ،
 العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته في أمر سهل عليكم ، لا يجر
 إنفاذ^(٢) مال ، ولا اقتحام خطر ، إنما هو إعمال^(٣) لسان ، وخط بنان ، وصرف
 غزم ، وإحراز نخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم ،
 أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ، ما يحضر مما يفتح الله فيه ،
 ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ، ما يتلقى عنه من الجواب . وقال لى صدر
 دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم ، سيدى الخطيب ، سَنَى الله أمله ، من

(١) كذا في السلاوى (ج ٢ ص ١١٥) . وفي الأصلين : « وتندم » .

(٢) في السلاوى : « إنقاد » .

(٣) في ت : « عمل » .

سعادة مقامكم ، وطول عُمركم : يا فلان ، أنت والحمد لله ممن لا يُنكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإيناعام ما صدر ، جزاكم الله جزاء المحسنين . وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم ، حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم ، والعبد الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أنى لما فرغت من مخاطبته بمراى من الملاء الكبير ، والجم الغفير ، أ كبيت على اللحد الكريم ، داعياً ومخاطباً ، وأصغيت [١٨٥] بأذنى نحو^(١) قبره ، وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنى به يقول لى : قل لمولاك : يا ولدى ، وقررة عيني ، المخصوص برضاي وبرى ، الذى ستر حريمى ، ورد ملكى ، وصان أهلى ، وأكرم صنائى ، ووصل عملى ، أسلم عليك ، وأسأل الله أن يرضى عنك ، ويُقبل عليك ؛ الدنيا دار غرور ، والآخرة خير لمن اتقى ، وما الناس إلا هالك وابن هالك ، ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ، ومثلك من ذُكر فتذكر . وعُرف فما أنكر ؛ وهذا ابن الخطيب [قد]^(٢) وقف على قبرى ، وتهتم بى ، وسبق الناس إلى رثائى ، وأنشدنى ومجذنى ، وبكأنى ودعا لى ، وهنأتى بمصير أمرى إليك ، وعمر وجهه فى تربى ، وأملنى لما انقطعت منى آمال الناس ، فلو كنتُ يا ولدى حياً لما وسعنى أن أعمل معه إلا ما يليق بى ، وأن أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لاسكن لما عجزتُ عن جزائه ، وكلتُهُ إليك ، وأحلتها يا حبيب قلبى عليك ، وقد أخبرنى أنه سليل المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر فى عَدَم^(٣) نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجوارى ، ويستتر بدخيلى

(١) كذا فى السلاوى . وفى الأصلين : « عند » .

(٢) التكملة عن السلاوى .

(٣) فى ط : « فى عظيم » .

وخدمتى ، وِرْدَ عليه حقُّه بحرمتى ، ووجهى ووجوه من ضاجفى من سلفى ،
وَيَعْبَدُ اللهَ تحتَ حرمتك وحرمتى ، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه فى الحياة ،
حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة ، وخطيبنا العظيم المزية القديم القُرْبَة ، أبو عبد الله
ابن مرزوق ، فسله يذكرك ، واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا
الرجل خديمى بعد الممات ، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله ورحمته التى وسعت [١٨٦]
كل شىء ، وله يا ولدى ولد نجيب يخدم ببابك ، وينوب عنه فى ملازمة بيت
كُتّابك ، وقد استقر بدارك قراره ، وتعين بأمرك مرْتَبُهُ ودِثاره ، فيكون
الشيخ خديم الشيخ ، والشاب خديم الشاب ، هذه رغبتى منك ، وحاجتى
إليك . واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يذكر ويُتَحَدَّثَ به فى الدنيا ، وبين
أيدى الملوك والكبراء ، فاعمل ما يبقى لك نغره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام
مجاوراً ضريحى ، تالياً كتاب الله علىَّ ، منتظراً ما يصله منك ، ويقرؤه علىَّ ،
من السعى فى خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره ، وإجراء ما يليق
بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يُسْمَعُ عنى
وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال . [انتهى] (١) .

والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ،
ولتعلموا وتتحققوا أنى لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ،
وأخذت حسائف (٢) الملوك الأعزّة ممن وراء النهر من التتر ، وخلف البحر من
الروم ، ووراء الصحراء من الحبشة ، وأمكنهم الله منى من غير عهد ، بعد أن
بلغهم تدمى بهذا الدخيل ، ومقامى بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحداً
منهم من حيث الحياء والحشمة من الأموات والأحياء ، وإيجاب الحقوق ، التى

(١) التكملة عن السلاوى .

(٢) الحسائف : العداوات ، جمع حسيفة .

لا يغفلها الكبار للكبار ، إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل ، والعفو الذي لا تقسده
المؤاخذه ، فضلا عن سلطان الأندلس ، أسعده الله بمواليتكم ، فهو فاضل ، وابن
ملوك أفاضل ، وحوله أكياس ، ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم ، لاسيا مولاي
والدكم ، الذي أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان يتبنّى مولاي أبا الحجاج ، ويشمله
بكنفه ، وصارخه بنفسه ، وأمه بأمواله ، ثم صير الله ملكه إليكم ، وأنتم من [١٨٧]
أنتم ذاتا وقبيلا ، فقد قرّت يا مولاي عين العبد بما رأّت في هذا الوطن المراكشي ،
من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله من
فضله . ولا شك عند عاقل ، أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك
الوطن ، استولت عليه يد عدوه ، وقد علّم تطارحي بين الملوك الكرام ، الذين
خضعت لهم التيجان ، وتعلّق بثوب الملك الصالح ، والد الملوك [الكرام] ^(١) ،
مولاي والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاش لله أن يضيعها أهل الأندلس ،
وما تؤسّل إليهم قطّ بها إلا الآن ، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ،
وأملى منكم أن يتعين من بين أيديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة
في رد ما أخذ لي ، ويخبر بمشواى متراميا على قبر والدكم ، ويقرر ما لزمكم بسبب
هذا الترامى ، من الضرورة المهمة ، والوظيفة الكبيرة ، عليكم وعلى قبيلكم حيث
كانوا ، وتطلبون منهم عادة المكارمة بحل هذه العقدة ، ومن العلوم أنى لو طلبت
بهذه الوسائل من طيب ^(٢) ما لهم ، ما وسعهم بالنظر العقلى إلا حفظ هذا الوجه مع
هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة بأبيان العذر عن هذا في كل ملة ونحلة ،
وإذا تم هذا الغرض ، ولا شك في إتمامه بالله ، تقع صدقتكم على القبر الكريم

(١) الكلمة عن السلاوى .

(٢) في ت : « صلب » .

بى ، وتعينوننى لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته ، ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ليلة المولد فى جواره ، وبين يديه ، وهو غرض غريب مناسب لبركم به ، إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم ، وأعود داعيا مثنيا ، مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوض من ذمتى بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك ، يرثها ذريتى ، وقد ساومتُ فى شىء من ذلك ، منتظرا ثمنه ، مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم فى مثل هذا ، أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء ، والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعى أيضا لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وهأنا أرتقب جوابكم ، بما لى عندكم من القبول ، ويسعنى مجدكم فى الطلب ، وخروج الرسول لاقتضاء هذا الفرض ، والله يطّلع من مولاى على ما يليق به . والسلام .

وكتبه فى الحادى عشر من رجب ، عام أحد وستين وسبع مئة .

وفى مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة :

مولاى هأنا فى جوار أبيكا	فابذل من البر المقدر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى	والله يسمعك الذى يرضيك
واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة	تهدى إليك النصر أو تهديكا
واجبر لجبرى قلبه تنل المنى	وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذى سن البرور بأتمه	وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذرا ومحذرا	وبما تؤمل نيـــــله يأتিকা
قد هز عزمك كل قطر نازح	وأخاف مملوكا به ومليكا
فإذا سموت إلى مرام شاسع	ففضونه ثمر المــــنى تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبى	لما جعلتك فى الثواب شريكا

فلئن كَفَيْتَ وُجُوهَهَا فِي مَقْصِدِي وَرَعَيْتَهَا بِرَكَاتِهَا تَكْفِيكَ
وَإِذَا قَضَيْتَ حَوَائِجِي وَأُرَيْتَنِي أُمِّلِي فَرَبِّكَ مَا أُرِدْتَ يَرِيكَ
وَاشْدُدْ عَلَى قَوْلِي يَدَا فَهُوَ الَّذِي بَرَهَانَهُ لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكَ
مَوْلَايَ مَا اسْتَأْثَرْتَ عَنْكَ بِمُهْجَتِي أَنِّي وَمُهْجَتِي الَّتِي تَفْدِيكَ
لَكِنْ رَأَيْتَ جَنَابَ شَالَةَ مَغْنَمَا يُضْفِي عَلَى الْعِزِّ فِي نَادِيكَ
وَفَرُوضَ حَقِّكَ لَا تَقُوتُ فَوْقَهَا بَاقٍ إِذَا اسْتَجَزَيْتَهُ يَجْزِيكَ
وَوَعْدَتْنِي وَتَكَرَّرَ الْوَعْدَ الَّذِي أَبْتَ الْمَكَارِمَ أَنْ يَكُونَ أَفِيكَ
أَضْفِي عَلَيْكَ اللَّهُ سِرَّ عَنَايَةِ مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ الطَّرِيقِ يَفِيكَ
بِبَقَائِكَ الدُّنْيَا تُحَاطُ وَأَهْلُهَا فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يُبْقِيكَ

ولما وصل هذا السلطان أبا سالم رحمه الله راجعه بما نصه ، بعد البسملة [١٨٩] والصلاة :

رد السلطان
أبي سالم على
ابن الخطيب

من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ،
ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، [أبي الحسن ، ابن مولانا
أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين] ^(١) أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين
المجاهد في سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، أيد الله أمره ،
وأعزّه نصره ، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأخطى ، الأوجه الأنوه ،
الصدر الأحفل ، المصنف البليغ ، الأعرف الأكمل ، أبي عبد الله ابن الشيخ
الأجل الأعز الأسنى ، الوزير الأرفع الأنجد ، الأصيل الأكمل ، المرحوم المبرور
أبي محمد بن الخطيب ، وصل الله عزته ، ووالى نعمته ^(٢) .

(١) ما بين القوسين زيادة عن ت وعن السلاوى .

(٢) في ت : « رفعتة » .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى ، والرضا عن آله وصحبه أعلام الإسلام ، وأئمة الرشد والهدى ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلى العزيز المنصور المستعيني ، بالنصر الأعز ، والفتح الأسنى .

فإننا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم بلوغ الأمل ، ونجح القول والعمل ، من منزلنا الأسعد ، بضفة وادى ملويه ، يمنه الله ، وصنع الله جميل ، ومثله جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة^(١) برعى الوسائل ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلى المولوى العلوى ، جدد الله عليه ملابس غفرانه ، وسقاه غيوث رحمته وحنانه ، وبما أهديتم إلينا ، من التقرب

لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتغال بمطارف حرمة السامية المظاهر ، وإلى هذا وصل الله حظوتكم ، ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابل بالإسعاف المستعذب وردّه ، فوقفنا على ما نصّه ، واستوفينا ما شرحه وقصّه ، فأترنا حسن تلتطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفى الحين^(٢) عيّنا لكمال مطلبكم ، وتمام مآربكم ، والتوجه بخطابنا فى حقكم ، والاعتمال بوفقكم ، خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت ، وأبا زكرياء بن فرقاجة ، أنجدهما الله وتولاهما ، وأمسى تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذى يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسطوا له جملة آمالككم ، وإننا لنرجو ثواب الله فى جبر أحوالككم ، وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه يصل

(١) فى ت : « المتكفلة » .

(٢) فى ت : « فى الحسن » ، وهو تحريف .

مَبرَئكم ، ويتولى تَكْرِمَتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبع مئة .

فراجعه ابن الخطيب بما نصه :

رد ابن الخطيب
على السلطان أبي
سالم شاكرا

مولاي خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة
والرحمة ، ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله على الدرجة في المنعمين ، وافر الحظ عند
جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة بر أبيكم في البنين ، وصنع لكم في عدوكم الصنع
الذي لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الآليم من أراد في مثابكم بالحداد .
عبدكم الذي ملككم رِقَّةً ، وآوَيْتم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنتم رزقه ،
وجبرتم قلبه ، يُقبَل مَوْطِئُ الأَخْص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة
بفضل الله لموقف النصر ، الفارعة هُضْبَةَ العز ، المعلة الخطو في مجال السعد^(١) ،
ومسير^(٢) الحظ ، ابن الخطيب من شَالَةِ التي تَوَكَّد بملككم الرضى احترامها ،
وتجدد برعيكم عهدا ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها ، [١٩١]
وقد ورد على العبد الجواب المولوى ، البر الرحيم ، المنعم المحسن ، بما يليق بالملك
الأصيل ، والقدر الرفيع ، والهمة السامية ، والعزة القعساء ، من رعى الدخيل ،
والنصرة^(٣) للذمام ، والاهتزاز^(٤) لبر الأب الكريم ، فثاب الرجاء ، وانبعث
الأمل ، وقوى العُضْد ، وزار اللَّطْف ، فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدهم
الكريمة ، وأعانكم على رعى ذمام الصالحين ، المتوسِّل إليكم أولا بقبورهم

(١) فى ط : « السعة » .

(٢) كذا فى السلاوى . ذا الأصلين : « وميسر » .

(٣) فى ت : « والعرة » .

(٤) فى ت : « والاعتزاز » .

ومتعبداتهم ، و تراب أجدانهم ، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين ،
الذى تسبب في وجودكم ، واختصكم بحبه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب
الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهياتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة ،
بعد طول المدى ، وانفساح البقاء ، وفي علومكم المقدمة ما تضمنت الحكايات
عن العرب ، من النصرة^(١) عن طائر داست أفرأخه ناقة في جوار رئيس
منهم ، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك ، مما أهينت فيه الأنفس ، وهلكت
الأموال ، وقضارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم ، من
عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأتم الكريم ابن الكريم [ابن الكريم]
فيمن لجأ أولاً إلى حاكم بالأهل والولد ، عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم
الحرية على بذلها ، ثم فيمن حطَّ رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم ،
دامع العين ، خافق القلب ، دامي القرحة^(٢) ، يتغطى بردائه ، ويستجير بعليائه ،
كأننى تراميتُ عليه في الحياة أمام الذعر الذى يُذهل العقل ، ويحجب عن
التمييز ، بقصر داره ، ومضجع رقاده ، ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة :
[١٩٢] يا ليعقوب ، يا لمَرن ، نسأل الله ألا يقطع عنى معروفكم ، ولا يسلبنى عنايتكم ،
ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ، ويتقبل دعائى فيكم ، ولحين وصول الجواب
الكريم ، نهضت إلى القبر المقدس ، ووضعت به إزاره ، وقلت : يا مولاي ، يا كبير
الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بنى مَرن ، صاحب الشهرة والذكر فى المشرق
والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المترامى بين يدى قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى
وليك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاه ولك ما يابق بمقامه ، من رعى وجهك ،
[والتقرب إلى الله برَعيك] ، والاشتهار فى مشرق الدنيا ومغربها ببرك ، وأتم من

(١) كذا فى ط والسلاوى . وفى ت : « النرة » .

(٢) فى السلاوى بدل هذه العبارة : « واهى الفزعة » .

أتم ، من إذا صنع صنعة كملها ، وإذا بدأ مِنَّةَ تَمَّها ، وإذا أسدى يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة ، وأنا بعدُ تحت ذيل حرمتك ، وظل دخيلك ، حتى يتم أُمِّي ، ويخلص قصدي ، وتحف نعمتك بي ، ويطمئن إلى مأمَنك قلبي .

ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بيني وبينكم [تلاوة] كتاب الله منذ أيام ، ومناسبة النحلة ، وأخوة التألف بهذا الرِّباط المقدس ، والسكنى بين أظهركم ، فأتمنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم ، واندفعت في الدعاء والتوسل ، الذي نرجو أن يتقبله الله ولا يضيعه ، وخاطب العبد مولاه شاكراً لنعمته ، مُشيداً بصنيعته ، مسروراً بقبوله ، وشأنه من التعلق والتطarach شأنه ، حتى يكْمَلَ القصد ، ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان .

تهنئته للسلطان
أبي سالم
بفتح تلمسان

[١٩٣]

وفي يوم الخميس سابع عشر من شعبان ، من العام المؤرخ ، ورد كتاب فتح تلمسان ، فأصدر ابن الخطيب إلى باب السلطان أبي سالم ما نصه :
مولاي فتاح الأقطار والأمصار ، فائدة الزمان والأعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولى الأيدي والأبصار ، ناصر الحق عند قعود الأنصار ، وهي طويلة ، انظرها في الريحانة ، وبعدها قصيدة بديعة مطاعها :

أطاع لسانى في مديحك إحسانى وقد لهِجت نفسى بفتح تلمسان

ومن مخاطباته للحاجب ابن مرزوق .

من مخاطباته
لابن مرزوق

سيدى ، بل مالسكى ، بل شافعى ، ومنثلى من الهفوة ، ورافعى وعاصمى عند تجويد حروف الصنائع ، ونافعى الذى بجاهه أجزأت المنازل قرأى ، وفضلت أولأى ، والمنة لله أخراى ، وأصبحتُ وقول الحسن هجيرأى :

عَلَقْتُ بِحَبْلٍ مِنْ حَبَالِ مُحَمَّدٍ أَمَنْتُ بِهِ مِنْ طَارِقِ الْحَدَثَانِ
تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي
فَلَوْ تَسَأَلَ الْأَيَّامُ مَا اسْمِي مَا دَرْتُ وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفُنْ مَكَانِي
وصلت مكناسة ، حرسها الله تعالى ، تحت غيثٍ حَدَانِي حَدُو نَدَاكَ ، وسحائب
لولا الخصال المبرة قُلْتُ يَدَاكَ ، وكأن الوطن لاغتباطه بجواري ، وما رآه من
انتياب زُوَّارِي ، أوغر إلى بهت يقطع الطريق ، وأطلق يده على التفریق ،
وأشراق القوافل مع كثرة المساء بالريق ، فلم يسع إلا المُقَامُ أَيَّامًا ، قُعودًا في البر
وقياما ، واختيارا لضروب الأنس واعتياما ، ورأيت بلدةً معارفها أعلام ،
وهواؤها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام ، فحيا الله سيدي ، فلکم
من فضل أفاد ، وأنس أحياء وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد ، كما
مَلَكَه زِمَامُ الْكَمَالِ فَاقْتَاد ، وأنا أنطارح عليه في صلة تفقده ، وموالاة يده ، بأن [١٩٤]
يسهمني في فرض مخاطباته مهما خاطب ، معتبرا في هذه الجهات ، ويصحبني من
مناصحته بكتوس مسرة ، يعمل فيها هاك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده
موجود ، ومنهل السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يبقيه ببقاء الدهر ،
[ويجعل حبه وظيفة السر ، وحمده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه
زين الدهر] ويصل لنا تحت إيلائه العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين . انتهى .
وقال رحمه الله :

شيء من صراحة
ابن الخطيب في
مجلس السلطان
أبي عنان

حضرت يوما بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه ، لغرض
الرسالة ، وجرى ذكر بعض أعدائه ، فقلت ما اعتقدت في اطراء ذلك العدو ،
وما عرفته من فضله ، وأنكر على بعض الحاضرين ، ممن لا يحطّب إلا في جبل
السلطان ، فصرفت وجهي وقلت : أيدكم الله ! تحقير عدو السلطان بين يديه

ليس من السياسة في شيء ، بل غير ذلك أحق وأولى ، فإن كان السلطان غالبا عدوه كان قد غلب غير حقير ، وهو الأولى بفخره ، وجلالة قدره ، وإن غلبه العدو لم يغلبه حقير ، فيكون أشد للحسرة ، وأؤكد للفضيحة . فوافق رحمه الله على ذلك ، واستحسنه ، وشكر عليه ، وخجل المعارض . انتهى .

ومن نظمه رحمه الله :

شعر له في
مكناسة

مِكنَاسَةٌ تُجْمَعُ بِهَا زُمَرُ الْعِدَا فمَدَى بَرِيدٍ فِيهِ أَلْفُ بَرِيدٍ
مَنْ وَاصِلٍ لِلصَّوْمِ لَا لِلرَّيَاضَةِ أَوْ مَدَمَنْ لِلْجُوعِ غَيْرِ مُرِيدٍ
فَإِذَا سَلَكَتْ طَرِيقَهَا مَتَصَوِّفَا فَابْنِ السُّلُوكِ بِهَا عَلَى التَّجْرِيدِ

ولما دخل رحمه الله مدينة آتني ، وصر منها على دار عظيمة ، تنسب إلى والي جبايتها « عبو » من بني الترجمان ، فارون قومه ، وغنى صنفه ، قال :

شعر له في
مدينة آتني

قَدْ مَرَرْنَا بِدَارِ « عَبُو » الْوَالِي وَهِيَ تُكَلَّى تَشْكُو صُرُوفَ اللَّيَالِي
أَقْصَدْتُ رِبَهَا الْحَوَادِثُ لَمَّا رَشَقَتْهُ بِصَائِبَاتِ زَبَالِ
كَانَ بِالْأَمْسِ وَالْيَا مُسْتَطِيلَا وَهُوَ الْيَوْمَ مَا لَهُ مِنْ وَالِ

ومن نظمه رحمه الله في الشيخ ابن بطان الصنهاجي :

شعر له في
ابن بطان

[١٩٥] اللَّهُ دَرَكٌ يَا ابْنَ بَطَانَ فَمَا لَشَهِيرٍ جُودُكَ فِي الْبَسِيطَةِ جَا حِدِ
إِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ وَاحِدٌ يَزِنُ الْجَمِيعَ فَأَنْتَ ذَاكَ الْوَاحِدِ
أُجْرِيتَ فَضْلَكَ جَعْفَرًا يَحْيَا بِهِ مَا كَانَ مِنْ مَجْدٍ فَذَكَرَكَ خَالِدِ
فَالْقَوْمُ مِنْكَ تَجْمَعُوا فِي مُفْرَدٍ وَلَدَ كَمَا شَاءَ الْعَمَلَاءُ وَوَالِدِ
وَهِيَ الْإِلْيَالَى لَا تَزَالُ صُرُوفَهَا يَشْقَى بِمَوْقِعِهَا الْكَرِيمَ الْمَاجِدِ
وَبِمُسْتَعِينِ اللَّهِ يَصْلَحُ مِنْكَ مَا قَدْ كَانَ أَفْسَدَهُ الزَّمَانُ الْفَاسِدِ

وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث :

زَحَفْتُ إِلَى رَكَائِبِ الْبُرْغُوثِ نَمَّ الظَّلَامُ بِرَكْنَيْهَا الْحَثُوثِ
بِالْحَبَّةِ السُّودَاءِ قَابِلَ مَقْدَمِي اللَّهُ أَيُّ قِرَى أَعَدَّ خَبِيثِ
كَسَحَتْ بِهِنْ ذَبَابٌ سَرَحَ تَجَلْدِي ^(١) لَيْلًا فَحَبَّلَ الصَّبْرَ جِدُّ رَثِيثِ
إِنْ صَابَرْتَ نَفْسِي أَذَاهُ تَعَبَّدَتْ أَوْ صَحَّتْ مِنْهُ أَرْنَفَتْ مِنْ تَحْنِينِي
جَيْشَانِ مِنْ لَيْلٍ وَبُرْغُوثِ فَهَلْ جَيْشُ الصَّبَاحِ لَصَرَخَتِي بِمُغِيثِ

[ومن نظمه رحمه الله في عثمان بن يحيى بن عمر بن روح :

أَسَمِي ذِي النُّورَيْنِ وَجْهَكَ فِي الْوُغَى شَمْسُ الضُّحَى حَلَّتْ بَلِيثَ عَرِينِ
إِنْ تَفْتَخِرَ بِمَرِّينَ أَرْضُ الْعُدُوِّ الْقَصُوفِ فَإِنَّكَ أَنْتَ نَخْرَ مَرِّينَ] ^(٢)

وقال يخاطب الوالي محمد بن حَسُونِ بن أَبِي الْعَلَاءِ ، وَصَدَّرَ بِهَا رِسَالَةً :
لَمْ يَبْقَ لِي جُودُ الْوَلَايَةِ ^(٣) حَاجَةً فِي الْأَمْنِ أَوْ فِي الْجَاهِ أَوْ فِي الْمَالِ
بَعْدَ اللَّقَاءِ أَوَّلُو الْفَضَائِلِ بَغِيثِي وَرَأَيْتُ هَذَا الْقَصْدَ شَرْطَ كَمَالِ
أَجَلْتَهُ وَتَشَوَّفْتُ لِبَيَانِهِ هَمَّ فَكُنْتُ مَفْسِرَ الْإِجْمَالِ
وَخَصَصْتُ بِالْإِلْغَاءِ غَيْرَكَ غَيْرَةً وَجَعَلْتُ ذِكْرَكَ شَاهِدَ الْأَعْمَالِ
أَلَيْسَتْ ^(٤) يَا بْنَ أَبِي الْعَلَاءِ قُشْبُ الْمُلَا وَتَرَكْتُ أَهْلَ الْأَرْضِ فِي أَسْمَالِ
إِنْ دَوَّنَ الْفَضْلَاءُ فَضْلًا مُعْلَمًا فَلَقَدْ أَتَيْتَ عَلَيْهِ بِالْإِكْمَالِ
تُنْتَنِي عَلَيْكَ رَعِيَّةً آمَالَهَا فِي أَنْ تَقُوزَ يَدَاكَ بِالْأَمَالِ

(١) كذا في نفع الطيب والساوى . وفي الأصلين : « به دباج » . وهو محرف عما أثبتناه .

(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت .

(٣) في الأصلين : « الخلافة » . وقد أثبتنا رواية نفع الطيب لملاءمتها السياق .

(٤) في نفع الطيب : « للبت » .

شعر له
في البرغوث

شعر له
في ابن روح

شعر له صدر
به رسالته إلى
ابن حسون

أَزْعِيَّتَهَا هَمًّا فَلَمْ يَطْرُقْ لَهَا بِمَنْعِ سُورِكَ طَارِقُ الْإِهَالِ
 مِنْ كُنْتَ وَالِيهِ تَوَلَّيْتَهُ الْعُمْلَا وَمِنْ أَطْرَحْتَ فَمَا لَهُ مِنْ وَالِي
 وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ وَقُوفِهِ عَلَى مَرَاكَشٍ ، وَاعْتَبَارِهِ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ أَمْرُهَا ^(١) :

شعر له في ندب
 مراکش بعد
 الموحدین

[١٩٦]

بَلَدٌ قَدْ غَزَاهُ صَرْفُ اللَّيَالِي وَأَبَاحَ الْمَصُونِ مِنْهُ مُبِيحُ
 فَالَّذِي خَرَّ مِنْ بِنَاهُ قَتِيلُ وَالَّذِي خَرَّ مِنْهُ بَعْضُ جَرِيحِ
 وَكَأَنَّ الَّذِي يَزُورُ طَبِيبُ قَدْ تَأْتَى لَهُ بِهَا النَّشْرِيحِ
 أُعْجِمْتَ مِنْهُ أَرْبُعَ رُسُومِ كَانَ قَدْ ذَمَّ بِهَا اللِّسَانَ الْفَصِيحِ
 كَمْ مَعَانٍ غَابَتْ بِتِلْكَ الْمَغَانِي وَجَمَالِ أَخْفَاءِ ذَاكَ الضَّرِيحِ
 وَمُلُوكٍ تَعَبَدُوا الدَّهْرَ لَمَّا أَصْبَحَ الدَّهْرُ وَهُوَ عَبْدُ صَرِيحِ
 دَوَّخُوا نَازِحَ الْبَسِيطَةِ حَتَّى قَالَ مَا شَاءَ ذَابِلِ وَصَفِيحِ
 حَيْثُ ^(٢) شُبَّتْ لَهُمُ مِنَ الْبَاسِ نَارُ ثُمَّ هَبَّتْ لَهُمُ مِنَ النَّصْرِ رِيحِ
 أَثَرٌ يَنْتَدِبُ الْمُؤَثِّرَ لَمَّا طَالَ ^(٣) بَعْدَ الدَّوْرِ مِنْهُ النَّزُوحِ
 سَاكِنُ الدَّارِ رُوحَهَا كَيْفَ يَبْقَى جَسَدٌ بَعْدَ مَا تَوَلَّى الرُّوحِ

وَقَالَ يَخَاطَبُ عَمِيدَ مَرَاكَشٍ ^(٤) ، الْمُتَمَيِّزَ بِالرَّأْيِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْهَمَّةِ ، وَإِفَاضَةَ
 الْعَدْلِ ، وَكَفَّ الْيَدَ ، وَالتَّجَافَى عَنْ مَالِ الْجُبَايَةِ ، عَامِرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ الْهَنْتَاتِي :
 تَقُولُ لِي الْأَظْعَانُ وَالشُّوقُ فِي الْحَشَى لَهُ الْحُكْمُ يَمْضِي بَيْنَ نَاهٍ وَأَمْرِ
 إِذَا جَبَلَ التَّوْحِيدَ أَصْبَحْتَ فَارَعَا نَفِيحُ قَرِيرِ الْعَيْنِ فِي دَارِ عَامِرِ

شعر له يخاطب به
 عامر الهنتاتي

(١) كَذَا فِي الْأَصْلَيْنِ وَفِي نَفْحِ الطَّيِّبِ . وَفِي السَّلَاوِي زِيَادَةٌ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ يَتَضَحُّ بِهَا
 الْمَقَامُ ، قَالَ : « وَلَمَّا وَقَفَ عَلَى مَصَانِعِ مَرَاكَشٍ وَقُصُورِهَا وَقَصَبَتِهَا وَاعْتَبَرَ
 مَا صَارَ إِلَيْهِ أَمْرُهَا بَعْدَ الْمُوَحِّدِينَ قَالَ » .

(٢) فِي ط : « حِينَ » .

(٣) فِي ط : « كَانَ » .

(٤) فِي السَّلَاوِي : « عَمِيدُ الْبِلَادِ الْمَرَاكَشِيَّةِ » .

وَزُرَّ تربة المعلوم إن مزارها هو الحج يُفَضَّى نحوه كل ضامر
سَلَقَى بِمَكْوَى عامر بن محمد ثغور الأمانى من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهه ولله ما تلقاه من يُمن طائر
وتستعمل الأمثال في الدهر منكما بخير مَرُور أو بأغبط زائر

أقول : عامر بن محمد هذا ، هو قريع ^(١) هَتَاتة ، وكانت له مع أبي الحسن
المَرِينِي في الوفاء أحاديث ، صَحَّحت عند أبي عِنان وغيره مُتاتة ، ولم يزل في رياسته
مدة أبي عِنان ومن بعده من ملوك بني مَرِين ، إلى زمن أبي فارس عبد العزيز
ابن أبي الحسن ، فنازله بجنوده ، وحاصره بمعتقله ، حتى استولى عليه وقتله .
وقد ساق أمره ابن خلدون واستوفاه ، ومنعنى من الإتيان به ما حصل
من التطويل في هذه الترجمة ، وقد أشار إليه ابن الأحرار في « نثر فرائد الجنان »
عند ما ذكر الشريف الشبوكي ، ونصه :

[١٩٧]

« صاحبنا الفقيه ، محمد بن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف ، يُكْنَى أبا
عبد الله ، ويعرف بالشبوكي ، رأيتُه وصحبته ، ونُسبته حسبا نقلته من خطه على
متن كتاب ، وأخبرني هو به ، وسمعته أيضا بفاس ، من بعض الناس ، وهو محمد
ابن يوسف بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عمران بن عبد الرحيم بن نوح بن
شعيب بن علي بن أبي محمد بن حَيَّان بن فضل بن طاهر بن مطهر بن حمود بن زياد
ابن محمد بن الحسن ^(٢) بن علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، ويعرف بالشبوكي .
وشبوكة : قرية بينها وبين مدينة فاس ثلاثة أميال ^(٣) ؛ وأخبرني أن جده عبد الرحيم

(١) القريع : السيد الرئيس .

(٢) في ط : « الحسين » .

(٣) في ت : « أيام » .

تعريف
عامر الهنتاني

شئ عن الشريف
الشبوكي

أتى من المشرق إلى المغرب ، واستوطن بشبوكة ، وهو شريف ؛ ويوسف أبوه كان رحمه الله جميل الوجه جدا ، شاعرا مجيدا فقيها ، وبرّز عدّلا في صمّاط شهود فاس ، واستخدمه أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عنان المرينى شاهدا في دار صناعته ؛ وأحمد والد يوسف كان فقيها صوفيا ؛ ومحمد والد أحمد كان فقيها صالحا ؛ ويوسف والد محمد كان فقيها عالما صالحا مكاشفا بحجاب الدعوة ، من أهل الطبقة العليا في الصلاح ؛ وأبو عبد الله هذا كتب الوثيقة بشهود فاس .

شعر للشبوكي في مدح أبي فارس والتعريض على الهنتائي

هائل أكرم الله : هو فارس القريض ، وحامل لوائه الطويل العريض ، وله وجه وسيم ، وحياء جسيم ، وسُمُو همته لم يبلغها إنسان ، ولم يُسمع بمثلها في سالف الأزمان ، ويؤثر غرة نفسه على هواه ، ويختار مهّيع السمو على ماسواه ، وأنشدني لنفسه يمدح أمير المسلمين أبا فارس عبد العزيز المرينى ، بعد قتله لوزيره المتغلب على أمره ، عمر بن عبد الله بن علي الياباني ، ويحرضه على قتال الشيخ [١٩٨] أبي ثابت عامر بن محمد بن علي الهنتائي ، صاحب جبل هنتاتة ، من حوز مراکش ، حين خرج عليه به ، بالسلطان المعتمد على الله أبي الفضل محمد بن أخى السلطان عبد العزيز هذا :

أَبَانٌ فِي حَبِّهِ مَا قَالَ عَاذَلُهُ	دَمْعٌ جَرَى فَوْقَ صَفْحِ الْخُدِّ هَامَلُهُ
فَبَاتَ مِنْ وَطْأَةِ النَّفْرِ قِذَا وَجَلُ ^(١)	يَسْتَنجِدُ الصَّبْرَ عَوْنًا وَهُوَ خَاذَلُهُ
صَبَّ إِذَا مَا بَدَأَ بِالرَّقَّتَيْنِ لَهُ	وَمِيزُ بَرْقِ الْحِمَى هَاجَتَ بِلَابِلُهُ
يَبْكِي لِمَنْزِلِ أَنْسٍ بَانَ آهْلُهُ	وَضَاعَنَ عَنْهُ قَدْ شَطَّتْ مَنْزِلُهُ
يَا حَسَنَ عَصَرَ بِهِمْ قَضِيَّتَهُ زَمْنَا	رَقَّتْ حَوَاشِيهِ إِذْ رَقَّتْ أَصَائِلُهُ

(١) في ط : « في وجل » .

كَانَ صَوْبَ دُمُوعِي بَعْدَ بُعْدِهِمْ سَيِّبَ الْمَلِيكَ إِذَا وَاثَاهُ سَائِلُهُ
 عَبْدَ الْعَزِيزِ الَّذِي عَزَّتْ بِدَوْلَتِهِ مَرَاتِبَ الْحَقِّ وَالتَّاحَتِ دَلَالَتُهُ
 وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَاةٍ مِنَ الَّذِي كَانَ غَالَتَهُ غَوَائِلُهُ
 عَادَتْ يَبْعِيْدُ لَنَا مِنْهُ نَضَارَتُهُ فَعَادَ يَافِعُهُ وَاشْتَدَّ كَاهِلُهُ
 كَالرُّوْضِ بِاِكْرِهِ طَلَّ عَلَى ظَمَأٍ وَجَادَهُ بِعَدِّ ذَاكَ الطَّلِّ وَابِلُهُ
 هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ أُمَّ سَاحَتِهِ جَادَتْ عَلَيْهِ بِجَدِّ وَاهَا أُنَامِلُهُ
 وَمَنْ تَخَلَّفَ جَهْلًا عَنْ إِبَابَتِهِ سَارَتْ إِلَيْهِ عَلَى عِلْمٍ صَوَاهِلُهُ
 قُلْ لِلَّذِي عَنْهُ أَقْصَتْهُ جِرَائِمُهُ وَعَقَلَّتَهُ عَنْ الْعِلْيَا مَعَاقِلُهُ
 زُرْ حَضْرَةَ الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَالَعُهُ تَحَظُّ بِمَا أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ آمِلُهُ
 فَطَبَّعَهُ الصَّفْحَ وَالْمَعْرُوفَ شَيْمَتُهُ وَالْحِلْمَ وَالصَّوْنَ وَالتَّقْوَى شِمَائِلُهُ
 أَبْلَغَ جَمِيعِ الْعِدَا أَنْ سَوْفَ يَشْمَلُهُمْ مِنْ الطَّبَّيِّ كُلِّ مَاضَى الْخَدِّ فَاصِلُهُ
 هَذَا الْمَلِيكَ أَنَاهُمْ فِي كِتَابَتِهِ لَنَنْسُخَ آجَالَهُمْ تَنْضَى رَوَاحِلُهُ
 بِكُلِّ خِرْقٍ طَوِيلِ الْبَاعِ مُتَتَدِّدٍ مَقْصَرٍ عَمَرَ مِنْ تَلَقَّى مَنَاصِلُهُ ^(١)
 وَجَحْفَلٍ فِيهِ سُمْرُ الْخَطِّ مُشْرَعَةٌ قَدْ حَجَبَتْ أَنْجُمُ الشَّعْرِى قَسَاطِلُهُ
 سَيَعْلَمُ الْغُمَرُ عُقْبَى مَا جَنَاهُ إِذَا كَلَّتْ مَوَاضِيهِ وَانْقَضَتْ كَلَالُهُ
 وَحَاطَ بِالْجَبَلِ الْبَحْرَ الْحَيْطَ وَلَا حَتَّ فَوْقَ أَرْوُسِهِمْ مِنْهُ جَدَاوِلُهُ
 فَانْهَضْ إِلَيْهِمْ أَمِيرَ الْمَسْلَمِينَ فَقَدْ أُعْطِيَتْ كُلُّ الْمُنَى فِيمَا تَحَاوِلُهُ
 مِنْ ذَا يُنَازِلُ جَيْشًا أَنْتَ قَائِدُهُ يَوْمَ الْكُرْهِيَّةِ أَوْ مَنْ ذَا يُنَاضِلُهُ

[١٩٩]

(١) المناصل : السيوف ؛ الواحد : منصل (بضم الميم وسكون النون مع ضم الصاد وفتحها) .

ألا ترى المارق الرَّعِيدَ حينَ عَمَا وأَضْمَرَ المَكْرَ صَادَتَهُ حِبَائِلُهُ
ظَنَّ الضَّنِينَ بَأَن يَسْمُو وَيَعْلُو فِي دُنْيَا سَمَتْ وَعَلَتْ فِيهَا بِوَاطِلِهِ
فَغَادَرْتَهُ الصَّعَادُ الزُّرْقُ مَنْجَدِلَا فَوْق الصَّعِيدِ تَنَادِيهِ جَنَادِلِهِ
دُنْيَاهُ تَضْحَكُ مِنْ أَحْوَالِهِ عَجِيبَا بِهِ وَفِي الْحَيِّ تَبْكِيهِ أَرَامِلِهِ
فَلَيْتَنِي دِينَ الْهَدَى مِنْ بَعْدِ مَدَّتِهِ أَنْ أَنْتِ يَا ذَا الْمُحْيَا الطَّلُقُ كَافِلِهِ
لَمْ يَنْتَصِبْ قَطُّ فِي الدُّنْيَا لَوَاهُ عَلَا إِلَّا وَمِنْ آلِ عَبْدِ الْحَقِّ حَامِلِهِ
مَوْلَايَ مَوْلَايَ دُمُ مَاعَشْتُ مُصْطَحِبَا عُلَاً وَغُرَاً وَغُرَاً لَا تَزَالِهِ
إِنْ سَارَ جَيْشُكَ فَالتَّائِيدُ يَقْدُمُهُ وَالنَّصْرُ عَاجِلُهُ يَتَقَوُّهُ آجِلُهُ
اتَّهَى كَلَامُ ابْنِ الْأَحْمَرِ .

وأقارب هذا الشريف الشبوكي لم يزالوا إلى الآن ، ولهم مصاهرة مع ولينا
الفقيه المحدث ، الحاج الزَّحَّالِ الْبَرَكَةِ ، القدوة الصالح الناصح ، أبي عبد الله سيدي
محمد بن الولي الصالح سيدي أبي بكر بن محمد ، صاحب الدَّيْلَا^(١) ، أبقى الله علام ،
وأعانهم على ما أولاهم .

ولنرجع إلى ابن الخطيب فنقول :

وقال رحمه الله ، وقد شاهد بجبل هَنَاتَاتِه محل وفاة السلطان أبي الحسن
المريني ، حيث أصابه طارق الأجل ، الذي فَصَّلَ الْخُطَّةَ ، وَأَصَمَّتِ الدَّعْوَةَ ،
ورفع المنازعة ، وعابنه مَرْفَعًا^(٢) عَنْ الْإِبْتِدَالِ بِالسَّكْنَى ، مَفْتَرَشًا بِالْحَصْبَاءِ ،
مَقْصُودًا بِالْإِبْتِهَالِ وَالِدَعَاءِ ، فلم يبرح يومَ زيارَةِ محل وفاته أَنْ قَالَ :

شعر لابن الخطيب
على قبر السلطان
أبي الحسن المريني

(١) كذا وردت هذه الكلمة في الأصلين ، ولم نفهم المراد منها ، ولم نعثَر على مرجع
آخر لهذا الكلام المنقول عن ابن الأحمر ، لنعارض به هذا النص .
(٢) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب : « مرفعا » .

يا حسنَهَا من أَرْبُعِ وديَارِ أُنْخِثَ لبَاغِي الأَمْنِ دَارَ قَرَارِ
وجِبَالِ عِزٍّ لَا تَذِلُ أَنْوْفَهَا إِلَّا لِعِزِّ الوَاحِدِ القَهَارِ
ومَقَرٍّ^(١) تَوْحِيدٍ وَأُسْ خِلَافَةٍ آثَارُهَا تُنْبِئُ عَنِ الأَخْبَارِ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ أَهْوَاءَ النَّدَى تَجْرِي بِهَا فِي جَمَلَةِ الأنْهَارِ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ أَنْوَارَ الحِجَابِ تَلْتَمِصُ فِي قُنَنِ وَفَى أَحْجَارِ
مَجَّتْ جَوَانِبُهَا الْبُرُودَ وَإِنْ تَكُنْ شَبَّتْ بِهَا الأَعْدَاءُ جَذْوَةَ نَارِ
هَدَّتْ بِنَاهَا فِي سَبِيلِ وَفَاءِهَا فَكَانَتْهَا صَرَعِي بَغِيرِ عُقَارِ
لَمَّا تَوَعَّدَهَا عَلَى المَجْدِ العَدَا رَضِيَتْ بِعَيْثِ النَّارِ لَا بِالْعَارِ
عَمَّرَتْ بِجِلَّةٍ^(٢) عَامِرٍ وَأَعَزَّهَا عِبْدَ العَزِيزِ بِمُرْهَفٍ بِتَارِ
فَرَسًا رَهَانٍ أَحْرَزَا قَصَبَ النَّدَى وَالبَاسَ فِي طَلْقٍ وَفَى مِضَارِ
وَرِنًا عَنِ النَّدْبِ الكَبِيرِ أَيْبَاهَا مُحَضَّ الوَفَاءِ وَرَفْعَةِ المِقْدَارِ^(٣)
وَكَذَا الفُرُوعِ تَطُولُ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالأَصْلِ فِي وَرَقٍ وَفَى أَمْثَارِ
أَزْرَتْ وَجْوهُ الصَّيْدِ مِنْ هِنَاتِهِ فِي جَوْهَا بِمَطَالِعِ الأَقْصَارِ
لَهُ أَى قَبِيلَةٍ تَرَكْتَ لَهَا النُّظْرَاءَ دَعَاؤِي الفَخْرَ يَوْمَ نِفَارِ
نَصَرْتُ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ^(٤) وَمَلِكُهُ قَدْ أَسْلَمَتْهُ عِزَائِمُ الأَنْصَارِ
وَارَتْ عَلِيًّا عِنْدَمَا ذَهَبَ الرَّدَى وَالرَّوْعُ بِالأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ
وَتَخَاذَلَ الجَيْشُ اللُّهُمَّ وَأَصْبَحَ الأَبْطَالُ بَيْنَ تَقَاعُدٍ وَفِرَارِ

(١) في ط : « ومحل » .

(٢) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين والسلاوي : « بجلة » . ويريد بعامته :
عامر بن محمد الهنتاتي .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « الأقدار » .

(٤) في ط : « المؤمنين » .

كُفِرَتْ صنائعه فيم دارها مُسْتَظْهِرًا منها بعز جوارِ
وأقام بين ظهورها لا يتقى وقع الردى وقد ارتقى بشرار
فكانها الأنصارُ لَمَّا آنست فيما تقادم^(١) غُربة المختار
لما غدا لحظًا وهم أجفانه نابت شِفاهمُ عن الأشفار
حتى دعاه الله بين بيوتهم فأجاب مُتَمَثِّلًا لأمر البارى
لو كان يُمنع من قضاء الله ما خلصت إليه نوافذُ الأقدار
قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما أولّوه لولا قاطعُ الأعمار
ما كان يقنعه لو امتدَّ المدى إلا القيامُ بحَقِّها من دار
فيعيد ذاك الماء ذائبَ فِضَّة ويعيد ذاك التربَّ تَبَرَّ^(٢) نُضَار
حتى تفوز على النوى أوطانها من مُلكه بجلال الأوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم أثرُ العناية ساطعَ الأنوار
ويُسَوِّغُ الأملَ القصى كرامها من غير ما تُثْنِي ولا استعصار^(٣)
ما كان يَرْضَى الشمسُ أوبدر الدجى عن درهم فيهم ولا دينار
أو أن يُتَوَجَّ أو يقدَّ لها ما ونحوها بأهـلَّة ودَرارى
حقُّ على المولى ابنه^(٤) إشار ما بذلوه من نصر ومن إشار
فلمثلها ذخير الجزاء ومثله من لا يُضَيِّعُ صنائع الأحرار
وهو الذى يقضى الديون وبره يُرضيه فى علَن وفى إسرار

(١) فى ط ونفع الطيب : « تقدم » .

(٢) فى نفع الطيب والسلاوى : « ذوب » .

(٣) الثنيا : الاستثناء . والاستعصار : استفعال من العصر بمعنى المنع . ولم ترد صيغة

« استفعل » من العصر فى المعاجم التى بأيدينا .

(٤) يريد بالمولى : ابنه السلطان أبا سالم بن أبى الحسن المربى .

[٢٠١] حتى تُحَجَّ مَحَلَّةَ رَفَعُوا بِهَا عِلْمَ الْوَفَاءِ لِأَعْيُنِ النَّظَارِ
 فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطائفتين إليه أى يدار
 تغني قلوب القوم عن هدى به ودموعهم تكفى لرمى جِمار
 حَيْثِ مِنْ دَارٍ تَكْفُلُ سَعِيهَا الْمَحْمُودُ بِالزُّنَى وَعُقْبَى الدَّارِ
 وَضَفَّتْ عَلَيْكَ مِنَ الْإِلَهِ عَنَاءٌ مَا كَرَّرَ لَيْلُ فَيْكِ إِثْرَ نَهَارِ

وقال رحمه الله ، حين زار بخارج أغمات قبر المعتمد بالله أبى القاسم
 ابن عَبَّاد ، أميرِ حِمَصٍ^(١) وقرطبة والجزيرة ، وما إلى ذلك الصُّقْعِ الغربى ،
 ونص كلامه الذى رتبته فى ذلك أنه قال :

وقفت على قبر المعتمد بالله بمدينة أغمات ، فى حركة راحة أعملتها إلى
 الجهات المراكشية ، باعثها لقاء الصالحين ، ومشاهدة الآثار عام واحد وستين
 وسبع مئة ، وهو بمقبرة أغمات ، فى نَشْرٍ من الأرض ، قد خَفَّتْ به سِدْرَةٌ ، وإلى
 جنبه قبر اعتاد حَظِيَّتُهُ مَوْلَاةَ رَمِيكَ ، وعليهما هيئة^(٢) التغرب ، ومعاونة الحول
 من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ، فأنشدت فى الحال :

قد زُرتَ قَبْرَكَ عَنْ طَوْعٍ بِأَغْمَاتِ رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْمَهْمَاتِ
 لَمْ لَا أَزُورُكَ يَا أُنْدَى الْمُلُوكِ يَدَا وَيَا سِرَاجَ اللَّيَالِي الْمُدْلَهْمَاتِ
 وَأَنْتَ مَنْ لَوْ تَخَطَّى الدَّهْرُ مُصْرَعَهُ إِلَى حَيَاتِي لَجَدْتُ فِيهِ أَيْبَاتِي
 أَنَا فِي قَبْرِكَ فِي هَضْبٍ يَمِيزُهُ فَتَنْتَحِيهِ حَفِيَّاتُ التَّحِيَّاتِ
 كَرُمْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَاشْتَهَرْتَ غَلًّا فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتِ

(١) يريد بحمص (هنا) : مدينة إشبيلية بالأندلس ، لأن العرب الذين نزلوها عند الفتح
 أسموها باسم بلدكم فى الشرق .

(٢) فى نفح الطيب : « أثر » .

مارى^(١) مثلك في ماضٍ، ومُعْتَقْدِي أن لا يُرْسَى الدهر في حالٍ ولا آتِي
وقال رحمه الله مخاطباً أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبي محمد
صالح النائم في ظل صديقه ، رحمه الله :

شعر له
في مخاطبة
ابن يوسف

يا حفيدَ الوليِّ يا وارثَ الفخر الذي نال في مقال^(٢) وحالٍ
لك يا أحمد بن يوسف جُبنا كل قفر^(٣) يعي أ كف الرجال
ولما خرج رحمه الله من آسفى^(٤) سار إلى منزل ينسب لأبي خذو^(٥) ؛ فيه [٢٠٢]
رجل من بني المنسوب إليه ، اسمه يعقوب ، قال في نقاضة الجراب ، فألطف
وأجزل وآنس في الليل ، وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفته ، فكتبت له :

نزلنا على يعقوب نجل أبي خذو فعرّفنا الفضل الذي ماله حدّ
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم ننله ولا زُبد
يحق علينا أن نقوم بحقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد
وقال يخاطب السلطان :

وله في مخاطبة
السلطان

أنت للمسلمين خير عماد وملاذ وأئى حِرْزٍ حريزٍ
لو رأى ما شرعت للخلق فيه عمرُ الفاضل ابن عبد العزيز
لجزى ملكك المبارك خيرا وقضى بالشفوف^(٦) والتبريز
فأشكر الله ما استطعت بفعل وبقول مُطَوَّل أو وجيز

(١) رىء : أصله (رئى) بالبناء للمجهول ، قدمت اللام على العين .

(٢) في ت : « مقام » .

(٣) في نفح الطيب : « قطر » .

(٤) آسفى : من الثغور المراكشية .

(٥) في نفح الطيب : « خذو » .

(٦) يريد بالشفوف (هنا) : الزيادة .

كل مَلِكٍ يُرَى بِصُخْبَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَدْ بَاءَ بِالْحُلِّ الْعَزِيزِ
فَإِذَا مَا ظَفَرَتْ مِنْهُمْ بِأَكْسِيرِ مَلَأَتْ الْبِلَادَ مِنْ إِبْرِيزِ
وَالْبَرَايَا تَبِيدُ وَالْمُلُوكُ يَفْنَى أَيْنَ كَسْرَى الْمُلُوكِ مَعَ أَبْرَوِيزِ

وقال : أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني ،
حيث [جرابته ووظيفته ، وانجر حديث] ^(١) ما قُفِدَ بغرناطة في شجون الكلام :

يَا بَنِي عَبْدِ الْإِلَهِ احْتَسَابًا عَنْ أَثَاثٍ وَمَنْزِلٍ وَعَقَارِ
كَيْفَ يَأْسَى عَلَى خَسَارَةِ جِزْءٍ مِنْ يَرَى الْكُلَّ فِي سَبِيلِ الْخَسَارِ
هَدَفَ لَا تَنَى سِهَامُ اللَّيَالِي عَنْ سِبَاقِ تَجَاهِهِ وَبِدَارِ
وَاحِدِ طَائِشٍ وَثَانٍ مُصِيبٍ لَيْسَ يَنْجِي مِنْهَا اشْتِمَالُ حِذَارِ
غَيْرِ ذِي الدَّارِ صُرِّفَ الْهَمُّ فِيهَا فَمَنَّاخِ الرِّحِيلِ لَيْسَ بِدَارِ
وقال : أنشدته وأمرته بحفظه ، والتأدب به ، واللَّهَجَ بِحِكْمَتِهِ :

إِذَا ذَهَبَتْ يَمِينُكَ لَا تَضِيعِ زَمَانُكَ فِي الْبُكَاءِ عَلَى الْمَصِيبِ
وَيُسْرَاكَ اغْنَمِ فَالْقَوْسَ تَرْمِي وَمَا تَدْرِي أَرْشَقَتْهَا قَرْيَبِ
وَمَا بَغْرِيْبَةِ نُوبِ اللَّيَالِي وَلَكِنَّ النِّجَاةَ هِيَ الْغَرْيَبِ [٢٠٣]

وقال رحمه الله :

يَا أَهْلَ هَذَا الْقَطْرِ سَاعِدِهِ الْقَطْرُ بُلِيْتُ فَذُلُّونِي لِمَنْ يُرْفَعُ الْأَمْرُ
تَشَاغَلْتُ بِالْدُنْيَا وَنَمْتُ مَفْرَطًا وَفِي شُغْلِي أَوْ نَوْمِي سُرِقَ الْعَمْرُ
وقال رحمه الله :

مَالِي أَهْذَبُ نَفْسِي فِي مَطَالِبِهَا وَالنَّفْسُ تَأْنَفُ تَهْذِيبِي وَتَهْذِي بِي

(١) ما بين القوسين تكملة عن ت .

إذا استعنتُ على دهرى بتجربة تأبى المقاديرُ تجريبي وتجري بي
وقال رحمه الله مَوْرِيَا حين أكل مُشْرِف الدار القابض^(١) ، أى أخذ ماله :
مُشْرِف دار الملك ما باله منتفخ الجوف شكاً نافضا
فقليل لى ليس به علة لكنه قد أكل القابضا
وقال رحمه الله :

وله في مشرف
الدار حين أكل
القابض

يا نفس لا تُصْخِي إلى سَلْوَةٍ كم أخلف الموعدَ عُقُوبُ
وأنت يا قلبي وَصَّاك إبراهيم بالحزن ويعقوب
قال : وقلت في رأس الغادر بالدولة حين عرض على :
في غير حفظ الله من هامة هام بها الشيطان في كل واد
ما تركتُ حمداً ولا رحمة في فم إنسان ولا في فؤاد
وقال رحمه الله :

وله في رأس
الغادر بالدولة

يا كوكبَ الحسن يا معناه يا قمرَ روضه المتناهى الرِّيع يا ثمرَ
أمرتى بِسُلُوقٍ عنك ممتنع مأمور حسنك لَمَّا يَقْضِ ما أمره
[وقال رحمه الله في السعيد أبي بكر ابن السلطان أبي عنان :

وله في الغزل

أميراً كأن قَمِيرَ الدجى أفاض الضياء على صفحته
تملاً قلبي من حبه غداة نظرت بعينى إليه
فلا بسط الدهر كَفَّ الردى لذلك الشَّخِصِ وذالك الوُجْهِ^(٢)]

شعر له في
السعيد أبي بكر

(١) القابض : من الألفاظ الأندلسية ، وهى هنا بمعنى المال المأخوذ .

(٢) ما بين القوسين ساقط فى ت .

وله في توديع
ابنه لما انصرف
عنه إلى فاس

وقال عند ما انصرف عنه ابنه إلى مدينة فاس ، لإقامة رسمه من الخدمة ،
قال : وأشجاني انصرافه لوقوع قرحه على قرح ، والمستعان الله :

بان^(١) يوم الخميس قرّة عيني حسبي الله أي موقف بيني !
لو جنى موقف النوى حين حيي حان يوم الوداع والله حيني
ضايقتني صروف هذى الليالي وأطالت همي وألوت بديني
وطن نازح وشمل شتيت كيف يبقى مُعذّب بين ذين ؟
يا إلهي أدرك بلطفك ضعفي إن ما أشتكيه ليس بهين [٢٠٤]

وله في السيادة
الخطيبية

قال : وخاطبت السيادة الخطيبية^(٢) مع طيفور طعام :

تعلّم طيفوري خلال سميّه^(٣) وإن كان منسوباً إلى غير بسطام
وجاء فقير الوقت لابس خرقه فليس براض غير محبة صوام
فديتك لا تردده عنك مخيباً ودرّسه يا مولاي قصة بلعام^(٤)

قال : وكتبت إلى السيادة الخطيبية ، ووصل ولدها إلى سلا ، ومنعني عن
لقائه عذر من مرض ، وكان نزوله بزاوية النساك :

صدّني عن لقاء نَجْلك عذر يمنع الجسم عن تمام العبادة
واختصرت القرى لأن حطّ رحلا في محل الغنى ودار الزّهاده

(١) في ت : « فات » .

(٢) يريد بالسيادة الخطيبية ، الخطيب ابن مرزوق حاجب الدولة الغرناطية .

(٣) طيفوري : يريد طبقاً عليه مأكول . وسميه : يريد به القطب طيفور بن عيسى
ابن سروشان ، المكنى بأبي يزيد البسطامي ، شيخ الصوفية ، وصاحب الأحوال
المشهورة . (انظر شرح القاموس) .

(٤) لعله يريد بلعام بن باعوراء من بني إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، وله قصة
مشهورة .

وَلَوْ أَنِّي احْتَفَلْتُ لَمْ يُعَيِّنِ الدَّهْرُ وَلَا نِلْتُ بَعْضَ بَعْضِ أَرَادَهُ
وعلى كل حالة ففُضُّورِي عادة إِذْ قُبُولُكَ الْعِذْرَ عَادَهُ
لَا عَدَمَتَ الرِّضَا مِنْ اللَّهِ وَالْحُسْنَى كَمَا نَصَّ وَحْيُهُ وَالزِّيَادَةَ
وَقَالَ يَخَاطِبُهُ مِنْ ضَرِيحِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ بِشَالَةَ ، لَاسْتِهَاضَ غَرِيمَتَهُ
فِي قِضَاءِ غَرَضِهِ :

بَرِثْتُ اللَّهَ مِنْ حَوْلِي وَمِنْ حَيْكِلِي
أَصْبَحْتُ مَالِي مِنْ عَظْفِ أَوْمَلِهِ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنْ أُزْمِيَ بِقَاصِيَةِ
مِنْ بَعْدَ مَا خَلَصْتُ نَحْوَى الشَّفَاعَةِ مَا
إِنْ كُنْتُ لَسْتُ بِأَهْلٍ لِلَّذِي طَمَحْتُ
فَكَيْفَ يُنْفَعَنِي وَلَا تُرْعَى وَسِيلَتُهُ
مِنْ بَعْدَ مَا اشْتَهَرَتْ حَالِي بِهِ وَسَرَّتْ
وَالرَّسْلَ تَتَرَى وَلَا تَخْفَى نَتَائِجُهَا
وَلَا لِلْيَلِيَّ مِنْ صُبْحِ أَطَالَعِهِ
لَوْ أَنَّنِي بَابِنَ مَرْزُوقٍ عَقَدْتُ يَدِي
لَكَانَ كَرْبِي قَدْ أَفْضَى إِلَى فَرْجِ
أَلُمْتُ^(٢) بِالْعَتَبِ لَمْ أَحْذَرْ مَوَاقِعَهُ
وَلَسْتُ أَجْجِدُ مَا خَوَّلْتُ مِنْ نِعَمٍ
وَلَسْتُ أَيَّاسُ مِنْ وَعْدٍ وَعِدْتُ بِهِ

إِنْ نَامَ عَنِّي وَلَرَّيْتُ فَهَوَ خَيْرٌ وَلِي
مِنْ غَيْرِهِ فِي مُهِمَّاتٍ وَلَا بَدَلَ
لِلْهَجْرِ أَفْطَعُ فِيهَا جَانِبَ الْأَمَلِ
بَيْنَ الْفَلَاحِ^(١) وَالذَّجِي وَالْبَيْضِ وَالْأَسَلِ
إِلَيْهِ نَفْسِي وَأَهْوَى نَحْوِهِ أُمْلِي
دَخِيلُ قَبْرِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلِيٍّ
بِهَا الرُّكَائِبُ فِي سَهْلٍ وَفِي جَبَلٍ
عِنْدَ التَّأَمُّلِ مِنْ قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ
كَأَنَّ هَمِّي قَدْ مَدَّ الدُّجْنَ سَ لِي
وَكَانَ مُحْتَكِمًا فِي خَيْرَةِ الدُّوَلِ
وَكَانَ حُزْنِي قَدْ أَوْفَى عَلَى جَدَلٍ
« أَنَا الْغَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ الْبَلَلِ »
لَكِنَّمَا النَّفْسُ لَا تَنْفَكُ عَنْ أَمَلٍ
وَإِنَّمَا « خَلَقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »

[٢٠٠]

(١) فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ : « الْعَلَا » .

(٢) فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ : « أَلَحْتُ » .

وقال رحمه الله يخاطب السلطان أبا الحجاج :

وله في مخاطبة
السلطان
أبي الحجاج

أمولاي إن الشعرَ ديوانُ حكمةٍ يفيد الغنى والعزَّ والجاه مَنْ كانا
وقد وُجدَ المختارُ في الحفلِ مُنصِتًا له وَحِبَا كَمَبا عليه وَحَسَانَا
وفيمَا رَوَاهُ الناقِلُونَ وأثبتُوا بذلك ديوانًا صحيحًا فديوانَا
بأن أبا بكرَ خليفَتَه الرضا وفاروقَه الأدنى إليه وعثمانَا
وأن عليا قدسَ الله جمعَهُم وكرمنا بالقُرب منهم وَحيثَنَا
لهم في ضروبِ القولِ إذْهُمْ فحولُهُ خطاب وشِعْر يستقرُّان تبيانَا
وفاضَ على أهلِ القريضِ نوالُهُم فرُوضُ رَوْضِ القولِ سَحَا وتَهتَانَا
وأنتَ أَحَقُّ النَّاسِ أنْ تفعلَ التي بها^(١) فَعَلِ المختارُ دينًا وإيمانَا
فما زلتَ تَهْدِي في البريةِ هُديَه وتقضى بما يُرضيه سِرًّا وإعلانَا
وإن قيلَ قدرُ المرءِ ما هو محسنُ فصنعةُ نظمِ القولِ أرفعُه شانَا

وله في التورية

وقال رحمه الله في فن التورية :

بنفسي حبيب في ثنياه « بارق » ولكنّها للواردين عذابُ
إذا كان لي منه عن الوصل « حاجر » فدمعي « عقيق » بالجفون مُذابُ

وقال :

عَذَّبَتْ قلبي بالهوى ققيامه في نار هجرِكَ دائماً وقُعودُهُ
ولقد عَهَدْتُ القلبَ وهو موحدٌ فعَلام يُقْضَى في العذابِ خلُودُهُ

وله في التجنيس

وقال في التجنيس :

دَعَوْتُكَ للود الذي جَنَّبَاتِه تداعَتْ مبانِيها وهَمَّتْ بأن تَهَيَّ

وقلتُ لعهد الوصل والقرب بعد ما تناءى أسلو عن حياتي^(١) وأنت هي
ومن شام من جو الشبيبة بارقا ولم تنه عنه النهى كيف ينتهى ؟
وقال أيضاً :

ناديتُ دمعى إذ جدَّ الرحيلُ بهم والقلبُ من فَرَقِ التوديعِ قد وجبا
سَقَطَتْ يادمعُ من عيني غداة نأى عنى الحبيبُ ولم تقض الذى وجبا
وقال مُورِّيا :

وله في التورية
أيضا

كُتِبَتْ بدمع عيني صفحَ خدّى وقد مَنَعَ السَّكرى هجرُ الخليل
وراب الحاضرين فقلت هذا كتاب « العين » ينسب للخليل
وتذكرت بهذا قول الشيخ أبي حيان :

سبقَ الدمعَ بالسير المطايا إذ نوى من أحب عني نُقله
وأجاد السطور في صفحة الخدِّ ولم لا يجيد وهو ابن مُقله
والبيت الثاني أردت ، ولكن ابن الخطيب قد قصد تورية أخرى لم يقصدها
أبو حيان ، وكلاهما قد أحسن في توريته .

وقال ابن الخطيب :

بعض شعره

ولم أرأت غزى حثيثاً على السرى وقد راها صبرى على موقف البين
أنت بصحاح الجوهرى دموعها فعارضتُ من دمعى بمختصر العين
وقال أيضاً :

بحق ما بيننا يا ساكني القصبه رُدُّوا على حياتي فهى مغتصبه
ماذا جنيتم على قلبى بيئكم وأتمُّ الأهلُ والأحباب والعصبه

(١) في نفع الطيب : « وهل أسلو حياتي » .

وقال عفا الله عنه :

مَضْجِي فِيكَ عَنْ قَتَادَةَ يَرْوِي وَرَوَى عَنْ أَبِي الزِّنَادِ فُؤَادِي
وَكَذَا النُّومُ شَاعِرُ فِيكَ أُمْسِي مِنْ دُمُوعِي يَهِيمُ فِي كُلِّ وَادِي
وقال رحمه الله :

حِينَ سَارُوا عَنِّي وَقَدْ خَنَقْتَنِي عَبَّرَاتٍ قَدْ أَعْرَبْتَ عَنْ وَلُوعِي
صَحَّتْ مِنْ يَنْصُرِ الْغَرِيبِ فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ نَاصِرًا بَلَغْتَ دُمُوعِي
وقال عفا الله عنه :

قَالَ لِي وَالْدُمُوعُ تَهْلُلُ سُحُبًا فِي عِرَاضٍ ^(١) مِنْ الْخُدُودِ مُحُولٍ
بِكَ مَا بِي فَقُلْتَ مَوْلَايَ عَافَا لَكَ الْمَعَايَ مِنْ عَبْرَتِي وَنُحُولٍ
أَنَا جَفْنِي الْقَرِيحُ يَرْوِي عَنْ الْأَعْمَاشِ وَالْجَفْنُ مِنْكَ عَنْ مَكْحُولٍ
وقال ، وقد جلس السلطان في يوم شديد البرد للسلام :

جَلَسَ الْمَوْلَى لِتَسْلِيمِ الْوَرَى وَفَصَلَ الْبَرْدَ فِي الْجَوِّ احْتِكَامٍ
فَإِذَا مَا سَأَلُوا عَنْ يَوْمِنَا قُلْتَ هَذَا الْيَوْمُ بَرْدٌ وَسَلَامٌ
وقال رحمه الله تعالى :

[٢٠٧]

بَأَبِي بَدْرٍ ^(٢) غَزَانِي مُسْتَبِيحًا سَرَحَ ^(٣) صَدْرِي
فَأَنَا الْيَوْمَ شَهِيدُ الْحَبِّ مِنْ غَزْوَةِ بَذْرِ

وقال :

أَشْكُو لِمَا بَسِمَهُ الْحَرِيقَ وَقَدْ حَمَى عَنِّي لَمَاءَ الشَّهَى وَرَحِيقَهُ
يَا رَيْقَهُ حَيَّرْتَنِي وَمَظَلَّتَنِي مَا أَنْتَ ^(٤) إِلَّا بَارِدٌ يَا رَيْقَهُ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِينَ وَنَفَحَ الطَّيْبُ ، وَنُفِثَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ مُحَرَّفَةٌ عَنْ «مَرَامٍ»
بِالْبَصَادِ الْمُهْمَلَةِ ، فَهِيَ أَتَقَبَّلُ بِهَذَا الْمَقَامِ .

(٢) كَذَا فِي نَفْحِ الطَّيْبِ . وَفِي الْأَصْلِينَ : «ظِي» .

(٣) كَذَا فِي ت . وَالسَّرَحُ : فَنَاءُ الدَّارِ . وَفِي ط : «صَرَح» . وَالصَّرَحُ : الْقَصْرُ .

(٤) فِي ط : «مَا كُنْتُ» .

أبيات له
في الحنات
البدية

وقال فيمن ركب البحر وماد :
ركب السفينة واستقل بأفتها
فكأنما ركب الهلال الفرقد
وشكوا إلى بئيدهم فأجبتهم^(١)
لا غرو أن ماد القضيبي الأملد
وقال أيضاً :

يا مالكي بخلال تهدي إلى الفكر^(٢) حيرة
أضمرت قلبي نارا يا مالك بن نويرة
وقال عند ما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجهاً إلى الأندلس
اطلب حقه :

ولما حثت السير والله حاكم
حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى
لملكك في الدنيا بعز وفي الأخرى
يُنْقَل من بيضاء إلا إلى حمرا
وقال رحمه الله تعالى :

تعجلت وخط الشيب في زمن الصبا
فهما رأيتم شيبة في مفارقي^(٣)
لخوضي غمار الهم في طلب المجد
فلا تنكروها إنها شيبة الحد
وقال رضى الله عنه :

يا من تقلد للعلاء سلوكا
والفضل أضحي نهجه مسلوكا
كاتبتي متفضلاً فلككتني
لا زلت منك مكاتباً مملوكا

(١) كذا ورد هذا الشطر في ط . وفي ت : « وشكا إلى بئيده فأجبتهم » ؛ وفي هـ ح

الطيب : « وشكوا إليه بئيدهم فأجبتهم » .

(٢) في نفح الطيب : « القلب » .

(٣) في نفح الطيب : « فوق مفارقي » .

وقال عفا الله عنه :

أجاد يراع الحسن خطَّ عِذارِه وأودَّعه السرَّ المصون الذي يَدْرِ
ولم يفتقر فيهِه نختم وطابع فبسه أغناه عن طابع السر
وقال في رجل حلف وأقسم أنه ذو مال وأمانة ، وطلب من السلطان الخدمة : [٢٠٨]

حلفت لهم بأنك ذو يسار وذو ثقة وبر في اليمين
ليستندوا إليك بحفظ مال فتأكل باليسار وباليمين
وقال في الفخر :

ما ضرنى أن لم أكن^(١) متقدما فالسبق يُعرف آخر المضار
ولئن غدا رُبَّ البلاغة بلقعا فلربَّ كنز في أساس جدار
وقال في مدح السلطان أبي الحجاج :

في مصر قلبي من خزائن يوسف حبَّ وعيرُ مدايحى تمتاره
حليت شعري باسمه فكأنه في كل قطر حله ديناره
وقال يخاطب ابنه السلطان أبا عبد الله :

قالوا لخدمته دعاك محمد فكرهتها وزهدت في التنويه
فأجبتهم أنا والمهين كاره في خدمة المولى محب فيه
ومن قوله في غرناطة :

أحبك يا معني^(٢) الكمال بواجب^(٣) وأقطع في أوصافك الفرأوقاتي
تقسم منك الترب قومي وجيرتي ففي الظهر أحيائي وفي البطن أمواتي

(١) كذا في الأصلين ؛ وفي نفع الطيب : « أن لم أجي » .

(٢) في نفع الطيب : « أحبيك يا معني » .

(٣) الواجب : القلب .

وقال في غرض ينحو به نحو المشاركة :

رَمَوْا بالسُّلُو حليف الغرام وأدمعه كالحيا الهاطل
أعوذ بعزك يا سيدي لئلا من دعوة الباطل
وقال أيضاً :

يا ليل طُلْتَ ولم تجد بتبسُّم وأريتني خُلِق العَبُوس النادم
هلاً رحمتَ تغرُّبِي وتفرُّقِي لله ما أقساك يا ابن الخادم

وقال في سكين الأضاحي للسلطان أبي الحجاج رحمه الله :

وله في سكين
الأضاحي

لى الفضلُ أن شاهدتني واختبرتني على كل مصقول الغرارين مُرْهَفِ
كفاني فخراً أن تراني قائماً بسنة إبراهيم في كف يوسف

وقال في مروحة سلطانية :

وله في مروحة
سلطانية

كأني قوس^(١) الشمس عند طلوعها وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر
وإلا كما هبت بمحتدم الوغى بنصر^(٢) ولسكن من بنود بني نصر

وقال يخاطب شيخه ابن الجياب :

وله يخاطب
ابن الجياب

بين السَّهَام وبين كُتُبِكَ نسبة فيها يُصاب من العدو المقتل
وإذا أردت لها زيادة نسبة هذى وهذى في الكِنانة تُجَعَل

وقال يتغزل ، وفيه معنى غريب :

وله في الغزل

إن اللاَّحَظ هي السيوف حقيقة ومن استراب فحجتي تكفيه
لم يُدْع غمدُ السيف جَفناً باطلاً إلا لشبه اللحظ يُغمد فيه
قيل : وأحسن منه قول غيره :

إن العيون النُّجَل أمضى موقعا من كل هندى وكل يمان

(١) في ت : « ظل » .

(٢) بنو نصر : هم بنو الأحمر ملوك غرناطة .

فضل العيون على السيوف بأنها^(١) قَتَلْتُ ولم تخرُج من الأجفان
وأصل ما قال ابن الخطيب قول الآخر :

بين السيوف وعينيه مشاركة^(٢) من أجلها قيل للأغمد أجفانُ

وقال ابن الخطيب أيضا في البراغيث :

بِتَنَا نِكَابِدُ هَمِّ الْقَحْطِ لِيلَتَنَا وَأَتَجِدُ الشَّهْدَ وَالْكَرْبَ الْبِرَاغِيثَا^(٣)

وَكُنْتُ يُحْمَلُ مَا كُنَّا نِكَابِدُهُ مِنْ الْمَشَقَّةِ لَوْ أَنَّ الْبِرَاغِيثَا^(٤)

وقال في خالد البلوى صاحب الرحلة ، وقد استكثر من سرقة كتاب
« البرق الشامي » للعماد الأصهباني :

خَلِيلِيَّ إِنْ يُلْفِ اجْتِمَاعُ بِخَالِدٍ فَقُولَا لَهُ قُولَا وَلَنْ تَعْدُوا الْحَقَا

سَرَقَتِ الْعِمَادُ الْأَصْهَبَانِيَّ بَرْقَهُ وَكَيْفَ تَرَى فِي شَاعِرِ سَرَقِ الْبِرْقَا؟

وقال في المنجاة :

تَأْمَلِ الرَّمْلَ فِي الْمَنَاجِنِ مَنْقُطَعًا يَجْرِي وَقَدَّرَهُ عَمْرًا مِنْكَ مِنْهَيَا

وَاللَّهُ لَوْ كَانَ وَادِي الرَّمْلِ يُنْجِدُهُ مَا كَانَ^(٥) كَامِلُهُ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَا

وقال :

أَقُولُ لِعَاذِلِي لِمَا نَهَانِي وَقَدْ وَجَدَ الْمَقَالَةَ إِذْ جَفَانِي

عَلِمْتَ بِأَنَّهُ مُرُّ التَّجْنِي وَفَاتَكَ أَنَّهُ حُلُوُّ اللِّسَانِ

(١) في ت : « لأنها » .

(٢) في ط : « بين اللحاط وعينيه مناسبة » .

(٣) رواية هذا البيت في نفح الطيب :

بِتَنَا نَظَارِحُ هَمِّ الْقَحْطِ لِيلَتَنَا وَأَيَّدُ الْهَمَّ وَالشَّهْدَ الْبِرَاغِيثَا

(٤) البري : التراب . ورسمت (البري) بالألف ليم الجناس بين البيتين . وغيث :

أصابه الغيث .

(٥) في ت : « ما طال » .

وله في البراغيث
أيضا

وله في خالد البلوى

وله في المنجاة

وله في الغزل

وله في التصوف

وقال في غرض صوفي :

لا تنكروا أن كنتُ قد أَحْبَبْتُكُمْ أو أننى استولى على هواكم
طوعاً وكرهاً ما ترون فأننى طُفْتُ الوجود فما وجدتُ سواكم

[٢١٠]

وله في المدح
موريا

وقال يمدح وفيه تورية :

وإن نظرتَ إلى لألاء غُرَّتِه يوم الهياج رأيت الشمس في الأسدِ
ونسب إليه الحافظ أبو عبد الله التَّنَسَّى رحمه الله ، قصيدة يخرج منها أكثر
من ثلاث مئة بيت ، ونسبها غير التَّنَسَّى إلى بعض المشاركة ، فالله أعلم ، وهى :

شعر له يشك
أنه للمشاركة

دلا ثوى بفؤادى شفه سَمِّ (١)
بأضلعي لهبٌ تَذْكُو (٢) شرارته
يوم النوى حل في قلبى له ألم (٣)
توجئى من جوئى شُبَّت حرارته
أصل الهوى مُلبسٌ وجدا به عَدَم
تَتَّبَعِى وَجْه (٤) من تزهو نضارته
مُهْدِى الجوى مُولَعٌ بالهجر منتقم
لمصرعى معتد تحلو مزارته
قلبي كوى ملكٌ في النفس محتكم
مُرُوِّعِ قمر تَسْمِي إشارة

لَمِحْنَتِي مِنْ دَوَاعِي الْهَمِّ وَالسَّكْدِ
مِنْ الضَّنَى فِي مَحَلِّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِي (٥)
وَحُرْقَتِي وَبِلَائِي فِيهِ بِالرَّصْدِ
مَعَ الْعَنَا قَدْ رَنَى لِي فِيهِ ذُو الْحَسَدِ
لَمَهْجَتِي مِنْ رَشَاءٍ بِالْحَسَنِ مَنفَرْدِ
إِذَا انْتَنَى قَاتِلِي عَمْدًا بِلا قَوَدِ
مَا حِيلَتِي قَدْ كَوَى قَلْبِي مَعَ الْكَيْدِ
يَا قَوْمَنَا (٦) آخِذْ نَحْوَ الرَّدَى بِيَدِي
لَقَصَّتْنِي فَهُوَ سَوْلى وَهُوَ مَعْتَدِي
إِذَا رَنَا سَاطِعَ الْأَنْوَارِ فِي الْبَلَدِ

(١) فى ت هنا : « ألم » .

(٢) فى ط : « تدو » .

(٣) فى ت هنا : « ... الروح والجسد » .

(٤) فى ت : « يوم النوى ظل فى قلبى به ألم » .

(٥) فى ت : « وجد » .

(٦) فى ط : « يا قومنا » .

هَذَا الْقَوَى حَسَنَ كَالْبَدْرِ مَبْتَسِمٍ لَفِتْنَتِي مُوهِنَ عِنْدَ النَّوَى جَلَدِي
 مُودَّعِي النَّارِ قَدْ شَبَّتْ زِيَارَتُهُ لَمَّا جَنَى مُورَثِي وَجْدًا مَعَ الْأَبْدِ
 قلت : وعندي أنها بعيدة من نفس ابن الخطيب ، مع أن الحافظ التَّنَسِّي
 نسبها له ، وغيره نسبها لبعض المشارقة ، وذكر التَّنَسِّي أنه يخرج منها ثلاث مئة
 بيت ونيف وستون بيتاً^(١) ، والله ولي التوفيق .

ثم وقفت بعد هذا على كراسة من بعض تآليف الصَّفَدِيِّ بخطه ، عبر^(٢) فيها
 أنها لبعض المشارقة ، وأورد القطعة مع تقديم وتأخير ، فأردت أن أذكره إتماماً
 للفائدة ؛ ونصه :

صالح بن أحمد بن عثمان صلاح الدين القَوَّاس الشاعر الخِلَاطِي ثم البعلبكي ،
 توفي سنة ثلاث وعشرين وسبع مئة ، كان رجلاً خيراً متواضعاً ، صحب
 الفقراء ، وسافر الكثير ، وكان يعبرُ الرُّوْيَا ؛ قال الصَّفَدِيُّ : أنشدني من
 لفظه الشيخ الحافظ الذهبي ، قال : أنشدني المذكور قصيدته السائرة ذات
 الأوزان ، وهي :

دَاءُ نَوَى بِفَوَادِي شَفَّهَ سَقَمُ لِمِحْنَتِي مِنْ دَوَاعِي الْهَمِّ وَالْكَدِ
 بِأَضْلَعِي لَهَبٍ تَذْكُو شَرَارَتَهُ مِنْ الضَّنَى فِي مَحَلِّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِي
 يَوْمَ النَّوَى ظَلَّ فِي قَلْبِي بِهِ أَلَمٌ وَخُرْقَتِي وَبَلَائِي فِيهِ بِالرَّصَدِ
 تَوْجَعِي مِنْ جَوَى شَبَّتْ حَرَارَتُهُ مَعَ^(٣) الْعَنَا قَدْ رَتَيْ لِي فِيهِ ذَوَا الْحَسَدِ
 أَصْلُ الْهَوَى مُلْبِسِي وَجْدًا بِهِ عَدَمٌ لِمُحِبَّتِي مِنْ رَشَا بِالْحَسَنِ مَزْفَرْدِ

(١) طريقة ذلك أن يؤخذ اشطر الأول من كل بيت كما هو أو مع تنبير في بعض كلماته ،
 ثم يوضع مع ما يناسبه معنى من الشطور الثواني في القصيدة كلها ، فتخرج من ذلك
 صور كثيرة للبيت الواحد .

(١) في ت : « عين » .

(٢) في ط : « من » .

تتبعني وَجْه^(١) من تزهو نضارته
هَدَّ القوى حَسَنَ كالبدور مبتسم
مُودَعِي قَمَرٍ تَسْبِي إِشارته
مُهْدِي الجوى مُوَلِّعٌ بالهجر مُنتَقِم
لمصرعي مُعْتَدٍ تحلو صرارته
قلبي كوى مَلَكٌ في النفس محتكم
مولوعي النار قد شَطَّتْ^(٢) زيارته
قال الصَّفَدِي : قلت : هذه القصيدة تقرأ على ثلاث مئة وستين وجهاً .

[وقال في المشيب :

وله في المشيب

إِنِّي لُمُبْلَى بالهوى من بعد ما
لَبَسَ البياضَ وحلَّ ذِرْوَةَ مِنبر
وكتب ببعض الحيطان لما أجاز بِسَبْتَةِ :

وله وقد أجاز
بِسَبْتَةِ

أَقْنَا بُرْهَةً نَمَّ ارْتَحَلْنَا
وكل بِدَايَةِ فَاِلَى اتَهَاءِ
ومن سام الزمانَ دوامَ أَمْرٍ
وقد قَدَّمْنَا بعض هذه المقطوعة على غير هذا الوجه [^(٤) .

وقال مما يكتب في طاق الماء بباب القبة :

وله في طاق الماء

أَنَا طاق تزهو بِيَ الأيَامُ
تَعِبْتُ في بدائعي الأَفْهَامُ

(١) في ت : « متبني وجد » .

(٢) في ت : « وجدى مدى » .

(٣) في ت : « مروعي سار لا شطت » .

(٤) ما بين القوسين جاء متأخراً في ط بعد قوله : « قلبي الثاني » .

وتبَدَّيت للنواظر محجراً بَأْكَانَ الإِنَاءِ فِي إِمَامٍ^(١)
واقف للصلاة حتى إذا ما جثت للشرب حان مني السلام
وقال في ذلك أيضاً :

يا صانعي الله ما أحكمته فَلَأَنْتَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ رَئِيسُ
أُخِمْتَ تاجي يوم صُغْتُ رُقُوشَه فَصَبَّتْ إِلَيْهِ مَفَارِقُ وَرُوسِ
وَأَقَمْتُ فِي مَحْرَابِهِ فَكَأَنَّهُ مَجْلَى^(٢) إِنْاءِ الْمَاءِ فِيهِ عَمْرُوسِ
وكتب إليه شيخه ابن الجَيَّاب بقوله :

أيا كَتَابِي إِذَا مَا جِئْتُ مَا لَقَّهَ دَارَ الْمَكَارِمِ مِنْ ثَنِيٍّ وَوُحْدَانِ
فَلَا تُسَلِّمْ عَلَيَّ رَنْجٍ بِذِي سَلَمٍ بِهَا وَسَلِّمْ عَلَيَّ رَبْعَ لَسْطِمَانِ
فأجابه ابن الخطيب بقوله :

يا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ يُقْضَى تَأَلُّفُنَا وَيُثْنَى الشُّوقَ عَنْ غَايَاتِهِ الثَّانِي
أَوْ هَلْ يَحْنُ عَلَيَّ نَفْسِي مَعْذِبُهَا أَوْ هَلْ يَرِقُ لِقَلْبِي قَلْبِي الثَّانِي
وقال رحمه الله :

عَدَّ عَنْ كَيْتٍ وَكَيْتٍ مَا عَلَيْهَا غَيْرُ مَيْتٍ
كَيْفَ تُرْجَى حَالَةُ الْبُقَايَا لِمَصْبَاحٍ وَزَيْتٍ
وقال رحمه الله :

والله ما جَانٍ عَلَيَّ مَالِهِ أَوْ جَاهِهِ مَنْ ذَادَ عَنْ عَرْضِهِ^(٣)

(١) في ط : « الإمام في قيام » .

(٢) في ط : « يحكي » .

(٣) في ط : « من حاط من عرضه » .

بين ابن الجياب
وابن الخطيب

بعض أبيات له

والناس في خير وفي^(١) ضده هم شهداء الله في أرضه
وقال رحمه الله : ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون ،
وطمس الآن رسمها :

موشحة له في مدح
السلطان يوسف
أبي الحجاج

رُبَّ لَيْلِ ظَفَرْتُ بِالْبَدْرِ وَنَجُومِ السَّمَاءِ لَمْ تَدْرِ
حَفِظَ اللَّهُ لَيْلَنَا وَرَعَى
أَيُّ شَمَلٍ مِنَ الْهَوَى جَمَعَا
غَفَلَ الدَّهْرُ وَالزَّيْبُ مَعَا
لَيْتَ نَهَرَ النَّهَارِ لَمْ يَجِرْ حَكَمَ اللَّهُ لِي عَلَى الْفَجْرِ
عَلَّ النَّفْسُ يَا أَخَا الْعَرَبِ
بِحَدِيثِ أَحْلَى مِنَ الضَّرْبِ
فِي هَوَى مَنْ وَصَالُهُ أَرَبِي
كَلَّمَا مَرَّ ذَكَرَ مِنْ تَدْرِي قُلْتُ يَا بَرْدَهُ عَلَى صَدْرِي
صَاحٍ لَا تَهْتَمُّ بِأَمْرِ غَدٍ
وَأَجِزْ صِرْفَهَا يَدًا بَيِّدٍ
بَيْنَ نَهْرٍ وَبَلْبَلٍ غَرِيدٍ

[٢١٣]

وَعَصُونَ تَمِيدَ مَنْ سُكِرَ أَغْلَنْتُ يَا غَمَامُ بِالشُّكْرِ
يَا مَرَادِي وَمُنْتَهَى أُمْلِي
هَاتِهَا عَسْجَدِيَّةَ الْخُلَلِ
حَلَّتِ الشَّمْسُ مَنْزِلَ الْحَمَلِ
وَبُنُودِ الرَّبِيعِ فِي نَشْرِ وَالصَّبَا عَنْبَرِيَّةَ النَّشْرِ

غُرَّةُ الصَّبَحِ هَذِهِ وَضَحْتُ
 وَقِيَانُ الْفُصُونِ قَدْ صَدَحْتُ
 وَكَأَنَّ الصَّبَا إِذَا نَفَحَتْ
 وَهَذَا طَيِّبُهَا عَنِ الْخَصْرِ
 مِدْحَةٌ فِي غُلَا بَنِي نَصْرِ
 هُمْ مُلُوكُ الْوَرَى بِلَا تُنْيَا
 مَهْدُوا الدِّينَ زَيْنُوا الدُّنْيَا
 وَحَمَى اللَّهُ مِنْهُمْ الْعُلَمَا
 بِالْإِمَامِ الْمَرْفَعِ الْخَطَرِ
 وَالْغَامِ الْمُبَارَكِ الْقَطَرِ
 إِنَّمَا يُوسِفُ إِمَامٌ هُدَى
 حَازَ فِي الْمَعْلُوتِ كُلِّ مَدَى
 تَلْ لَدَهْرٍ بِمُلْكِهِ سَعِدَا
 افْتَخِرْ جَمَلَةً عَلَى الدَّهْرِ
 كَافِتْخِرِ الرِّبْعَ بِالزَّهْرِ
 يَا عِمَادَ الْعِلَاءِ وَالْمَجْدِ
 أَطْنَعُ الْعَيْدُ طَالَعَ السَّعْدِ
 وَوَفَى الْفَتْحُ فِيهِ بِالْوَعْدِ
 وَتَجَلَّتْ فِيهِ عَلَى الْقَصْرِ
 غُرَّرَ مِنْ طُلُوعِ النَّصْرِ
 فَتَهْنَأُ مِنْ حُسْنِهِ الْبَهْجِ
 بِحَيَاةِ النُّفُوسِ وَالْمُهْجِ
 وَاسْتَمِعْهَا وَدَعْ مَقَالَ شَجِي
 قَسَمًا بِالْهَوَى لِدَى حَجَرٍ
 مَا لِلَّيْلِ الشُّوقُ مِنْ فَجَرٍ
 وَمَنْ بَدِيعَ مَوْشِحَاتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْلُهُ :

كَمْ لِيَوْمِ الْفِرَاقِ مِنْ غُصَّةٍ فِي فُؤَادِ الْعَمِيدِ
 تَرْفَعُ الْأَمْرَ فِيهِ وَالْقِصَّةُ لِلْوَلِيِّ الْحَمِيدِ

رحل الركب يقطع البيدا بسفين النِّياقِ
كل وجناء تُلْعُجُ الجيدا وتَبْذُرُ الرِّفاقِ
حَسِبْتُ لَيْلَةَ اللِّقا عِيداً فَهِيَ ذَاتُ اشْتِياقِ
صائِمَاتٌ لَا تَقْبِلُ الرِّخْصَةَ قَبْلَ فِطْرِ وَعِيدِ
فَهِيَ مَذَامَلَتُهُ مَخْتَصَهُ بِجِهَادِ جِهِيدِ
ومنها وهو آخرها :

يَا إِمَامَ الْعَمَلِ وَالْفَخْرِ ذَا السَّنَةِ الْبُهْجِ
هَا كَمَا لَا عَدِمَتْ فِي الدَّهْرِ أَمِلاً يَرْتَجِي
عَارِضَتْ قَوْلَ بَائِعِ التَّمْرِ بِمَقَالِ شَجْرِ
عَرَبُوكَ الْجَمَالَ يَا حَفْصَةَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدِ
مِنْ سَجْلَمَاسَةٍ وَمِنْ قَفْصَةٍ وَبِلَادِ الْجَرِيدِ

ومن بديع نظمه رحمه الله في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم هذه القصيدة المشهورة وهي :

وله في مدح
النبي صلى الله
عليه وسلم

سَلِّ مَا لِسَلَمَى بِنَارِ الْهَجْرِ تَكْوِينِي وَحُبُّهَا فِي الْحَشَى مِنْ قَبْلِ تَكْوِينِي
وَفِي مُنَاكَاهَا تَمَنَّيْتُ الْعُنَى فَقَدَا قَلْبِي كَكَيْفَا بَبَلَوَاهِ يُنَاجِينِي
وَفِي قِيَابِ قُبَا قَامَتْ لَنَا بَقْبَا طَرَاظُهَا مُذْهَبٌ فِي حُسْنِ تَزْيِينِ
لَمَّا انْتَنَتْ فِي الْحِلْيِ تَزْهُو بِهَجَّتْهَا وَبِالْفَزَالَةِ تَزُرِّي وَالسَّرَاحِينِ
لَمَّا تَفَنَّنَتْ فِي أَفْنَانِ قَامَتْهَا تَفَنَّنَتْ بِفُنُونِ الصَّدِّ تَفْنِينِي
وَيَحْسَبُ الصَّبُّ يُسَلِّبُنِي مَحَبَّتَهَا هِيَاهُ لَوْ أَنَّ جَمَّ النَّارِ يُصْلِيْنِي
النَّارُ فِي كَبْدِي وَالشَّوْقُ يُقْلِقُنِي وَالْقُرْبُ يَنْشُرُنِي وَالْبُعْدُ يَطْوِينِي

وَرُكْنٌ صَبْرِي تَخَلَّى فِي الْغَرَامِ وَقَدْ
 وَقَدْ رَأَيْتُ مَسِيرِي عَنْهُ مُطْلَبُهُ
 نَصَبْتُ حَالِي لِرَفْعِ الضَّمِّ مَنْجُزِمٍ
 يَأْصَحُ عُجْجٌ بِالْحِمَى وَانْزِلْ بِهِمْ سَحَرًا
 وَفَوْقَ سَفْحِ عَقِيقِ الدَّمْعِ عُجْجٌ لَتَرَى
 وَمِلْ عَلَى أَثَلَاتِ الْبَنَانِ مُنْعَطِفًا
 نَمُّ أَتٍ جَزْعًا وَجُزْءٌ عَنْ حَيٍّ كَاطِمَةٍ
 مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى الْخِتَارِ مَنْ ظَهَرَ
 مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ مَعْجَزَةٍ
 وَمَنْ شَهَابٌ بَدَأَ مِنْ نَوْرِهِ رُجِمَتْ
 وَفَوْقَ رَاحَتِهِ صُمْتُ الْحَمَى نَطَقْتُ
 وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ الْبَارِي وَأَرْسَلَهُ
 إِنْ سَارَ فِي الرَّمْلِ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرُ
 كَانَ بِالرَّمْلِ مَا بِالصَّخْرِ مِنْ جَلَدٍ
 وَفِي الصَّحَائِحِينَ أَنَّ الْجِذْعَ حَنَّ لَهُ
 وَقَدْ سَمِعْنَا بَأْنَ الطَّيْرِ خَاطِبِهِ
 وَالظَّبْيِ وَالضَّبِّ جَاءَا يَشْهَدَانِ بَأْنَ
 فَكَيْفَ أَحْسَنَ مَدْحًا فِي مُحَاسِنِهِ
 أَقْبَلَ الْأَرْضَ إِجْلَالًا لِهَيْبَتِهِ
 وَقَدْ أَقُولُ ابْنَ سَحْدَانَ الْغَرِيبُ أَتَى
 يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ

تَمَكَّنَ الْحَبُّ فِي أَيْ تَمَكَّنَ
 وَالطَّرْفَ وَالظَّرْفَ يُبَكِّنِي وَيَكُوْنِي
 بِالْكَسْرِ عَلَّ بِرَشَفِ الضَّمِّ تُحْيِينِي
 وَانْظُرْ لِعُجْبِ أَثِلَاتِ الْبَسَاتِينِ
 جَاذِرُ الْحَيِّ بَيْنَ الْخُرْدِ الْعَيْنِ
 وَحَيَّ سَلَعًا وَسَلَّ عَنْ حَالِ مَسْكِينِ
 وَاقْرَأِ السَّلَامَ عَلَى خَيْرِ النَّبِيِّينِ
 آيَاتِهِ فَتَسْلَى كُلُّ مُحْزُونٍ
 مَا نَالَهَا مُرْسَلٌ قَدْ جَاءَ بِالْدِينِ
 شُهْبُ الدِّيَاجِي رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ
 وَالْمَاءِ مِنْ كَفِّهِ يُزْرِى بِجَيْحُونِ
 بَرًّا رءُوفًا رَحِيمًا بِالْمَسَاكِينِ
 وَإِنْ عَلَا الصَّخْرَ عَادَ الصَّخْرُ كَالطَّائِنِ
 شَوْقًا وَبِالصَّخْرِ مَا بِالرَّمْلِ مِنْ لَيْنِ
 وَالْعِذْقُ أَنَّ إِلَيْهِ أَيْ تَأْنِينِ
 فِي مَنْطِقِ مُفْصِحٍ مِنْ غَيْرِ تَلْسِكِينِ
 لَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنْ طِهِ وَيَسِينِ
 لَكِنَّ لِي قَبُولًا مِنْهُ يَكْفِينِي
 وَالنِّمُّ التُّرْبَ عَلَّ الْوَصْلَ يَحْيِينِي
 مُنَادِيًا بِفَوَادٍ مِنْهُ مُحْزُونِ
 وَأَحْسَنَ النَّاسِ مِنْ حُسْنٍ وَتَزِينِ

إِنِّي أَتَيْتُكَ فَاقْبَلْنِي وَخُذْ بِيَدِي
 وَقَدْ مَدَحْتُكَ فَارْحَمْنِي وَجُدْ فَعَسَى
 وَكُنْ شَفِيعِي مِنَ النَّيْرَانِ يَا أَمَلِي
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا صَدَحَتْ
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا غَرَدَتْ
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا وَفَدَتْ
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا هَطَلَتْ
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا ضَحَكَتْ
 وَأَنْفُ أَلْفِ صَلَاةٍ لَا نَفَادَ لَهَا
 عَلَيْكَ يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ قَاطِبَةً
 وَأَلَيْكَ الْغُرَّةُ وَالْأَصْحَابُ كُلُّهُمْ
 مَا عَطَّرَ الرَّوْضُ فِي الْأَسْحَارِ عُرْفَ صَبَا
 وَمَا شَدَا مُنْشِدٌ صَبُّ لَقْرَطٍ جَوَى
 [وقال رحمه الله :

وله في الرجوع
إلى الله

لَيْسْنَا فَلَمْ نُبَلِّ الزَّمَانَ وَأَبْلَانَا
 وَنَغْتَرَّ بِالْأَمَالِ وَالْعُمُرُ يَنْقُضِي
 وَمَاذَا عَسَى أَنْ يَنْظُرَ الدَّهْرُ مَا عَسَى
 جَزَيْنَا صَنِيعَ اللَّهِ شَرَّ جَزَائِهِ
 فَيَارَبِّ عَامِلُنَا بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ
 انتهى .

(١) يريد : « أجزئي » .

(٢) ما بين القوسين زيادة عن ت .

وَمِنْ لَهَيْبِ لَفَظِي جِرْنِي ^(١) وَسَجِّينِ
 مِنْ هَوَلِ يَوْمِ اللَّقَا وَالْخَشْرِ تَنْجِينِي
 لَعَلَّ أَحْظَى بِأَجْرِ غَيْرِ كَمُنُونِ
 قُمْرِيَّةٌ فَوْقَ أَفْنَانِ الرِّيَّاحِينَ
 حَامِئٌ فَوْقَ أَغْصَانِ الْبَسَاتِينَ
 نَوَيقَةٌ لِحِمَى الْأَطْلَالِ تَبْرِينِي
 مَدَامِغِ السَّجْبِ أَوْ عَيْنِ الْمُحِبِّينِ
 مَبَاسِمِ الزَّهْرِ فِي ثَغْرِ الْأَفَانِينَ
 مَضْرُوبَةٌ فِي ثَمَانِ أَلْفِ تَسْعِينَ
 وَأَلْفِ أَلْفِ سَلَامٍ فِي ثَمَانِينَ
 وَتَابِعِيهِمْ لِيَوْمِ الْخَشْرِ وَالذِّينِ
 وَفَاحِ نَشْرِ خُزَامِي مِنْهُ نَسْرِينَ
 سَلِّ مَا لِسَلَمَى بِنَارِ الْهَجْرِ تَكْوِينِي

يُتَابِعُ أَخْرَانَا عَلَى الْغَى أَوْلَانَا
 فَمَا كَانَ بِالرُّجْمَى إِلَى اللَّهِ أَوْلَانَا
 فَمَا انْقَادَ لِلزَّجْرِ الْحَثِيثِ وَلَا لَانَا
 فَلَمْ نَرْعَ مَا مِنْ سَابِقِ الْفَضْلِ أَوْلَانَا
 مِنَ الْعَفْوِ وَاجِبُ صَدْعِنَا أَنْتَ مَوْلَانَا ^(٢)

ولنقتصر من نظمه على هذا القدر ، فإنه طويل عريض ، وإنما أطلت
النفس في ترجمة ابن الخطيب ، رحمه الله ، علماً مني بأن الذين رغبوا في تأليف
هذا الموضوع ، لم تشوف إلى أنباء ابن الخطيب ، وكلامه وجلية أحواله ليست
عندهم ، وإنما يحفظون بعض نظمه ونثره ، ولا يدرون ابتداء أمره وانتهاءه ،
وقد حكى غير واحد أنه رى رحمه الله بعد موته ، فتقيل له : ما فعل الله بك ؟
فقال : غفر لي بسبب بيتين ، وهما :

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعد ما أثنى على أخلاقك الخلاق

وقد رأيت على هذين البيتين تخميساً لا بأس به ، لأبي عبد الله بن جابر
الغساني الكناسي ، رحمه الله ، وهو :

ياسائراً لفرح خير العالم يُنهي إليه مقال صب هائم
بالله نادٍ وقلّ مقالة عالم يا مصطفى من قبل نشأة آدم
والكون لم تفتح له أغلاق

بشأنك قد شهدت ملائكة السماء والله قد صلى عليك وسلم
يا مجتبي وم عظماً ومكرماً أيروم مخلوق ثناءك بعد ما
أثنى على أخلاقك الخلاق

اتمى .

وأولاد ابن الخطيب رحمه الله ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلي . وكلهم
حدّث عن أبيه وعن ابن الجيّاب ، وعليّ منهم هو صاحب السلطان أحمد المريني
الملقب بالمستنصر . [٢١٧]

وحكى أنه حضر معه في بستان ، سحّ فيه ماء المذاكرة الهتان ؛ وقد
أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزعم النهار لما قدم الليل على الفرار ؛
فقال المستنصر^(١) لما لان جانبه ، وسالت بين سرحات البستان جداوله
ومذانبه :

على بن الخطيب
والمستنصر
في بستان

يا فاسُ إِنِّي وَأَيْمُ الله ذُو شَغْفٍ في كلِّ ربع له معناه يَسْبِيْنِي
وقد أَنَسْتُ بِقُرْبِ مَنْكَ يا أُمْلَى ونظرة فيكم بالأنس تحييني
فأجابه على بن الخطيب بقوله [العذب المصيب] ^(٢) :

لا أوحش الله ربعا أنت زائرُهُ يا بهجة الملوك والدنيا مع الدينِ
يا أحمدَ الحمد أبقاك الإله لنا نخر الملوك وسُلطانَ السلاطين

وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين ، عن ملوك الحضرتين . وأما محمد فقد
نال حظا من التصوف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوف .

شيء عن
عبد الله ومحمد
ابن الخطيب

ولا بد أن نلّم بوصية ابن الخطيب ، رحمه الله ، لأولاده المذكورين ، لما
فيها من الحكم والوصايا النافعة لمن عمل بها ، وهي :

وصية
ابن الخطيب
لأولاده

الحمد لله الذي لا يروعه الحماّم المرقوب ، إذا شيم نجمة المقتوب ، ولا يَبَغْتَهُ
الأجل المسكتوب ، ولا يَفْجَوْهُ الفراق المعتوب ، مُلْهِمُ الهدى الذي تطمئن به
القلوب ، وموضح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب ،
لا سيما للوليّ المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل في كتابه المعجز الأسلوب ، « أم
كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبُ » ، « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ » ؛ والصلاة

(١) في ط : « السلطان » .

(٢) زيادة عن ت .

[٢١٨] والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله أكرم من زُرْتُ على نوره جُيُوب الغيوب ،
وأشرف من خُلْتُ عليه حُلَلِ المَهَابَةِ والعِصْمَةِ ، فلا تقمحه العيون ولا تَصِمُهُ ^(١)
العيوب ، والرضا عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب ،
والأمل المسلوب ، والافتداء الموصل للمرغوب ، والعز والأمن من اللغوب .

وبعد ، فإنى لما علانى المشيب بُعْمَتَهُ ، وقادنى الكِبَرُ فى رُمَّتِهِ ، وادَّ كَرْتُ
الشباب بعد أُمَّتِهِ ؛ أَسِفْتُ لِمَا أَضْعَفْتُ ، وَنَدِمْتُ بعد الفِطَامِ على ما رَضِعْتُ ؛
وتأكد وجوب نُصْحِي لمن لزمْنِي رَعِيَّهُ ، وتعلق بسعيي سَعْيِهِ ، وأملت أن تتَعَدَّى
إلى ثمرات استقامته ، وأنا رهين فَوَاتٍ ، وفى برزخ أُمُوت ؛ ويأمن ^(٢) العُثُور
فى الطريق التى اقتضت عِثَارِي ، إن سلك — وعسى ألا يكون ذلك — على
آثَارِي : فقلت أخاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد ؛ بعد الضراعة إلى الله
فى توفيقهم ^(٣) ، وإيضاح طريقهم ، وجمع تفريقهم ؛ وأن يَمُنَّ على فيهم بحسن
الْخَلْفِ ، والتلافى من قبل التَلَفِ ، وأن يرزق خَلْفَهُم التمسك بهدى السَلَفِ ؛
فهو ولى ذلك ، والهادى إلى خير المسالك .

^(٥) اعلموا هذاكم مَنْ بَأْنَوَارِهِ يَهْتَدَى الضَّلَالُ ، وبرضاه تُرْفَعُ الأغلال ، وبالتماس
قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفت الآمال ، وتبرأت من يمينها
الشَّمال ؛ أنى مودعكم وإن سالمنى الردى ، ومُفَارِقكم وإن طال المدى ، وما عدا

(١) كذا فى نفع الطيب ؛ وفى ط : « ولا تصفه » ، وهو تحريف .

(٢) فى ط : « الهرم » .

(٣) كذا فى نفع الطيب . وفى الأصلين : « وليأمن » .

(٤) فى ط : « تفضيلهم » .

(٥) فى نفع الطيب : « هذاكم الله تعالى الذى بَأْنَوَارِهِ ... الخ » .

مما بدا^(١) ؛ فكيف وأدوات السفر تُجمع ، ومنادي الرحيل يُسمع ؛ ولا أقل
للحبيب المودّع من وصية محتضّر ، وعُجالة مقتصر ؛ ورتيمة تُعقد في خنصر ،
ونصيحة تكون نشيدة واعٍ ومُبصر ؛ تتكفل لكم بحُسن العواقب من بعدى ،
وتوضّح لكم في الشفقة والحنو قُصدي ، حسبما تضمن وعدُ الله من قبل وعدى ؛
فهي أربكم الذي لا يتغيّر وقفه ، ولا ينالكم المكروه ما رَفَّ عليكم سَقفه ؛ وكأني [٢١٩]
بشبابكم قد شاخ ، وبراحلكم قد أناخ ؛ وبنشاطكم قد كسل ، واستبدل الصاب
من العسل ، ونُصول الشيب ترُوع بأسل ، لا بل [السّام]^(٢) من كل حَدَب
قد نَسَل ، والمعاد اللّحد ولا تسَل ؛ فبالأمس كنتم فِراخ حَجَر ، واليوم آباء^(٣)
عَسكر حَجَر ، وغدا شيوخ مَضِيعة وهَجَر ؛ والقبور فاغره ، [والنفوس عن المآلوفات
صاغره]^(٤) ؛ والدنيا بأهلها ساخره ، والأولى تعقبها آخره ؛ والحازم من لم يُتَعَطَّ
به في أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ؛ فاقتنوها من وصيته ، ومَرَامٍ في النصيح قَصيله ؛
وخصّوها بها أولادكم إذا عَقَلُوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ؛ وحسبي وحسبكم الله
الذي لم يخلق الخلق هَمَلا ، ولكن ليبلوهم أيّهم أحسن عملا ؛ ولا رضى الدنيا
منزلا ، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا ؛ ولتلقنوا تلقينا ، وتعلّموا
علما يقينا ؛ أنكم لن تجدوا بعد أن أنفردَ بذنبي ، ويفترش الترابَ جنبى ؛ ويسُح
انسكابى ، وتهرول عن المصلّى ركابى ؛ أحرص منى على سعادة إليكم تُجلب ،
أو غاية كمال بسببكم تُرتاد وتطلب ؛ حتى لا يكون في الدين والدنيا أوْزَف

(١) ما عدا مما بدا : أى ما الذى يصرف الإنسان عن إتمام ما بدا منه . يريد أنه لا ينعمه

من الزحيل عن هذه الدنيا مانع .

(٢) زيادة عن نفع الطيب . والسام (بتخفيف الميم) : الموت .

(٣) في نفع الطيب : « أبناء » .

(٤) زيادة عن نفع الطيب .

منكم ظلاً ، ولا أشرف محلاً ، ولا أغبط نهلاً وعلاً ؛ وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولى الآذان ، وتعلموا صُبح نصحى فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعُظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » . [٢٢٠]

وأعيد وصية خليل الله وإسرائيل ، حسبما تضمنه محكم تنزيله : « يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . والدين الذى ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفاه ، وقرّره مصطفاه ، من قبل أن يتوفاه ، إذا أُعمل فيه افتقاد ، فهو عمل واعتقاد ؛ وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ؛ والعقل متقدم ، وبنائه مع رفض أخيه متهدم ؛ فالله واحد أحد ، فرد صمد ، ليس له والد ولا ولد ؛ تنزّه عن المكان والزمان ، وسبق وجوده وجود الأكواف ؛ خالق الخلق وما يعملون ، والذى لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون ؛ الحى العليم المدبّر القدير ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ؛ أرسل الرسل رحمة لتدعو العباد^(١) إلى النجاة من الشقاء ، وتوجه^(٢) الحجة فى مصيرهم

(١) فى ط : « توجب » .

(٢) فى نفع الطيب : « الناس » .

إلى دار البقاء ، مؤيَّدة بالمعجزات التي لاتتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ؛ ثم ختم ديوانهم بنبيِّ ملتنا المُرعية للهمل ، الشهادة على الملل ، فتلخّص الطاعة ، وتبينت^(١) له الإمرة المطاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ؛ ثم إن الله قبضه إذ كان بشرا ، وترك دينه يضم من الأمة نشرًا ؛ فمن اتبعه لحق به ، ومن حاد عنه تورط في مُنتسبه^(٢) ، وكانت نجاته على قدر سببه .

روى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم^(٣) تضلوا بعدى : كتاب الله وسنتي ، فعصوا عليهما بالتواجد » . [٢٢١]

فاعملوا يا بنيَّ بوصيةٍ من ناصح جاهد ، ومُشفق شفقة والد ؛ واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه ، وعُوا مرآشد هديه فيافوز واعيه ؛ وصلُّوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به مجملًا [أو مفصلاً]^(٤) على حسبه ، وأوجبوا التجلَّة لصحبه ؛ الذين اختارهم الله لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ؛ واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولى الفضل الشهير ؛ وتبرءوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع ، ولا تع التشاجر بينهم أذنُ واع ؛ فهو عنوان السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ؛ ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملَّة ، وأتممها الحِلَّة ؛ فهم صقَّة نصولهم ، وفروع ناشئة عن أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم ؛ واعلموا أني قطعت في البحث زمانى ، وجعلت النظر شانى ، منذ برانى الله وأنشاني ، مع نبل يعترف به الشانى ، وإدراك يسلمه العقل الإنساني ؛ فلم أجد خابط ورق ، ولا مصيب عرق ؛ ولا

(١) كذا في ط . وفي ت : « تيقنت » . وفي نفع الطيب : « تعينت » .

(٢) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب : « ومن تركه نوط عنه في منسبه » .

(٣) كذا في ط ونفع الطيب . وفي ت : « لن تضلوا » .

(٤) زيادة عن نفع الطيب .

نازع خِطَام ، ولا متكلف فِطَام ، ولا مقتحم بحر طَام ؛ إلا وغايته التي يقصدها
 قد فضلتها الشريعة وسبقتها ، وفرّعت ثنيتها وارقتها ؛ فعليكم بالترام جادتها
 السابله ، ومصاحبة رُفقتها الكافله ^(١) ، والاهتداء بأقارها غير الآفله ؛ والله يقول وهو
 أصدق القائلين : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
 مِنَ الْخَاسِرِينَ » ؛ وقد علت ^(٢) شرائعه ، وراع الشكوك رائعه ؛ فلا تستنزلكم
 الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوس فعل المهتمدين ، فلن ينفع مَتَاعٌ بعد الخلود
 في النار أبد الأبدین ، ولا يضّر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ،
 ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغت ، فأنت [٢٢٢]
 خير الشاهدين ؛ فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعى شوه
 الوجوه ونُضج الجلود ؛ واستمعيذوا ^(٣) برضا الله من سُخْطه ، وارثوا بنفوسكم عن
 غمظه ؛ وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم ، ولا تَحَمَدُوا على
 جيفة العَرَض الزائل ائتلافكم ؛ واقنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسوا على ما فات
 وتعدّر ؛ فإنما هي دُجْنة ^(٤) ينسخها الصباح ، وصَفقة يتعقبها الخسار والرباح ؛
 ودونكم عقيدة الإيمان ، فشدّوا بالنواجذ عليها ، وكفكفوا الشبه أن تدنو إليها ؛
 واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خَرَق لا يرفؤه عمل ، وكل ما سوى الراعى
 هَمَل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أَمَل ؛ وتمسكوا بكتاب الله حفظاً وتلاوه ،
 واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوه ؛ وتذكروا في آياته ومعانيه ، وامثلوا
 أوامره وانتهوا عن مناهيه ، ولا تتأولوه ولا تغلّوا فيه ؛ وأشرّ بوا قلوبكم حب

(١) في نفح الطيب : « السكاملة » .

(٢) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « علت » .

(٣) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « واستعقبوا » .

(٤) كذا في ط ونفح الطيب . وفي ت : « دجية » .

من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواث حبه ؛ ووصونوا شعائر الله صَوْنُ المحترِم ، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حتى لا ينخرِم .

الله الله في الصلاة ذريعة التجلّه ، وخاصة الله ، وحاقنة الدم ، وغنى المستأجر المستخدم ؛ وأم العبادة ، وحافضة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ؛ والناهية عن الفحشاء والمنكر مهما^(١) عرض الشيطان عرضهما ، ووطأ للنفس الأمارة سماءها وأرضهما ؛ والوسيلة إلى بلّ الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر ؛ وضابطة^(٢) حسن العشرة من الجار ، وداعية المسالمة

من الفجار ؛ والواسمة بسمّة السلامة ، والشاهدة للعقد برفع الملامه ؛ وغاسول الطبع [٢٢٣] إذا شأنه طمع ، والخير الذي كل خير له تبع ؛ فاصبروا النفس على وظائفها بين إبداء وإعاده ، [فالخير عاده] ^(٣) ؛ ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنيه ، [وتؤثروا على العلية الدنيّه] ^(٤) ؛ فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تنبّس^(٥) ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ؛ وإذا قرنت^(٦) بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل ؛ والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت ، من حق الحى الذى لا يموت ؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقتموها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ؛ فبالإتيان تفاضلت الأعمال ، وبالمرعاة استُحقّق^(٧) الكمال ،

(١) كذا في الأصلين . وفي نفع الطيب : « وإن » .

(٢) في نفع الطيب : « ضامنة » .

(٣) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٤) زيادة عن نفع الطيب .

(٥) تنبّس : تسرع .

(٦) في ط : « قورنت » .

(٧) في نفع الطيب : « استحققت » .

ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال ؛ وثابروا^(١) عليها في الجماعات ،
وبيوت الطاعات ؛ فهو أرفع للام ، وأظهر لشرائع الإسلام ؛ وأبرّ بإقامة
القرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطها محصل ؛
فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ؛
والحجول والغُرر فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ؛ فالبناء بأساسه ،
والسيف برئاسه^(٢) . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور
وغير مجهور ؛ تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ؛ فلا يضبطها
إلا من ضبط نفسه بعقل ، وكان في درجة الرجولة ذا انتقال^(٣) ، واستعاض
صداؤه بصقال ؛ وإن تراخى تهقر الباع ، وسرقته الطباع ، وكان لما سواها أضيع
فشمَل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولدتها القرينة ؛ مفتاح السباحة بالعرض الزائل ،
وشُكْران المسئول على الضد من درجة السائل ؛ وحق الله في مال من أغناه ،
لمن أحجده في المعاش وعناهُ ؛ من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه ، [٢٢٤]
ولا علة القدر الذي يخفيه ، وما لم ينله حظ الله فلا خير فيه ؛ فاسمجوا بتفرقتها
للحاضر لإخراجها ، واختيار عرضها ونتاجها ؛ واستحيوا من الله أن تبخلوا
عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عدل ؛ واذكروا خروجكم إلى
الوجود لا تمليك كون ، ولا تدرون أين تسلكون ؛ فوهب وأقدر ، وأورد

(١) العبارة عن قوله : « وثابروا » إلى قوله : « وأبر » ساقطة في نفع الطيب .

(٢) في نفع الطيب : « برئاسه » .

(٣) هذه الجملة ساقطة في نفع الطيب .

بفضله وأصدر ؛ ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ؛ فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نواله .

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلفى ، المحووضة لمن يعلم السر وأخفى ؛ مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ؛ والاجتهاد ، وإيثار السهاد على المهاد ؛ وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه [المرعيه ، ولواحقه] ^(١) الشرعيه ؛ فبذلك تحسّن الوجوه ، وتحصل النفوس من الرقة على ما ترجوه ؛ وتهذب الطباع ، ويمتد في ميدان الوسائل إلى الله الباع .

والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ؛ وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسننه ، وقال : ليس له جزاء عند الله إلا الجنة .

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ؛ فكونوا ممن يسمع نقيره ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .

هذه عمدة الإسلام وفروضة ، ونقود مهره وغروضة ؛ خافضوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يُناوئكم ظاهرين ، وتلقوا الله لا مبدلين ولا مغيرين ، ولا تضيعوا حقوق الله قتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب ، وتُجلى محاسنها من

بعد الانتقاب ؛ فمليكم بالعلم النافع ، دليلا بين يدي الشافع ؛ فالعلم مفتاح هذا [٢٢٥] الباب ، والموصل إلى الباب ؛ والله عز وجل يقول : « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » . والعلم وسيلة النفوس

الشريفه ، إلى المطالب المُنيفه ، وشرطه الخشية لله والخيفه ؛ وخاصة الملائ
الأعلى ، وصفه الله في كتبه التي تُتلى ؛ والسبيل في الآخرة إلى السعادة ،
وفي الدنيا إلى التَّجَلَّة عاده ؛ والدُّخْر الذي قليله يشفع وينفع ، وكثيره يُعْلِي
ويرفع ؛ لا يغصبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ؛ ولا يبتزه الدهر إذا مال ،
ولا يستأثر به البحر إذا هال ؛ من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل
وإن جَمَّ ماله ؛ وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ؛ فالتسوه
لبنيكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ؛ وأحلوهم على جمعه ودرسه ،
واجعلوا طباعهم تُرعى لغرسه ؛ واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جزاه ، وسهر بهجر
له الجفن كراه ؛ تَعَقِدُوا لهم ولاية عز لا تُعزل ، وتَحِلُّوهم مثابة رفعة لا يُحط فارعا
ولا يستنزل ؛ واختاروا من العلوم التي يُنْفِقُها الوقت ، ما لا يناله في غيره المقت ؛
وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابتها العريضة ؛ من علوم لسان لا تستغرق
الأعمارَ فصولها^(١) ، ولا يضايق ثمرات المعاد محصولها ؛ فإنما هي آلات لغير ،
وأَسباب إلى خير منها وخير ؛ فمن كان قابلا منها لازدياد ، وألنى فهمه ذا انقياد ؛
فليخص تجويد القرآن بتقدمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيميه ؛
ثم الشروع في أصول الفقه ، فهو العلم العظيم المته ، المَهْدَى كنوز الكتاب
والسُنَّة ؛ ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجله ، والتدرب في طرق النظر وتصحيح
الأدلة ، وهذه هي الغاية القصوى في المله ؛ ومن قصَّر إدراكه عن هذا المرحى ،
وتقاعد عن التي هي أسمى ؛ فليزو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ،
وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ؛ وإياكم والعلوم القديمة ، والفنون
المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا ، ورأيا ركيكا ؛ ولا يشمر في

[٢٢٦]

العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ؛ وتطويق الاحتقار ، وسمية الصغار ،
 وخول الأقدار ، والخسف من بعد الإبدار ؛ وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال ،
 وأوفق^(١) من قطع العمر في الجدال ؛ هذا ابن رشد قاضي المصّر^(٢) ومفتيه ، وملتزم
 الرشد ومؤتبه ؛ عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ؛ فلا سبيل
 إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تخطوا سامكم بحامها ؛ إلا ما كان من
 حساب ومساحة ، وما يعود بجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم
 براحه ؛ وما سوى ذلك فمحجور ، وضَرَمَ مسجور ، وممقوت مهجور .

وأمرُوا بالمعروف أمراً رفيقاً ، وإنهَوْا عن المنكر نهياً حرياً بالاعتدال حقيقاً ،
 واغبطوا من كان من سِنَةِ الْغَفَلَات مُفِيقاً ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتى لا تسلكوا
 منه طريقاً ؛ وأطيعوا أمر من ولَّاه الله من أموركم أمراً ، ولا تقربوا من الفتنة
 جحراً ، ولا تداخلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين ؛
 وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شيء عرف به . وإياكم والكذب
 فهو العورة التي لا توارى ، والسَّوْءُ التي لا يُرْتَاب في عارها ولا يُتَارَى ؛ وأقل
 عقوبات الكذاب ، بين يدي ما أعدَّ الله له من العذاب ، ألا يُقبل صدقه إذا
 صدق ، ولا يعمول عليه إن كان بالحق قد نطق .

[٢٢٧]

وعليكم بالأمانة فالخيانة لؤم ، وفي وجه الديانة كلُّوم ؛ ومن الشريعة التي

(١) كذا في نفع الطيب . وفي الأصلين : « وأشفق » .

(٢) كان ابن رشد قاضي الجماعة بقرطبة .

(٣) يقال : أضره بالشيء إذا أضره به وعوده إياه ، وكأنه ضمن الفعل معنى : صرته

على الشيء .

لا يُعَذَّرُ بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ؛ وحافظوا على الحِشْمَةِ والصِيَانَةِ ،
ولا تَجْزُوا من أقرضكم دِينَ الْخِيَانَةِ ؛ ولا توجدوا للغدر قَبُولًا ، ولا تقروا عليه
طبيعاً مجبولاً ؛ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ؛ ولا تستأثروا بكنز ولا
خَزْنٍ ، ولا تَذْهَبُوا لغير مناصحة المسلمين في سَهْلٍ ولا حَزْنٍ ، ولا تَبَخَسُوا
الناس أشياءهم في كيل أو وزن ؛ واللَّهُ اللَّهُ أَنْ تَعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَلَوْ
بِالإِشَارَةِ أَوْ بِالْكَلَامِ ، أَوْ مَا يَرْجِعُ إِلَى وَظِيفَةِ الْأَقْلَامِ ؛ واعلموا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي
فُسْحَةٍ مُمْتَدَّةٍ ، وَسَبِيلِ اللَّهِ غَيْرُ مَنْسَدَةٍ ؛ مَا لَمْ يَنْبِذْ إِلَى اللَّهِ بِأَمَانَةٍ ، وَيَغْمِسَ فِي الدَّمِ
الْحَرَامِ بِيَدِهِ أَوْ لِسَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الَّذِي هَدَى بِهِ سَدَنًا قَوِيماً ، وَجَلَى
مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ لَيْلًا بِهِمَا : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ
خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » .

واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرم طبايعه ، وامتد في سبيل
السعادة بآعاه ، ولو لم تتلق^(١) نور الله الذي لم يهد^(٢) شعاعه ، فالخلال لم تضق
عن الشهوات أنواعه ، ولا عدم إقناعه ؛ ومن غلبت عليه غرائز جهله ، فلينظر
هل يجب أن يُزَنَّى بأهله ؟ واللَّهُ قَدْ أَعَدَّ لِلزَّانِي عَذَاباً وَبِيلاً ، وَقَالَ : « وَلَا
تَقْرُبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً » .

والخُرَامُ الْكِبَائِرُ ، ومفتاح الجرائم والجرائر ؛ واللَّهُ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ فِي الْحَيَاةِ
شُرْطًا ، وَالْحَرَمَ قَدْ أَغْنَى عَنْهُ بِالْخَلَالِ الَّذِي سَوَّغَ وَأَعْطَى ؛ وَقَدْ تَرَكَهَا
[٢٢٨] فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَقْوَامٌ لَمْ يَرْضَوْا لِعُقُوبِهِم بِالْفُسَادِ ، وَلَا لِنَفْسِهِمْ بِالْمَضَرَّةِ فِي مَرَضَةِ

(١) فِي ط : « تَلُو » .

(٢) فِي ت : « يَهْد » .

الأجساد ، والله قد جعلها رجساً محرماً على العباد ، وقرّنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السداد .

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهى الدين ، والله تعالى يقول : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وقال : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » في الكتاب المبين . ولا تأكلوا مال أحد [بغير حق يبيحه] ^(١) ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ؛ واتمسوا الحلال يسمى فيه أحدكم على قدمه ، ولا يَكُلْ اختياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تَلَجَّثُوا إلى التشابه إلا عند عدمه ؛ فهو في السلوك إلى الله أصل مشروط ، والمحافظة عليه مغبوط .

وإياكم والظلم ، فالظالم ممقوت بكل لسان ، مجاهر لله بصريح العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصّحاح الحسان ؛ والنميمة فساد وشتات ، لا يبقى عليه مُتَات ، وفي الحديث : « لا يدخل الجنة قَتَات » . واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغيبة فباب الخير عنها مسدود ، والبخل فما رُئِيَ البخيل وهو مودود ^(٢) ؛ وإياكم وما يُعتذر منه ، فواقف الحزى لا تستقل عثراتها ، ومَظَنَّات الفضائح لا تؤمن غمراتها ؛ وتفقّدوا أنفسكم مع الساعات ، وأفشوا السلام في الطرق والجماعات ، وريقوا على ذوى الزّمانات والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يُربحكم في البضاعات ؛ وعوّّلوا عليه وحده في الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نصبتم الموائد ؛ وتقربوا إليه باليسير من ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ؛ وازعوا حقوق الجار ، [٢٢٩]

(١) زيادة عن ت ونفع الطيب .

(٢) كذا في نفع الطيب وفي الأصلين : « إلا وهو مردود » .

واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار ؛ وتعاهدوا أولى الأرحام ، والشائج البادية
 الالتحام ؛ واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر ، وتفسد السر والجهر ؛
 والزَّشَا فإنها تحطُّ الأقدار ، وتستدعى المذلة والصغار ؛ ولا تساحوا في لعبة
 قَمَرٍ ، ولا تشاركوا أولى البطالة في أمر ؛ وصونوا المواعيد من الإخلاف ،
 والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف ، وحقوق الله من الازدراء والاستخفاف ،
 ولا تلهجُوا بالآمال العجاف ، ولا تكلّفُوا بالكهانة والإرجاف ؛ واجعلوا العمر
 بين معاش ومعاد ، وخصوصية وابتعاد ، واعلموا أن الله بمرصاد ، وأن الخلق
 بين زرع وحصاد^(١) ؛ وأقلُّوا بغير الحالة الباقية المموم ، واحذروا القواطع عن
 السعادة كما تحذر السموم ، واعلموا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم ؛
 وقابلوا بالصبر أذية المؤذين ، ولا تقارضوا^(٢) مقالات الظالمين ، فالله لمن بُغى
 عليه خير الناصرين ؛ ولا تستعظموا حوادث الأيام كما نزلت ، ولا تضجوا^(٣)
 للأمراض إذا أغصَلَتْ ؛ فكل منقرض حقير ، وكل منقضٍ وإن طال
 قصير ؛ وانتظروا الفرج ، وانتشقوا من جناب الله الأرج ؛ وأوسعوا بالرجاء
 الجوانح ، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح]^(٤) ،
 وتضرعوا إلى الله بالدعاء ، والجتوا إليه في البأساء والضراء ؛ وقابلوا نعم الله
 بالشكر الذي يقيّد منها الشارد ، ويُعذّب الموارد ؛ وأمهموا منها المساكين ،
 وأفضلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثار : « يا عائشة أحسنى جوار

(١) كذا في نفح الطيب . وفي الأصلين : « وأن الخلق زرع حصاد » .

(٢) في نفح الطيب : « ولا تعارضوا » .

(٣) كذا في ت ونفح الطيب . وفي ط : « تضجروا » .

(٤) زيادة عن نفح الطيب .

نِعَمَ اللَّهُ ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم . « ولا تُطغِكم النعم فتقصروا في »^(١) [٢٣٠] شكرها ، وتلفكم الجهالة بسكرها ؛ وتتوهوا أن سعيكم جلبها ، وجِدَّكم جلبها ؛ فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا الله إذا نظر بعين اليقين . والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تُذهَبوا بذهابه زَيْنُكم ؛ وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ؛ بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة في علانية وسر ؛ وللإنسان مزية لا تُجْهَل ، وحق لا يُهْمَل ؛ وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصلُّوا التعاهد والتزاور ؛ ترغِّموا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ؛ ولا تنافسوا في الخطوط السخيفة ، ولا تَهَارِشوا تَهَارُش السباع على الجيفة ؛ واعلموا أن المعروف يُكَدَّر بالامتنان ، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان ؛ فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقروه ؛ والله الله لا تنسوا مقارضة سَجَلِي ، وبرُّوا أهل مودتي من أجلى ؛ ومن رُزِق منكم مالا بهذا الوطن القَلِق المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ؛ فلا يستهلكه أجمع في العمار ، فيصيح عريضة المذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ؛ ومُعَوَّفاً عن الانتقال ، أمام النوب الثقال ؛ وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ؛ وازهدوا جُهدكم في مصاحبة أهل الدنيا ، نخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يفي بضرها ؛ وأعقاب من تقدم شَاهِدَه ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضده ؛ ومن يُبلى منكم بها فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، ويحذر مُعاداة الرجال ، ومزلات الإذلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ؛ وإفشاء الأسرار ، وسكر الاغترار^(٢) ؛ [٢٣١]

(١) في نفع الطيب : « ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها » .

(٢) في نفع الطيب : « وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، فإنه دأب الفر » .

وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلزم الأمانة ، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ؛ وليقف في التماس أسباب الجلال ، وسمو القدر ورفعة الحال دون الكمال ، فما بعد الكمال غير النقصان ، والزاعزاع تسالم اللذن اللطيف من الأغصان . وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوط^(١) ؛ وغلاباً ؛ فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، داع إلى الفضح^(٢) والعار ؛ ومن امتحن منكم بها اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً وإشاراً ؛ فليتلق وظائفها بسعة صدره ، وليبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ؛ فالولايات فتنة ومحنة ، وأسر وإحنة ؛ وهي بين إخطاء سعادته ، وإخلال بعاده ؛ وتوقع غزل ، وإدالة رخاء بأزل ، وبيع جد من الدنيا بهزل ؛ ومزلة قدم ، واستنباع ندم ؛ ومآل العمر كله فوت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ؛ جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتقنية ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها ، وتجارتي التي لربحكم أدرتها ؛ فتلقوها بالقبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ؛ وبقدر ما أمضيت من فروعها ، واستغشيت من دروعها ؛ اقتنيت من المناقب الفاخرة ، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة ؛ وبقدر ما أضعتم من لآلئها النفيسة القيم ، استكثرتم من بواعث الندم ؛ ومهما سئتم إطالتها ، واستغزرتهم مقاتلتها ؛ فاعلموا أن تقوى الله فذلكم الحساب ، وضابط هذا الباب ؛ كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا منأخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ؛ فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ؛ [٢٣٢]

(١) في نفع الطيب : « الخطوب » .

(٢) في نفع الطيب : « الفضيحة » .

جعلها^(١) الله من وراء خطه^(٢) النجاء ، ونَفَقَ بضائعها المَزْجاء ، بلطائفه المرتجاء ؛
والسلام عليكم من حبيبكم المودّع ، والله يَلَامُهُ^(٣) حيث شاء من شمل متصدّع ؛
والدِّم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته .

انتهت الوصية ، وهي غريبة في معناها .

قلت : ولأجل ذلك كان شيخ شيخنا الفقيه الإمام القاضى العلامة سيدى
عبد الواحد الوانشرى رحمه الله ، كثيراً ما يُدْخِلُ منها في خطبه ، على ما لا
يخفى على من طالعها ، وإلى الله ترجع الأمور .

وإذ بلغنا في ترجمة ابن الخطيب إلى هذا الحد الذى يستطيله الناظر فيه ،
وهو والله لا يتم التعريف بابن الخطيب ولا يوفيه ، فلنذكر القاضى النبأه
والكاتب ابن زَمْرُك ، اللذين كان لهما مع ابن الخطيب أول الأمر مصافاة
ومُتَات ، ثم استتحات إلى ما علمت من العداوة ذات البتات .

انتهى الجزء الأول من أزهار الرياض في أخبار عياض
ويليه الجزء الثانى ، وأوله : أخبار القاضى النبأه

(١) في ط : « جعله » ، وفي نفح الطيب : « جعل » .

(٢) في نفح الطيب : « خطته » .

(٣) كذا في نفح الطيب . ولأم الصدع من باب منع : أصلحه . وفي الأصلين : « يله » .

فهارس الكتاب

٣٣٩ — ٣٤٨	١ — فهرس الأعلام
٣٤٩ — ٣٥٠	٢ — فهرس الشعراء
٣٥١ — ٣٥٢	٣ — فهرس القبائل
٣٥٣ — ٣٥٧	٤ — فهرس الأماكن
٣٥٨ — ٣٦١	٥ — فهرس الكتب
٣٦٢ — ٣٦٦	٦ — فهرس الفوائ
٣٦٧	٧ — فهرس أنصاف الأبيات
٣٦٨ — ٣٧١	٨ — فهرس الموضوعات

فهرس الأعلام

(١)

ابن الحسن النبأى : ٣٧ ، ٣٨ ، ٢٢٣ ،
٣٦٦ ، ٢٢٤

ابن حيان : ٣٤

ابن خاتمة أبو جعفر : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦٥

ابن الخطيب : ٥٥ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢

٣٣ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩

٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٧٩

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٠١

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٧ ، ٢٦١

٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧

٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٣١١ ، ٣١٩

٣٢٠ ، ٣٦٦

ابن خلدون الحضرمى : ٢٦ ، ١٩٠ ، ٢٠٢

٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢٢٤

٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٩

٢٩١

ابن خلكان : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧

ابن داود (الإمام) : ١٠٣

ابن الدراج = أبو على الصدق

ابن دراج القسطنطينى : ١٢٠

ابن دنون = ابن دنون

ابن دنون : ١٢٢

ابن ذى وزن : ٤٧

ابن الربيب : ٢٧٥

ابن رشيد : ٣٥

ابن رضوان عبدة الله : ١٢٤

آدم (عليه السلام) : ٢ ، ٨٨

إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقلى : ١٧١

إبراهيم الموصلى : ٩

أبرويز : ٢٩٩

ابن الأبار : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥

ابن أبي الأحوس : ١٨٨

ابن أبي دينار : ٣٧

ابن أبي عامر = المنصور محمد بن أبي عامر

ابن أبي العيش : ٢١٧

ابن أبي يفلوسن = عبد الرحمن بن أبي يفلوسن

ابن الأحمر : ٢٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩١

١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠

٢٩١ ، ٣٠٦

ابن أخلى : ١٢٤

ابن بشكوال : ٢٧

ابن بطان الصنهاجى : ١٢٣ ، ٢٨٨

ابن ثروان : ٨٥

ابن جابر : ٢٧

ابن جماعة = أبو الفضل بن جماعة

ابن الجباب = أبو الحسن بن الجباب

ابن الحاج السلى = أبو البركات بن الحاج

البليغى السلى

ابن حجر العسقلانى : ٢٥

ابن حجة : ٢٦٢ ، ٢٦٤

ابن الحسن = أبو الحسن بن الحسن (القاضى)

ابن الحسن المستفى : ٦٣

أبو بكر بن أبي عنان : ٣٠٠
 أبو بكر دلف بن جحدر الصوفي = الشبلي
 أبو بكر بن أبي عبد الله بن الحكيم : ١٨٨
 أبو بكر بن شيرين : ١٨٨
 أبو بكر الصديق : ٣٠٣
 أبو بكر بن عاصم : ١٧٣
 أبو بكر بن غازي : ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩
 أبو بكر بن قزمان = ابن قزمان
 أبو بكر بن منظور : ١٨٨
 أبو تاشفين : ٢٤٢ ، ٢٤٩
 أبو ثابت عاصم بن محمد الهنتاني = عاصم بن محمد الهنتاني أبو ثابت
 أبو ثور : ٢١٩
 أبو جعفر = ابن خاتمة أبو جعفر
 أبو جعفر بن جابر : ١٨٨
 أبو جعفر بن الزبير : ١٩٠
 أبو جعفر الطنجالي : ١٨٨
 أبو الحجاج المنتشافري : ١٨٨
 أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن نصر الخزرجي : ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨
 أبو الحسن التلمساني : ١٨٨
 أبو الحسن بن الجياب : ١٧٩ ، ١٨٨
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢١
 ٢٢٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٩
 أبو الحسن بن الحسن (القاضي) : ٢١١ ، ٢١٢
 أبو الحسن بن سمعة : ١٤٥
 أبو الحسن الشاربي : ٣٦
 أبو الحسن علي (القاضي) : ٤٢
 أبو الحسن علي بن أحمد الخزرجي : ١٩
 أبو الحسن علي بن الحسن = ابن الحسن النباهي

ابن الزبير : ٢١٧
 ابن زرزار : ٦٢
 ابن زمرك = أبو عبد الله بن زمرك
 ابن سبعين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم : ١٢٤
 ابن سعيد : ٣٠
 ابن سكرة = أبو علي الصديقي
 ابن سيده : ٢٧
 ابن شجاع : ١٢٣
 ابن الصباغ العقيلي : ١٩٢ ، ١٩٣
 ابن صفوان : ١٩٠
 ابن عاصم = أبو يحيى بن عاصم
 ابن عمر : ٣٦
 ابن غازي : ٢٢٥
 ابن الغرديس التغلبي : ٢٤
 ابن فتوح = إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقيلي
 ابن قزمان : ١٢٣
 ابن قنفذ : ٢٤
 ابن ماساي = مسعود بن ماساي
 ابن مامة كعب : ٩٥ ، ٢٥٤
 ابن ماهان علي بن عيسى : ١٢٠
 ابن مראה : ٣٧
 ابن مرزوق = أبو عبد الله بن مرزوق
 ابن الملقوم أبو القاسم : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧
 ابن نصر الخزرجي = أبو الحجاج يوسف ابن إسماعيل بن نصر الخزرجي
 ابن هذيل : ٢١٩
 أبو إسحاق = إبراهيم بن أحمد بن فتوح العقيلي
 أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي
 أبو إسحاق إبراهيم بن هلال
 أبو الأصبع بن سهل : ٢٢٢
 أبو البركات بن الحاج البليقي : ٤١ ، ١٨٨

أبو العباس أحمد بن محمد السبقى القريفي :
٣٢ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ،

٤٤ ، ٤٥ ، ٢٧٣

أبو العباس البقنى : ٧٢

أبو العباس بن العريف : ٢١

أبو العباس العزفى : ٣٩ ، ٢٤٣

أبو العباس بن يربوع السبقى : ١٨٨

أبو عبد الله = ابن الخطيب

أبو عبد الله = الشبوكة محمد بن يوسف

أبو عبد الله بن أبي الحجاج = أبو عبد الله

ابن الأحمر

أبو عبد الله بن أبي الحسن : ٦٨

أبو عبد الله بن أبي عبد الله بن عبد الملك :

١٨٨

أبو عبد الله بن أبي القاسم بن أبي مدين :

٢٧٦

أبو عبد الله بن أبي الوليد بن أبي عبد الله :

١٩٤

أبو عبد الله بن الأحمر : ٣٧ ، ٥٨ ، ٧٢ ،

١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،

٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٣٧ ،

٢٧٢ ، ٣٠٧

أبو عبد الله بن الأزرق : ٧١

أبو عبد الله بن بكر : ١٨٨

أبو عبد الله البياضى : ١٤٥

أبو عبد الله بن بيش : ١٨٨

أبو عبد الله التلسانى : ٢٤٤

أبو عبد الله التنسى : ١٣٤ ، ٢٤٣ ،

٢٥٧ ، ٣١٠ ، ٣١١

أبو عبد الله بن حزب الله : ١٨٨

أبو عبد الله بن زمرك : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ،

٢٠١ ، ٢٣٠ ، ٣٦٦

أبو عبد الله السرقسطى : ١٤٥

أبو عبد الله القرمان : ١١٦ ، ١٣٣ ،

١٣٤

أبو الحسن على بن محمد = أبو حسن

أبو الحسن على النصرى : ٦٨

أبو الحسن على بن يوسف بن كاشة الحضرمى :

٢٠١

أبو الحسن الفيحاطى : ١٨٧

أبو الحسن المربنى : ٣٩ ، ٢٠٤ ، ٢٩١ ،

٢٩٤ ، ٣٠٢

أبو حسن : ٧٨

أبو حمو موسى بن يوسف : ٢٣٨ ، ٢٤١ ،

٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ،

٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

أبو حنيفة : ٢١

أبو حيان : ٣٠٤

أبو خندو : ٢٩٨

أبو الخير : ١١٨

أبو دواد : ٩٥

أبو زكريا يحيى بن هذيل : ١٨٩ ، ٢٠٤ ،

٢٠٩

أبو زيد : ٢٢١

أبو سالم بن أبي الحسن المربنى : ٦٥ ، ٦٦ ،

١٩٣ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٢٩٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧

أبو سعيد : ٢٠٧ ، ٢٨٢

أبو الصرف رفيع : ٤٢

أبو الظاهر : ٤٢

أبو الطيب أحمد بن الحسين = المتنبى

أبو الطيب

أبو العباس أحمد بن أبي سالم : ٢٢٦ ،

٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،

أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسنى

(القاضى) : ٥٩

أبو العباس أحمد بن جعفر السبقى الخزرجى :

٢٧٣

أبو عبد الله بن عبد الولي القواد : ١٨٧
 أبو عبد الله بن عسكر : ٢٢٢
 أبو عبد الله بن الفخار : ١٨٨
 أبو عبد الله محمد بن يوسف = المواق أبو
 عبد الله محمد بن يوسف
 أبو عبد الله محمد بن أبي بكر : ٢٩٤
 أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن علي النصري :
 ٦٧
 أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الرحمن الكيلي :
 ٣٥
 أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل البسطي :
 ١٠٣
 أبو عبد الله محمد أبي محمد العقيلي : ١٠٣
 أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد الوادي
 آشي : ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ،
 ١٨٦ ، ١٧١
 أبو عبد الله محمد التيمي : ٢١٦
 أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي :
 ٢٣
 أبو عبد الله محمد بن حمادة البرنسي : ٣٦
 أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاي =
 ابن الأبار
 أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن فرج :
 ١٤٦
 أبو عبد الله محمد بن عياض : ٢٤ ، ٢٧
 أبو عبد الله محمد المقرئ : ٥ ، ١٨٨
 أبو عبد الله محمد بن يوسف بن إسماعيل
 الحزرجي = أبو عبد الله بن الأحمر
 أبو عبد الله بن مرزوق : ١٩٣ ، ٢٠٧ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٢
 أبو عبد الله المتتوري : ١٤٥
 أبو عبد الله بن نصر = أبو عبد الله بن الأحمر
 أبو عبيد : ٢٢١

أبو عبيد البكري : ٦٠
 أبو عثمان بن ليون : ١٨٨
 أبو علي : ٢٢٤
 أبو علي حسن بن يوسف : ١٨٨
 أبو علي حسين بن محمد الصدقي : ٢١
 أبو عمرو بن أبي جعفر : ١٨٨
 أبو عنان فارس المريني : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢
 أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني :
 ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ،
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥
 أبو الفضل بن جماعة : ١٣٤
 أبو الفضل الشيرازي = الشيرازي أبو الفضل
 أبو الفضل محمد : ٢٩٢
 أبو القاسم التلسفاني الشريف : ٢٠٣ ، ٢٠٧
 أبو القاسم بن جزي : ١٨٧
 أبو القاسم الجنيد : ٢١
 أبو القاسم الحسن بن الحسين = الواساني
 أبو القاسم الحسن بن الحسين
 أبو القاسم بن سراج : ١٤٥
 أبو القاسم بن سلمون : ١٨٨
 أبو القاسم بن محمد الغساني : ٤٥
 أبو القاسم الملاحي : ٢٣
 أبو القاسم بن الملجوم = ابن الملجوم
 أبو القاسم
 أبو مالك = عبد الواحد بن زكريا أبو مالك
 أبو محمد بن أيوب المائي : ١٨٨
 أبو محمد بن الخطيب : ٢٨٢
 أبو محمد بن سلمون : ١٨٨
 أبو محمد صالح : ٢٩٨
 أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم = ابن سبعين
 أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم

أشج بن مروان = عمر بن عبد العزيز
 أليان : ١٢٠
 اصرؤ القيس : ٧٤ ، ٩٠ ، ١٧٤
 الأمين : ١٢٠ ، ٢٦٠
 أندلس بن يافت : ٢٩ ، ٣٠
 أنو شروان : ٢٦٧
 الوطاسي : ٧٢
 أويس بن عامر القرني : ٨٩
 لإياس بن معاوية : ٨٩

(ب)

بايزيد = أبو يزيد خان العتافي
 بجير بن الحارث : ٩٥
 برصيص : ١١٧
 برقان : ١٢١
 بر بن قيس : ٩٧
 بسطام (بن قيس) : ١١٩
 البسطي = أبو عبادة عمه بن أبي الفضل
 البسطي
 بلمام بن باعوراء : ٣٠١
 بلقيس : ٢٥٦
 بوران بنت الحسن بن مهمل : ١٢٢
 البوصيري : ٨٣
 بنت جزي : ٢٢١

(ت)

التنسي = أبو عبادة التنسي

(ج)

جابر بن حيان الصوفي : ١٧١ ، ٢٥٥
 الجاحظ : ٣٧
 جارية بن الحجاج = أبو دواد

أبو محمد بن عبد المهيمن : ١٨٨
 أبو مسلم الحراساني : ١١٩
 أبو الوليد اسماعيل بن يوسف = ابن الأحر
 أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم : ٥٥ ، ٥٥
 ٥٨ ، ٦٠ ، ١١٦ ، ١٤٥ ، ١٦٣
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٩
 ١٨٦

أبو يحيى بن أبي مدين : ٢١٠ ، ٢١١
 أبو يزيد البسطامي = طيفور بن عيسى
 أبو يزيد خان العتافي : ١٠٨ ، ١٠٩
 أبو يوسف : ١٢٠
 أبو يوسف = يعقوب عليه السلام
 أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق المريني : ٦١
 أحمد بن أبي سالم = أبو العباس أحمد بن
 أبي سالم
 أحمد بن جعفر السبتي = أبو العباس السبتي
 أحمد بن حرشون : ١٣٣
 أحمد بن الحسين = المتنبي
 أحمد (بن حنبل) : ٢١٩
 أحمد بن علي الأنصاري = ابن خاتمة
 أحمد بن محمد أبو سعيد الماليني = طاووس
 أحمد بن محمد الأندلسي = أبو العباس أحمد
 الدقون

أحمد المريني : ٣١٩ ، ٣٢٠
 أحمد النبي صلى الله عليه وسلم = محمد النبي
 صلى الله عليه وسلم
 أحمد بن يوسف : ٢٩٨
 إدريس (عليه السلام) : ٢٥٣
 أرسطوطاليس : ٢٥٤
 إسحاق (عليه السلام) : ١٤٢
 إسحاق الموصلي : ٩
 إسماعيل (عليه السلام) : ١٤٢
 إسماعيل بن أبي الحجاج = ابن الأحر
 الأسود بن قنان : ٩٥

داود (عليه السلام) : ٣٠

دن بطرة : ٦٢

دن جانحة : ٦١

(ذ)

الذهبي : ٣١١

ذوالدولتين = أبو العباس أحمد بن أبي سالم

ذو الودعات = ابن ثروان

(ر)

رسول الله صلى الله عليه وسلم = محمد

النبي صلى الله عليه وسلم

الرشيد : ١٢٧ ، ٢٦٠

رضوان (الحاجب) : ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨

٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨

الرضي (المشرف) : ٤١

رقاش : ٥

الرهصي : ٢٢١

(ز)

زهير بن أبي سلمى : ٨٢

زياد = النابغة الذبياني

(س)

ساسان : ٤٧ ، ١١٩

سبت بن سام بن نوح : ٢٩ ، ٣٦

سبت بن يافث : ٢٩

سراقة بن مالك الكناني : ١٤١

سعادة : ١٢٠

سعد بن عباد : ١٦٧

جالوت : ٣٠

جالينوس : ٢٥٥

جبريل (عليه السلام) : ١٤٢ ، ٢١٨

جذيمة : ٥

جعفر بن عثمان الحاجب المصنف : ١٩٣

جليان = أليان

(ح)

حاتم : ١٧١ ، ٢٥٤

الحاجب (ملك سبته) : ٣٧

الحارث الأكبر الغساني : ٥٣

الحارث بن عباد : ٩٥

حبيب بن أوس الطائي : ١٧٥

الحجاج : ٨٦ ، ٨٧

الحجاري : ٢٩

الحريري : ١٢٥

الحسن بن سهل : ١٢٢

حسين الزرويلي : ٢٤

حنظلة بن العرق الإيادي = أبو دواد

(خ)

خالد البلوي : ٣٠٩

خالد بن يزيد بن معاوية : ١٧١

الخطيب بن مرزوق = أبو عبد الله بن

مرزوق

خليل (بن إسحاق المالكي) : ١٣٠

خيران الصقلي : ١٢٠

(د)

دارا : ٤٧

(ض)

الضليل = امرؤ القيس

(ط)

طارق بن زياد : ٦١

ظاهر بن الحسين : ١٢٠

طاووس : ٢٥٦

طيفور بن عيسى : ٣٠١

(ع)

عاد : ٤٧

عامر بن محمد بن علي الهنتاقي أبو ثابت :

٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢

عائشة : ٣٣٣

العباس (عم النبي) : ١١٣

العباس بن مرداس : ٤١

عبد الحميد الكاتب : ١١٩

عبد الرحمن بن أبي يفلوسن : ٢١٠ ، ٢٢٤

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٢٩

عبد الرحيم بن نوح : ٢٩٢ ، ٢٩٣

عبد العزيز بن أبي الحسن = أبو فارس

عبد العزيز بن أبي الحسن الميرني

عبدالله (أبو لسان الدين بن الخطيب) : ٢٠٤

عبدالله بن لسان الدين بن الخطيب : ٢٩٩ ،

٣١٩ ، ٣٢٠

عبد الواحد بن زكرياء أبو مالك : ٢٦١ ،

٢٦٢

عبد الواحد الوائشريس : ٢٢٤ ، ٣٣٦

عبو : ٢٨٨

عتيبة بن الحارث : ١١٩

عثمان بن عفان : ١٢١ ، ٣٠٣

السعيد بن أبي فارس : ٢٢٦

السفاح : ١١٩ ، ٢٦٠

سفيان (بن سعيد بن مسروق الثوري) :

٩٦

سليمان (عليه السلام) : ٤٨ ، ٢٥٦

سليمان بن داود بن أعراب : ٢٢٩ ، ٢٣٠

سليمان بن عبد الملك : ٨٦ ، ٨٧

السموع : ٧٤

سوسان : ١٢٣

سيف بن ذي يزن = ابن ذي يزن

(ش)

الشافعي (الإمام) : ٢١٩

الشلي : ٢٥٦

الشبوكي محمد بن يوسف : ٢٩١ ، ٢٩٤

شداد : ٤٧

شرف الدين بن المقرئ : ١٥٨

الشريف = أبو العباس أحمد بن محمد

السبتي الشريف

شمس الدين = أبو عبدالله محمد بن جابر

الوادي آشي

شمس الدين البغدادي : ٢٦

شمس الدين بن جابر : ١٨٨

شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي =

ابن حجر العسقلاني

شبة : ١١٤

الشيрази (أبو الفضل) : ٩٤

(ص)

الصابي أبو إسحاق إبراهيم بن هلال : ١١٩

الصفدي : ٣١١ ، ٣١٢

(ق)

القادر (الخليفة) : ٩٣
قارون : ٤٧
القاسم (بن موسى بن عياض) : ٢٨
قحطان : ٤٧
الققعاق بن شور : ٩٦
الققصادي : ١٣٣

(ك)

كثير : ه
كعب = ابن مامة كعب
كليب : ٩٥
الكندى = المتنبي

(ل)

لبنى (بنت الحباب الكعبية) : ٢١٤
لدريق : ١٢٠
لسان الدين = ابن الخطيب
لقمان : ٣٢٣

(م)

المأمون = ابن ذنون
المأمون بن الرشيد : ٢١ ، ١٢٠ ، ١٢٢
مارية بنت ظالم : ٥٣
مالك (الإمام) : ٣٦ ، ٢١٩
مالك بن المرحل : ٣٢
الماوردي : ٢١

المتني : ٧٤ ، ١٢٠ ، ١٧٥
محمد المخلوع = أبو عبد الله بن الأحمر
محمد بن إبراهيم = أبو عبد الله القران
محمد (بن أبي الحجاج) = أبو عبد الله بن الأحمر

عثمان بن يحيى بن عمر : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٨٩

العربي = أبو عبد الله محمد أبي محمد العقيلي
العزفي = أبو العباس العزفي
هزة : ه

عضد الدولة بن بويه : ١١٩ ، ١٢٠
علي بن أبي طالب : ٣٠٣
علي بن بدر الدين : ٢١٠
علي بن عيسى بن ماهان = ابن ماهان علي
ابن عيسى

علي بن لسان الدين : ٣١٩ ، ٣٢٠
العماد الأصفهاني : ٣٠٩
عمر (بن الخطاب) : ١٤١ ، ٣٠٣
عمر (الفقيه) : ١٣٢
عمر بن عبد العزيز : ٨٥ ، ٨٩
عمر بن عبد الله بن علي : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٣٠

عمر بن عبد الله الياباني : ٢٩٢
عمر المالقي : ١١٦
عمرو بن العاص : ١٢٩
عمرو بن عدى : ه
عمرو بن موسى : ٢٣
عترة : ١٢٣

عياض بن موسى : ١٢ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٤
عيسى (بن موسى بن عياض) : ٢٨

(ف)

الفاروق = عمر بن الخطاب
الفتح بن خاقان : ١١٩
الفرزدق : ه
فرعون موسى : ٢٥٣
الفنش : ٦٢

صلى الله عليه وسلم
 الملقى : ٧٤
 الملك الضليل = امرؤ القيس بن حجر
 المنتورى (أحمد) : ٢١
 المنذر بن ماء السماء : ٧٤
 المنصور (أبو جعفر) : ٢٦٠
 المنصور محمد بن أبي عاصم : ٢٨ ، ١٢٠ ،
 ١٩٣
 المهدي : ٢٦٠
 مهلهل : ٩٥
 مبيار (الديلمي) : ٤١
 المواق أبو عبد الله محمد بن يوسف : ٢١
 موسى (عليه السلام) : ٨٨ ، ٢٥٢
 موسى بن يوسف = أبو حمو موسى بن
 يوسف
 موسى بن نصير : ٦١
 ميسون : ١٢١

(ن)

الناقة الذبياني : ٧٨
 نافع : ٣٦
 النباهي = ابن الحسن النباهي
 النبي صلى الله عليه وسلم = محمد النبي
 صلى الله عليه وسلم
 النوار : ٥
 نوح (عليه السلام) : ٢٩ ، ١٤٢

(هـ)

هامان : ١١٩
 هبنقة القيسي يزيد بن ثروان = ابن ثروان
 هراثة أبو شاذجة = دن جاذجة
 هرم بن سنان : ٨٢
 هشام بن الحكم : ٢٨

محمد بن أبي عبد الرحمن : ٦٢
 محمد بن أبي عبد الله : ٦٨
 محمد بن الأحرر = أبو عبد الله بن الأحرر
 محمد بن إسماعيل : ٢٠٢
 محمد بن حسون بن أبي العلاء : ٢٨٩
 محمد بن الحكيم : ٢٠٥
 محمد بن الخطيب : ٢٢٤
 محمد بن عبد الله = ابن الخطيب
 محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض : ٢٤
 محمد بن عثمان : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩
 محمد بن الفرديس = ابن الفرديس التغلبي
 محمد بن فرج : ١٤٦
 محمد بن لسان الدين : ٣١٩
 محمد بن محمد بن عاصم القيسي = أبو يحيى
 ابن أبي بكر بن عاصم
 محمد (النبي صلى الله عليه وسلم) : ٢ ، ٨٣ ،
 ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ،
 ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٩ ،
 ١٧٠ ، ١٨٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،
 ٣٢١

محمد بن يوسف = الشوكي محمد بن يوسف
 محمد بن يوسف بن إسماعيل = أبو عبد الله
 ابن الأحرر
 مدغليس : ١٢٣

مروان بن محمد : ١١٩
 المستنصر = أحمد المربني
 مسعود بن ماساي : ٢١٠ ، ٢٢٥
 المصنف = جعفر بن عثمان الحاجب
 المصطفى صلى الله عليه وسلم = محمد النبي

الھنتاتی = عامر بن محمد الھنتاتی أبو ثابت

(و)

الوادی آشی = أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
الحداد الوادی آشی

الوادی آشی = أبو عبد الله محمد بن جابر
الوادی آشی

الواسانی أبو القاسم الحسین بن الحسین : ١٢٣
الوائقریشی (عبد الواحد) : ٦٦

ولی الدین بن خلدون = ابن خلدون الحضرمی
وتزمار بن عریف : ٢٢٨

(ی)

یافث بن نوح : ٢٩

یحصب بن مدرك : ٢٧

الیحصبی : ٢٧

یحیی بن هذیل = أبوزکریا یحیی بن هذیل

یزدجرد : ١٢٠

یزید بن أبی مسلم : ٨٦

یسار : ٩١

یعقوب : ٢٩٨

یعقوب : (علیه السلام) : ٨٤ ، ٩

یلیان = ألیان

یوسف (علیه السلام) : ٩

یوسف بن أبی عبد الله : ٦٨

یوسف بن إسماعیل = أبو الحجاج یوسف

ابن إسماعیل

یوسف بن یعقوب بن عبد الحق المرینی :

١٢٠

فهرس الشعراء

(١)

ابن الجباب = أبو الحسن بن الجباب
ابن الحاج السلي = أبو البركات البليقي
ابن حجاج : ٩٤
ابن الخطيب : ٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ١٨٧ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٩ ،
٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،
٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٩٤ ،
٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٣

ابن دراج القسطلی : ١٢٠
ابن عاصم = أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم
أبو البركات البليقي : ٤١ ، ٢٧٢
أبو تمام : ٢٥٧

أبو الحجاج المنصفي : ٣٥ ، ٣٦
أبو الحسن بن الجباب : ١١٥ ، ١٩٢ ، ٣١٣
أبو الحسن التهامي : ١٣٧
أبو الحسن علي بن أحمد الخزرجي : ١٩
أبو الحكم مالك بن المرحل : ٢٩
أبو حيان : ٣٠٤

أبو زكريا يحيى بن خلدون : ٢٣٨ ، ٢٤٦
أبو سعيد الخزومي : ٩٩
أبو الطيب = المتنبي

أبو الطيب صالح بن شريف الرندي : ٤٧
أبو العباس أحمد الدقون : ١٠٤
أبو العباس الشريف : ٣٨ ، ٤١
أبو عبد الله = الشبوكي محمد بن يوسف
أبو عبد الله بن جابر : ٣١٩

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حجاج = ابن حجاج
أبو عبد الله بن الخطيب السلمي = ابن الخطيب

أبو عبد الله الشران : ١٣٣ ، ١٣٤
أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة : ٢٤٧
أبو عبد الله محمد بن أبي عبد الرحمن الكميلي
٣٥
أبو عبد الله محمد بن أبي محمد العقيلي : ٧٢ ،
١٠٣
أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي =
أبو عبد الله محمد بن أبي محمد العقيلي
أبو العتاهية : ٢١ ، ٨٧
أبو نواس : ٢٦
أبو يحيى بن أبي بكر بن عاصم : ١٤٦ ،
١٧٩
أحمد المربني : ٣٢٠

(ت)

التلايسى = أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة

(ج)

جرول = الخطيئة

(ح)

الحاجري = عيسى بن سنجر
الحارث بن عباد : ٩٥
حسان بن ثابت : ٩٧
الخطيئة : ٩٧

(د)

الدقون = أبو العباس أحمد الدقون

(ر)

الرندى = أبو الطيب صالح بن شريف الرندى

(ش)

الشوكى محمد بن يوسف : ٢٩٢

الفران = أبو عبد الله الفران

الشريف الرضى : ٩٣

(ص)

صالح بن أحمد بن عثمان : ٣١١

صالح بن شريف الرندى = أبو الطيب صالح

ابن شريف الرندى

الصمة الفشيرى : ٣

(ع)

العربى = أبو عبد الله محمد بن أبي محمد العقيلي

عمر المالى : ١١٦ ، ١٢٥

عباس : ٣٤

عيسى بن سنجر : ٢٧٥

(ف)

الفرزدق : هـ

(ق)

قيس بن ذريح : ٢١٤

قيس بن عاصم : ٩٨

(م)

مالك بن المرحل = أبو الحكم مالك بن المرحل

المتنى : ١٢٠ ، ١٢٦ ، ٢٣٧

المستنصر = أحمد المربى

المنصف = أبو الحجاج المنصفى

(ن)

الناطقة الذيبانى : ٧٨ ، ٩٨

(و)

الواسانى : ١٢٣

(ى)

يحيى بن خلدون = أبو زكريا يحيى بن خلدون

يزيد بن عبد المدان : ٩٩

فهرس القبائل

(١)

بكر : ٩٥
بنو الأحمر = بنو نصر
بنو إسرائيل : ١١٧ ، ١٢٩ ، ٣٠١
بنو بويه : ١١٩
بنو الترحان : ٢٨٨
بنو تميم : ٧٤ ، ٩٨ ، ١١٩
بنو جريد : ١٢
بنو الحارث بن ثعلبة : ١٢
بنو داود : ٧١
بنو ذى النون : ١٢٢
بنو زيان : ٢٥٢
بنو الصباغ : ٢٣١
بنو العافية : ٢٢٦
بنو عبد الحق = آل عبد الحق
بنو عبيد : ٢٨
بنو العزقي : ٤٥
بنو عسكر : ٢٢٩
بنو القاسم : ٢٤٢
بنو مرين : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٦٣ ،
١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ،
٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٧٦ ،
٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١
بنو نصر : ٥٠ ، ٥٣ ، ١٦٧ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٧٢ ، ٣٠٨
بنو والبة : ١٢

(ت)

التنار : ٨٩
الترك : ١٠٩
تغلب : ٩٥
تميم = بنو تميم

آل شيبان : ١١٩
آل عامر : ١٩٣
آل عبد الحق : ٢٣٠ ، ٢٩٤
آل محمد صلى الله عليه وسلم : ١١٣
آل يعقوب : ١٩٧
لارم : ٨٠
الأسبان : ٢٨
أشيب : ٩٦
الأنصار : ٢٩٦
أهل الأندلس : ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٩ ،
٦٨ ، ١٠٨ ، ١١٥ ، ١٨٨ ،
٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤
أهل الجزيرة = أهل الأندلس
أهل حمص : ٤٨
أهل رندة : ١٨٨
أهل سبتة : ٢٩
أهل الصفة : ١١٧
أهل غرناطة : ٦٩
أهل المشرق : ٢٥ ، ١٢٢
أهل المغرب : ٢٥
أهل المرية : ١٨٨
أولاد حسين : ٢٢٨
أولاد عبد الله المهدي = الفاطميون

(ب)

البربر : ٣٠ ، ٣٦ ، ٧٧
البرجلونيين : ١٩٦
برنس : ٣٦

(ط)	(ث)
الطوائف : ١٢٢	نور : ٩٦
(ع)	عمود : ١٠٠
عاد : ٨٠ ، ١٠٠	(ح)
عامر : ٢٩٥	حمير : ٢٧
عبس : ١١٨	(خ)
العجم = الفرس	الخزرج : ١٦٧
العرب : ١ ، ١٢ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٨٧ ،	(د)
١٠٩ ، ٢٢٨ ، ٢٥٤ ، ٣١٧	الدليم : ١٠٩
عوف : ٩٦	(ذ)
(غ)	ذبيان : ١١٨
الغساسنة ٧٨ ، ٩٧	(ر)
(ف)	الرباب : ٩٦
الفاطميون : ٢٨	الروم : ١١٠
الفرس : ٤٧ ، ٧٢ ، ١٠٩ ، ١٢٠ ،	(ز)
٣١٧ ، ٢٤٠	زفاعة : ٢٢٨ ، ٢٣٠
فزارة : ١٢	(س)
(ق)	سعد : ٩٨
قريش : ١٤١ ، ٢٤٠	(ش)
القوط : ١٢٠	شيبان : ١١٩
(م)	(ض)
مسين = بنو مسين	ضبة : ٩٦
المشاركة = أهل المشرق	
الملثمون : ٧٧	
منقر : ٩٨	
(ي)	
الين : ٤٧	

فهرس الأماكن

(ب)

باب الشريعة : ٦٨
باديس : ٢٣٤
بارق : ٢٣٧
بحر الروم : ٢٢٨
بحر الزقاق : ٢٩ ، ٦٧
برقه : ٣٠
بزليانة : ٤١
بسطة : ٢٨
البصرة : ٦٦ ، ٦٧ ، ١١٤
البصرة : ٧٠ ، ٨٩ ، ١٢١
بطوية : ٢٢٥ ، ٢٢٦
بلاد العرب : ٤٧
بلاق : ١٩٨ ، ١٩٥ ، ١٩٣ ، ١٨٨
٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٩
البلد الجديد : ٢٢٩
بلفيق : ٤١ ، ١١٤
بلنسية : ٣٥ ، ٤٦ ، ٤٨
بليوناش : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٣٧ ، ٣٦
البيازين : ٧٠
أليرة : ١١٤
البضاء : ١٩٧ ، ٢٢٨

(ت)

تازا : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
تامنا : ٢٦٥

(١)

آسقى : ٢٩٨
آنى : ٢٨٨
أبان : ١٢
الأبلة : ٧
أحد : ٢٤٨
أرغون : ٧٠
أزمور : ٣٥
إشيبية : ٤٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٢٩٧
أنجات : ٢٩٧
إفريقية : ١٨٩ ، ٢٦١
أيرة : ١٨٦
أندرش : ٦٧ ، ١١٤ ، ١٩٤
الأندلس : ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٤١ ،
٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٠ ،
٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ،
٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٠ ،
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٤٥ ، ١٨٦ ،
١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،
٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ،
٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ،
٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ،
أورية : ٣٧ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
٩٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٤
ليوان كسرى : ٤٧

حزوى : ١٠
الجرء : ٦٧ ، ١٠٤ ، ١٣٠ ، ٢٠٢ ،
٢٠٧
حص = إشبيلية
الحمة : ٦٦

(خ)

خراسان : ١١٩

(د)

دار ابن الفرديسى التفلج : ٢٤
الدار البيضاء : ٥٩
دار السلام : ١٢٧
دار الكتب المصرية : ٢١ ، ٩٧ ، ٩٩ ،
١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٥
دار همدان : ١٢١
دانية : ٢٤
دجلة : ٧
الدهناء : ١٠ ، ١٢١
الديار المصرية = مصر

(ر)

رابطة الفصائل : ٤٢
ربض البيازين : ٦٨
رضوى : ١٢
رندة : ٦١ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤
رومة : ١١٣

(ز)

زاوية المحروق : ١٢١

تلسان : ٧ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٧١ ،
١٢٠ ، ١٧٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ،
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠
تهامة : ٩٢
القوتة : ٣٦

(ث)

تهلان : ٤٨

(ج)

جبل الفتح : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
٢٣٠
جبل موسى : ٣٥
الجريد : ٢٦٢
الجزائر : ٦ ، ٢٤
الجزيرة = الأندلس
جمع : ٢٧١
جنان العريف : ١٢٨ ، ١٩٥
جنة الحافة : ٣٣
جنة العريف = جنان العريف
جنة المصاراة : ٢٠١
جيان : ٢٨ ، ٤٨
جيرون : ١٢٣

(ح)

حاجر : ٢٣٥
حبية أم يحيى : ٧
الحجون : ٩

(ط)

طليلة : ٤٦ ، ٢٢٢
طنجة : ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧

(ع)

عاج : ١٢١
العدوة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٧ ، ٢٠٩
العذيب : ٢٣٧
العراق : ٥٥
العقاب : ١٢٢

(غ)

الغيظ : ١١٩
غراطة : ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ،
٥٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٤ ،
١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ،
١٦١ ، ١٦٧ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ،
٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ،
٢٠٩ ، ٢٢٤ ، ٢٧٢ ، ٢٩٩ ،
٣٠٨ ، ٣٠٧
غمدان : ٤٧

(ف)

فارس : ٧ ، ١٢٠
فاس : ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ١٢٠ ،
١٢١ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ،
٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٠١

زرهون : ٢٢٨

زقة حجمة : ٢٤

الزيتون : ٢٢٨

(س)

سبنة : ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ،
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
٤٥ ، ٤٦ ، ١٤٦ ، ٢١١ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٣١٢
سجلداسة : ٢٢٨ ، ٢٢٩
سفاقس : ٢٢٥
سلا : ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٧
سليح : ٣١٧
السوس : ٢٣٧

(ش)

شاطبة : ٤٨
شالة : ٢٠٨ ، ٣٠٢
شالة سلا : ٢٧٦
الشام : ٤٨ ، ٥٥
شبوكة : ٢٩١ ، ٢٩٢
شعب بوان : ٧ ، ١٢٠
شنيل = شنيل
شنجيل = شنيل
شنيل : ٢٠٤

(ص)

الصفاء : ٩
الصفارين : ٤٣
صفلية : ٤٢

١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٢٩ ، ٢٧٧ ،

٢٩٠ ، ٢٩٢

مريلة : ١٩٦

المرج : ٢٠٤

مرسية : ٤٦ ، ٤٨ ، ٦٦

المرية : ٢٣ ، ٤١ ، ١٢٠

مسجد النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٧

المشارف : ٤٧

مصر : ٢٦ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٥٥ ،

٦١ ، ٨٢ ، ٣٠٧

المطبعة الأزهرية : ٧٥

مطبعة الفتوح : ٨٧

المرة : ١٧٥

المغرب : ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ٥٩ ،

٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١١٦ ، ١٢٠ ،

١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ،

٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ،

٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ،

٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٩٢

مقبرة أغمات : ٢٩٧

مقبرة باب الحروق : ٢٣٠

مكناسة : ٢٨٧ ، ٢٨٨

مكة : ٩ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،

٢٦٧

ملوية : ٢٢٨

مليانة : ٦٦

مليلة : ٦٧

المنارة : ٢٨

منصف : ٣٥

منى : ٢٣٩

مناقة : ١١٤

المنية : ٣٧

منية العبا : ٣٣

فج خير : ٦٣

فلسطين : ٣٠

فيد : ١١٩

(ق)

قبر السلطان أبي الحسن : ٢٠٨

قبر المعتمد بالله أبي القاسم بن عباد : ٢٩٧

قبة العرض : ٢٠١

قرطبة : ٢٨ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ١٨٦ ، ٢٩٧

قسنطينية : ١٠٩

قشتالة : ٦٢ ، ٧٠ ، ٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٠١

القيروان : ٢٨

(ك)

كدية العرائس : ٢٢٨

كندة : ١٢٠ ، ١٧٥

الكوفة : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٧٥ ، ٢٣٧

(ل)

لمطة : ٥٤

لوشة : ١٨٦ ، ٢٠٤

(م)

مالقة : ٤١ ، ٦٦ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ،

١٣٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٩ ، ٢٣٤ ،

٣١٣

المحصب : ٢٣٩

المدرسة اليوسفية : ٥٥

المدينة : ١٢ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٢٦٧

مراكش : ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ١١٩ ،

وادی النجا : ٢٢٨	(ن)	نجد : ٩٢ ، ٣
الواسطة : ٧٠		
وانفريش : ٦٦	(هـ)	
وحرا : ١١٤		
(ی)		هنتاة : ٢٩٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩١
		الهند : ٤٩
يثرب = المدينة	(و)	
اليامة : ١٢١		وادی آش : ٢٠٣ ، ٢٠٢ ، ١٩٥
الين : ٩٥ ، ٤٧		٢٠٧

فهرس الكتب

(أ)

آداب الدين والدنيا = أدب الدنيا والدين
أبيات الأبيات لابن الخطيب : ١٩٠
الإحاطة لابن الخطيب : ٢٣، ٢٧، ٥٥٠، ٥٠٤
٢٣٠، ٢٧٠
أخبار الحقي والمغفلين لابن الجوزي : ٨٥
أخبار حى بن يقطان = أسرار الحكمة
المشرقية

أدب الدنيا والدين : ٢١

الأربعين النووية : ٨٨

الاستبصار في عجائب الأمصار : ٣١، ٣٤

أسرار الحكمة المشرقية : ١٢٤

الاستقصا للسلوى : ٦١، ٦٢، ٧٨

استنزال اللطف الموجود في سر الوجود

لابن الخطيب : ١٩٠

إعمال الأعلام في من يبيع من ملوك الإسلام

لابن الخطيب : ١٩٠

الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني : ٢١٤

الإكمال الزاهر لابن الخطيب : ١٩٠

الإكمال لكتاب العلم للقاضي عياض : ٢

الأمالي للقالي : ٩٧، ٩٩

أنباء الغمر : ٢٥، ٢٦

(ب)

بدء ابن سبعين = بدء العارف

بدء العارف لابن سبعين : ١٢٤

بدئية العميان : ٢٣

البرق الشامي للهاد الأصفهاني : ٣٠٩

بستان الدول لابن الخطيب : ١٩٠

البستان لابن سريم : ٢٤، ٣٣

بغية الرائد لما تضمنه حديث أبي زرع من

الفوائد للقاضي عياض : ٢

بغية الملتبس للعزي : ٢١

البيان والتبيين للأجاحظ : ٨٧

البيزرة لابن الخطيب : ١٨٩

البيطرة لابن الخطيب : ١٨٩

(ت)

تاج العروس : ٢٠، ٤١، ٩٦، ٩٧

١١٩، ٣٠١

التاج المحلى في مساجلة القدر المعلى لابن

الخطيب : ١٨٩

تاريخ ابن خلدون = العبر وديوان المبتدأ

والخبر

تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب

لابن الخطيب : ١٩٠

تقديم أبي بكر لابن حجة : ٢٦٢، ٢٦٣

٢٦٤

تقرير الشبه وتحرير الشبه لابن الخطيب :

١٩٠

تقويم البلدان : ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٤

٣٥، ٦٧، ٢٢٨، ٢٣٤

تكملة كتاب الصلة : ٦٦

تكملة المعجمات لدوزى : ٣٦، ٥٤، ٦١

(ج)

جامع البيان والتحصيل : ١٢٩

رجز السياسة لابن الخطيب : ١٨٩
 رجز الطب لابن الخطيب : ١٨٩
 رجز في أصول الفقه لابن الخطيب : ١٩٠
 الرجز في عمل الترياق لابن الخطيب : ١٨٩
 الرد على أهل الإباحة لابن الخطيب : ١٩٠
 رسالة تكون الجنين لابن الخطيب : ١٨٩
 رسالة الطاعون : ١٨٩
 رقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب : ١٩٠
 الروض الأريض : ٥٨ ، ٦٠ ، ١٤٥ ، ١٧١
 الروض المطار في أخبار الأفكار لأبي عبد الله
 الحميري : ٢
 ريحانة الكتاب ونجمة المتناهب لابن الخطيب :
 ١٨٩ ، ٢٨٦

(ز)

الزبدة المعخوضة لابن الخطيب : ١٩٠
 زهر الرياض : ١٢٤

(س)

السحر والشعر لابن الخطيب : ١٨٩
 سد الدريعة في تفضيل الشريعة لابن الخطيب :
 ١٩٠
 سراج المريدين لابن العربي : ٢
 سلوان المطاع لابن ظفر : ٢٤٩
 سند المهتدين : ٢١ ، ٢٢

(ش)

شرح بدعية ابن حجة = تقديم أبي بكر
 شرح الشاطبية : ٢٧
 شرح الشفاء للصباه : ٢٧
 شرح القاموس = تاج العروس
 شرح المواهب اللدنية للزرقاني : ١٤١

الجامع الصغير للسيوطي : ٢١٣
 جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى
 لابن عاصم : ٥٠ ، ١٤٥ ، ١٥٨ ،
 ١٧١
 جيش التوشيح لابن الخطيب : ١٩٠
 الجواهر الملاءمة : ١٢١

(ح)

الحلل المرقومة لابن الخطيب : ١٨٩
 حل الجمهور على السنن المشهور لابن الخطيب :
 ١٩٠

(خ)

خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف
 لابن الخطيب : ١٩٠
 خلع الرسن في أمر القاضي ابن الحسن لابن
 الخطيب : ١٩٠

(د)

الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة لابن الخطيب :
 ١٩٠
 دوزى = تكملة المعجمات
 ديوان الصبابة : ١٢٤

(ذ)

الذخائر والأعلاق لأبي عبد الله الأشبيلي : ٢

(ر)

راح الأرواح لابن الخطيب : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
 ٢٤٥
 رجز الأغذية لابن الخطيب : ١٨٩

(ق)

القاموس : ١٢٥ ، ٣٥ ، ٥٠
القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) : ٢١٥
فلأند العقيان : ١١٩

(ك)

كتاب حجاب : ١٢٤
كتاب السياسة لابن الخطيب : ٧١
كتاب الوزارة لابن الخطيب : ١٩٠
الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة :
١٨٩

كشف الدك وإيضاح الشك : ١٢٣
كشف الظنون لحاجي خليفة : ١١٧ ، ٢٦ ،
١٥٨

كناسة الدكان لابن الخطيب : ١٩٠
كنز العارفين : ٢
السكواك الوقادة : ٣٣ ، ٣٨ ، ٤٠

(ل)

لسان العرب : ٩٢ ، ٩٩ ، ٣٥
اللمعة البسدرية لابن الخطيب : ١٨٩ ،
١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٤

(م)

المباخر الطيبة في المفاخر الخطيبية لابن
الخطيب : ١٩٠
مثلى الطريقة في ذم الوثيقة لابن الخطيب :
١٨٩

مجلة الجميع المللكي للغة العربية : ٤٦
جمع الأمثال للميداني : ٥
الحكم لابن سيده : ٢٧
مختارات ابن السجري : ٩٨

الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٩٥
شمس المعارف للبوني : ١٢٣

(ص)

صبح الأعشى للقلقشندي : ٥٤ ، ٤٦
صحيح البخاري : ٣٧ ، ٨٨
صحيح مسلم : ١٢٩ ، ٢١٦
الصلة لابن بشكوال : ٢١ ، ٢٧
الصيب والجهم والماضي والكهام لابن
الخطيب : ١٨٩

(ط)

طرفة العصر في دولة بني نصر لابن الخطيب :
١٩٠

(ع)

عائد الصلة لابن الخطيب : ١٩٠
العبر وديوان المبتدأ والخبر : ٢٦ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣

العقد الفريد : ١١٩
عمل من طب لمن حب لابن الخطيب : ١٩٠
عنوان الصرف الواق : ١٥٨

(غ)

غمر أخبار ملوك الفرس : ١٢٠
الغنية للقاضي عياض : ٢ ، ٣٦
الغيرة على أهل الحيرة لابن الخطيب : ١٩٠

(ف)

فئات الحوان ولقط الصوان لابن الخطيب :
١٩٠
فهرسة ابن غازي : ٧١

منية الطالب لأعز المطالب : ٢
الموطأ للإمام مالك : ٢
المونس في أخبار إفريقية وتونس : ٣٧

(ن)

نشر فرائد الجمان : ١٨٦ ، ٢٩١
نزهة المشتاق للادريسي : ٣٠
نظم الدرر والعقيان : ٢٤٤ ، ٢٤٥
نظم السلوك في سياسة الملوك : ٢٤٩
نفاضة الجراب لابن الخطيب : ١٨٩ ، ٢٩٨
نفع الطيب : ٥ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٠ ... الخ
النهاية لابن الأثير : ٩٢
نيل الابتهاج بتطريز الديباج : ١٠٤ ،
١٣٣ ، ١٣٥

(و)

الوصول لحفظ الصحة في الفصول لابن
الخطيب : ١٨٩
وفيات الأعيان : ٢٥ ، ٩٤ ، ١١٩

(ي)

يتيمة الدهر للثعالبي : ٩٤
اليوسفي في الطب لابن الخطيب : ١٨٩

مختصر خليل : ٧١
المختصر في فقه المالكية : ١٣٠
مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية :

٢٣ ، ٢٥

مسالك الأبصار للعمري : ٣٠
المسائل الطبية لابن الخطيب : ١٨٩
المسهب : ٢٩
المصباح : ١٢٣
المضاف والمنسوب للثعالبي : ٨٥ ، ٩٢ ،
٩٥ ، ٩٦

مطمح الأنفس : ١١٩
معجم أصحاب الصدق : ٢٣
معجم البلدان : ٢٤ ، ٣٧ ، ٤١ ، ١٨٦ ،
٢٣٩

معجم دوزي = تكملة المعجمات لدوزي

معجم ما استعجم : ١٢
المعلم لفوائد مسلم : ٢١٦
معيان الاختيار لابن الخطيب : ١٨٩
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : ٣١ ،
٦٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨

مفاتيح العلوم للخوارزمي : ٢٥٥
مفاضلة مالقة وسلا لابن الخطيب : ١٨٩
مقامة السياسة لابن الخطيب : ١٩٠
المقتبس في أخبار المغرب والأندلس : ٣٦
مقدمة تاريخ ابن خلدون : ٧١
المنتقى : ٢

فهرس القوافى

طويل	سلام — خليفة : ١٠٩
»	أحبك — أوقات : ٣٠٧
بسيط	قد — المهمات : ٢٩٧
مجزوء الرمل	عد — ميت : ٣١٣
متقارب	بعدنا — صموت : ٢٣١
»	آيا — الثبوت : ٢٣١

(ث)

بسيط	بقنا — البراغيثا : ٣٠٩
كامل	زحفت — المحثوث : ٢٨٩

(ج)

بسيط	ماذا — حرج : ٢٦٥
وافر	باسماعيل — بانبلج : ٢٧٤
خفيف	قلت — احتجاجا : ١٤٤

(ح)

كامل	عن — ويخرج : ٢٧٦
سريع	حيث — يروح : ٢٩
خفيف	بلد — مبيع : ٢٩٠
»	ما — جناح : ٢٣٧
»	ما — واقضاح : ٢٣٩

(د)

طويل	أونتك — شدوا : ٩٧
»	أما — وده : ١٤٦
»	نزلنا — حد : ٢٩٨

(ب)

طويل	بنفسى — عذاب : ٣٠٣
»	ومن — معايبه : ١٠٤
»	سلام — صحابي : ٦
»	بعثت — مرقوب : ١٤٤
»	حملنا — المصائب : ١٣
»	أمولاي — الرتب : ٢٤٦
بسيط	مالى — ني : ٢٩٩
»	قوم — السكرابا : ٩٨
»	سبعان — وجبا : ١٧٩
»	ناديت — وجبا : ٣٠٤
»	بحق — مفتصبه : ٣٠٤
مخلع البسيط	بليونش — عقاب : ٣٥
»	الطب — النجابه : ١٨٧
وافر	بنى — للخراب : ٢٧١
»	إذا — المصيبة : ٢٩٩
كامل	يا — ويطيب : ٥
»	إلى — ديب : ٣١٢
مجزوء الكامل	فيقول — انتسب : ٣
سريع	يا — عرقوب : ٣٠٠
»	انظر — كاعبر : ٣٦
»	فعالة — بالشارب : ٣٧
مجتث	وثقت — حسي : ٣٨
متقارب	سلام — يثرب : ٢٩

(ت)

طويل	ألا — سبت : ٩
------	---------------

يا — ثمره : ٣٠٠ بسيط
 الناس — باختياري : ٩٤ مخلع البسيط
 ما — الزاهر : ١٥٧ مجزوء البسيط
 ندمت — نوار : ٥ وافر
 تمتع — عرار : ٣ »
 لفتد — جزرا : ٢٦١ »
 بلد — عذاره : ٣ كامل
 إن — أخباره : ٢٠٨ »
 في — قناره : ٣٠٧ »
 أحياء — الأزهار : ١٦ »
 ماذا — إعداده : ١٣٤ »
 فالعيش — ساري : ١٣٧ »
 أخليفة — البشر : ٢٤٦ »
 يا — قرار : ٢٩٥ »
 ما — الفصار : ٣٠٧ »
 يا — حيره : ٣٠٦ مجزوء الكامل
 النازلون — الأزر : ٩٧ رجز
 لي — الدرر : ٢٤٧ مجزوء الرجز
 رب — تدرى : ٣١٤ رمل
 بأبي — صدرى : ٣٠٥ مجزوء الرمل
 جئتك — معذره : ١٣٢ سريع
 سكانها — نضره : ٢٧٢ »
 غرناطة — والحضرة : ٢٧٢ »
 خليفة — قري : ٢٠٦ منسرح
 يا — ودرر : ١٣٢ »
 تنائر — بدر : ١٥٤ خفيف
 يا — وعقار : ٢٩٩ »
 يا — أسره : ٢٤٦ مجتث
 يا — عساكر : ٢٤٦ »
 وقالوا — تنتظر : ٢٦١ متقارب

(ز)

فهو — لهز : ١٠١ خفيف
 أنت — حريز : ٢٩٨ »

عذبت — وقعوده : ٣٠٣ طويل
 سمى — بعدر : ٢٧٥ »
 تعجلت — المجد : ٣٠٦ »
 وإنا — فى الأسد : ٣١٠ بسيط
 دائى — والكمد : ٣١٠ »
 لله — جاهد : ٢٨٨ كامل
 ركب — الفرقد : ٣٠٦ »
 ماذا — ممد : ٦٥ »
 مكناسة — بريد : ٢٨٨ »
 محمد — اهتدى : ١٣٣ رجز
 أنا — المعتمد : ٤٠ مجزوء الرجز
 كم — العميد : ٣١٥ رمل
 ليس — واحد : ٢٦ سريع
 فى — واد : ٣٠٠ »
 مضجعى — فؤادى : ٣٠٥ خفيف
 صدنى — العباد : ٣٠١ »

(ر)

كان — سامر : ٩ طويل
 سلا — الزهر : ١٩٦ »
 كأننا — بقصر : ٢٦٥ »
 أما — الضرائر : ٢٧٤ »
 تقول — وآمر : ٢٩٠ »
 يا أهل — الأمر : ٢٩٩ »
 هي — مضمر : ١١ »
 تخلصت — عامر : ١٩٣ »
 على — المحاجر : ٢٧٥ »
 أجاد — يدري : ٣٠٧ »
 كأنى — الفجر : ٣٠٨ »
 للهوى — وأكبرا : ١٥ »
 ولما — الأخرى : ٣٠٦ »
 إنه — أثمار : ٦ بسيط
 فهو — والقمر : ١٢ »
 وقتل — الضارى : ٩٨ »

(س)

طويل	عسى — باديس : ٢٣٤
كامل	أهلا — أنسيه : ١٣٣
»	يا — رئيس : ٣١٣
»	أطلعن — عبوسا : ٢٥٠
»	أقشيب — ورسيا : ٢٥٧

(ض)

وافر	سلام — الرياض : ١٨
»	أمتقى — الرياض : ١٩
كامل	والله — مرضه : ٣١٣
مجزوء الكامل	سرح — الرياض : ١٨
سريع	مهرف — نافضا : ٣٠٠

(ط)

طويل	رأثنى — يحاط : ١٤٤
بسيط	بأهل — الفلط : ٤٦
مخلع البسيط	بليونش — النباطا : ٣٤

(ع)

طويل	جرى — متوزع : ١١
»	أنبكى — طائع : ٢١٤
»	إلهى — جما : ٢٧١
كامل	لا — سريع : ٢٦٩
»	يا — دعا : ١٤٥
سريع	انظر — اللامع : ٣٧
»	لم — أسماعى : ٢٦٧
خفيف	يا — المنيع : ٢٧٣
»	حين — ولوى : ٣٠٠
متقارب	يا — المتسع : ٢٧٤

(غ)

مجزوء الرجز	هذا — وبى : ١٩٢
»	وأظهر — فى ارتقا : ١٩٢

(ف)

طويل	فبيننا — ننتصف : ٩١
»	لى — مرهف : ٣٠٨
كامل	والزهر — صافى : ٨
رجز	سبحان — لا تخفى : ١٧١
سريع	فكل — يسرف : ٣٦
خفيف	أصبح — أنوف : ٢٧٦
»	ربما — عفوقا : ١٢٦
متقارب	تعود — انحراف : ٢٧٦

(ق)

طويل	كأن — زرق : ٨
»	عقيدة — مخلوق : ١٣٢
»	تذكرت — السوابق : ٢٣٧
»	خليلى — الحقا : ٣٠٩
مخلع البسيط	غريظاة — العراق : ٥٥
كامل	عطفا — لا تفرق : ٩٣
»	وإذا — يفرق : ٢٦٩
»	يا — أغلاق : ٣١٩
»	وترغت — أشواقى : ٩
»	بعضى — الباقي : ٢٦٠
»	أشكو — ورحيقه : ٣٠٥

(ك)

كامل	مولاي — فيكا : ٢٨١
»	يا — مسلوكا : ٣٠٦

»	إلى — الهزال : ٢٧٤
»	قد — الليالي : ٢٨٨
»	يا — وحال : ٢٩٨
»	قال — محول : ٣٠٥
»	سبق — نقله : ٣٠٤
مجت	تناثر — الوصل : ١٥٥
متقارب	أبا — التزل : ٢٦١
»	رموا — الهاطل : ٣٠٧

(م)

طويل	وليس — وأسهم : ٩٩
»	ألا — الرسم : ٢٧٢
»	تعلم — بسطام : ٣٠١
مديد	ندد — أحكمها : ١٠٣
بسيط	مولى — الذمير : ٧٢
»	هم — والنم : ٧٨
مجزوء البسيط	ما — الأليم : ١٥٦
كامل	لا — هواكم : ٣١٠
»	يا — النادم : ٣٠٨
»	يا — هائم : ٣١٩
مجزوء الكامل	لى — حيله : ١٤
رمل	جلس — أحكام : ٣٠٥
سريع	لى — التمام : ١٤٤
خفيف	أنا — الأفهام : ٣١٢
»	يا — رسمه : ٢٦١
مجزوء الخفيف	قسما — عاقه : ٢٦٨

(ن)

طويل	وما — الحيوان : ١٥
»	وكانت برهان : ٢٨
»	نعال — الجديدان : ١١٧
»	أطاع — نلسان : ٢٨٦

(ل)

طويل	بلاد — شمول : ٤
»	إلى — صالى : ١٢٥
»	فلا — مهمل : ١٣٣
بسيط	أبان — هامله : ٢٩٢
»	لا — حال : ٢١
»	قاضي — الدول : ٢٦
»	كذا — آمال : ٤١
»	ماذا — وترحال : ٤١
»	لا — وجل : ٩٩
»	أمنت — وأحوال : ١٠٤
»	يا — مقبيل : ٢٤٧
»	برئت — ولى : ٣٠٢
»	مال — حال : ٢٧٠
»	لكن — حملا : ١٥
مخلم البسيط	بليوش — الجمال : ٣٥
»	وإذا — لا يتبدل : ٢٦٢
»	الحق — لا يسأل : ٢٦٢
»	كم — منزل : ٦
»	وما — بالرجل : ٩٢
»	لك — مؤجل : ١٤٣
»	فكان — العليل : ٢٦٨
»	أفادت — حالى : ٢٧١
»	لم — المال : ٢٨٩
»	أقنا — حال : ٣١٢
»	كتبت — الخليل : ٣٠٤
»	أعيا — التفصيلا : ٢٧٥
كامل	بين — المقتل : ٣٠٨
مجزوء الكامل	والناس مثاله : ١٤
سريع	دوام — حال : ١٣٤
»	ما — النكال : ١٥٥
منسرح	بأهل — الحمل : ١٢٣
خفيف	قربا — حيارى : ٩٥

كامل	مولاي — التفصان : ٢٧٢	طويل	علقت — الحدثان : ٢٨٧
د	حيا — المكنون : ٧	د	ولما — البين : ٣٠٤
د	أسمى — مرين : ٢٨٩	د	أمولاي — كانا : ٣٠٣
د	إن — المكنون : ٣٠٨	د	لسنا — أولانا : ٣١٨
د	بليونس — شائنا : ٣٤	مديد	رب — فن : ٨
سريع	أخطر — حسنه : ٢٩	بسيط	لكل — لإنسان : ٤٧
خفيف	عاب — وشين : ١٤٤	د	بين — أجفان : ٣٠٩
د	بان — بين : ٣٠١	د	روعت — وجيراني : ١١
	(ه)	د	أيا — ووحدان : ٣١٣
		د	يا — الثاني : ٣١٣
		د	سل — تكويى : ٣١٦
طويل	ندم — شكواه : ١٤	د	لا — الدين : ٣٢٠
د	لهى — لهى : ١٤٤	د	يا — يسينى : ٣٢٠
د	دعوتك — تعى : ٣٠٣	د	تناثر — الثمين : ١٥٣
كامل	قالوا — فى التنويه : ٣٠٧	مخلع البسيط	مضت — يدان : ١٤
د	إن — تكفيه : ٣٠٨	وافر	وألقى — البنان : ١٢٠
		د	ولو — الزمان : ٢٦٩
منسرح	خبر — وأجلاه : ١٠٣	د	حلفت — فى اليمين : ٣٠٧
	(ي)	د	أقول — جفاني : ٣٠٩
		د	نسائل — ما عنيتنا : ١٠
طويل	أبى — ثنيا : ١١٥	د	لا — فطن : ٩٨
بسيط	أأمل — منتهيا : ٣٠٩	كامل	لنى — أفن : ٩٨
متقارب	أميرا — صفحتيه : ٣٠٠	د	

فهرس أنصاف الآيات

(ل)	(ا)
لك الخير قد أوفى لعهدك خيران : ١٢٠ طويل	إذا عيروا قالوا مقادير قدرت : ٨٧ طويل إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر : ٨٧ رجز
(هـ)	(س)
هي المقادير فلمنى أو فذر : ٨٧ رجز	سم العداة وآفة الجزر : ٩٧ رجز
(و)	(ش)
وطود موسى لها تاج على الراس : ٣٥ بسيط ولو ترك القطا ليلا لنا ما : ٢٦٨ وافر	شم الأنوف من الطراز الأول : ٩٧ كامل

فهرس الموضوعات

صفحة	صفحة
دواة أبي عنان وشعر مكتوب عليها ... ٤٠	روضة الورد في أولية هذا الإمام الفرد
رجع إلى ذكر الشريف	نسب عياض ... ٢٣
شيء من كرم الشريف وشعره ... ٤١	عند الوادى آشى ... ٢٣
أشراف سبقة ... ٤٢	عند ابن الأبار ... ٢٣
دخل الشريف من مضرب الميناء وما كان ... ٤٢	عند ابن خاتمة ... ٢٣
ينفقه فيه ... ٤٢	عند ابن الملقوم ... ٢٣
حفاوة ملوك بني مرين ... ٤٤	تزوله بدار ابن الفرديس ... ٢٤
سبب تعريف المؤلف بهذا الشريف ... ٤٤	عند ولده محمد ... ٢٤
استيلاء العدو على سبقة ... ٤٥	عند ابن خلكان ... ٢٥
رثاء طليطلة ... ٤٦	عند ابن خاتمة أيضا ... ٢٥
قصيدة الرندى في رثاء الأندلس ... ٤٧	شيء عن ابن خلكان وابن خلدون ... ٢٥
ابن عاصم وبعض ما جاء في كتابه عن ... ٥٠	الكلام في ضبط اليحصبي ... ٢٧
انحلال أمر الأندلس ... ٥٠	محمد بن عياض يخبر عن موطن أجداده ... ٢٧
ذكر غرناطة ... ٥٥	شيء عن سبقة ... ٢٩
تقريظ لابن عاصم على كتاب الإحاطة ... ٥٦	وصف ابن الخطيب لسبقة ... ٣٠
نبذة من كتاب الروض لابن عاصم عن ... ٥٨	الشريف أبو العباس وحفاوته وابن الخطيب ... ٣٢
ابن يوسف ... ٥٨	شعر لابن الخطيب في بليونش ... ٣٤
مثال من حرص ابن الخطيب على العوائد ... ٥٩	شعر لعياض فيها أيضا ... ٣٤
اضطراب أمر الأندلس بالخروج على ... ٦٠	وصف ابن حيان لها ... ٣٤
القواعد ... ٦٠	شعر للنصيف فيها أيضا ... ٣٥
وصف البكرى للأندلس ... ٦٠	شعر السكميلي فيها ... ٣٥
وصف ابن الخطيب للأندلس ... ٦١	شعر للنصيف فيها ... ٣٦
أبو يوسف المربى ودن جانجه ومثل من ... ٦١	مثل من كرم الشريف أبي العباس ... ٣٧
عز الإسلام ... ٦١	تناء أبي الحسن التباى على الشريف ... ٣٨
تعقيب لابن الخطيب على قصة أبي يوسف ... ٦٢	وشيء عنه ... ٣٨
بعض ما كتب في استنهاض الهمم ضد ... ٦٣	شعر للشريف ... ٣٨
النصارى ... ٦٣	حفاوة أبي عنان بالشريف أبي العباس ... ٣٩
لابن زمرك ... ٦٣	ومنزلته في سبقة ... ٣٩
لابن الخطيب ... ٦٤	وصف أحد كتاب الشريف له ... ٤٠

- ١٥٨ { موازنة بين ابن عاصم وصاحب عنوان الشرف الشامي }
 ١٥٨ ... مختار من كتابه جنة الرضى
 ١٧١ ... شىء من كلام ابن عاصم عن ابن فتوح
 ١٧٢ ... منشور سلطانى بتولى ابن عاصم القضاء
 ١٧٩ ... تخميس لابن عاصم
 ١٨٦ ... تعريف لابن الخطيب
 ١٨٦ ... أوليته ونسبه
 ١٨٧ ... نشأته وشيوخه
 ١٨٩ ... مؤلفاته
 ١٩١ ... رأى ابن الأحرر فيه
 ١٩١ ... تولىه الكتاتبة
 ١٩٢ { كلام لابن الصباغ عنه وعن قوة بديته }
 ١٩٣ ... أيام ابن الخطيب مع السلطان أبى عبدالله
 ١٩٤ { تفصيل لنكبة السلطان أبى عبدالله وذهابه إلى فاس }
 ١٩٦ { قصيدة ابن الخطيب بين بدى السلطان أبى سالم يستصرخه لمولاه }
 ٢٠١ { انصراف السلطان أبى عبدالله إلى الأندلس }
 ٢٠٢ ... خبر هذه القصة كما رواها ابن خلدون
 ٢٠٤ { شىء عن أحوال ابن الخطيب كما رواها ابن خلدون }
 ٢١٢ ... كتاب القاضي أبى الحسن إلى ابن الخطيب
 ٢٢٩ ... نكته ووفاته
 ٢٣١ ... شعر له فى محبته يبكى نفسه
 ٢٣١ ... تخميس لبعض بنى الصباغ
 ٢٣٤ ... شعر ابن الخطيب
 ٢٣٧ ... قصيدة لابن الخطيب فى المولد النبوى
 ٢٣٨ { قصيدة لأبى زكريا بن خلدون يحاكى بها قصيدة ابن الخطيب }
 ٢٤٣ { وصف لىالى مولد النبى أيام السلطان أبى حمود }
 ٢٤٦ ... شعر لأبى زكريا بن خلدون فى المنجاة
 ٦٥ { سقوط غرناطة فى يد العدو والخلاف فى تاريخ ذلك }
 ٦٧ { خروج أمير الجرء ابن أبى الحسن إلى فاس }
 ٦٨ ... وفاته وشفى عنه وعن عقبه
 ٦٨ ... حال المسلمين بعده بالأندلس
 ٦٩ { رسالة فى ذكر ما جرى للمسلمين فى الأندلس }
 ٧٠ ... تنكيل طاغية قشتالة وأرغون بالمسلمين
 ٧١ ... بعض من خرج من علماء الأندلس
 ٧٢ ... كتاب ابن الأحرر لصاحب فاس
 ١٠٣ ... أبو عبدالله العزى وشفى من نظمه
 ١٠٣ ... قصيدة الدقون فى نذب الجزيرة
 ١٠٨ ... مما كتبه بعض أهل الجزيرة إلى بايزيد
 ١١٥ ... بلاغة أهل الأندلس
 ١١٦ { مقامات لفقير مرز تسريح النصال إلى مقاتل الفصائل }
 ١٢٥ ... شىء من نظمه
 ١٢٥ ... مقامات فى أمر الوباء
 ١٣٢ ... بعض مقطوعاته
 ١٣٣ ... تعريف بالشران
 ١٣٣ ... شىء من نظمه
 ١٣٤ { طريقة لابن جماعة وقد تولى الشران مكانه }
 ١٣٤ { شعر للشران يعاتب ابن جماعة على إهمال دعوته إلى إغذار }
 ١٣٤ ... قصيدته اللامية
 ١٤٣ ... بعض شعر له
 ١٤٥ ... تعريف بالرئيس ابن عاصم
 ١٤٦ { قصيدة له تلد بتين فوشحتين فى مدح السلطان أبى الحجاج }
 ١٥٣ ... البنت الأولى
 ١٥٤ ... الموسوعة الأولى
 ١٥٥ ... البنت الثانية
 ١٥٦ ... الموسوعة الثانية

- ٢٨٦ ... من مخاطباته لابن مرزوق ...
- ٢٨٧ { ... من صراحة ابن الخطيب ...
... في مجلس السلطان أبي عثمان ...
- ٢٨٨ ... شعر له في مكناسة ...
- ٢٨٨ ... شعر له في مدينة آتني ...
- ٢٨٨ ... شعر له في ابن بطان ...
- ٢٨٩ ... شعر له في البرغوث ...
- ٢٨٩ ... شعر له في ابن روح ...
- ٢٨٩ ... شعر له صدر به رسالته إلى ابن حسون ...
- ٢٩٠ ... شعر له في نذب مراکش بعد الموحدين ...
- ٢٩٠ ... شعر له يخاطب به عامرا الهنتاني ...
- ٢٩١ ... تعريف بعامر الهنتاني ...
- ٢٩١ ... شيء عن الشريف الشوكي ...
- ٢٩٢ { شعر للشوكي في مدح أبي فارس ...
... والتعريض على الهنتاني ...
- ٢٩٤ { شعر لابن الخطيب على قبر السلطان ...
... أبي الحسن المريني ...
- ٢٩٧ ... شعر لابن الخطيب على قبر المعتمد ...
- ٢٩٨ ... شعر له في مخاطبة ابن يوسف ...
- ٢٩٨ ... وله في مخاطبة السلطان ...
- ٢٩٩ ... وله في مخاطبة ابنه وقد وصل لزيارته ...
- ٢٩٩ ... بعض مقطوعات له ...
- ٣٠٠ ... وله في مشرف الدار حين أكل القابض ...
- ٣٠٠ ... وله في رأس الغادر بالدولة ...
- ٣٠٠ ... وله في الغزل ...
- ٣٠٠ ... شعر له في السعيد أبي بكر ...
- ٣٠١ { وله في توديع ابنه لما انصرف عنه إلى ...
... فاس ...
- ٣٠١ ... وله في السيادة الخطيبة ...
- ٣٠٣ ... وله في مخاطبة السلطان أبي الحجاج ...
- ٣٠٣ ... وله في التورية ...
- ٣٠٣ ... وله في التجنيس ...
- ٣٠٤ ... وله في التورية أيضا ...
- ٣٠٤ ... بعض شعر له ...
- ٢٤٧ موشحة للتاليسي يخاطب بها أبو حمو
- ٢٤٩ ... شيء عن السلطان أبي حمو ...
- ٢٤٩ { قصيدة ابن الخطيب للسلطان أبو حمو ...
... يستعيز به ...
- ٢٥٧ ... نثر له أيضا وصل به القصيدة ...
- ٢٦٠ { بعض مقطوعات لابن الخطيب في السلطان ...
... أبي حمو ...
- ٢٦١ { شعر له يودع به عبد الواحد بن ...
... سلطان إفريقية ...
- ٢٦٢ ... من قصيدة المنح الغريب له ...
- ٢٦٥ { من مقطوعات له لما أشرف على ...
... مراکش ...
- ٢٦٥ ... كتاب ابن خاتمة إلى ابن الخطيب ...
- ٢٦٧ ... رد ابن الخطيب على كتاب ابن خاتمة ...
- ٢٧٠ ... من رثاء السلطان أبي سالم ...
- ٢٧١ ... شعر له في الرغبة في الله ...
- ٢٧١ ... شعر له بعد عودته من رحلة المراكشية ...
- ٢٧٢ ... وله في مدرسة ...
- ٢٧٢ ... وله في غرناطة ...
- ٢٧٢ ... وله يخاطب قبر الولي السبيعي ...
- ٢٧٤ ... وله يورى بدم الأخوين ...
- ٢٧٤ ... وله في اقتباس ...
- ٢٧٤ ... شعر له في التورية بالطب ...
- ٢٧٤ ... وقال يخاطب ابن مرزوق ...
- ٢٧٥ ... شعر له في مخاطبة أحد المرفاء ...
- ٢٧٥ { وقال يشكر السلطان أبا سالم على ...
... تخليصه إياه ...
- ٢٧٥ ... وله في التغزل ...
- ٢٧٦ { من رسالة في تهنئة ابن أبي مدين ...
... بتقليد الخطبة ...
- ٢٧٦ ... رسالته إلى السلطان أبي سالم مستعينا به ...
- ٢٨٢ ... رد السلطان أبي سالم على ابن الخطيب ...
- ٢٨٤ { رد ابن الخطيب على السلطان أبي سالم ...
... شاكرًا ...
- ٢٨٦ ... تهنئة للسلطان أبي سالم بفتح تلمسان

٣١٢ وله في المشيب	٣٠٥ وله في جلوس السلطان في يوم برد للسلام
٣١٢ وله وقد أجاز بسبقة	٣٠٥ وله في الغزل
٣١٢ وله في طاق الماء	٣٠٦ أبيات له في المحسنات البديعية
٣١٣ بين ابن الجياب وابن الخطيب	٣٠٨ وله في سكنين الأضاحي
٣١٣ بعض أبيات له	٣٠٨ وله في مروحة سلطانية
٣١٤ { موشحة له في مدح السلطان	٣٠٨ وله يخاطب ابن الجياب
٣١٤ { يوسف أبي الحجاج	٣٠٨ وله في الغزل
٣١٦ وله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم	٣٠٩ وله في البراغيت أيضا
٣١٨ وله في الرجوع إلى الله	٣٠٩ وله في خالد البلوى
٣١٩ تخميس للغساني على بيتين لابن الخطيب	٣٠٩ وله في المنجاة
٣١٩ أولاد ابن الخطيب	٣٠٩ وله في الغزل
٣٢٠ علي بن الخطيب والمستنصر في بستان	٣١٠ وله في التصوف
٣٢٠ شيء عن عبد الله ومحمد ابني الخطيب	٣١٠ وله في المديح موريا
٣٢٠ وصية ابن الخطيب لأولاده	٣١٠ شعر له يشك أنه للمشاركة

تصويب أخطاء مطبعية

خطأ	صواب	ص	س
محمد بن الخلفاء	محمد ابن الخلفاء	٥٨	٤
لسان العربى	لسان العرب	٩٢	١٧
الأسود ابن قنان	الأسود بن قنان	٩٥	١٠
نظم بن صفوان	نظم ابن صفوان	١٩٠	١٣
ابن يفلوسن	ابن أبى يفلوسن	٢١٠	١٧
آسفى	آسفى	٢٩٨	٦